



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليكم يا صبا
الربا

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مفسر ابن كثير
التفسير المأثور
عن النبي صلى الله عليه وسلم
والأئمة السلف

مُرْهُ عَلَى الْقُرْآنِ

الجزء الثاني عشر

سورة التلحة - سورة البقرة - سورة الكهف

دار الفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من هدى القرآن

كاتب:

آيت الله سيد محمد تقى مدرسى

نشرت فى الطباعة:

دار محبى الحسين (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٥	من هدى القرآن المجلد ١٢
١٥	اشاره
١٦	اشاره
٢٢	سوره المؤمن
٢٢	اشاره
٢٢	فضل السوره:
٢٤	الإطار العام
٢٤	الاسم:
٢٤	الإطار العام:
٣٠	[سوره غافر (٤٠): الآيات ١ الى ٦]
٣٠	اشاره
٣٠	اللغه
٣١	غافر الذنب و قابل التوب
٣١	هدى من الآيات:
٣٢	بينات من الآيات:
٣٧	[سوره غافر (٤٠): الآيات ٧ الى ١٤]
٣٧	اشاره
٣٩	فالحكم لله العلى الكبير
٣٩	هدى من الآيات:
٤٠	بينات من الآيات:
٥٠	[سوره غافر (٤٠): الآيات ١٥ الى ٢٤]
٥٠	اشاره
٥٠	اللغه

٥٢ يَغْلَمُ حَائِنَةَ الْأَعْمِينَ وَ لِمَا تُخْفِي الصُّدُورُ

٥٢ هدى من الآيات:

٥٢ بينات من الآيات:

٦٦ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٢٥ الى ٣٣]

٦٦ اشاره

٦٦ اللغة

٦٨ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

٦٨ هدى من الآيات:

٦٨ بينات من الآيات:

٨٠ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٣٤ الى ٤٠]

٨٠ اشاره

٨٠ اللغة

٨٢ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ

٨٢ هدى من الآيات:

٨٣ بينات من الآيات

٩٢ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٤١ الى ٥٠]

٩٢ اشاره

٩٤ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ

٩٤ هدى من الآيات:

٩٥ بينات من الآيات:

١٠٦ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٥١ الى ٥٩]

١٠٦ اشاره

١٠٨ فَأَضْبِرْ لِيَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا

١٠٨ هدى من الآيات:

١٠٩ بينات من الآيات:

١٢١ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٦٠ الى ٦٧]

١٢١ اشارة

١٢٣ وَ قَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

١٢٣ هدى من الآيات:

١٢٤ بينات من الآيات:

١٤٤ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٦٨ الى ٧٦]

١٤٤ اشارة

١٤٥ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ

١٤٥ هدى من الآيات:

١٤٦ بينات من الآيات:

١٥٢ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٧٧ الى ٨٥]

١٥٢ اشارة

١٥٤ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ

١٥٤ هدى من الآيات:

١٥٥ بينات من الآيات:

١٦٦ سوره فصلت

١٦٦ اشارة

١٦٨ فضل السوره:

١٧٠ الإطار العام

١٧٤ [سوره فصلت (٤١): الآيات ١ الى ٨]

١٧٤ اشارة

١٧٤ اللغه

١٧٦ فاستقيموا إليه و استغفروه

١٧٦ هدى من الآيات:

١٧٧ بينات من الآيات:

١٨٥ [سوره فصلت (٤١): الآيات ٩ الى ١٠]

١٨٥ اشارة

١٨٦ وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

١٨٦ هدى من الآيات:

١٨٧ بينات من الآيات:

١٩٧ [سوره فصلت (٤١): الآيات ١١ الى ١٢]

١٩٧ اشاره

١٩٨ قالتا: أتينا طائعين

١٩٨ هدى من الآيات:

١٩٨ بينات من الآيات:

٢٠٤ [سوره فصلت (٤١): الآيات ١٣ الى ٢١]

٢٠٤ اشاره

٢٠٤ اللغه

٢٠٦ وَ قَالُوا لِمَجُودِهِمْ: لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا

٢٠٦ هدى من الآيات:

٢٠٧ بينات من الآيات:

٢١٧ [سوره فصلت (٤١): الآيات ٢٢ الى ٢٩]

٢١٧ اشاره

٢١٧ اللغه

٢١٩ وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ

٢١٩ هدى من الآيات:

٢٢٠ بينات من الآيات:

٢٣٠ [سوره فصلت (٤١): الآيات ٣٠ الى ٣٦]

٢٣٠ اشاره

٢٣١ اللغه

٢٣٢ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

٢٣٢ هدى من الآيات:

٢٣٣ بينات من الآيات:

٢٤٦ [سوره فصلت (٤١): الآيات ٣٧ الى ٤٥]

٢٤٦ اشاره

٢٤٦ اللغة

٢٤٨ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

٢٤٨ اشاره

٢٤٨ هدى من الآيات:

٢٥٠ بينات من الآيات:

٢٦٤ [سوره فصلت (٤١): الآيات ٤٦ الى ٥٤]

٢٦٤ اشاره

٢٦٤ اللغة

٢٦٦ سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنفُسِهِمْ

٢٦٦ هدى من الآيات:

٢٦٧ بينات من الآيات:

٢٧٨ سوره الشورى

٢٧٨ اشاره

٢٨٠ فضل السوره:

٢٨٢ الإطار العام

٢٩٠ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ٧]

٢٩٠ اشاره

٢٩٠ اللغة

٢٩٢ وَ كَذَلِكَ أُوحِيْنَا إِلَيْكَ فَزَانَا عَرَبِيَا

٢٩٢ هدى من الآيات:

٢٩٣ بينات من الآيات:

٣٠٣ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ٨ الى ١٣]

٣٠٣ اشاره

٣٠٣ اللغة

أقيموا الدين و لا تتفرقوا فيه ----- ٣٠٥

هدى من الآيات: ----- ٣٠٥

بينات من الآيات: ----- ٣٠٦

[سوره الشورى (٤٢): الآيات ١٤ الى ١٨] ----- ٣١٨

اشاره ----- ٣١٨

اللغه ----- ٣١٨

وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ----- ٣٢٠

هدى من الآيات: ----- ٣٢٠

بينات من الآيات: ----- ٣٢٢

[سوره الشورى (٤٢): الآيات ١٩ الى ٢٢] ----- ٣٣٤

اشاره ----- ٣٣٤

اللغه ----- ٣٣٤

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ----- ٣٣٥

هدى من الآيات: ----- ٣٣٥

بينات من الآيات: ----- ٣٣٥

[سوره الشورى (٤٢): الآيات ٢٣ الى ٢٦] ----- ٣٤٣

اشاره ----- ٣٤٣

لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ----- ٣٤٤

اشاره ----- ٣٤٤

هدى من الآيات: ----- ٣٤٤

بينات من الآيات: ----- ٣٤٥

اشاره ----- ٣٤٥

أولاً: من هم القريبى؟ ----- ٣٤٦

ثانياً: موده القريبى فى سياق الوحده: ----- ٣٥٦

ثالثاً: لماذا الموده بالذات؟ ----- ٣٥٨

[سوره الشورى (٤٢): الآيات ٢٧ الى ٣٦] ----- ٣٦٧

٣٦٧ اشاره

٣٦٧ اللغة

٣٦٩ وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ

٣٦٩ اشاره

٣٦٩ هدى من الآيات:

٣٧١ بينات من الآيات:

٣٨١ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ٣٧ الى ٤٣]

٣٨١ اشاره

٣٨٢ و أمرهم شورى بينهم

٣٨٢ هدى من الآيات:

٣٨٣ بينات من الآيات:

٣٩٨ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ٤٤ الى ٤٦]

٣٩٨ اشاره

٣٩٩ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ

٣٩٩ هدى من الآيات:

٤٠٠ بينات من الآيات:

٤٠٨ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ٤٧ الى ٥٣]

٤٠٨ اشاره

٤٠٨ اللغة

٤١٠ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ

٤١٠ هدى من الآيات:

٤١١ بينات من الآيات:

٤٣٠ سوره الزخرف

٤٣٠ اشاره

٤٣٢ فضل السوره:

٤٣٤ الإطار العام

٤٤٠ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ١١]

٤٤٠ اشاره

٤٤٠ اللغة

٤٤٢ قرأنا عربيا لعلكم تعقلون

٤٤٢ هدى من الآيات:

٤٤٣ بينات من الآيات:

٤٥٠ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١٢ الى ١٤]

٤٥٠ اشاره

٤٥١ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا

٤٥١ هدى من الآيات:

٤٥٢ بينات من الآيات:

٤٥٨ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١٥ الى ٢٥]

٤٥٨ اشاره

٤٥٨ اللغة

٤٦٠ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ

٤٦٠ اشاره

٤٦٠ هدى من الآيات:

٤٦٢ بينات من الآيات:

٤٧١ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٣٥]

٤٧١ اشاره

٤٧١ اللغة

٤٧٣ إِنَّ كُلَّ ذَلِكٍ لَّمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

٤٧٣ هدى من الآيات:

٤٧٤ بينات من الآيات:

٤٨٧ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٣٦ الى ٤٥]

٤٨٧ اشاره

اللغه - ٤٨٧

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ ٤٨٨

اشاره - ٤٨٨

هدى من الآيات: - ٤٨٨

بينات من الآيات: - ٤٨٩

اشاره - ٤٨٩

التوحيد محور العلقه الاجتماعيه: - ٤٩٦

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٦] - ٥٠٠

اشاره - ٥٠٠

اللغه - ٥٠٠

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ؟! - ٥٠٢

هدى من الآيات: - ٥٠٢

بينات من الآيات: - ٥٠٤

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٦] - ٥١٢

اشاره - ٥١٢

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطٰنُ ٥١٣

هدى من الآيات: - ٥١٣

بينات من الآيات: - ٥١٤

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٦٧ الى ٧٧] - ٥٢٧

اشاره - ٥٢٧

اللغه - ٥٢٧

أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ - ٥٢٩

هدى من الآيات: - ٥٢٩

بينات من الآيات: - ٥٣٠

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٧٨ الى ٨٩] - ٥٣٩

اشاره - ٥٣٩

اللغه - ٥٣٩

..... ٥٤١ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ

..... ٥٤١ اشاره

..... ٥٤١ هدى من الآيات:

..... ٥٤٢ بينات من الآيات:

..... ٥٥٣ تعريف مركز

سرشناسه: مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور: من هدی القرآن / محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر: تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری: ج ۱۸

شابک: ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-۱۸؛ ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: عربی

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۴م ۱۳۷۷۸

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص: ۱

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«من قرأ حم المؤمن في كلِّ ليله غفر الله له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر، و أَلزّمه كلمه التقوى، و جعل الآخره خيرا له من الدنيا».

نور الثقلين/ج ٣ ص ٥٠٠، عن الإمام الباقر (عليه السلام).

«الحواميم رياحين القرآن فإذا قرأتها فاحمدوا الله و اشكروه لحفظها و تلاوتها. إنّ العبد ليقوم و يقرأ الحواميم فيخرج من فيه أطيب من المسك الأذفر و العنبر، و إنّ الله عزّ و جلّ ليرحم تاليتها و قارئها، و يرحم جيرانه و أصدقاءه و معارفه و كلّ حميم و قريب له، و إنّّه في يوم القيامة يستغفر له العرش و الكرسي و ملائكه الله المقربون».

المصدر عن الإمام الصادق (عليه السلام).

اشتهرت هذه السوره باسمين:

١- غافر. لما فيها من ذكر كرامه الله للمؤمنين و استغفار حمله العرش لهم.

٢- المؤمن. لما فيها من تفصيل قصه مؤمن آل فرعون، و لما فيها من ذكر إكرام الله له و لسائر المؤمنين.

الغايه الساميه التي تسعى آيات هذه السوره نحوها بحق هي التذكركه بأسماء الله الحسنی لتزداد النفوس العامره بالإيمان عرفانا برّبها الكريم، و لتتم الحّجّه على الكافرين.

و لقد تجلّى ربّنا العظيم فى آيات كتابه الكريم جميعا، و لكن كما الشمس

-و تعالی الله عن الأمثال- تتجلی فی کل أفق تجلیات بدیعه و جدیده، فإنّ لكلّ سورة تجلیاتها الخاصه بها، و هكذا فی هذه السوره حیث عزّفت فاتحه السوره ربّنا العظیم بأنّه غافر الذنب (و من هنا جاء أحد اسمی السوره) و أنّه قابل التوب شدید العقاب ذو الطّول، ثم فی آیه (۱۵) ذکر اسم رفیع الدرجات ذی العرش و أنّه یلقى الروح من أمره علی من یشاء من عباده، ثم جاء فی الآیه (۶۵) أنّه سبحانه هو الحی لا إله إلاّ هو.

و جاء فی الآیه (۱۳) و الآیه (۸۱) أنّه سبحانه یرینا آیاته (و یعرفنا نفسه عبرها) و تتساءل: فلما ذا- إذا- لا نعرف ربنا عبر تلك الآیات المبصرات؟! و یرف الجواب حقًا من یرهف سمعه لكلام ربّه، حیث أنّ منهج القرآن هو تصفیه العقبات النفسیه قبل إلقاء البصائر ببلاغه نافذه، و حجّه تامّه، و خطاب فصل مبین.

و قد تركّزت آیات السوره فی هذا التوجّه، حیث نجد التحذیر من الجدل فی آیات الله أربع مرّات تعتبر كلّ مره عنوانا لسلسله من البصائر و الحدیث الشافی الذی يطهر القلب من عقبات الإیمان، و ذلك عبر الترتیب التالی:

أولاً: فی البدء نجد تحذیرا من الجدل عبر التذكیر بعاقبه الجدل السوئی، ثم نتلوا بیانا لطائفه من آیات الله التی تهدف إقامه الحجّه علی الكافر، و زیاده إیمان و معرفه الذی ألقى السمع، و سلّم للحق.

دعنا نستعرض جانباً من هذا المنهج، و فی ذات الوقت نجمل الحدیث حول موضوعات السوره، ضمن هذا الإطار، و هو إعداد القلب لتقبّل آیات الذكر.

أولاً: الآیات (۶/۴) تنعت المجادل فی آیات الله بالكفر و الغرور، و تحذّر من

عاقبه سيئه له مثل التي كانت لقوم نوح و الأحزاب.

و الآيات(٩/٧) تبشّر المؤمنين(الذين يسلمون لآيات الله بأنهم مكرمون عند الله و عند حملة العرش من ملائكته،الذين يدعون لهم بالوقايه من النار، و دخول الجنة،و حفظهم من السيئات.

و هكذا لا يكتفى المنهج القرآنى بالإنذار بل يقرنه غالبا بالتبشير.

و يعود السياق الى التحذير من الكفر(و الجدل)بأن صاحبه مخزى ممقوت، و سيندم حيث لا ينفعه الندم(١٢/١٠).

و هكذا تتهيأ النفوس لاستقبال آيات الله من دون الجدل الباطل فيه،فبين السياق طائفه منها مع الأمر بإخلاص الدين له و توحيده و أنه رفيع الدرجات(أسماء الله)و ذلك عبر الآيات(١٥/١٣).

و يعود السياق الى التحذير من معبّه الجدل فى يوم القيامة(٢٠/١٦)مع التذكرة بأسماء الله التى تتجلى فى ذلك اليوم الرهيب.

و يذكرنا بمصير الكفار فى الدنيا،و كيف أخذهم الله-على شدّه قوتهم و مكاسبهم الكثيره-كلّ ذلك لأنهم جادلوا فى آيات الله،و كفروا بالبينات التى جاء بها رسله.

و يضرب القرآن مثلا على عاقبه الجدل فى آيات الله و الذى يساوى الكفر مما انتهى إليه أمر فرعون و قومه،كما يضرب مثلا للذين آمنوا بآيات الله من العاقبه الحسنى التى فاز بها مؤمن آل فرعون.

و يفصل الكتاب ذات الحقائق من خلال حوار ساخن بين موسى(الرسول)

و هارون(وزيره)و المؤمن(الذى صدق بهما)من جهه،و بين فرعون(الطاغيه) و هامان(وزيره)وقارون(الذى اتبعهما)من جهه ثانيه،و تحوّل الحوار الى صراع، و انتهى الصراع بمصرع آل فرعون،و تدمير حضارتهم،و عذابهم بالغدو و الأصال فى البرزخ،و اقحامهم و التابعين فى جهنّم،و ساءت مصيرا.

و تتجلى فى السياق صوره مؤمن آل فرعون مثلا رائعا لشخصيه المؤمن الصلبه و نفاذ بصيرته،و قدرته الربّانيه على تحدّى الطغيان المادى،مما جعلت اسمه عنوانا لهذه السوره الكريمه.

ثانيا:و خلال الحوار و الصراع و التحدى يذكّرنا الكتاب مرّه ثانيه بقضيه الجدل فى آيات الله و كيف ينتهى بصاحبه أن يطبع الله على كلّ قلبه،و يمسى كفرعون الذى بلغ به الغرور الأهوج حدّا قال لوزيره هامان: **إِنِّ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ**، و مضى فى طريق الغوايه حتى النهايه البئسه،بينما دعا الصّيديق الى اتباع نهجه نهج الرشاد،و ركّز على مسؤوليه البشر عن أعماله و موافقه،ثم فوض أمره الى الله بعد أن تحداهم بقوّه،و كانت العقابه أنّ الله وقاه من سيئات ما مكروا، بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب،و لم يقلت المستضعفون من ذات العقابه التى كانت للمستكبرين،لأنّهم جميعا جادلوا فى آيات الله و عصوا رسله.أمّا رسل الله و الذين آمنوا فإنّ الله ينصرهم فى الدنيا و يوم يقوم الأشهاد،إلا أنّ عليهم الصبر و الاستغفار و أن يسبحوا بحمد الله بالعسىّ و الإبكار(٥٥).

ثالثا:و فى المرّه الثالثه يحذّرنا السياق من الجدل فى آياته،مبيّنا-هذه المرّه- الجذر النفسى لهذه اللعنه التى تصيب القلب و هى الكبر الذى لن يبلغه صاحبه، و بعد أن يأمرنا بالاستعاذه بالله العظيم يهدينا الى عظمه خلق الله للسّموات و الأرض،و يوحى إلينا أنّ الكبر عمى و الإيمان بصيره،و أنّ الساعه آتية لا ريب

فيها، ثم يأمرنا بالدعاء لأنه شفاء من الكبر.

و حسب المنهج القرآني الفريد يلقي على الأفتد السليمه آياته (٦٢/٦١) ثم يحذّر من الجحود بها، لأنّ من يجحد بها يؤفك عن الحق (٦٣) و يعود يذكّرنا بآياته المبصره، و بأنه الحيّ الواحد، و يأمر رسوله بتحدّي آلهه الزيف (٦٤) و يذكّرنا بأنه يحي و يميت.

رابعاً و أخيراً: ينهى عن الجدال في آيات الله (٦٩) و ينذر الذين كذبوا بالكتاب بأنه سوف يعلمون أيّ جريمه اقترفوا، و ذلك حين توضع الأغلال في أعناقهم و في السلاسل يسحبون.

و كذلك يعالج داء الجدال بالتحذير من عاقبته الأخرويه، و يجمل السياق في خاتمه السوره بصائرها، من الأمر بالصبر (٧٧) اتباعاً لسنه الأنبياء، و التحذير بعاقبه الاستهزاء (٧٨) و التذكّره بآيه الله في خلق الأنعام، و الأمر بالسير في الأرض للنظر في عاقبه المكذّبين، و كيف دمّروا فلم يغن عنهم ما كانوا يكسبون، و ذلك أنّهم حينما أنذرهم الرسل فرحوا بما عندهم من العلم فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٨٣) بلى. إنّهم آمنوا في اللحظه الأخيره حين رأوا بأس الله، و لكن سنّه الله جرت بالأّ ينفع الإيمان في ذلك الوقت، و أنّه قد خسر هنالك الكافرون (٨٥).

و كلمه أخيره: الحقائق الكبرى الثلاث التي تحيط بالخليقه (التوحيد و البعث و الرساله) شواهدا و آياتها مبثوثة في الآفاق و الأنفس، إلّا أنّ حجباً سميكة تغطّي البصائر عن رؤيتها و التفاعل معها، و تؤدي الى الجدال في آياتها و دلالتها، و القرآن الكريم شفاء للقلب من تلك الحجب، و في هذه السوره المباركه نجد نهجاً بديعاً و شفاء سريعاً، و علينا فقط أن نلقى السمع الى آياتها بلا جدال!.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ١ الى ٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)

اللغه

٣[ذی الطول]:الطول هو الإنعام الذى تطول مدته.

٥[لیدحضوا]:لیبطلوا و یزیلوا.

ص:١٥

هدى من الآيات:

المؤمن و غافر هما اسمان لهذه السوره المباركه،التي تبدأ حديثها عن القرآن(أو قل عن نفسها)قبل الحديث عن أى قضيه أخرى،و السبب هو أنّ المنهج يسبق الفكر،و الذى يريد معرفه شىء ما يجب عليه أولاً أن يعرف الطريق المؤدى إليه، و القرآن هو ذلك المنهج الذى نفهم من خلاله الحياه،و نعالج الأمراض النفسيه و العقلية،و غير ذلك مما يمنع الفهم الصحيح عن الإنسان.

و أكثر سور القرآن حينما تبدأ الحديث عنه فإنّها تنذر بمختلف ألوان النذر أولئك الذين ينكرون الحقيقه استجابه لأهوائهم و لظروفهم،و فى هذه الآيات يبين لنا القرآن أنّ الذين يكفرون بالحقّ إنّما بسبب نفوسهم المريضة،و ليس لنقص فى الآيات الداله عليه فهى بيان واضح للحق بالحق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وهو الرب الذى يتأله و يجأر إليه، و الذى به يستغاث و به يستعان و اليه يجأر كل مضطر و صاحب حاجه، حيث غرزت الحاجه إليه فى فطره كل مخلوق، و أركز الإحساس بألوهيته فى أعماق شعورنا جميعا، فمهما اختلفنا فى الألفاظ و التعابير على اختلاف ألسنتنا و مذاهنا إلا أننا لا نختلف فى الحقيقه التى فطرنا عليها جميعا، إذ كلنا يستعين بالله و يتوسل إليه بأسمائه التى أظهرها لفاقتنا إليها كما فى الأخبار.

[١] حم من المقطعات القرآنيه التى سبق تفسيرها فى عده مواضع. (١)

و جاءت روايات بأن (ح) إشاره إلى اسم الحميد و (م) إشاره إلى اسم المجيد فيكون «حم» حينئذ قسما بحاكميه الله التى تقتضى حمده و مالكيته التى تقتضى مجدا على أن القرآن حق، أو ليست آيات القرآن تجليات لأسماء ربنا، و لعل السور السبع التى تبتدئ بكلمه «حم» و أولها هذه السوره مظاهر لاسمى الحميد و المجيد.

[٢] و الكتاب الذى يتكوّن من أمثال هذه الحروف تنزل من ربّ عزيز عليم.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

ص: ١٧

فبعزته يفرضه على الإنسان و يطبق ما فيه على واقع الحياه، و بعلمه الذى أحاط بكل شىء إحاطه مطلقه جعله كله هدى و حكمه و نورا ينسجم مع واقع الحياه و الإنسان.

و يبدو لى أن الآيه جمله مفيده كامله، مبتدؤها «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» و خبرها «مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» و هذا ما يوحى بالمعنى المتقدم.

[٣] و تعرّفنا الآيات برّبنا من خلال ذكر صفاته، و هذا ينفعنا فى تحديد علاقتنا به تعالى. و أول أسماء الله المذكوره هنا أنه غافر الذنب، و مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، و أىّ رحمه واسعه تلك التى تغسل جريمه المعصيه، و أىّ قدره تستطيع محو الآثار العديده للمعاصى على النفس و الواقع غير رحمه الله و قدرته.

و تضيفى أسماء الله السكينه على القلب، فهو غافر الذنب و قابل التوب و هو ذو الطول، و لولا- هذه السكينه لتصدّعت قلوب المؤمنين عند استماعهم لاسم شديد العقاب.

غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ و المؤمن حقًا يعيش متوازنًا مباركًا، يحثّه الرجاء على التوبه و العمل الصالح، و يمنع الخوف عن المعصيه.

و الخوف من عذاب الله كما رجاء رحمته ليس قضيه نفسه و حسب، إنما يعينان العمل، فنحن يجب أن نتحرّك عند الرجاء و لكن ليس فى أىّ اتجاه، إنما فى اتجاه مرضاه الله و باتباع هداه، لأنّ الحياه تشبه حقل الألغام و الذى ينجو فيها هو الذى يمتلك خريطه واضحه لها يتبعها بدقه، أمّا حينما ينحرف الإنسان عن الحق فسوف يضلّ و يخسر و لن يجد من ينقذه أبداً، لأنّ الله وحده هو الإله المتصرّف الذى يحدّد

مسيره الإنسان و مصيره دون أن يكون أحد قادرا على التغيير و التبديل.

□ □ □
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ الْمَصِيرُ فَهُوَ الَّذِي يَقْرَرُهُ كَيْفَ يَشَاءُ بِإِرَادَتِهِ.

[٤] و لكن بعض الناس يرفضون الحق و بكلّ إصرار، فتراهم يجادلون في آيات الله التي تهديهم الى الحق.

و الجدل-حسب اللغة-لفّ الخيوط الناعمة أو أنسجه الليف على بعضها لتصبح جبلا، و هذا يشبه حال المجادلين الذين يلقون بعض الكلام على بعضه للتغطية على جهلهم.

□ □ □
مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ مَعِ وَضُوحَهَا بِمَا لَا يَدْعُ مَجَالًا لِلشُّكِّ.

إِلَّا-الَّذِينَ كَفَرُوا لِأَنَّهُمْ لَا-يبحثون عن الحقيقة، و لو كانوا كذلك لاستوجب الأمر قبولهم للآيات باعتبارها بينات بينما يسعى هؤلاء لتبرير اتباعهم للباطل ليخدعوا أنفسهم بأنهم على الحق، و ليغطوا ضعفهم و يتراءوا بأنهم أقوىاء، و لكن المؤمن الذي يتبع بصائر القرآن لا ينخدع بهم أبدا.

□ □ □
فَلَا يَعْزُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ فَمَهْمَا تَظَاهَرَا بِالْمَقْدَرِ مِنْ خِلَالِ تَنْقَلِبِهِمْ فِي الْبِلَادِ عِبْرَ مَسِيرَاتِ عَرْضِ الْقُوَّةِ، كَمَا تَعَوَّدُ الطَّغَاةُ فَعَلَهُ،
كلما احسوا بالخطر، و لكن على المؤمن ألا تغرّه مظاهر القوه

لأنهم ضعفاء بمخالفتهم للحق، فمهما بلغوا من القوة و القدره و أنى أزاحوا الحق عن مراسيه، فإن عاقبتهم إلى البوار و إن إلى الله المصير.

[٥] و يضرب لنا القرآن مثلا من واقع التاريخ على أن تقلب الكفار فى البلاد و سيطرتهم الماديه الظاهره ليس دليلا على سلامه خطهم.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أَى قَبْلَ كَفَّارِ قَرِيشِ الَّذِينَ يَجَادِلُونَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَقَبْلَ كُلِّ الطَّغَاةِ فِي كُلِّ عَصْرِ.

قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَخْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ تَجْرِبِهِ قَوْمِ نُوحٍ.

وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ كَم هُوَ مُؤَسَفٌ أَنْ تَصِلَ الْبَشَرِيَّةُ إِلَى هَذَا الْحَضِيضِ، فَإِذَا بِهَا بَدَلَ أَنْ تَكْرُمَ الْمَصْلُحِينَ وَ تَتَّبِعَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ لَهَا الْهُدَى وَ السَّعَادَةَ تَرْفُضُهُمْ وَ تَسْعَى لِقَتْلِهِمْ وَ الْقَضَاءُ عَلَى خَطِّهِمْ، هَذَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ، أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ النَّظَرِيَّةِ فَإِنَّهَا تَحَاوَلُ إِبْطَالَ الْحَقِّ الَّذِي يَأْتِي بِهِ الْأَنْبِيَاءُ.

وَ جَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ هَكَذَا كُلُّ كَافِرٍ لَا يَمْلِكُ عَقِيدَهُ إِلَّا الْكُفْرَ بِالْحَقِّ، فَهُوَ لِكَيْ يَمْلَأَ الْفِرَاقَ الْعَقَائِدِيَّ فِي نَفْسِهِ يَبْحَثُ عَنِ بَاطِلٍ لَيْسَ لِيَعْتَقِدَ بِهِ إِنَّمَا لِيَقَاوِمَ بِهِ الْحَقَّ، وَ إِنَّمَا أَزْدَادُ رِكَامِ الْبَاطِلِ، وَ تَنَوَّعَتْ مَذَاهِبُهُ، وَ كَثُرَ الْكَلَامُ فِيهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ رَصِيدًا مِنَ الْوَاقِعِ وَ لَا شَاهِدًا مِنَ الْفِطْرَةِ فَيَحْتَاجُ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ السَّفْسَطَةِ بِاسْمِ الْبِرْهَانِ،

و الفلسفه باسم الحكمه، و الجدل باسم الحوار.

و لكنه مع ذلك كله لا يغنى شيئاً، و هكذا نهت النصوص عن الجدل فى الدين،

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «لعن المجادلون فى دين الله على لسان سبعين نبياً، و من جادل فى آيات الله فقد كفر» (1) و إنما يفشل الباطل -رغم الجدل عنه- لأن الله من فوق عرشه و عبر سننه فى الحياه يدافع عن الحق، فهو يفشل كل محاوله لدحضه، فالحق هو المنتصر دائماً لأنه يملك قوه المنطق و منطق القوه بتأييد الله.

فَأَخَذَتْهُمُ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ و الأخذ تنطوى على الشده و المباغته، و تساؤل السياق عن العقاب ليثير أفكارنا فنبحث عن الإجابه التى فيها العبره و الموعظه.

[6] و لأن الحديث هنا عن سنه إلهيه تحكم الحياه نجد السياق و بعد تخصيص قوم نوح و الأحزاب بالذكر يعمّم الحديث ليضمّ إليهم كل الكافرين فى كل مكان و زمان، فهم جميعاً ينالهم عذاب الله و انتقامه.

وَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ففى الدنيا ينالهم انتقام الله، و فى الآخره عذابه الشديده، فهم خالدون فى نار جهنم لأنهم أصحابها.

ص: ٢١

١-١) نور الثقلين/ ج ٤ ص ٥١١.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادَوْنَ لَمَقَاتِ اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ مَقَاتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)

هدى من الآيات:

لكى لا تهزم الظروف الصعبة إرادته المؤمن، خصوصا إذا كان يتحدّى الطغاه وحده، أو يحافظ على إيمانه فى سرّيه، و لكى يطهر المؤمن بالإنايه من درن الشرك أوحى ربّنا بأنّ أعظم خلق الله الذين يحملون عرش القدره الإلهيه يستغفرون للذين آمنوا و أنابوا الى الله، و يدعون لهم بالمغفره، و أن يقيهم عذاب جهنم، و يدخلهم جنات الخلود هم و من صلح من آبائهم و ذرياتهم، و أن يحفظهم من السيئات برحمته.

بينما الكفار يلعنون و ينادون بأنّ مقت الله أكبر من مقتهم أنفسهم حين رفضوا الإيمان، و تراهم يتضرّعون يومئذ الى الله قائلين: إننا بعد أن مررنا بتجربه الموت و الحياه مرتين أصبحنا نعترف بذنوبنا، و يسألون: هل نستطيع الخروج من العذاب؟ فيرفض طلبهم بحجه أنّهم قد كفروا بالتوحيد و آمنوا بالشركاء، و إنّما الحكم لله العليّ الكبير لا للشركاء المزعومين.

و الله وحده الحاكم فى الخليقه فهو الذى يهدى الناس الى نفسه عبر آياته، و يرزقهم من السماء، و لكن لا ينتفع بآيات الله إلا من ينب إليه فيتذكر.

و فى ختام الدرس يدعوننا الربّ الى إخلاص الدين و نبذ الشركاء برغم الكفار الذين يكرهون التوحيد.

بينات من الآيات:

[٧]تتبع الآيات القرآنيه منهجا يتميز عن المناهج البشريه فى أنه كالضوء ينتشر من نقطه مركزيه واحده،هى التوحيد لتتسع سائر الحقول.ذلك أنّ عالم الخلق و الحق كما عالم العلم و المعرفه مظهر و تجلّ لأسماء الله الحسنى،و كلّ شىء فيه آيه تدلنا الى ربنا الحميد المجيد.و لقد افتتحت هذه السوره بذكر بعض صفات الله التى تتجلى فى الخليقه فاسم الله «الرحيم»الذى يتجلى فى قبول الله للتوبه«قابل التوب»لها انعكاس على خلق الله،و من ثم على سلوك الإنسان،و عليه أن يتخذ منه منهجا لتقويم سلوكه.

بل ينعكس هذا الاسم الكريم على الخليقه إذ يحدثنا القرآن عن الملائكه الحافين بعرش الله،فهم من جهه يتصلون بالله عبر علاقه التسبيح و الإيمان،و يتصلون بالإنسان المؤمن عبر علاقه الحب و الرحمه،و ربنا إذ يشرح لنا جانبا من هذه العلاقه يبين ذلك فى صوره دعاء من قبل الملائكه للمؤمنين التائبين.

و يبقى السؤال:ما هو عرش الله؟ للعرش معينين:

الأول:إنّ الله يملك محلا واسعا يسمّى بالعرش،لا نعرف إلا أنه عظيم يسع السماوات و الأرض بل الخلق بأجمعهم.

و قد جاء فى الحديث المروى عن أمير المؤمنين

عليه السلام: «إن الملائكة تحمل العرش، و ليس العرش - كما تظن - كهيئه السرير، و لكنه شيء محدد مدبر، و ربك عز و جل مالكة» (١)

و في الحديث المأثور عن أبي ذر عن النبي -صلى الله عليه و آله- أنه قال :

«يا أبا ذر ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاه في أرض فلاه، و فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاه على تلك الحلقة» (٢) الثاني: إن العرش هو رمز القدره و الهيمنه. حيث فسرت الآية الكريمة وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ (٣) بأنه سيطرته و هيمنته تعالى. أمّا الملائكة الذين يحملون العرش فإنهم وسائط رحمه الله، و تنفيذ إرادته في الحياه.

و الى ذلك تشير الروايه المأثوره

عن الإمام الرضا عليه السلام: «العرش ليس هو الله، و العرش اسم علم و قدره» (٤)

و في حديث آخر عن الإمام الصادق -عليه السلام- أنه حين سئل عن قول الله عز و جل « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » قال: «علمه» (٥) و يحتمل أن يكون لربنا مقام معلوم حمله علمه و قدرته، و منه ينطلق تدييره للخليقه و هو عرشه، و فيه ملائكة الله المقربون.

و ما يهمننا معرفته أنّ حمله العرش خلق من خلق الله و ليسوا أنصاف آلهه، و هم مشغولون بالتسييح و التمجيد.

ص: ٢٦

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٥٥ ص ٩.

٢- ٢) المصدر/ ص ٥.

٣- ٣) هود ١١/.

٤- ٤) بحار الأنوار/ ج ٥٥ ص ١٤.

٥- ٥) المصدر/ ص ٢٨.

هذا عن علاقتهم بالله، أمّا عن علاقتهم بالإنسان فهي التي تكشف عن علاقه الطبيعه بالبشر، إذ الملائكه وسائط أمر الله و تنفيذ إرادته، فهم إذن يمثلون موقف الخلائق من الإنسان، و هو يرتبط بموقف الإنسان من الحق، فإذا كان البشر على فطرته و علاقته الإيجابيه مع ربّه فهم معه و إلاّ- فلا، فما على الإنسان حتى يفلح فى الحياه إلاّ- أن يتحرّك باتجاه تسخير الطبيعه التي من أهم عوامل تسخيرها العبوديه لله، و حينها سوف يجد كلّ شىء يقف معه مؤيّداً، إذ الملائكه الموكله من قبل الله بقوى الطبيعه المختلفه سوف يكونون معه. و لو كان مجمل سلوك الإنسان صالحاً فإنّ هفواته لا- تضرّه إذ سرعان ما يتوب الى الله منها فتستغفر الملائكه له منها، و لعلهم يسدّدون خطاه بأمر الله للعوده الى نقائه و طهره، و قد يعصمونه بإذن الله من الذنوب الجديده، و يثبتون قلبه، و يحفظونه من تسوّلات النفس و وساوس الشيطان، و يبدو أنّ هذا من علامات قبول التوبه.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ هُمْ مِنْ أَعْظَمِ مَلَائِكَةِ اللَّهِ، وَ لَعَلَّهُمْ أُولَ مَنْ يَتَلَقُّونَ أَمْرَ اللَّهِ.

وَ مَنْ حَوَّلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْآخِرِينَ.

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ أَعْظَمِ الذِّكْرِ هُوَ التَّسْبِيحُ الَّذِي يَقْدَسُ الرَّبُّ عَنِ الشَّرِيكِ وَ الشَّبِيهِ وَ النَّقْصِ وَ الْعَجْزِ.

وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

ص: ٢٧

فتسيحهم ليس مجرد كلمات يتلفظونها، أو أفعال يمارسونها، إنما يقومون بكل ذلك عن معرفه و قناعه راسخه بوجوبه عليهم. هذا عن علاقتهم بالله، أما عن علاقتهم بالمؤمنين فهي الاستغفار لهم لكي يتوب الله عليهم و يوفقهم في الحياه.

وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا و ليس يغفرون، لأنهم ليسوا آلهه، إنما هم عباد مقربون عند الله، و كل ما يستطيعونه لخدمه المؤمنين هو طلب العفو من الله لهم عبر الدعاء.

و من آداب الدعاء:

أولاً: البدء بحمد الله و تسيححه و الثناء عليه ثم طلب الحاجه، و هكذا فعل الملائكه إذ تراهم سبحوا الله بحمده ثم استغفروا للمؤمنين.

ثانياً: البدء بطلب العفو قبل سائر الطلبات حيث أن رحمة الله قريبه من التائبين، إذ الذنوب تمنع استجابته الدعاء، و نزول الرحمه، و هكذا فعل الملائكه.

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً و عِلْمًا فَاعْفُ رَّبَّنَا لِلَّذِينَ تَابُوا و اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ و التوبه هي الشرط الأول لقبول الله عوده العبد إليه. أما الشرط الثاني فهو أن تكون التوبه صادقه يستقيم عليها العبد، فيتبع سبيل الله وحده دون أن يعود الى سبيل الشيطان. و هذا ما يبصره ربنا الذي أحاط بكل شيء علما.

و قِهِم عَذَابَ الْجَحِيمِ و هذا أهمّ و أعظم ما يمكن للمؤمن الدعاء به لنفسه و لإخوانه. و هكذا عند ما يتوب المؤمن إلى الله فإنّ الملائكه تكون معه. و بالتالي فإنّ ما في الحياه يدعو البشر

الى إصلاح نفسه و العوده الى الطريق المستقيم.

[٨] و حينما يكون الإنسان صالحاً فإنه سوف ينفع الآخرين، فإذا بأبنائه و أبنائه كما الأشخاص المحيطين به كزوجه يفيدهم بصلاحه و يدخلون معه الجنة، إلا إذا كانوا منحرفين تماماً، و هذا يعنى أنّ الحياه قائمه على أساس البناء لا الهدم، و الصلاح لا الفساد، و الملائكه تدعم هذه المسيره و تؤيدها، بإذن ربها.

رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَالَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أَزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَبِعِزَّتِكَ تقدر على استجابته الدعاء، و بحكمتك تستجيب أو لا تستجيب، و هكذا ينبغى على من يدعو أن لا يحتّم على الله بل يقدم دعوته و يثنى على ربه و حسب.

و يتوافق هذا الدعاء مع رغبه الإنسان حيث يتطلّع الى العيش مع أحبائه و أعزته فى الدنيا و الآخرة. و إنّما تكتمل النعم عند ما يجتمع الأحبه تحت ظلال نعم الله فى الجنة.

[٩] و لا يبلغ البشر غايه مناه إلا إذا تخلّص من سيئاته التى تتجسد يوم القيامة فى صور شتى، فمنها الظلمات الحالكة، و منها النيران الملتهبه، و منها العقارب و الشجعان، و منها اقتران الشيطان، و قد تبلع سيئه واحده عامّه صلاه الفرد و صيامه، و قد تتسبب فى حبط أعماله الصالحه و نقص درجاته.

و قد جاء فى الحديث عن ربّ العزّه أنه سبحانه قال: «أنا المالك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، و لا لأحد من أهل النار أن يدخل النار و عنده مظلّمه حتى أقصّه منه» (١)

ص: ٢٩

(١-١) المصدر/ص ٥١٦.

و هكذا كان في دعوه الملائكه حفظ المؤمنين من سيئاتهم في ذلك اليوم الذى تتجسد فيه السيئات.

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَالْوَقَايَه هُنَا بِمَعْنَى الْحِفْظِ، وَ إِنَّمَا يَتَقَى الْبَشَرُ آثَارَ السَّيِّئَاتِ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ مَا يَنْتَصِرُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا وَيَتَجَاوِزُ الْأَهْوَاءَ وَالشَّهَوَاتِ السَّلْبِيَةَ.

وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ إِنَّ الْوَصُولَ إِلَى النِّجَاهِ مِنَ النَّارِ وَ دُخُولَ الْجَنَّةِ غَايَةَ عَظِيمَةٍ، وَ عَمَلٌ صَعْبٌ، وَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْزِمَهُ وَ يَشْحَذَ إِرَادَتَهُ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِهَا، إِذْ كَلَّمَا كَانَ الْهَدَفُ عَظِيمًا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْإِرَادَةُ عَظِيمَةً بِقَدْرِهِ.

[١٠] هذا عن علاقه الملائكه بالمؤمنين. أما علاقتهم بالكافرين فهي سلبية و تتسم بالدعاء عليهم و التشمّت بهم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادَوْنَ تَنَادِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَ كُلُّ الطَّبِيعَةِ الْمَفْطُورَةِ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي خَالَفَهُ هَوْلَاءُ..

لَمَقَّتْ لِلَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ إِنَّ اللَّهَ يَرِيدُ الْخَيْرَ لِعِبَادِهِ وَ مَا خَلَقَهُمْ إِلَّا لِيَرْحَمَهُمْ، أَمَّا إِذَا رَفَضُوا الْإِيمَانَ بِهِ وَ الِاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ، وَ بِالتَّالِيِ أَهَانُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَذَلُّوهُا بِالْكَفْرِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَهِينُهُمْ أَوْعَافًا مُضَاعَفَةً عَلَى إِهَانَتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، بِإِبْعَادِهِمْ عَنِ رَحْمَتِهِ، وَ إِدْخَالِهِمُ الْعَذَابَ.

و الإنسان يهين نفسه و لا- يحترمها حينما يحتقر الحقّ و يرفض الاستجابة له. ذلك أن لا- قيمه للإنسان إلا- بقربه من الحقّ و تجسيده له في حياته.

[١١] و في جواب الكفّار للنداء بشده مقت الله لهم:

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ وَنَسَاءلُ: متى كانت الموتتان؟! لقد اختلف العلماء و المفسّرون في بيان هذه الآية، فقال بعضهم: إنّ الموتة الأولى قبل دخول الإنسان في الحياه الدنيا، حيث كان في عالم الأشباح حيًا ثم مات، ثم دخل الحياه الدنيا ثم يموت عند بلوغه أجله ثم يحيى للحساب و الجزاء.

و قال آخرون: إنّ الله يحيى الإنسان في قبره بعد الموت ليحاسبه حساب القبر، و بعدها يميته ثم يحييه يوم القيامة للجزاء.

و جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال- في تفسير الآية:-

«ذلك في الرجعه» (١) و هناك تفسير آخر هو: إنّ الإنسان منذ أن خلقه الله لا يزال حيًا، و هذه الحياه الأولى التي وهبها الربّ للأرواح تستمرّ مع الإنسان في الدنيا فلا موت قبل هذه الحياه، ثم يوافي الإنسان أجله المتعارف فيموت، بمعنى: أنّه تنفصل روحه عن جسده و تبقى الروح في حاله الحياه.

و بعد هذا الموت يموت البشر- مره أخرى- فتعدم عنه الحياه تماما و ذلك حينما ينفخ في الصور النفخه الأولى، و قد أشار القرآن الحكيم لهذا المعنى في سوره

ص: ٣١

الزمر حيث قال: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاءِ آوَاتٍ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيهَا يُنظَرُونَ (١) وهذه هي الحياه الثانيه التي تستمر مع الإنسان خالده للأبد.

و بين الحياتين و الموتين تتجلى قدره الله للبشر حيث لا- يملك الكفار سوى الاعتراف بخطئهم، و أنهم قد أحيط بهم من كل جانب بسبب الذنوب التي اقترفوها في الحياه الدنيا، فيسألون الله بضراعه عن مخرج من مأزقهم.

فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا و إِنَّا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا.

فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ [١٢] و تجيبهم الملائكه بأنه قد كان يوجد مخرج واحد فقط من هذا المأزق، و هو الإيمان بالله الواحد القهار و التسليم له و مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)، و لكنكم رفضتم الدخول فيه و ضيعتم على أنفسكم الفرصه.

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخِيدَهُ كَفَرْتُمْ و إِنَّ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ إيماننا يبزر لكم شهواتكم، و يعترف بواقعكم الفاسد و تصرّفاتكم الخاطئه، و هذا ما لا تجدونه في الدين التوحيدى الخالص، مما يدعوكم لرفضه.

فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

ص: ٣٢

١- ١) الزمر ٣٩.

٢- ٢) الطلاق ٦٥.

أما الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله فلن ينفعوكم أبدا لأنهم لا يملكون شيئا من الحكم.

[١٣] وليس الله بعيدا عن البشر و لا- مجهولا لمن يستشير عقله حتى يشرك به الإنسان، فرحمته المعنوية التي تتمثل في الهدايه مهيته لنا في كل شيء و في كل حين، إذ كل شيء آيه تهدينا الى ربنا، و رحمته الماديه التي تتجسد في أنواع الرزق هي الأخرى تنزل علينا من السماء و تحوطنا من كل جانب. و يبقى الإنسان مع ذلك يشرك بربه و لا ينتفع من كل ذلك، إلا إذا كان مؤمنا به منبيا إليه.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ وَ الْمُنِيبُ هُوَ الَّذِي يَرْجِعُ الْأُمُورَ إِلَى اللَّهِ، وَ يَتُوبُ إِلَيْهِ
كلما أدركه النسيان أو الخطأ، أما المشرك فإنه لا ينتفع بهذه الآيات و لا بهذه النعم حتى يحصل على معرفه ربه، لأنه ينسب كل ذلك الى الشركاء، فإذا به يعتقد أن منبع رزقه هو صاحب المال و السلطه، أو يرجع الرزق الى حتميات و عوامل من عنده فلا يشكر ربه و لا يتذكره بها.

[١٤] و لما كان الشرك يحرف مسيره الإنسان في الحياه، و يوجهه لغير الله و لغير الحق، أكد ربنا على ضروره الإخلاص له في الاعتقاد بعيدا عن كل عوامل الشرك.

و لأن الضغوط التي يواجهها المؤمن الاجتماعيه منها و السياسيه و الاقتصاديه من قبل الآخرين من أهم تلك العوامل و أبلغها أثرا خصصها بالذكر.

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

و هذا ينسجم مع سياق السوره الذي يحدثنا عن مؤمن آل فرعون كمثل لمحافظه الإنسان على إيمانه و إخلاصه لله رغم الضغوط و الظروف المعاكسه.

ص: ٣٤

إشارة

رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لِمَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) أَوْ لَمْ يَسْتَعِزُّوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)

اللغة

١٥ [يوم التلاق]: أصله التلاقي حذف الباء تخفيفاً، أى يوم يلتقى فيه أهل السماء بأهل الأرض.

١٨ [يوم الآزفه]: من أزف بمعنى دنى، و يسمى يوم القيامة بالآزفه لدنوّه.

٢١[واق]:الواق أصله واقى،من وقى بمعنى حفظ، أى لم يكن لهم حافظ يحفظهم من بأس الله و عذابه.

ص:٣٦

هدى من الآيات:

انطلاقاً من النقطة المحورية في توجيهات القرآن الحكيم و هي التذكير بالله الواحد القهّار و برسالاته الحضارية الهابطة على عباده، يبين لنا هذا الدرس بعض ما يتصل بالرؤية التاريخية و ما يدور في هذا المجال من الحقائق التي أبرزها انتقام الله انتقاماً عملياً للأفكار الحقّة ممن يكفر و يستهزئ بها.

بينات من الآيات:

[١٥] بماذا نستدل على ربّنا؟ و ما هو السبيل الى المعرفة الأعمق به؟ إنّ الكون بما فيه من مخلوقات، و ظواهر، يهدينا لو تفكرنا فيه الى ربّنا و الى الحق، و لكنّ آيات القرآن أبلغ بياناً و هداية، لأنّها حديث الله عن نفسه، كما أنّها موضع التجلّي الأعظم لله تعالى بصفاته و أسمائه الحسنی،

و في الدعاء عن أمير المؤمنين عليه السلام يخاطب ربّه فيقول: «يا من دلّ على ذاته بذاته» فلنقرأ كلام الله

عن نفسه.

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ إِنَّهُ المَالِكُ لتلك الآفاق و المراتب الساميه فى الدنيا و الآخره،فهو يرفع المؤمنين به الى أسمى درجات الكمال و الرقى و العزّه.أمّا المعنى الآخر للآيه فهو: إِنَّ اللَّهَ ذاته تبارك و تعالى فى أرفع الدرجات من الكمال فى كلّ صفاته،فهو مطلق الرحمه، و مطلق العزه و القدره،و..و..كما أنّه مطلق الانتقام و الشده و..و..

دُو الْعَرْشِ أى القوه و السيطره.و قد تقدم أنّ للعرش أحد معنيين:الأول المعنى المادى، و هو أنّ العرش خلق عظيم واسع الحجم،ممتد الطول هائل المقام،و الثانى المعنى المعنوى بأن يكون العرش رمزا للقوه و الهيمنه.

و ربّنا من تلك الدرجات الرفيعه ينزل رسالاته للبشر على من يصطفى من عباده،و التى تعتبر فى لغه القرآن منبع الحياه الحقيقيه للإنسان،لأنّها تنقذه من الهلكات،و تنفخ فيه الحركه و التكامل و العروج الإنسانى الفاضل،و لعلّه لهذا السبب سمّيت الرساله و الملك الذى يتنزّل بها و هو جبرئيل عليه السلام بالروح.

يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ عَلِيٍّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ و هنا إشاره الى أنّ الروح ليس جزء ينفصل من الله لينزل من عنده الى الأرض،إنّما هو مخلوق فهو من أمر الله كما هو حال سائر الخلق فى كونهم من أمره تعالى،و الذى تشير إليه الآيه الكريمه إنّما أمرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١)و هذا يعنى أنّ الأنبياء و الرسل ليسوا آلهه بما اختصّوا به من الوحي إنّما

ص: ٣٨

هم عباد له تعالى، وما عندهم من الوحي و المنزله الرفيعه لم يبلغوه بسعيهم المجرد و إنما بمشيئه الله و حكمته.

و تنفى هذه الفكره فكره التكامل الطبيعى عند الإنسان، و التى يدعى أصحابها بأن الإنسان يتكامل بطبعه حتى يعرج إلى السماء أو إلى مقام الرساله و الألوهيه، بلى. الإنسان يستطيع أن يهيبى فى نفسه أرضيه للعروج، و لكن الله هو الذى يكمله، و إذا رفعه الى مقام الأنبياء فليس معنى ذلك أنه أصبح إلهًا، أو أنه رفعت عنه المسؤوليه، كلا.. و الدليل أن نزول الروح على أى إنسان يحمله مسئوليه التبليغ لهدايه الناس.

لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ و تلخص هذه الآيه كثيرا من العقائد الإسلاميه و النظرات الحياتيه فى القرآن بمفرداتها الأربع: «رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ»، «ذُو الْعَرْشِ»، «يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ»، «يوم التلاق»، و يوم التلاق هو يوم يلتقى الإنسان بخصومه، و هو من الأتيام الحساسه و المشهوده فى حياته، فيلتقى المستكبر بالمستضعف، و الظالم بالمظلوم، و الغاصب بالمغصوب منه، و الكاذب بمن افترى عليه، و كل عامل يلتقى يومئذ بعمله، و يلتقى المجرمون بالشهود، و الناس جميعا يلتقون بالحساب عند ربهم، و هكذا يكون يوما عظيما لا بد أن يرهب مقامه، و ينذر به المنذرون.

[١٦] و يضيف القرآن مبينا واقع ذلك اليوم العظيم و الحاسم:

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ فى الدنيا يحاول الإنسان جاهدا إخفاء سلبياته و تجاوزاته لحقوق الآخرين، و حتى إنه يحاول خداع ذاته، و إخفاء جرائمه عن ضميره بالتبريرات و الأعذار، و قد

يستطيع الهرب من يد العدالة، و لكن هل يتمكن من مثل ذلك فى الآخره؟ كلا..

لأنّ اعتقادات الإنسان و أقواله و أعماله كلّها تظهر يومئذ و لا تخفى منها خافيه أبدا كما يقول تعالى: **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ** كبره كانت أو صغيره، و كيف يكون ذلك و قد أوكل الله بكل واحد ملائكه يكتبون له و عليه كل ما يصدر منه، و هو من ورائهم رقيب؟! و حينئذ يرتسم فى الأفق سؤال عريض ربما ينطق به كلّ شىء، لأنّه سؤال الساحة الذى يقتضيه الحال، و قد ينادى به مناد من عند الله، السؤال هو:

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ و الإجابة يحكيها لسان الواقع، و هى التى وردت فى فاتحه الكتاب التى وصفت الله بأنه **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** و هنا أيضا يقول القرآن مجيبا على النداء أو السؤال المفترض:

لِلَّهِ الْوَاحِدِ فلا يشاركه أحد فى الملك و الحكم.

القهار و القهار هو أبرز سمات الانفراد بالملك، حيث لا شىء يعجز الله و يقهره، و لا أحد ينازعه على الملك إلا و قصمه، و ملك الله ليس محدودا بالآخره و حسب، فهو الملك فى الدنيا أيضا، و لكنّ الكفار يعمون و يصدون عن هذه الحقيقة بعنادهم و بفقدانهم للبصيره الهاديه حيث رفضوا رسالات الله، أمّا المؤمنون فهم يعرفون هذه الحقيقة بعمق، لهذا يسلمون لله و لمن يختاره راضين طائعين.

جاء فى الأثر فى تفسير هذه الايه الكريمة عن يعقوب الأحمر قال :دخلنا على أبى عبد الله عليه السلام نعزیه بإسماعيل فترحم عليه ثم قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ نعى الى نبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وآله نفسه فقال: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» وقال: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، ثم انشأ يحدث فقال: إنَّه يموت أهل الأرض حتى لا يبقى أحد، ثم يموت أهل السماء حتى لا يبقى أحد الا ملك الموت و حمله العرش و جبرئيل و ميكائيل عليهم السلام، قال: فيجىء ملك الموت حتى يقوم بين يدي الله عز و جل فيقال: من بقى؟ -و هو أعلم- فيقول: يا ربِّ لم يبق إلاّ- ملك الموت و حمله العرش و جبرئيل و ميكائيل، فيقال له: قل لجبرئيل و ميكائيل فلموتا، فيقول الملائكة عند ذلك: يا ربِّ رسوليك و أمينيك؟ فيقول: إنى قد قضيت على كل نفس فيها الروح الموت، ثم يجىء ملك الموت حتى يقف بين يدي الله عزَّ وجلَّ فيقال له: من بقى؟ -و هو أعلم- فيقول: يا رب لم يبق الا- ملك الموت و حمله العرش، فيقال: قل لحمله العرش فلموتوا، قال: ثم يجىء كئيبا حزينا لا يرفع طرفه فيقال له: من بقى؟ -و هو أعلم- فيقول: يا ربِّ لم يبق إلاّ ملك الموت، فيقال له: مت يا ملك الموت فيموت، ثم يأخذ الأرض و السماوات بيمينه و يقول:

أين الذين كانوا يدعون معى شريكا؟ أين الذين كانوا يجعلون معى إلها آخر؟ (١) [١٧] ثم بيّن القرآن أنّ كون الملك للواحد القهار لا- يعنى أنّه يجور على الناس، تعالى ربّنا عن الظلم و الحيف، إنّما يحاسبهم على أساس المقاييس العادله التى جاءت ببيانها رسالات الأنبياء.

الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

ص: ٤١

فى السر أو العلانيه، قليلا كان أو كثيرا، والآيه تلغى المقاييس الأخرى الباطله، كالفداء و الشفاعات المزعومه، أو أن ينتفع الإنسان لمجرد انتمائه ظاهرا للحق، و ذلك حينما تؤكد المسئوليه «بما كسبت» و تركز الآيه الكريمه هنا على العداله الإلهيه فتقول:

□ لا- ظلمَ اليومَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ لِأَنَّهُ مطلق العلم و القدره، و لِأَنَّهُ يحاسب الناس على ضوء المقاييس و الحجج، و إذا كان الإنسان بعلمه و إمكاناته المحدوده قد اكتشف جهاز الكمبيوتر الذى يفحص الأمتعه و الحقائق من خلال الشاشه فى لحظات فكيف برّبنا و هو سريع الحساب؟! فلا يتوهم البعض أنّ كثره عدد البشر و تنوع ما يكتبونه بما لا يحصى يمنع ربّنا من الدقه فى الحساب أو النصف فيه، كلا..إنّهُ سريع الحساب يحصى عليهم حتى أنفاسهم و خفىّ ضمائرهم فيحاسبهم جميعا على كلّ ذلك فى ساعه يوم القيامه.

[١٨] وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفِ وَ هُوَ أَحَدُ الْأَسْمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، و لعلّ كلّ اسم من أسماء الآخره جاء بمناسبه معيّنه أو بحاله معينه.

و لهذا الاسم عدّه معان:

منها: أنّ القيامه قريبه جدا، من أزف الأمر إذا دنا وقته و اقترب، و فعلا الساعه قريبه فلا تفصلنا-نحن البشر-عنها عمليا إلاّ زجره الموت، و بعده يغفل عن أكثر الناس حتى قيام الساعه فيكونون كمن غطّ فى نوم عميق سحابه نهاره

فيتصل عنده أوّل يومه بآخره و يكون ما يحدث عليه آخر النهار قريبا من أوّل النهار.

أمّا الذين محضوا الإيمان و الكفر فإنّهم إذا ماتوا قامت قيامتهم، فتدفع أرواح المؤمنين فى الجنان فور انتقالها من أبدانهم، و يعرض على أرواح المعاندين النار غدوًا و عشيا كآل فرعون، فالقيامه إذا قربه منّا جميعا. و فى القرآن إشارة الى هذا المعنى فى قوله تعالى: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١) و منها: أنّ العذاب يكون قريبا من الناس فى ذلك اليوم، أو أنّ روح الإنسان يقرب خروجها من جسده لأهوال ذلك اليوم.

إِذِ الْقُلُوبُ لَمَدَى الْحَنَاءِ كَأَظْمِينَ و ربما يكون المقصود من القلب هنا بالإضافة إلى الروح، القلب بواقعه المادى، ذلك أنّ الإنسان يحسّ و كأن قلبه يصعد الى الأعلى عند ما يتعرّض للفرع، و بالذات إذا كان مفاجئا لا يتوقّعه، و لأنّ الناس كلّهم مشغولون بأنفسهم لا يجد الواحد طرفا يمكنه أن ينفعه يظهر له ما فى نفسه لذلك يخفى الجميع ما فى صدورهم و يكظمون غيظهم، و حتى إذا أرادوا البوح فهل هى إلا ندامه و خسارا! بالإضافة إلى هيبه ذلك اليوم التى تعقل ألسنتهم، و إلى الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يأذنون لهم بالكلام، و إلى خشوع الأصوات جميعا لربّ العالمين، فهم لهذه الأسباب و غيرها يضطرون للكظم بالرغم من شدّه غيظهم حتى ليكادون يتميّزون حنقا.

مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَهُوَ أَقْرَبُ الْأَصْدِقَاءِ وَ أَحَبُّهُمْ لِلْإِنْسَانِ، إِذْ تَنْقَطِعُ بَيْنَهُمُ الرُّوَابِطُ وَ الْعَلَاقَاتُ.

ص: ٤٣

وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ وَ الشَّفِيعُ هُوَ الْوَسِيطُ الَّذِي يَعْرِفُ الشَّخْصَ وَ يَقْضِي حَاجَتَهُ عِنْدَ الْآخَرِينَ، وَ قَدْ تَعَوَّدَ الظَّلَامُ فِي الدُّنْيَا عَلَى التَّوَسُّلِ بِالشَّفَعَاءِ فِي بُلُوغِ مَآرِبِهِمْ وَ حَلِّ مَشَاكِلِهِمْ، وَ لَكِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَا يَجِدُونَ إِلَى الشَّفَعَاءِ سَبِيلًا، لِأَنَّ الَّذِينَ اعْتَمَدُوا عَلَيْهِمْ مِنْ أُمَّةِ الظُّلْمِ هُمْ بِدَوْرِهِمْ يَرِيدُونَ مِنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، وَ لَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ أَحَدًا صَالِحًا أَوْ طَالِحًا تَحْمَلُ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةَ وَ حَاطِلُ الشَّفَاعَةِ لِلظُّلْمِ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا، إِذْ لَا تَعْتَبَرُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَ اللَّهِ لِلظُّلْمِ إِنَّمَا تَنْفَعُ مَنْ تَكُونُ مَسِيرَتُهُمْ الْعَامَّةُ فِي الْحَيَاةِ سَلِيمَةً، فَتَأْتِي الشَّفَاعَةُ لِتَرْفَعَهُمْ عَنْ تَبَعَاتِ الذُّنُوبِ الْجَزِئِيَّةِ.

فَقَدْ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَرْتَكِبُ ذَنْبًا إِلَّا سَاءَ ذَلِكَ وَ نَدِمَ عَلَيْهِ، وَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ: «كَفَى بِالنَّدَمِ تَوْبَةً»، وَ قَالَ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَ سَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ عَلَى ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَ لَمْ تَجِبْ لَهُ الشَّفَاعَةُ وَ كَانَ ظَالِمًا، وَ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:

مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١) هَكَذَا نَعْرِفُ أَنَّ الشَّفَاعَةَ إِنَّمَا هِيَ لِلتَّائِبِينَ الَّذِينَ تَسَوَّوْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ فَيَنْدَمُونَ عَلَيْهَا، وَ كَفَى بِالنَّدَمِ تَوْبَةً.

وَ حَيْثُ أَكَّدَ رَبَّنَا عَلَى أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا - تَنْفَعُ الظَّالِمِينَ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا اعْتَقَدُوا بِالشَّرْكَاءِ وَ بِشَفَاعَتِهِمْ لِيَتَهَرَّبُوا مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ، فَأَرَادَ اللَّهُ بِذَلِكَ تَأْكِيدَ الْمَسْئُولِيَّةِ عَلَيْهِمْ، وَ نَفَى هَذِهِ الذَّرِيعَةَ الَّتِي يَتَوَسَّلُ بِهَا الْبَعْضُ لِاجْتِرَاحِ الْجَرَائِمِ.

[١٩] وَ يَمْضِي السِّيَاقُ مُؤَكِّدًا مَسْئُولِيَّةَ الْبَشَرِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَحْصِي عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ،

ص: ٤٤

(١ - ١) الْمَصْدَرُ ص ٥١٧.

و لا تفوته من تصرفاته صغيره و لا كبيره، و يكفى بهذا وازعا إياه عن المعصيه، و دافعا نحو تحمّل المسؤليه.

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ حَيْثُ يَنْظُرُ الْإِنْسَانَ إِلَى مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ أَوْ أَنْ يَسْتَخْدِمَ نَظْرَهُ فِي غَيْرِ أَهْدَافِهِ، كَالْتَجَسُّسِ عَلَى النَّاسِ وَ حَسَدِهِمْ، وَ النَّظْرِ إِلَى أَعْرَاضِهِمْ وَ عَمُومِ عَوْرَاتِهِمْ وَ أَسْرَارِهِمْ.

و فى الحديث قال الراوى: سألت أبا عبد الله عن قوله عزّ و جلّ: «يعلم خائنه الأعين» فقال: «ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء و كأنه لا ينظر؟ فذلك خائنه الأعين» (١)

و جاء فى تفسير هذه الآيه: أنّ النبى صلى الله عليه و آله حينما فتح الله له مكة المشرفه أهدر دم بعض المشركين، و كان بينهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح، فجاء إليه عثمان يستأمنه منه فسكت النبى طويلا ليقتله بعض المؤمنين، ثم أمنه بعد تردد المسأله من عثمان، و قال: أما كان منكم رجل رشيد يقوم الى هذا يقتله؟! فقال عباد بن بشر: يا رسول الله إنّ عينى ما زالت فى عينك انتظارا أن تومئ فأقتله، فقال صلى الله عليه و آله: «إنّ الأنبياء لا يكون لهم خائنه الأعين» (٢) بلى. قد تفوت نظرات الخيانه بنى البشر، أمّا الله فلا يفوته منها شىء..

و كيف يكون ذلك و هو يحيط بنوايا الإنسان و ما ينطوى عليه قلبه؟! و لو تعمّقنا فى هذه الآيه الكريمة، و اعتبرنا بها لاستطعنا أن ننزع من قلوبنا بذور النفاق و جذور الخيانه، لأنّ الإنسان حينما يتحمّس رقابه الله عليه، و يستشعر

ص: ٤٥

١-١) المصدر ص ٥١٧.

٢-٢) المصدر

حقيقه علمه تعالى بما فى قلبه فإنه لن ينافق أو يخون، و لن تأخذه روح اللامبالاه بالذنب.

وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ مِنْ نَوَايَا يَسْعَىٰ نَحْوَ تَحْقِيقِهَا، وَالتى قد تخفى فى بعض الأحيان عن الإنسان نفسه.

[٢٠] وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَإِنَّمَا يَكُونُ قَضَاؤُهُ حَقًّا لِحِكْمَتِهِ وَإِحَاطَتِهِ بِمَا يَحْكُمُ فِيهِ، فَمَهْمَا حَاوَلَ أَحَدٌ أَنْ يَتَعَلَّلَ وَيَقْدِمَ الْمَعَاذِيرَ لِيَفْلِتَ مِنَ الْعَدَالَةِ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَبَدًا، لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشُّهُودَ حَتَّىٰ نَوَايَا الضَّمِيرِ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْحَقِّ وَيَلْتَزِمَ بِهِ فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِى يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ.

و كلمه «بالحق» توحى بأن وسائل الحكم و نتائجه كلها حق، فربنا يعتمد الحق فى تحديد الموضوع، و يعتمده أيضا فى تحديد الحكم و تنفيذه، أما الآخرون الذين يشرك بهم الظلمه و جهال الناس فإنهم لا مقياس لهم فى الحياه و الحكم فلا يصيبون حتى جزء من الحق.

وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ و السبب بالإضافه الى اعتمادهم الأهواء و الشهوات فى قضائهم أنهم لا يحيطون بموضوعات الحكم إحاطه تامه، فحكمهم قائم على الشهادات الظاهريه أو الظنون و التخريصات، أما الله فهو يحيط إحاطه مطلقه بكل شىء مما يجعل حكمه حقا تاما.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الَّذِي يَحِيطُ بِكَلَامِ النَّاسِ وَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ نَفُوسُهُمْ.

الْبَصِيرُ الَّذِي يَرَى تَصَرُّفَاتِهِمْ وَ أَعْمَالَهُمْ.

و فى الآيه إحياء بأنّ الباطل لا يمثّل شيئاً. أو ليس الباطل كان زهوقاً، فالشركاء المزعومين يقضون بالباطل الذى لا يمثّل شيئاً، و يا لروعه الكلمه و بلاغته التعبير، فهم لا يقضون-عند الله-شئء بالرغم من أنّ الطغاه يتشدقون بألوف القوانين التى يتظاهرون أنّهم يقضون بها خلافات الناس، بينما يعقدون بها فى -الواقع-أوضاع الناس، و يزيدون بأحكامهم الباطله هذه الصراعات، فى لخساره تابعيهم!.

[٢١]إنّ تحمّل أمانه المسؤوليه لأشد على قلب الإنسان من حمل الجبال الراسيات، و إنّه فى ذات الوقت-السبيل الوحيد لنجاته، و القرآن يهدينا الى ذلك بحجج شتى، أبرزها بيان عاقبه أعمال البشر فى الآخره و قد تحدّث السياق عنه آنفاً، و الحجه الثانيه بيان عاقبه أعماله هنا، و لكن كيف نعرف ذلك؟ إنّما بالنظر فى أحداث التاريخ، التى تكشف عن خطأ التكذيب بالحق، و بالتالى ضعف الإنسان أمام إرادته ربّه المتجلّيه فى سنن الحياه.

و أصدق كتاب يتبؤنا عن حقائق التاريخ-بعد القرآن-آثار الغابرين على الطبيعه، فلا بد من السير فى الأرض و قراءه تلك الآثار.

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ

قَتِيلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ يَعْنِي قُوَّة أبدانهم أو عموم أسباب القوه التي اجتمعت عندهم بحيث استطاعوا إعمار الأرض ماديًا بما لم يصل الى مستواه الأقبام الذين يعينهم القرآن بخطابهم.

إلا- أن هذه القوه و تلك الآثار لم تكن قائمه على أساس صالح ينميها و يحافظ على كيانها، إنما كانت القوه تزيدهم غرورًا، و الإعمار يزيدهم كفرًا و فسادًا، ممًا دعاهم للإسراف في المعصيه اعتمادًا عليهما.

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ لَيْسَ بِظَلْمٍ وَإِنَّمَا بِالْحَقِّ.

بِذُنُوبِهِمْ و لم يكن ثمه أحد ينقذهم من عذاب الله و أخذه.

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ فَلَمْ تَنْفَعِهِمْ قُوَّتُهُمْ وَ قَدْرَاتُهُمْ شَيْئًا عِنْدَ الْعَذَابِ وَ لَا أَوْلِيَاءَ الشَّرْكَاءَ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا بِهِمْ، إِنَّ الْوَاقِيَ الْوَحِيدَ هُوَ عَمَلُ الْإِنْسَانِ الصَّالِحِ الَّذِي لَمْ يَتَزَوَّدُوا مِنْهُ بِالرَّغْمِ مِنْ وَصِيهِ رَبِّهِمْ حِينَ قَالَ لَنَا: « وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ».

[٢٢] و يبين القرآن السبب في هلاكهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ الرِّسَالِ إِنَّمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ لِيُتَّقُواهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَ مَا تَنْتَهَى إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَ لَكِنَّهُمْ رَفُضُوهُمُ وَ تَمَسَّكُوا بِقِيَادَةِ الطَّوَاغِيتِ، وَ رَفُضُوا رِسَالَاتِهِمْ وَ تَمَسَّكُوا بِالْعَقَائِدِ

و الأفكار المنحرفه،فما بقيت ضمانه لهم تمنع عنهم العذاب.

فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۖ وَإِذْ يَصِفُ اللَّهُ نَفْسَهُ هُنَا بِالْقُوَّةِ وَ شِدَّةِ الْعِقَابِ فَلِكِي بَيِّنٌ لَنَا نَوْعِ الْعَذَابِ الَّذِي حَلَّ بِهِمْ،ببيان صفات منزله عليهم،و لكي يبين لنا من جانب آخر أنه لم ولن يقدر أحد على منع العذاب عن الظالمين و الكافرين حين ينزل بساحتهم.

[٢٣]و كشاهد على تكذيب الأقوام تضرب الآيات لنا مثلاً من واقع موسى عليه السلام مع قومه الذين كذبوا برسالته.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ وَ لَعَلَّ الْآيَاتِ هِيَ التَّوْرَةُ،و أمّا السلطان المبين فلعلها المعاجز التي أظهرها الله على يد نبيه عليه السلام كالعصا و اليد البيضاء.

[٢٤]و قد جاء موسى عليه السلام لتغيير الواقع المنحرف،و مقاومه الفساد المتمثل في الطاغوت و أعوانه،و كل من يجسد ذلك الواقع.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ وَ هؤلاء هم نماذج مختلفه،كل واحد منهم يمثل جانبا من الفساد،فرعون يجسد الطاغوت الحاكم،و هامان يمثل الجهاز الإداري له،بينما يمثل قارون بماله الرأسماليه التي تمتص خيرات الشعوب،و قد جاء موسى عليه السلام لتصفيه هذه الأجهزة الثلاثة.

فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ

وواجهوا بهذا المنطق الباطل الحجج الظاهره و البينات فكان عاقبتهم الدمار كما تفصله الآيات التاليه.

ص: ٥٠

اشاره

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصَِّبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)

اللغه

٣٢] يوم التناد: أصله التنادى، و إنما حذف الياء تخفيفاً، و المراد به: أمّا يوم نزول العذاب، فإن فيه ينادى كلّ إنسان صاحبه بالفرار و الحذر، و أمّا يوم القيامة حيث ينادى أهل النار أهل الجنة: « أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ » و ينادى أهل الجنة أهل النار: « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ».

ص: ٥٢

هدى من الآيات:

تكرر في القرآن قصة موسى مع فرعون و ذلك لأسباب شتى من أهمها أنّ هذه القصة تكشف خلفيات الصراع بين المستضعفين و المستكبرين، و الذى ينتهى بانتصار المستضعفين حين يتوسلون بالله، و يتبعون القياده الشرعيه التى تستمد مواصفاتها من الحق المتجلى فى رساله الله.

بينات من الآيات:

[٢٥] حينما جاء موسى بالتوراه و واجه فرعون و أتباعه بالبينات لم يكن عندهم منطق حقّ لمواجهته، لهذا توسلوا بالإرهاب الذى يمثّل منطق القوه.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ

وقد كانوا يريدون من وراء ذلك الضغط عليهم لكي يتنازلوا عن مسيرتهم الثوريه، ويتخلّوا عن الجهاد تحت رايه الحرکه الرساليه وقيادتها المتمثله في نبيّ الله موسى عليه السلام، وهذا من أهمّ ما يتوسل به الطغاه في خططهم الراميه لمواجهه الحركات الجهاديه عبر التاريخ، ولكن إذا استقامت الجماهير وواجهت طلائعها الضغوط بوعى و حزم استطاعت إفشال خطط الطغاه.

وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَ الكيد هو الخطة الماكره التي يستهدف صاحبها النيل من عدوّه، وربّنا يصف كيد الكافرين و الطغاه (كفرعون) بأنّه لا ينتهى الى النتيجة التي يتطلعون إليها، بل ربما جاءت النتيجة مخالفه لمصالحهم، لأنّ أمرهم يشبه من يرمى في الظلام و لا يدري لعله يقتل أقرب الناس إليه.

و السبب أنّ الخط الإستراتيجى العام للكفّار خط منحرف، فكلّما حاولوا تكتيكيا أن يخططوا لأنفسهم انتهت خططهم للفشل بسبب انحراف أفكارهم، كما لو افترضنا شخصا يريد الذهاب الى مدينه تقع شمالا و لكنّه يتحرك باتجاه الجنوب، فإنّه مهما حاول أن يكون تحركه دقيقا و مدروسا فلن يصل الى هدفه المنشود، و فكر الكفّار خاطئ لأنّهم يكفرون بالنقطه المحوريه فى الخليقه و هى الإيمان بالله عزّ و جل.

[٢٦] فالجانب الأول من خطتهم أن يفصلوا الناس عن الحرکه الرساليه من خلال الإرهاب و الضغوط، أمّا الجانب الثانى منها و الذى يستهدف القضاء على التحرك الثورى فى المجتمع فهو القضاء على النبي موسى عليه السلام محور الحرکه و قائدها.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى

و من كلمه فرعون «ذروني» يتضح أنّ خلافا تفسّشى في بيته حول تحديد الموقف المناسب من النبي عليه السلام، و لعلّه كان من رأى جماعه منهم بالاستماع الى دعوته و مقارعه الحججه بالحجه و كان يمنع هذا الرأى فرعون من قتله، و حيث يعلم هو بخطئه و قصوره عن مواجهه موسى و رسالته بهذا الأسلوب حاول تجاوز هذا الرأى و إقناع أصحابه بقبول خطئه القاضيه بتصفيه موسى عليه السلام تصفيه جسديه، و طالما يتكرّر و بصوره مستمره في الثورات أنّ مفجّرها يثير الخلاف في صفوف الطاغوت و قراراتهم تجاه الثوره.

و لأنّ فرعون تبّنى قرار التصفيه الجسديه أراد إقناع المخالفين له بصحة رأيه، و ذلك بتبرير أنّ موسى عليه السلام لم يكتف بقوه المنطق و حسب و إنّما تسلح أيضا بمنطق القوه. اذن مواجهته بهذا الأسلوب أمر موضوعى في رأى الطاغوت.

وَ لِيَدْعُ رَبَّهُ الَّذِي تَحَدَّثَانَا بِهِ كَثِيرًا، وَ هَذَا مِنْطِقُ كُلِّ الطَّغَاةِ، إِنَّهُ لَوْ كَانَ الثَّائِرُونَ عَلَى الْحَقِّ إِذْنًا لَكَانُوا أَقْوِيَاءَ وَ لَانْتَصَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ فَعَلَا! إِلَّا أَنْ خَلِطَ الْقُوَّةَ بِالْحَقِّ، وَ جَعَلَ الْقُوَّةَ الظَّاهِرِيَّةَ الْآتِيَّةَ مَقْيَاسًا لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ خَطَأً كَبِيرًا يَقَعُ فِيهِ الطَّغَاةُ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَ الْقَانُونَ لَا يَتَحَدَّدُ بِالْقُوَّةِ وَ الْإِرْهَابِ، فَقَدْ يَكُونُ الْحَقُّ ضَعِيفًا لِعَوَامِلٍ خَارِجَةٍ عَنْ إِرَادَةِ أَصْحَابِهِ، وَ قَدْ يَكُونُ الْبَاطِلُ قَوِيًّا وَ لَكِنْ هَذَا لَا يَبْدُلُ الْبَاطِلَ حَقًّا وَ الْحَقَّ بَاطِلًا أَبَدًا، وَ فِي مَا يَلِي مِنَ الْآيَاتِ نَجِدُ الْمَزِيدَ مِنَ الْبَيَانِ فِي خَطَأِ هَذِهِ الْفِكْرِ الَّتِي يَعْتَمِدُهَا الطَّغَاةُ فِي تَضْلِيلِ النَّاسِ لِأَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ مِنَ الْأَسْسِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الْأَنْظُمَةُ الْفَاسِدَةُ وَ تَعْطِيهَا صَبْغَةَ الْإِرْهَابِ وَ الْقَمْعِ، الَّذِي يَسْعَى الطَّغَاةُ لِتَبْرِيرِهِ بِشَتَّى الْحُجَجِ، فَهَذَا فِرْعَوْنٌ يَحَاوِلُ تَبْرِيرَ قَرَارِهِ الْإِرْهَابِيَّ وَ تَهْيِئَةَ الْمَعَارِضِينَ لَهُ لِقَبُولِهِ.

إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدَّلَ دِينُكُمْ

أى أفكاركم و ثقافتكم، و كل أفكار يلتزم بها الناس فهي دينهم، و تبدل ثقافه الناس من ثقافه التخلف و القابليه بالطاغوت الى ثقافه ثوريه حضاريه من أشد الأمور خطوره على الطواغيت، فهم يخافون من حدوث ذلك كما صرح فرعون بنفسه.

أو ليس النظام الطاغوتي هو إفراز لثقافه المجتمع، و بقاءه يعتمد على سكوته؟ إذن فأى تغيير إيجابى فى هذه الثقافه يعنى تغيير النظام الحاكم أيضا.

و حيث أحس فرعون بخطوره الحركه الرساليه سعى بالإضافه الى ضغطه على تيارها الاجتماعى و مؤيديها لفصلهم عنها، و قراره بقتل قائدها، سعى الى إثارة الناس ضدها عن طريق الإيحاء لهم بأنّها تحارب دينهم و ما التزموا به هم و آباؤهم، هذا فيما إذا سكت فرعون، أما إذا عارض موسى فسوف تقع الفتنة بين الناس، و تسبب فى قتل الناس و تدمير اقتصادهم، هكذا صور فرعون لقومه و قال:

أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَ هَاتَانِ التَّهْمَتَانِ هُمَا فِي عَرَفِ السِّيَاسِيِّينَ الْيَوْمَ أَخْطَرُ مَا يُمْكِنُ تَوْجِيهِهِ لِلْمَعَارِضِ وَ خَاصَهُ فِي الْبِلَادِ الْدِيكَتَاتُورِيَّةِ، وَ الْقُرْآنُ يَخْتَصِرُ بِهَذِهِ الْعِبَارَاتِ الْمَوْجِزَةِ مَوْقِفَ الطَّغَاةِ مِنَ الْحَرَكَاتِ التَّغْيِيرِيَّةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَ زَمَانٍ.

[٢٧] أمّا موسى عليه السلام فهو فى الوقت الذى تحدّى هذا الغرور و العنجهيه الفرعونيّه، لم يعتمد على ذاته، و لا على منطق القوه، إنّما اعتمد و كسائر الأنبياء و الرّبّانيين على قوه ربّه و قوه الحق الذى يؤمن به و يجاهد من أجله.

وَ قَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ

و التكبر و الكفر بيوم الحساب، هاتان الصفتان تنتهيان الى شىء واحد، هو ضياع المقاييس عند الإنسان، فإذا به يعتقد بأن ما تشتهي نفسه هو الحق، فتكبره لا يخضع للحق، و بكفره بالجزاء لا يتحسس المسؤوليه، و لمقاومه شرّ هذا النوع من الرجال لا بدّ من الاستعاذه بالله، أوّلاً: للاستقامه أمام إغرائهم و إرهابهم، و ثانياً:

للاستلهم من الوحي سبل مقاومتهم.

[٢٨] و يعطف السياق القرآنى ليكشف جانباً من الصراع الداخلى الذى يدور فى صفوف الطاغوت، حيث الموقف الرسالى الحاسم لمؤمن آل فرعون من النظام الفاسد، و الذى يكشف ظهوره فى هذا الموقع من الصراع عن مدى تغلغل الحركه الرساليه فى الأجهزه الفرعونيّه، كما يعكس محتوى الاستعاذه بالله و كيف أنّ ربّنا ينصر رسله برجال ادخرهم لمثل ذلك.

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ وَ هُوَ حَزَقِيلُ الَّذِي بَقِيَ إِيمَانَهُ طَيِّبِ الْكُتْمَانِ دَهْرًا طَوِيلًا حَسَبَ بَعْضِ الْأَخْبَارِ، وَ إِنْ دَلَّ هَذَا الْأَمْرَ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَسَالِيبَ النِّضَالِ لَيْسَتْ وَاحِدَةً، بَلْ يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنَاضِلٍ أَنْ يَتَحَرَّكَ فِي جِهَادِهِ مِنَ الْخُنْدُقِ الْمُنَاسِبِ، وَ إِذَا كَانَتْ خُنَادِقُ الْجِهَادِ تَخْتَلِفُ - كَمَا صَوَّرَهُ - مِنْ شَخْصٍ لِشَخْصٍ وَ مِنْ ظَرْفٍ لِآخَرَ فَإِنَّ الْهَدَفَ يَبْقَى وَاحِدًا وَ الْمَحْتَوَى هُوَ الْمَحْتَوَى، بَيْنَمَا يَقْتَضِي الْأَمْرَ الْإِلَهِيَّ أَنْ يَفْجُرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ صِرَاعًا صَرِيحًا مَعَ الطَّاغُوتِ، وَ يَتَسَاقَطُ أَتْبَاعُهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَأَوْرَاقِ الْخَرِيفِ بِعَاصِفِهِ الْإِرْهَابِ، نَجِدُ هَذَا الْمُؤْمِنَ الْمَجَاهِدَ يَحْتَفِظُ بِمَرْكَزِهِ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ، لِيَقُومَ بِدَوْرٍ أَسَاسِيٍّ فِي هَدْمِ نِظَامِهِ.

فبينما كان الطاغوت جالسا يتباحث أمر موسى عليه السلام مع خاصته ليكيدوا به و يقتلوه، و الكل يزعم بأن لا غريب بينهم، و إذا بالمؤمن ينهى فتره الصمت

و الكتمان و يستنكر عليهم قرارهم المنحرف.

أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ وَ الْوَاقِعُ.

وَ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ثُمَّ إِنَّ دَعْوَتَهُ لَمْ تَكُنْ مَجْرَدَهُ، إِنَّمَا كَانَتْ مَدْعَمَهُ بِالْأَدْلَةِ وَ الْبَرَاهِينِ الَّتِي تَوْكِدُ صِدْقَهَا، وَ إِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ مُوسَى نَفْسَهُ بَلْ مِنْ رَبِّ الْخَلَائِقِ، وَ لَعَلَّ هَذَا الْحَدِيثَ كَانَ ذَا أَثَرٍ عَمِيقٍ عَلَى فِرْعَوْنَ وَ قَادِهِ نِظَامَهُ، أَنْ يَنْهَضَ مِنْ بَيْنِهِمْ شَخْصٌ يُؤَيِّدُ الْمَعَارِضَ وَ يَنْتَمِي لَهَا.

من هنا ينبغي لأولئك الذين يتوبون لله من أعوان الظلمه، أن يدركوا أهميه كتمانهم، فلا يظهرون قرارهم بالتوبه، وإنما يبعثون بشخص موثوق أو برسالة، أو يلتقونهم بأنفسهم بالقياده الدينيه الواعيه، و يستطلعون رأيها، و يعرفون مسئوليتهم و الدور المناسب الذي يجب أن يمارسوه، كما

فعل نعيم بن مسعود الأشجعي الذي جاء الى رسول الله صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول الله! إنني قد أسلمت و لم يعلم بي أحد من قومي، فمرني بأمرك، فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله إنَّما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت (يعني شط الأعداء و جنهم) فإنَّما الحرب خدعه، فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظه فقال لهم: إنني لكم صديق و الله ما أنتم و قريش و غطفان من محمد صلى الله عليه و آله بمنزله واحده. إنَّ البلد بلدكم و به أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم، و إنَّما قريش و غطفان بلادهم غيرها، و إنَّما جاؤوا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصه انتهزوها، و إن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم و خلوا بينكم و بين الرجل و لا طاقه لكم به، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم تستوثقون به أن لا

يبرحوا حتى يناجزوا محمدا، فقالوا له: قد أشرت برأى، ثم ذهب فأتى أبا سفيان و أشراف قريش فقال: يا معشر قريش إنكم قد عرفتم ودي إياكم، و فراقى محمدا و دينه، و إنى قد جئتكم بنصيحه فاكتموا على، فقالوا: نفعنا ما أنت عندنا بمتهم، فقال: تعلمون أن بنى قريظه فد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم و بين محمد فبعثوا إليه أنه لا- يرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم و ندفعهم إليك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك فقال: بلى. فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرا من رجالكم فلا- تعطوهم رجلا- واحدا، و احذروا، ثم جاء غطفان و قال: يا معشر غطفان إنى رجل منكم، ثم قال لهم ما قال لقريش، فلما أصبح أبو سفيان و ذلك يوم السبت فى سؤال سنه خمس من الهجره بعث إليهم أبو سفيان عكرمه بن أبى جهل فى نفر من قريش أن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر اليهود إن الكراع و الخف قد هلكا و إننا لسنا بدار مقام فاخرجوا الى محمد حتى نناجزه، فبعثوا إليه: إن اليوم السبت و هو يوم لا نعمل فيه شيئا، و لسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا و تدعونا حتى نناجز محمدا فقال أبو سفيان: و الله قد حذرنا هذا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان: إننا لا نعطيكم رجلا واحدا فإن شئتم أن تخرجوا و تقاتلوا، و إن شئتم فاقعدوا، فقالت اليهود: هذا و الله الذى قال لنا نعيم، فبعثوا إليهم، إننا و الله لا نقاتل حتى تعطونا رهنا. و خذل الله بينهم، و بعث سبحانه عليهم الريح فى ليال شاتيه بارده شديده البرد حتى انصرفوا راجعين. قال محمد بن كعب قال حذيفه بن اليمان: و الله لقد رأيتنا يوم الخندق و بنا من الجهد و الجوع و الخوف ما لا يعلمه إلا الله، و قام رسول الله صلى الله عليه و آله فصلى ما شاء الله من الليل ثم قال: ألا- رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقى فى الجنه. قال حذيفه: فو الله ما قام منا أحد ممّا بنا من الخوف و الجهد و الجوع، فلما لم يقم أحد دعانى فلم أجد بدا من إجابته، قلت:

ليبك! قال اذهب فجئنى بخبر القوم و لا تحدثن شيئا حتى ترجع، قال: و أتيت

القوم فإذا ریح اللّٰه و جنوده یفعل بهم ما یفعل، ما یستمسک لهم بناء و لا تثبت لهم نار و لا تطمئن لهم قدر، فإنّی لکذلک إذ خرج أبو سفیان من رحاله ثم قال: یا معشر قریش لینظر أحدکم من جلسه، قال حذیفه: فبدأت بالذی عن یمینی فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان، ثم عاد أبو سفیان براحلیه فقال: یا معشر قریش! واللّٰه ما أنتم بدار مقام، هلک الخفّ و الحافر، و أخلفتنا بنو قریظه، و هذه الریح لا یستمسک لنا معها شیء، ثم عجل فرکب راحلته و إنّها لمعقوله ما حلّ عقالها إلاّ بعد ما رکبها. قال: قلت فی نفسی: لو رمیت عدوّ اللّٰه فقتلته کنت قد صنعت شیئا، فوقرت قوسی، ثم وضعت السهم فی کبد القوس، و أنا أرید أن أرمیه فأقتله، فذکرت قول رسول اللّٰه صلی اللّٰه علیه و آله: «لا تحدثنّ شیئا حتی ترجع»، قال: فحططت القوس ثم رجعت الی رسول اللّٰه صلی اللّٰه علیه و آله و هو یصلّی فلما سمع حسی فرّج بین رجليه فدخلت تحته، و أرسل علی طائفه من مرطه (یعنی الکساء، و لعلّ الرسول کان یرید أن یخفیه حتی عن المسلمین لیبقی مجهولا فی تحرّکه) فرکع و سجد، ثم قال: ما الخبر؟ فأخبرته (1) و لا ریب أنّ الدور الذی مارسه مؤمن آل فرعون (حزقیل) لم یکن بعیدا عن قرار القیاده الرسالیه المتمثله یومئذ فی شخص موسی علیه السلام فقد بقى إیمانه طیّ الکتمان مدّه طویله، کان خلالها حذرا قویّ المراوغه، فلم یفتضح أمره أبدا، و کان ثابت العقیده، راسخ الإیمان، فلم تغیر المناصب و لا- المغریات من موقفه، و هو مع ذلك لم یعتبر الکتمان هدفا فی حرکتہ، إنّما اعتبره وسیله لهدف، لهذا ففجر صراعه مع الطاغوت حیث كانت الظروف مناسبه للإعلان عن موقفه الواقعی، و ذلك حیما دافع عن موسی علیه السلام و عارض الطغیان الذی مارسه فرعون و نظامه الی حد رفض الآراء المعارضه و مواجعتها بالقتل و الإرهاب، قائلا: بأنّ الموقف السلیم تجاه آراء

ص: ٦٠

الآخرين ليس استخدام منطق القوه و إنما استماعها و الإصغاء لصاحبها، فإن كانت خاطئه فليس ذلك مما يضر السلطه إذا كانت على الحق، و إن كانت صادقه و سليمه فيجب إتباعها و الانتفاع بها، و إلا فإن العاقبه ستكون غير محموده إذا رفض الإنسان الحق. □
وَ إِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ هُوَ الَّذِي يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيهِ رَأْيَهُ وَ مَوْقِفَهُ.

وَ إِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ هَكَذَا تَسَاءَلُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ: لِمَاذَا تَقْتُلُونَ مُوسَى؟ فَهَوَ إِنْ كَانَ كَاذِبًا لَمْ نَخْسِرْ نَحْنُ شَيْئًا، وَ إِنْ يَكُنْ صَادِقًا فَالْأَمْرُ خَطِيرٌ بِالنِّسْبَةِ لَكُمْ؟ وَ كَانَ هَذَا السُّؤَالُ كَافِيًا لَوْ انْطَلَقَ مِنْهُ فِرْعَوْنُ وَ حَاشِيَتُهُ أَنْ يُوَصِّلَهُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَ لَكِنَّ الشُّكَّ الْمُنْهَجِي لَمْ يَنْفَعِ الَّذِينَ حَجَبَتْ شَهَوَاتُهُمْ عَقُولَهُمْ، وَ أَرَادُوا الْإِسْرَافَ فِي اللَّحْدَاتِ ثُمَّ تَبْرِيرَهَا بِالْأَعْذَارِ وَ الْأَسْبَابِ الْكَاذِبَةِ.

□ □
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ فَقَلْبُهُ مَتَّجِهٌ إِلَى الشَّهَوَاتِ كُلِّيَّةٍ.

□
كَذَابٌ يَسْتَعْمِدُ لِسَانَهُ فِي تَبْرِيرِ شَهَوَاتِهِ، وَ الْخَلْطُ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ وَ هَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَشَاكِلِ الَّتِي يَبْتَلِي بِهَا الْإِنْسَانَ، وَ لِذَلِكَ

قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «أعوذ بالله من قلب مطبق و لسان مطلق».

[٢٩] و يبين المؤمن السبب الذي جعل فرعون و قومه يكفرون بموسى عليه السلام و هو

الخلط بين الحق والقوه، فقد زعموا بأن ما عندهم من قوه ظاهره تغنيهم عن البحث الجاد من أجل الوصول الى الحق والالتزام به.

يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَأَنْتُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ الْمَادِيَّةِ وَالسَّيْطَرَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَلَا أَحَدٌ يَنَافِسُكُمْ، وَلَكِنْ هَلْ تَبَقَى هَذِهِ الْقُوَّةُ وَتَسْتَمِرُّ؟ ثُمَّ إِذَا حَلَّ غَضَبُ اللَّهِ فَهَوَ لَا يَرُدُّ.

فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا وَبِالطَّبَعِ سَوْفَ تَكُونُ الْإِجَابَةُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ بِالنَّفْيِ (لَا أَحَدٌ) إِذْنًا فَمَا قِيمَةُ الْقُوَّةِ الَّتِي لَا تَمْنَعُ عَنْ أَصْحَابِهَا الْأَذَى؟ وَكُلُّ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ وَالَّتِي سَتَلِيهَا يَجْمَعُهَا سِيَاقٌ وَاحِدٌ هُوَ: مَحَاوَلَةُ الْمُؤْمِنِ مِنْ خِلَالِهَا إِثَارَةَ الشُّكِّ الْمُنْهَجِيِّ فِي النُّفُوسِ وَقِيَادَتِهَا لِلْحَقِّ.

و لعل المؤمن أفلح في إيجاد جبهتين في صفّ الحاكمين، مما دفع فرعون للتدخل من أجل حسم الخلاف و إنهائه لصالحه.

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ قَطَعَ عَلَيْهِمْ مَسِيرَهُ الشُّكِّ الْمُنْهَجِيِّ وَالتَّفَكِيرِ، قَائِلًا: إِنَّكُمْ لَا تَحْتَاجُونَ إِلَى التَّفَكِيرِ، وَلَا أَنْ تَرَوْا شَيْئًا، فَأَنَا أَفْكَرُ وَأُرِي لَكُمْ، وَلَا أُرِي إِلَّا الْحَقَّ وَلَا أَهْدِي إِلَّا إِلَيْهِ، فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَسَلَّمُوا إِلَى تَسْلِيمًا مُطْلَقًا، وَهَذَا هُوَ دَيْدَنُ الطَّغَاةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ، وَبِالذَّاتِ فِي الدُّوَلِ الدِّيْكَتَاتُورِيَّةِ الَّتِي يَعْتَقِدُ حُكَّامُهَا بِأَنَّ صَحْفَهُمْ وَ إِذَاعَاتِهِمْ وَبِالتَّالِي رَأْيَهُمْ وَفِكْرَهُمْ وَحَدَّهُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَوْمَنَ بِهِ الْجَمَاهِيرُ، وَمِنْ هُنَا نَهْتَدِي إِلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي حَارَبَهُ مُوسَى لَمْ يَكُنْ سِوَى مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الطَّغْيَانِ عِبْرَ التَّارِيخِ.

[٣٠-٣١] وإذا كان كلام فرعون هذا قد أخضع ظاهرا من كان حوله، فإنَّ المؤمن بقي متصَلِّبا في نصرته للحق، و التزمه ببصيره الهدى، رغم تضليل الطاغوت، و هكذا ينبغي للمؤمنين في كل الأمكنه و العصور.

وَ قَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَخْزَابِ وَ هُمْ كُلٌّ جَمَاعَةٌ يَتَحَرَّبُونَ عَلَىٰ أُسَاسِ الْهَوَىٰ ضِدَّ الْحَقِّ وَ مِنْ يَمَثَلِهِ، وَ كَمِثْلٍ لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ يُشِيرُ الْقُرْآنُ إِشَارَةً عَابِرَةً إِلَى طَوَائِفٍ مِنْهُمْ ذَهَبَتْ قِصَصُهُمْ عَبْرًا وَ أَحْدُوثَاتٍ فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ.

مِثْلَ ذَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ فَهَوْلَاءُ وَ إِنْ اِخْتَلَفُوا فِي تَارِيخِهِمْ وَ قِصَصِهِمْ وَ فِي عَاقِبَتِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي جُحُودِهِمُ الْحَقِّ، إِذْ كَذَّبُوا الرِّسَالَ وَ خَالَفُوا رِسَالَاتِهِمْ، وَ هَذَا الرِّبْطُ بَيْنَ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ ثُمَّ الْاهْتِدَاءُ بِهَا إِلَى سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ يَدُلُّ عَلَى عَمَقِ الْبَصِيرَةِ وَ الْإِيمَانِ عِنْدَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ.

و بعد أن وَّجَّهَ هَذَا الدَّاعِيَةُ الْعَقُولَ إِلَى عِبَرِ التَّارِيخِ مِنْ خِلَالِ أَحْدَاثِهِ الْمَأْسُومَةِ الْفِطْرِيَّةِ يُؤَكِّدُ عَلَى عَدَالَةِ اللَّهِ وَ أَنَّ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ نَتِيجَةُ تَفْكِيرِهِمْ وَ سُلُوكِهِمْ لَا نَتِيجَةُ قَدْرِ إِلَهِيٍّ ظَالِمٍ، حَاشَا لِلَّهِ.

وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ بَلِ الْعِبَادُ هُمُ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنفُسَهُمْ حِينَ يَخَالِفُونَ الْحَقَّ وَ سُنَنَ الْحَيَاةِ.

[٣٢-٣٣] ثم تابع تحذيره من يوم غضب الله.

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ حَيْثُ ينادى كُلُّ شَخْصٍ بِالْآخِرِينَ لَعَلَّهُمْ يَنْقُذُونَهُ مِنَ الْعَذَابِ. وَكَلِمَةُ «أَخَافُ» الَّتِي يَقُولُهَا الْمُؤْمِنُ دَلِيلٌ عَلَى شَفَقَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ.

ثم يبين واقع ذلك اليوم.

يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مِدْبَرِينَ مَلَكًا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ لِأَنَّ مَا يَعِصِمُ الْبَشَرَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقَمَتَهُ هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَلَيْسَ عِنْدَكُمْ مِنْ هَذَا شَيْءٌ.

وَ مَنْ يُضَلِّلِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ فَالهدايه مرتبه رفيعه لا يصل إليها كل إنسان، و من يريد الهدايه فإنها لا تحصل بالبحث عن الحق و تزكيه النفس و حسب، إنما لا بد من التوسل بالله و دعائه، لأن الهدى الحقيقى لا يكون إلا من عنده و بإرادته، و الدليل على ذلك أنه تعالى حينما يضل أحدا فلا سبيل بعدها لهديته.

ص: ٦٤

اشاره

وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَبِرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي لُجَابٍ (٣٧) وَ قَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتَنِي وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

اللغه

٣٧]تباب[:هلاک و خساره،من تبّ بمعنى هلك و خسر.

هدى من الآيات:

يشكل نموذج فرعون في حكم مصر المحور المناقض ليوسف عليه السلام الذي حكم تلك الديار أيضا، وحينما لا يريد الإنسان أن يؤمن فسوف يجادل في آيات الله سواء هبطت على يوسف عليه السلام الملك المقتدر، الذي جمعت فيه الصفات الحسنه الماديّه و المعنويّه، أو أنزلت على موسى عليه السلام الراعي الفقير و المنتمى الى طائفه مستضعفه مظلومه. و نموذج فرعون يناقض كلتا الرسالتين، لأنّ مقياس الإيمان أو الكفر هو القلب فتاره يكون خاشعا يسلم للحق و لمن يجسّده في المجتمع، و تاره يكون متكبرا يكفر بكلّ ذلك، مهما كان الشخص الذي يمثّل الحق، و مهما كانت الآيات بيّنه واضحه.

و يذكر ربنا في هذا الدرس بهذه الحقيقه، فبينما نجد شخصا كمؤمن آل فرعون يكتّم إيمانه مزروعا في قلب النظام الطاغوتي، و محاطا بكلّ إرهاب فرعون و إغرائه و تضليله، نجد شخصا آخر يعيش في كنف يوسف عليه السلام، حيث الملك و الرخاء

و الهدايه، و لكنّه يكفر فى قلبه بالحق، و لا يؤمن إيماناً حقيقياً بيوسف و بربه.

بينات من الآيات

[٣٤] يوسف عليه السلام هو أحد الأبناء الاثنى عشر ليعقوب عليه السلام و الذى يسمّى بالعبريه إسرائيل أى عبد الله، و من صلب هؤلاء الإخوه أنسلّ بنو إسرائيل فى اثنى عشر سبطاً و قبيله، و يوسف كان أحد آبائهم الكبار.

و قد بعث يوسف عليه السلام بالرساله و أصبح ملكاً مقتدراً يخضع له أهل مصر، فقد جمعت عنده الكمالات الماديه بالملك و السيطره، و المعنويه بالرساله، و بالرغم من ذلك كفر به البعض، و لكنهم قالوا فى أنفسهم: لا يظهر هذا الكفر بل ننتظر حتى يموت يوسف فنسيطر بعده على الحكم و الملك.

وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ لِأَنَّ قُلُوبَكُمْ لَا تَرِيدُ الْإِيمَانَ، وَ إِلَّا فَالْأُدْلَهُ وَاضِحَهُ.

حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا مَعَهُ إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - جَاءَهُمْ بِالْخَيْرِ وَ الْفَضْلِ، وَ لَا يَدُلُّ مَوْقِفُهُمْ إِلَّا عَلَى الضَّلَالِ
الذّى كتب عليهم بسبب إسرافهم و ترددهم فى الريب.

و الآيه توحى بأنّ شعب مصر أسلم ظاهراً على يد يوسف إلاّ أنّه كان يخبّئ العوده إلى ضلّالته، لأنّه كان فاسداً بالإسراف و الارتياب، و سرعان ما عاد إلى

كفره بعد هلاك يوسف، و كأنه قد استراح بموت يوسف..و هناك أحاديث تدلّ على إسلام الشعب المصرى على يده.

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُشْرِفٌ مُّرْتَابٌ و هنا تكشف الآيه عن سبب موقفهم المنحرف من الحق، و هو إسرافهم من الناحيه العمليه،فلا يقنعون بما عندهم من الخير و النعمه،و ارتيابهم من الناحيه النظرية و النفسية،فلا يسلمون للحق و البنات،و إذا أمعنا النظر لوجدنا كلتا الصفتين تنتهيان إلى صفه واحده هى عدم التسليم للحق،و عدم الاكتفاء بما أعطاهم الله،و طلب المزيد،المزيد من النعم الى حد الإسراف،و المزيد من الأدله إلى حدّ الجدل فى الآيات الواضحات.

و تدلّ هذه الآيه على أنه كانت ليوسف رساله الى قوم مصر،و قد وفرّ الله لهم فرصه الهدايه بهذه الصوره الفريده حيث جعل ملكهم الحبيب رسولا- إليهم لعلهم يهتدون.و لعلّ الحكمه فى ذلك كانت شدّه تعلق الشعب المصرى ذا الحضاره النهريه بالسلطه السياسيه مما حدى بموسى-عليه السلام-أيضا الى التوجّه الى شخص فرعون الحاكم الأعلى لبلادهم.

[٣٥]و نسأل:من هم المرتابون؟و يجيب القرآن: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ،و يحاولون تحريفها من دون أدنى حجه،و الحال أنّ الذى يخالف فكره ما لا بد أن يأتى بأخرى مثلها أو أفضل منها.

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ و تشمل الآيه-كما يبدو-الذين يحرفون آيات الله، و يتصرفون فيها بغير تفويض من الله،فهم يضعون أنفسهم مواضع الحكم بلا سلطان من الله.

كَبِيرٌ مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا فَاللَّهُ يَمْقَتُهُمْ فَيَذَلُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيُضِلُّ أَعْمَالَهُمْ وَلَا يَدْعُهُمْ يَفْلِحُونَ أَبَدًا. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَمْقَتُونَهُمْ فَلَا يَخْدَعُونَ بِهِمْ وَلَا يَسْلَمُونَ لِقِيَادَتِهِمْ. وَ هَاتَانِ عَاقِبَتَانِ سَيِّئَتَانِ لَهُمْ. أَمَّا الْعَاقِبَةُ السُّوْءُ فَهِيَ سَلْبُ فِرْصَةِ الْهَدَايَةِ عَنْهُمْ إِلَى الْأَبَدِ، وَ ذَلِكَ بِإِطْفَاءِ شَعْلَةِ الْهَدَى مِنْ قُلُوبِهِمْ.

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ وَ الْجَبَّارُ هُوَ الَّذِي يَسْعَى لِقَهْرِ الْآخِرِينَ وَ التَّسَلُّطُ عَلَيْهِمْ، وَ هِيَ مِنْ نَزَعَاتِ الْمُلُوكِ وَ الْحُكَّامِ الظَّالِمَةِ. أَمَّا الْمُتَكَبِّرُ فَهُوَ الَّذِي لَا يَتَوَاضَعُ لِلْحَقِّ، وَ لَا يَقْنَعُ بِوَقْعِهِ، إِنَّمَا يَتَصَوَّرُ نَفْسَهُ دَائِمًا أَكْبَرَ مِنْ حُجْمِهِ الْحَقِيقِيِّ، وَ مِنْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَإِنَّ قَلْبَهُ يَصِيرُ مَنغْلَقًا فَيُخْتَمُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِسَلْبِ نُورِ الْعَقْلِ وَ الْفِطْرَةِ مِنْهُ.

وَ التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ دَقِيقٌ جَدًّا حِينَمَا قَالَ: «كُلُّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» وَ مَعَ أَنَّ بَعْضًا مِنَ الْمَفْسِّرِينَ قَالُوا بِأَنَّهُ يَسَاوِي قَوْلَنَا: قَلْبٌ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَبْدُو أَنَّ السِّيَاقَ الْقُرْآنِيَّ أَرَادَ بَيَانِ حَقِيقَةِ هَامَّةٍ هِيَ: إِنَّ الطَّبْعَ عَلَى الْقَلْبِ تَخْتَلِفُ نَسْبَتُهُ بِاخْتِلَافِ الصِّفَاتِ السُّلْبِيَةِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، فَقَدْ يَطْبَعُ اللَّهُ بِنَسْبِهِ خَمْسِينَ بِالمِائَةِ عَلَى قَلْبِ الزَّانِي أَوْ السَّارِقِ، أَمَّا الْمُتَكَبِّرُ الْجَبَّارُ فَإِنَّهُ يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ كُلَّهُ أَى مِائَةَ بِالمِائَةِ، وَ هَذَا يَكْفِي لِبَيَانِ الْخَلْفِيَّاتِ السَّيِّئَةِ جَدًّا لِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ.

[٣٧-٣٦] وَ لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُؤْمِنُوا إِيمَانًا حَقِيقًا فِي ظِلِّ يَوْسُفَ الْمَلِكِ النَّبِيِّ فَقَدْ ابْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِفِرْعَوْنَ يَحْكُمُ مِنْ ذَاتِ الْأَرِيكَةِ، وَ شَتَّانَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ، وَ حَقًّا إِنَّهَا عَاقِبَةُ الْكُفْرِ بِالنِّعْمَةِ.

وَ يُوَجِّهُنَا السِّيَاقُ هُنَا إِلَى النِّهَايَاتِ السَّيِّئَةِ لِهَذَا التَّحْوِيلِ، لَعَلَّنَا نَنْتَبِهَ إِلَى أَنَّ

الكفر برسالات الله، والإسراف و الأرتياب و التكبر و التجبر، و بالتالى التملص من مسئوليات النظام العادل و الحاكم العادل- كيوسف عليه السلام- قد لا تظهر عاقبته فى البدايه و لكنها عند الختام، حيث يكون مصير المجتمع ما انتهى إليه أهل مصر، إذ ابتلوا بحاكم مثل فرعون. و هكذا علينا ألا نخذعنا المظاهر الخلابه لحضاره الشهوات بل ندرسها من خلال نهاياتها المأساويه، و ما قيمه بدايه الغرور مع عاقبه السوء.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْ حَا لَعْلَى أَبْلُغِ الْأَسْبَابَ بَعْدَ أَنْ فَشَلَ فِرْعَوْنُ فِي إِقْنَاعٍ مِنْ حَوْلِهِ بِضُرُورِهِ قَتَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مِمَّا أَثْبَتَ ضَعْفَ حِجَّتِهِ، حَاوَلَ الْاِعْتِمَادَ عَلَى الْقُوَّةِ الْمَادِيَةِ لِفِرْعَوْنَ سَيَطْرَتُهُ عَلَى الْجَمَاهِيرِ، وَ هَذِهِ مَرَحَلَةٌ مِنَ الْمَرَاكِلِ الَّتِي تَمَرَّ بِهَا الْحَضَارَاتُ، فَهِيَ تَبْدَأُ بِالْقِيَمِ قَوِيَةٍ حَيَوِيَّةٍ، وَ تَبْلُغُ الْمَظَاهِرَ الْمَادِيَةَ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ نَهَائِهَا إِمَّا بِالذَّمِّ الشَّامِلِ أَوْ حَالِهِ الْعَبَثِيِّ الْمَطْلُوقِ وَ الْاِنطَوَاءِ التَّامِ. وَ هَكَذَا نِظَامُ فِرْعَوْنَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُمْ خَوَاؤُهُ الْمَعْنَوِي وَ فِرَاغُهُ الْعِلْمِي، تَوَجَّهَ إِلَى الْبِنَايَاتِ الضَّخْمَةِ، حَيْثُ بَنَى صِرْحًا عَظِيمًا حَاوَلَ الْوَصُولَ بِهِ إِلَى إِلَهِ مُوسَى، وَ هَذَا مُؤَشِّرٌ وَاضِحٌ عَلَى نَظَرَتِهِ الشَّيْئِيَّةِ لِلْحَيَاةِ، وَ سَعْيِهِ لِتَحْدِيدِ الْقِيَمِ الْمَعْنَوِيَّةِ بِالْمَظَاهِرِ الْمَادِيَةِ.

إنه سعى نحو مواجهه إله موسى عزّ و جل، و تحدّيه سبحانه بما لديه من إمكانيات محدوده، كما فعل نمرود حين أمر بإعدام سجين و إطلاق الآخر، و قال لإبراهيم متحدّياً ربّ العزّه: أنا أحيى و أميت، و هكذا يفعل الطغاه فى كلّ عصر. إنهم يقومون- أمام كلّ حركة تحريره- باستعراض قوتهم لفرض الهيبة التى تكاد تسقط أمام عاصفه الثوره.

و قد يكون فرعون هو الذى بنى بعض أهرامات مصر حسبما توحى به هذه الايه

الكريمه،و التي كان يسعى من خلالها لتضليل الناس و بلوغ أعلى مكان فى نظره و هى أسباب السموات.

أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَ هَذَا دِيدَنَ الطَّغَاةِ. إِنَّهُمْ يَسْتَصِدُّونَ الْأَحْكَامَ فِي مَخْتَلَفِ الْقَضَايَا بَعِيدًا عَنِ الْمُنْهَجِيَّةِ السَّلِيمَةِ حَيْثُ يَعْلَمُ فِرْعَوْنُ بِأَنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَدْرِكُ بِالْمُقَايِسِ الْمَادِيَّةِ، وَ لَكِنَّهُ أَخَذَ يَسْتَعْمِدُ مِنْهَجًا مَادِيًّا بَحْتًا لِلتَّعَرُّفِ عَلَى اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى- وَ النَّتِيْجَةُ الَّتِي سَيَصِلُ إِلَيْهَا حَتَّى إِذَا قَدَّرَ أَنَّهُ بَلَغَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى خَاطِئُهُ، وَ عَلَى ضَوْءِ هَذَا الْمُنْهَجِ سَيَكُونُ مُوسَىٰ كَاذِبًا.

و من المعروف أنَّ فرعون كان يسخر المستضعفين لبناء الصرح سخره و بلا أجور، و كان الكثير من هؤلاء التعساء الذين كان يحشرهم من مختلف أنحاء مصر يموتون تحت ضغط الكدح، و سوء التغذية، و انتشار الأمراض، و كان قد خصَّص الى جنب أهرامات مصر أراضى واسعة لاستقبال جثث هؤلاء المساكين مما أثار هذا العمل بذاته غضب الجماهير، و هيأ أرضيه التحوّل عند شعب مصر.

وَ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ بِسَبَبِ تَرَكَمِ الْعَادَاتِ وَ الْمَمَارَسَاتِ السَّيِّئَةِ عَلَى قَلْبِهِ الْمَتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ، فَكَانَ يَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا وَ الْعَكْسَ، إِلَى هَذَا الْمَسْتَوَى الْهَابِطِ مِنَ الْإِعْتِقَادِ، حَيْثُ زَعَمَ أَنَّهُ يَتَحَدَّى بِقُوَّتِهِ الْمَحْدُودَةِ إِرَادَةَ اللَّهِ. أَلَمْ يَرِ الْجِبَالَ كَيْفَ أَرْسَاهَا الرَّبُّ، وَ أَنَّهُ إِذَا صَعَدَ عَلَيْهَا رَجُلٌ لَا يَرَى السَّمَاءَ إِلَّا بِمِثْلِ مَا يَرَاهَا عَلَى الْأَرْضِ؟! أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ عَاصِفَهُ وَاحِدَهُ تَكْفِي لِقِتْلَاعِ مَظَاهِرِ قُوَّتِهِ فِي لِحْظِهِ؟! وَ قَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ هَامَانَ رَفَعَ الصَّرْحَ حَتَّى مَنَعْتَهُ الْعَوَاصِفَ مِنَ الْاسْتِمْرَارِ، وَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْ عَاصِفُهُ رَهيبه

و من جمله الآثار النفسيه التي يخلفها العناد و الإصرار على ممارسه السيئه الصّد عن سبيل الله.

وَ صِيْدٌ عَنِ السَّبِيلِ و هو القيادة الرساليه التي تمثّل رساله الله، و التي تهدي البشر الى ربّه الرحيم، و هل يخضع المتكبر الى الحق، أو هل يرتضى الجوّار العدل؟ كلاًّ. إذن فهو سوف يتبع الباطل في الحياه، و حيث رفض السبيل الى الله (القيادة الرساليه) فسوف يحاربها و يكيد لها.

و لكن سنّه الله و إرادته فوق محاولات فرعون الفاشله لإطفاء نوره عزّ و جل.

وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ أَيْ يحوطه الفشل و الخسران من كلّ جانب.

[٣٨] و هنا يبرز على مسرح الأحداث مره أخرى مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه ثم تحدّى به الطاغوت في اللحظه المناسبه فحاز على فضيله الكتمان و فضيله التحدى معا، و هي كلمه الحق عند السلطان الجائر. و نحن إذا تعمقنا في قصه هذا المؤمن من خلال القرآن الحكيم، نعرف حينها المعنى الحقيقي للتقيه في الإسلام، و يجب أن نبلور هذا المفهوم لأنّ التقاه تحوّلت لدى الكثير الى تبرير للتقاعس و النكوص عن الجهاد، بينما التقيه (التقاه) في مفهوم رساله هي العمل و الجهاد المركّز و المستمر بعيدا عن أعين الطغاه حتى تحين لحظه التحدى الكبير. و هل يحتاج

ص: ٧٣

الى الكتمان إلا من يجاهد الطغاه؟! إنَّ البعض يجعل كلمه التقيه بديلا عن العمل و التحرك فى ظروف القمع و الإرهاب، و لكنّه لا يتحرّك حتى فى الظروف المناسبه، و مثال ذلك الكثير من الشعوب التى ترفض التجاوب مع الحركات الرساليه و تعلّل ذلك بوجود الإرهاب، و لكنّها ترفض الجهاد حتى فى المهجر حيث لا إرهاب و لا شرطه.

إنَّ (التقاه) حقّا هى أن تحافظ على نفسك و تحركك الجهادى بعيدا عن سطوه الظالم فى ظلّ الإرهاب، لتحتفظ بقوتك ليوم الصراع.

و هكذا كان مؤمن آل فرعون (حزقيل) يكتّم إيمانه، و يتحرّك فى ظلّ توجيهات قياده الرساليه، منتظرا الساعه المناسبه لتفجير الصراع مع الطاغوت، و ها قد حلّ أوانها حيث جمع فرعون وزراءه و أنصاره و قوات جيشه و سحرته ليقزروا قتل موسى عليه السلام، فاستبسل من بينهم و تحدّى الظلم و الظالمين ليضرب لنا مثلا صادقا عن التقيه التى يرتضيها الله تعالى، و هى النابعه من الإيمان و الإراده و التخطيط و العمل، و ليست الناتجه عن خور العزيمه و خوف الإنسان و حبه للراحه. فهى إذن تمهيد للتحدى، و جمع للقوى، لتفجير الصراع فى وقته المناسب.

و هكذا استطاع مؤمن آل فرعون تعويق مؤامرات فرعون التى استهدفت قتل موسى عليه السلام، و بذلك وفى ربّنا عهدده لرسوله الأمين بنصره و تأييده.

وَ قَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ فَهُوَ مِنْ جِهَةِ تَحَدَّى فِرْعَوْنَ، وَ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى طَالِبٌ مِنْ حَوْلِهِ بِاتِّبَاعِهِ، وَ هَكَذَا يَنْبَغِي لِلرَّسَالِيِّينَ أَنْ يَتَّقُوا بِرِسَالَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ، وَ أَنْ يَطْرَحُوا أَنْفُسَهُمْ قَادَةً لِلنَّاسِ بَدِيلًا عَنِ الْقِيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ.

[٣٩] وحيث شخّص المؤمن جذر الانحراف و نقطه الضعف التي تدعوهم للالتفاف حول فرعون و اتباعه و هي الماديه التي تتجسّد في اللّهت وراء حطام الدنيا، ذكّرههم بالآخره التي تتميّز عن الدنيا بنوعيّة نعيمها الأفضل، بينما الدنيا بما فيها تشبه المتاع الذي يأخذه المسافر معه و هو قليل و محدود، كما أكّد على مفارقه أخرى هامّة هي: أنّ نعيم الآخره دائم لا ينتهي حيث يلغى فيها حساب الزمن، بينما الدنيا محدوده جدّا.

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ وَ هَلْ يَخْتَارُ الْعَاقِلُ تِلْكَ عَلَى هَذِهِ؟! كَلَّا..

[٤٠] و يمضى المؤمن فى بيان معالم ثقافته الرساليه رغبه منه فى إنقاذ الناس من ضلالات الطاغوت، قائلا:

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا عَدَالَةً وَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَ لَعَلَّهُ أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ فَضْحَ سِيَاسَةِ فِرْعَوْنَ الْقَائِمَةِ عَلَى الظلم و الجور.

وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَاَلْمَقْيَاسُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ الْعَمَلُ، أَمَّا التَّمَايِزَاتُ الْمَادِيَّةُ وَ الظَّاهِرِيَّةُ -التي تقرها الأنظمة البشرية الفاسده- فلا- معنى لها أبدا. بلى. هناك أمر واحد يرتكز عليه العمل فلا يقبل إلا به و هو الإيمان. و الذين يتوفّر لديهم هذان الشرطان (العمل+الإيمان) هم الذين يدخلون الجنة.

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ

إنَّ مشكله الكثير من الذين يرفضون الإيمان بالحق و العمل به هو أنَّهم ينظرون له من خلال البلاء و المعاناه التي يستتبعها الإيمان به، و ليس من علاج لهذه المشكله أفضل من التوجيه الى نعيم الآخره الذي هو ثمره الإيمان و العمل. و حيث ركَّز المؤمن حديثه مع أتباع فرعون الغارقين في المادة أراد علاج هذه المشكله، فهم يتساءلون: نحن الآن نترك فرعون و نخسر هذا النعيم فما ذا نجد باتباع الحق؟

ص: ٧٦

وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاهِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدُّنَا إِلَى اللَّهِ وَ أَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَيَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَخَافَ بِالْبَاطِنِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدِ احْكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَمْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)

هدى من الآيات:

كما البرق الخاطف في جوّ مدلهم في ليل داج، شعت كلمات المؤمن في بيت فرعون، و هم يتأمرون على حياه صاحب الرساله موسى بن عمران عليه السلام.

لقد قال لهم: إنني أدعوكم لنجاه أنفسكم من النار التي تحيط بكم، بينما أنتم تدعونني لألتحق بكم في سواء اللهب. بلى. إن الكفر بالله و الشرك به (و اتباع سلطه غير شرعيه) ان ذلك بذاته النار التي هم فيها، أما هو فإنّ دعوته الى النجاه منها بالإيمان بالله العزيز الغفار.

أنتم تدعونني الى الشركاء الذين لا ينبغي أن يدعو أحد إليهم، لأنهم تافهون حقراء، بينما أنا أدعوكم الى من إليه مصيرنا جميعا، و أنتم تدعونني الى الإسراف الذي لا ريب ينتهي بصاحبه الى النار، بينما أدعوكم الى التقوى.

و تحدّاهم (حين لم يستجيبوا له) بأنه ينتظر و إياهم عاقبه الأمر حين يستذكرون

إنذاره، أمّا هو فقد فوّض أمره الى الله الذى وقاه سيئات ما مكروا، بينما أحاط بآل فرعون سوء العذاب، ففى عالم البرزخ يعرضون على النار صباحا و مساء، وإذا قامت الساعة يذوقون فى جهنم أشدّ العذاب.

هنالك حيث لا ينفع الضعفاء تبريرهم بأنهم إنّما اتبعوا كبراءهم فلذلك لا بد أن يتحملوا عنهم نصيبا من العذاب، كلا كل من الضعفاء و المستكبرين فى النار بحكم الله الذى لا ينقض حكمه أحد.

بينات من الآيات:

[٤١] لا يطيب الموت فى فم أحد إلا أن المترفين أشدّ هيبة منه، لأنهم أحرص على حياه الدنيا، و أعمق اغترارا بزخارفها، و لا بد أن يضرب الدعاء إلى الله على هذا الوتر الحساس فى أفئدة المترفين، و يذكروهم بالموت و ما بعد من الجزاء الشديد، و كفى به موعظه لمن يريد هدى و خلاصا.

و هكذا فعل مؤمن آل فرعون حين ذكّروهم بعاقبه الدعوتين، دعوه الحق و دعوه الباطل.

وَ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنذِرِينَ وَإِنِّي لَأَنذِرُكُمْ إِلَى النَّجَاهِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ إِنَّهُمُ الْآنَ فِي النَّارِ وَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِمْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ السِّيَاسَةُ طَغْيَانًا، وَ الْاِقْتِصَادُ تَرْفًا، وَ التَّرْبِيَةُ انْحِرَافًا، وَ الْاِعْلَامُ ضَلَالَةً، فَهَمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي سَرَادِقَاتِ الْجَحِيمِ، وَ إِنَّمَا يَدْعُوهُمْ الْمُؤْمِنُونَ لِلنَّجَاهِ، بِمَا تَحْتَاجُهُ مِنْ هَمِّهِ وَ سَعْيٍ وَ اجْتِهَادٍ، وَ لَكِنَّهُمْ يَدْعُونَهُ إِلَى التَّوَعُّلِ فِي النَّارِ.

و الآيه تشملنا أيضا، فإستثناء المتقين يعيش الناس فى سواء النار، ما دامت الشهوات تقودهم، و الفساد يحيط بهم، و قد قال ربّنا سبحانه: وَ إِنِّ مِنْكُمْ إِلَّا

وَأَرَادَ اللَّهُ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا (١) و نتساءل: كيف نحن جميعا فى النار إلا المتقين؟ أ رأيت جرثومه السل فى المجهر؟ أو سمعت بفيروس الجذام؟ إنهما فى الواقع يمثلان ذات المرض الذى تظهر أعراضه على المسلول و المجذوم، و لكنّ الخبير وحده يعرف ذلك، أما الجاهل فتراه يستنكر أن تكون هذه الجرثومه و ذلك الفيروس هو ذات المرض.. كذلك خبير المتفجرات يعرف مدى قوه النار الكامنه فى كيلو غرام من ماده متفجّره حارقه، أما الجاهل فلعله يحسبها ترابا، كذلك الواعون يعرفون أنّ مال اليتيم هو ذاته اللّهب إذا أكله الغاصب، و أنّ الكذب ريحته تنته تخرج من فم صاحبها و تنتظره على باب جهنم، و أنّ الظلم اليوم ذاته ظلمات فى القيامة، و هكذا..

[٤٢] و النار التى يدعو المؤمن للنجاه منها هى الكفر باللّهِ الذى يتمثل بالشرك به. فما هو الشرك؟ إنّه الخضوع لأحد من دون أن يأذن الله و ينزل عليه سلطانا مبينا.

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ لَعَلَّ قَوْمٌ يَرْعَوْنَ كَانُوا جَاهِدِينَ بِاللَّهِ رَأْسًا، أَوْ كَانُوا مُشْرِكِينَ وَ شَرِكُهُمْ دَعَاهُمْ إِلَى الْكُفْرِ، لَذَلِكَ قَالَ لَهُمْ
مُؤْمِنُهُمْ:

وَ أَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ

ص: ٨١

و نستوحى من هذه الآيه كما من آيات أخرى أنّ مجرد التسليم لما لا يعلم الإنسان يقينا ان الله أمره به شرك.

و قد خلق الله الإنسان عبدا له لا لغيره، و لم يأذن له بأن يتنازل عن حريته لأحد أبدا، بل فرض عليه مقاومه من يريد سلب حريته و الاعتداء على حرمة استقلاله، و اعتبر مجرد التسليم للطاغية شركا، و إنّ الشرك لظلم عظيم.

أما دعوته الحق فهي الى الله:

وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ فَبِعِزَّتِهِ يَهَيِّمُنَا عَلَيْنَا وَيَفْرُضُ سُلْطَانَهُ، وَ بِمَغْفِرَتِهِ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ طَالَمَا سَكْتُوا عَنْ جَرَائِمِ الطَّاغُوتِ، وَ غَدُوا يَأْكُلُونَ رِزْقَ اللَّهِ وَيَعْبُدُونَ عِدْوَهُ، كَمَا قَبِلَ تَوْبَةَ السَّحَرَةِ.

[٤٣] لا ريب أنّ البشر-أنتى سخر القوى المادية-يحيط به الضعف من كل جهه، فهو محكوم بسنن الله، و إنما يسعى للطغيان لعلّه يخفف عن ضعفه، لعلّه يمنع عن نفسه المرض و الشيخوخه و الموت، فهو أضعف من أن يمنح الآخرين قوه..

و هكذا فهو ليس جديرا بالدعوه إليه.

لَا جَرَمَ أَنَّكُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَا فِي الْآخِرَةِ إِنَّهَا مَجْرَدُ خِرَافَاتٍ وَ أَوْهَامٍ وَ أَمَانِي وَ غُرُورٍ.

و تفسير كلمه «لا جرم» حرفيا: لا قطع، و تعنى أنّه لا أحد قادر على قطع هذا الكلام أو نقضه، فهو كلام حق، و قد استخدمها مؤمن آل فرعون لمزيد من الثقة بهذه الحقيقه، و لتحدى حاله الخوف و الرغبه عند أنصار فرعون الذين فقدوا كلّ

استقلالهم و ثقتهم بأنفسهم أمام طغيان فرعون..و إن كانوا يتفكرون قليلا- لعرفوا أنّ فرعون أضعف من أن يفرض عليهم سلطانه،إنه إن لم يكن أقلّ منهم قوه فلا ريب أنه كواحد منهم،و إنّما يستمدّ قوته من ضعفهم،و هيئته من ذلّهم،و لو أنّهم عرفوا قيمه أنفسهم حقّا لوجدوه تافها حقيرا،و أنه-بالتالى-ليس له دعوه، و لا فرق بينه و بين صخره صمّاء أو بقره عجماء أو شجره مسوسه.أ رأيت هؤلاء الذين يعبدون صنما أو بقرا أو شجره هل يعطيهم ما يعبدونه شيئا أم هم الذين يصفون عليه قداسه و يعطونه القوه على حسابهم؟ أما الله الذى يدعو إليه المؤمن فإليه مصير الجميع،فهو خير من دعى و أكرم.

وَ أَنَّ مَرَدًّا إِلَى اللَّهِ ثُمَّ ذَكَرَهُم بِالْحَقِيقَةِ الْفَطْرِيَّةِ الَّتِي أودعت ضمير كلّ إنسان،تلك هي أنّ الله الذى خلق كل شىء و قدره تقديرا حكيمًا،و انبثت آيات عدله و حكمته فى كلّ صغيره و كبيره،لا يستقبل بترحاب المسرفين الذين تجاوزوا حدودهم، و اعتدوا على حقوق الآخرين،إنما يودعهم سجنه الأليم النار و ساءت مصيرا.

وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَضْيَابُ النَّارِ لَوْ أيقن الإنسان حقّا أنه يرد الى الله،و أنّ الله هو الذى يحاسبه و يجازيه،لارتدع عن الجرائم،لأنه يعلم أنّ ربّه بصير بعباده،و أنه لا يمكن خداعه أو الهرب منه، و أنه لا يظلم أحدا،فهو الحكم العدل العزيز الجبار.

و هكذا نجد السياق يوصل المرّد الى الله بأنّ عاقبه المسرفين النار،و هي حقيقة فطرية لا جرم فيها و لا جدال.

[٤٤] إذا عرف المبتلى أن سبب آلامه سوء اختياره، وأنه كان يقدر أن يتقيها بحسن عمله، ازداد إحساساً بالألم.

و هكذا ذكرهم داعيه الحق بأنهم-فى يوم الجزاء-سوف يذكرون ما قال لهم، و يعلمون صدقه، فيضاعف إلى ألم أجسادهم عذاب روى شديد.

فَسَيَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ أَمَّا هُوَ فَقَدْ بَلَغَ أَقْصَىٰ دَرَجَاتِ الْيَقِينِ، ففَوْضُ أَمْرِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ، لِذَلِكَ لَا يَحْتَمِلُ قَلْبُهُ الْجَدَلَ فِي تِلْكَ الْحَقَائِقِ الَّتِي سَرَدَهَا.

وَ أَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فهو يعلم ما فى صدور المفوضين أمورهم اليه من إخلاص و يقين، و لذلك فهو يأخذ بأيديهم.

و لعل ختام الآيه يهدينا الى شرط التفويض، و هو أعلى درجات اليقين، و هو الإخلاص.

و هناك شروط أخرى للتفويض نجدها

فى الحديث الذى رواه البعض عن الإمام الصادق-عليه السلام :-

المفوض أمره إلى الله فى راحه الأبد، و عيش الدائم الرغد، و المفوض حقاً هو الفانى عن كل همّه دون الله تعالى، كما قال أمير المؤمنين على: رضيت بما قسم الله لى، و فوّضت أمرى إلى خالقى، كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن

فيما بقي.. قال الله عزّ وجلّ في المؤمن من آل فرعون: وَ أَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ .

و التفويض خمسه (أى أنّها خمس كلمات) لكلّ حرف منها حكم، فمن أتى بأحكامه فقد أتى به، «الثناء» من تركه التدبير في الدنيا، و«الفناء» من فناء كلّ همّه غير الله تعالى، و«الواو» من وفاء العهد و تصديق الوعد، و«الياء» اليأس من نفسك و اليقين من ربّك، و«الضاد» من الضمير الصافي لله و الضروره إليه، و المفوض لا يصبح إلّا سالما من جميع الآفات، و لا يمسى إلّا معافى بدينه (١) [٤٥] و حين فوض حزقيل أمره الى الله، تولاه ربّ العزه بأحسن وجه، فحفظه من مكر آل فرعون، بينما أحاط بهم سوء العذاب.

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا جاء في بعض التفاسير أنّه التحق بموسى عليه السلام و عبر البحر معه الى برّ الأمان، و قال البعض: إنّهُ اعتصم ببعض الجبال و سخر الله الوحوش للدفاع عنه. (٢)

و جاء في حديثين عن الإمام الصادق-عليه السلام- أنّ عاقبه أمر حزقيل كانت الشهاده، و أنّ الله سبحانه إنّما وقى دينه عن مكر أولئك المفسدين..

قال: «و الله لقد قطعوه إربا إربا، و لكن وقاه الله عزّ وجلّ أن يفتنوه عن دينه» (٣) بلى. قد يختار ربّنا هذه الخاتمه الحسنی لبعض الدعاه إليه حين يعرف أنّ ذلك

ص: ٨٥

١-١) نور الثقلين/ج ٤ ص ٥٢٠.

٢-٢) عن مجمع البيان عند تفسير الآيه.

٣-٣) نور الثقلين/ج ٤-ص ٥٢١.

يقولون: إنَّها في نار الخلد، وهم لا يعدُّون فيما بين ذلك، فقال: فهم من السعداء! فقبل له جعلت فداك! فكيف هذا؟ فقال: إنَّما هذا في الدنيا، فأمرًا في نار الخلد فهو قوله: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (١) وحسب هذا التفسير فإنَّ أرواح الكفَّار تعذب في البرزخ بعذاب أخفَّ من عذاب الآخرة، ولذلك

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن أرواح المشركين؟ فقال: في النار يعدُّون، يقولون: ربَّنَا لا تقم الساعة، ولا تنجز لنا [ما] وعدتنا، ولا تلحق آخرنا بأولنا (٢) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [٤٧] و يبقى السؤال: لماذا أدخل الله كلَّ آل فرعون أشدَّ العذاب، بينما المجرم الأصلي هو فرعون و جنوده؟ الجواب: إنَّ الضعفاء منهم خضعوا لفرعون، و رضوا به، فشاركوه الجزاء الشديد، و لم ينفعهم تبريرهم بأنَّهم كانوا أتباعا لفرعون زاعمين أنَّ فرعون و المستكبرين يتحملون عنهم و زر أعمالهم، كلا..

وَ إِذْ يَتَحَدَّجُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكَبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ هُنَالِكَ تَسْقُطُ هَذِهِ الأعدار الواهية التي يحاول الضعفاء تبرير سكوتهم عن المستكبرين بها.

كما يقال مثلا: أنا عسكري و عليّ طاعه قيادتي، أو يقال: المأمور معذور، أو

ص: ٨٧

١- (١) المصدر/ص ٥٢٣.

٢- (٢) المصدر/ص ٥٢٣.

يقال: بأن القيادة أعرف و أنّ الملوك أعلم بالصلاح و أبخص. كلا.. إنّ كلّ بشر مسئول بصوره مستقله يوم القيامة عن كلّ مواقفه و أعماله.

[٤٨] و هكذا يسدل الستار على هذه المحاجه عند ما يكشف المستكبرون عن مدى عجزهم.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا نَحْنُ وَ أَنْتُمْ، فَكَيْفَ نَسْتَطِيعُ إِنْقَاذَكُمْ وَ نَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ إِنْقَاذَ أَنْفُسِنَا مِنْهَا.
إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ وَ لَا أَحَدٌ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَفْرَّ مِنْ حُكْمِهِ اللَّهُ.

و هكذا كشف السياق بأنّ الذين يدعون من دون الله ليست لهم دعوه في الدنيا و لا في الآخرة و أنّهم جميعا في النار، كما بين السياق: نهايه الخضوع للطاغوت أنّها المشاركه معه في النار، بينما عاقبه الثائرين عليه، أنّ الله يحفظهم من مكر الطاغوت، كما وقى مؤمن آل فرعون سيئات ما مكروا.

[٤٩] و بعد أن يقنط أهل النار من شفاعه بعضهم، يدفعهم الألم الى التوسل بخزنه جهنم، و هم الملائكه الغلاظ الشداد الذين و كّلوا بهم، و كلفوا بالإشراف على تعذيبهم، فيتوسل بهم أصحاب النار لعلّهم يشفعون لهم عند ربّهم ليخفّف عنهم يوما من النار.
وَ قَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ سِوَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْهُمْ وَ الضَّعْفَاءِ.

لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ وَحَفْظِهِ الْجَحِيمِ.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ وَتَسْأَلُ: لماذا لم يبادروا بالدعاء بأنفسهم؟ يبدو أنه لا يحقّ لهم يومئذ التحدّث مباشرة مع ربّ العزه كما كان يحقّ لهم في دار الدنيا، وإنما لفرصه نادره ينبغي أن تنتهزها اليوم قبل فوتها غداً،

و قد جاء في الدعاء المأثور :

«اللهم أذنت لي في دعائك و مسألتك، فاسمع يا سميع مدحتي، و أجب يا رحيم دعوتي» (1) و سوف نتحدث إن شاء الله عن الدعاء و فضيلته قريباً.

يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ فَبَعْدَ أَنْ فَشَلُوا فِي إِقَاءِ جَانِبٍ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى بَعْضِهِمْ بِحُجَّةٍ أَنَّهُمْ السَّبَبُ فِيهِ، حَاوَلُوا التَّخْفِيفَ فِي بَرِّهِ زَمَانِيهِ، مِثْلًا- بِمَقْدَارِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَ هَلْ كَانَ يَنْفَعُهُمُ التَّخْفِيفُ فِي يَوْمٍ لَوْ عَادُوا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى النَّارِ؟! كَلَّا.. وَ لَكِنْ لِسُوءِ الْعَذَابِ وَ شِدَّةِ الْأَلَمِ كَانُوا يَحَاوِلُونَ التَّخَلُّصَ مِنْهُ بِأَيِّ حُجَّةٍ، وَ لَكِنْ عَبَثًا.

[٥٠] لقد جاء رفض الخزنه لطلبهم كالصاعقه صدعت أفئدتهم الماء، ليس فقط لأنّ بصيص الأمل الوحيد تبدّل عندهم إلى اليأس، و إنّما أيضاً لأنّه حفل بالشماتة، ممّا أضاف ألماً نفسيّاً الى آلامهم الجسميه.

ص: ٨٩

(١- ١) دعاء الافتتاح من أدعيه شهر رمضان.

قَالُوا أَوْ لَمْ تَكْ تَأْتِيَكُم رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ لَقَدْ عَذَّبُوا بَعْدَ الْإِنذَارِ، وَالْإِنذَارَ تَمَّ بِوَضُوحِ كَافٍ حَيْثُ حَمَلَهُ إِلَيْهِمْ رَسُلَ اللَّهِ مَدْعُومًا بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ.

قَالُوا بَلَىٰ فاعترفوا بعداله حكم الله عليهم بالعذاب.

قَالُوا فَادْعُوا مَا شِئْتُمْ كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا، وَلَكِنْ اعْلَمُوا أَنَّهُ عَبَثٌ.

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ فَكَمَا أَنَّ الضَّالَّ كَلَّمَ جَدًّا فِي السَّيْرِ لَمْ يَبْلُغْ هَدْفَهُ، كَذَلِكَ دَعَاءُ الْكَافِرِ الَّذِي أُضَاعَ فُرْصَتُهُ فِي الدُّنْيَا لِلتَّوْبَةِ، وَأَخَذَ يَدْعُو فِي الْآخِرَةِ.

إشارة

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعِيدَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ
الْدارِ (٥٢) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْزَنَّا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي
صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ لَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨)
إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)

هدى من الآيات:

فى إطار الحديث عن صلابه الشخصيه، و استقامتها عند المؤمن، الى درجه نراه يعيش فى كنف الطاغوت و هو يكتم إيمانه عنه سنين عديده، ثم يتحداه فى ساعه المواجهه مفوضا أمره الى الله.. فى هذا الإطار تحمل آيات هذا الدرس وعدا من الله بنصره رسله و المؤمنين بهم (بنصره أهدافهم المقدسه) و يضرب لنا من قصه موسى مثلا حين أنزل عليه الهدى، و ضمّنه فى كتاب أورثه بنى إسرائيل، و لكنّ النصر يأتى بعد عدّه أمور يوفّرها المؤمن:

أولاً: الصبر انتظارا لوعد الله الحق.

ثانيا: الاستغفار من الذنوب (و إصلاح النفس حتى تنهياً لاستقبال النصر).

ثالثا: تسبيح الله آخر النهار و أوله.

رابعاً: التسليم للحق، والاستعاذه بالله من الكبر الذى يبعث البعض نحو المجادله فى آيات الله بغير سلطان أتاهاهم، ذلك أن هذا الكبر (الذى ينشأ من النزوع نحو الربوبية) لا- يبلغه الإنسان أبداً، وما قيمه الإنسان حتى يتكبر على ربه؟! أولاً- يرى أن الله خلق السموات والأرض وهن أكبر منه؟! ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

خامساً: العمل الصالح، ذلك لأنه لا يستوى الأعمى والبصير، كما لا يستوى المسيئون والصالحون، وأن الله يجازى كلا بعمله يوم تقوم الساعة، وبالرغم من أنها لا ريب فيها إلا أن أكثر الناس لا يؤمنون.

بينات من الآيات:

[٥١] لقد وعد الله -و من أصدق من الله قِيلاً- أن ينصر رسله الذين حملهم مسئولية بلاغ وحيه، وأمرهم بأن يتوكلوا عليه، ويفوضوا أمورهم إليه، وهيهات أن يخلف معهم وعده أو يخذلهم بعد أن أمرهم بالتوكل عليه، أو يتركهم بعد أن فوضوا أمورهم الى حسن تدبيره.

و هذا النصر يمتد الى تابعى الرسل من المؤمنين، لأنهم جميعاً يشتركون فى المسئولية والعاقبه.

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَكِي لَا يَزَعَمَ الْبَعْضُ أَنَّ نَصَرَ اللَّهِ مَخْصُوصٌ بِالْآخِرَةِ فَقَدْ أَكَّـدَ أَنَّ نَصْرَهُ يَمْتَدُّ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ:

فى الحياه الدنيا

و القرآن الكريم كله شاهد على مسيره النصر،شروعا من نوح عليه السلام و انتهاء بمحمد صلى الله عليه و آله و مرورا بسائر النبيين و الصّديقين و الشهداء و الصالحين،صلى عليهم جميعا ملكك السماء.

و إذا سرنا فى الأرض،و أثرنا ذخائر المدن،و بحثنا عن بقايا الحضارات البائده،وجدنا شواهد التاريخ تدلنا أيضا على تلك الحقيقه.

أما كتب التاريخ فبالرغم من أنها تأثرت بطبيعته المؤلفين لها إلا أنّ من قرأ فيها الحقائق و ترك التفسيرات يجد بين ثناياها ألف دليل و دليل على تلك الحقيقه.

و بكلّ المقاييس لا تزال حوادث الدنيا اليوميه تشهد امتدادا لحركه الأنبياء، عبر توسّع الديانات السماويه و المزيد من التوجّه الى تعاليمها.

بلى.إننا قد نجد مصير بعض الدعاه الشهاده أو لا- أقل الاعتقال و التهجير، فأين النصر منهم؟! أو لم يقتل السبط الشهيد بكربلاء؟!كما قتل المئات من أنصار الحق بعد استتباب الأمر للأمويين؟!بلى.و لكنّ النصر المطلوب ليس دائما انتصار الأشخاص،بل قد يفدى الشخص نفسه لدينه و قيمه راضيا مسرورا،و قد عبّر أحد الشعراء عن هذه الحقيقه فيما يتصل بالإمام الحسين سيد الشهداء عليه السلام :

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلى فيا سيوف خذيني

و عند ما سقط بطل الطف عن جواده مخنبا بالجروح البليغه،و حوله تناثرت جثث أهل بيته و أصحابه،و فى الأفق صيحات أطفاله:العطش العطش،و عويل النساء و الثكالى،حينذاك جمع حفنه من التراب،و وضع خدّه عليها،و ناجى ربّه قائلا:

«إلهى رضا برضاك،لا معبود سواك»بلى.إنّه كان يعلم أنّ السبيل

الوحيد لحمل الرساله إلى القلوب هو استشهاده،و أنّ قطره الدم أبلغ أنباء من الكتب و الخطب.

و لا يزال السبط الشهيد عالما يستلهم منه أبناء أمتنا البطولات،و يتصرفون لدينهم بأنفسهم..و كآين من مؤمن اعتلى عرش المشانق مطمئنا راضيا لتنتصر قيمه المقدسه،و كآين من مجاهد آثر الشهاده على الحياه ليعلو بناء الحق و العدل، و لتقوّض أركان الظلم و الفساد.

و سؤال أخير: كيف ينتصر الربّ لرساله و المؤمنين؟ ليس بالضروره أن يكون بصوره غيبية،مما نجدها في طوفان نوح،و تحوّل النار لإبراهيم الى برد و سلام،و عصا موسى،و إحياء الأموات عند عيسى،و تأييد رسولنا الأكرم بالملائكه المسوّمين،صلى الله عليهم جميعا.

بل قد يكون عبر السنن الجاربه في الخليقه،ذلك أنّ سنن الله الحاكمه في الكائنات قائمه على أساس الحق(فقد خلق الله السموات و الأرض بالحق) و رسالات الله تهدينا الى ذلك الحق،و رسل الله و المؤمنون مستقيمون عليه،و تلتقى أفكارهم و أعمالهم عند نقطه الحق مع حركه الخلائق جميعا،فلا جرم ينتصرون، أ رأيت لو أخبرت خصمك اللجوج أنّ الشمس تشرق بعد ساعه و كان حقا إنباؤك، فعند الشروق تنهار مقاومه،لأنها سنه الله ألا تتأخر الشمس عن شروقها لمجرد أنّ شخصا لجوجا يجادل في ذلك،كذلك حين أنبأت رسالات الله أنّ عاقبه الظالمين الدمار بالرغم من أنّهم يجادلون في ذلك،إلا أنه في ساعه الدمار لا أحد قادر على إنكار الحق،هكذا سنن الله تجرى في الاتجاه الذى تهتدى إليه رسالات الله و لن تجد لسنه الله تبديلا.

و التجلّى الأعظم لحقيقه رسالات الله لا يكون إلا عند قيام الساعه،ذلك لأنّ

الدنيا دار ابتلاء، و ستبقى فيها فرصه الإنكار أو الجدل لمن حقت عليه كلمه الضلال، فحتى عصا موسى الذى ابتلع جبال السحره لم يفحم فرعون الجاحد بل قال للسحره: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ. وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا .

و هكذا ذكرتنا الآيه هنا: أنّ النصر الشامل للرسل يكون عند انتهاء وقت الامتحان و حلول ساعه الجزاء.

وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ وَ الشَّهَادَةُ لِأَوْلِيَائِهِ، حيث يرى الناس المقام الكريم و المقام المحمود للرسل و المؤمنين حيث يقومون بالشهاده لهذا فيدخل الجنه و على هذا فيدخله الله النار.

[٥٢] أمّا الظالمون فهم الخاسرون إذ لا- تنفعهم الأعذار التى عاده يبرّون بها ظلمهم فى الدنيا، كما أنّهم يلاحقون بلعنه الله و الطرد عن بركاتة و رحماته، كما أنّ مستقرهم الأخير يكون النار.

يَوْمَ لَا- يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعِذَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [٥٣] لقد نصر الله المؤمنين من بنى إسرائيل عند ما هيا لهم قائدا كريما كموسى بن عمران، و زوده بالتوراه، فيها هدى يحتوى على جملة القيم و التعاليم المباركه، و فيها ذكرى و مواعظ لمن شاء أن يزداد قربا من ربه و وصولا الى الحقائق التى هى اللباب و الجواهر.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ

و يبدو أن الوراثه هنا توحى إلى أمرين:

الأول: إنَّ الكتابَ أعظمَ رأسمالٍ و أكبرَ مجد، و كان بمثابة المحور الثابت الذى تدور حوله فاعليات الأمة.

الثانى: إنَّ الكتابَ ظلَّ بينهم يرثه الجيل بعد الجيل بينما رحل عنهم قائدهم موسى عليه السلام.

[٥٤] و لم يكن وجود الكتاب بين بنى إسرائيل بذاته مفخره لهم بل الاهتداء به و التذكر بآياته و هذا كان خاصا بأولى الألباب.

هُدًى وَ ذِكْرٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ [٥٥] ماذا ينبغى أن يقوم به الرسل و المؤمنون تمهيدا لنصر الله، بل و ثمنا مدفوعا سلفا لهذه النعمه الكبرى؟ أولا: لا- بد من الصبر، و الذى يعنى- بمعناه الشامل- الصبر فى تنفيذ الأوامر، و الصبر عند الشدائد، و بكلمه: السعى و الاجتهاد الآن انتظارا للنتائج المستقبلية، فمن كان عجولا، و كان يفتش عن نتائج سريعه، فإنه لن يبلغ منها..

و رأسمال الصبر الإيمان بوعد الله، و أنه حق لا ريب فيه.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ثانيا: الاستغفار الذى يسقط سدود الذنوب التى تمنع النصر الإلهى، و يهيه أرضيه الفتح، و يوجه الإنسان الى نواقصه الذاتيه لكى يصلحها.

وَ اسْتَغْفِرْ لِدُنْبِكَ

ثالثا:التقرب الى الله بالمزيد من التسيح والتقدیس لمقام ربنا الكريم،حتى لا نظنّ برينا ظنّ السوء فيوسوس الشيطان في قلوبنا الشكوك حول وعده أو نفقد خلال المسيره شيئا من عزمنا في تأييد دينه.

رابعا:التقرب الى الله بحمده عشيا و بكورا،ذلك أنّ حمد الله يجعلنا نتبصّر النعم التي أسبغها علينا فتمنع عنّا القنوط و النظره التشاؤميه.

وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ إِنَّ حَمْدَ اللَّهِ يُؤَدِّي إِلَى تَسْبِيحِهِ،فمن عرف أنّ ما تصيبنا من حسنه فمن عنده و ما تصيبنا من سيئه فمن عند أنفسنا نزه ربّه من النقص و نسبه السيئات إليه سبحانه.

و لعل هذا أحد معانى الباء فى قوله «بحمد ربك»فيكون الحمد وسيله التقديس لربنا العظيم،و هو أقرب من أن نجعل معنى الباء مجرد المعية ليكون المفهوم سبّح و احمد ربك.

[٥٦]و لا بدّ أن نسلّم لرب العالمين،و معنى التسليم له الإيمان بآياته و الاحتراز من الجدل فيها،فمن يجادل فيها انطلاقا من أهوائه و بغير سلطان مبين و حجه واضحه من عقله فقد استحوذ عليه الشيطان،و أثار فى نفسه الكبر الذى انطوت عليه حيث نازعت ربّ العزه رداء الالوهيه فأخزاه الله و لعنه و أبعدته عن تحقيق مناه.

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمَجَادِلِ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْلِقُ مَنَافِذَ قَلْبِهِ عَنِ النُّورِ.أو ليست آيات الله فى الطبيعه و آياته فى الكتاب تجليات لظهوره و أمواج نوره،فمن نظر إليها نظره ذاتيه دون أن

يجعلها وسيله لبلوغ غيرها أصيب بالعمى. أ رأيت الذى ينظر الى المرآه ليعرف طولها و عرضها، لا يمكن أن ينظر الى صورته فيها، أو رأيت الذى يلاحظ فى علامات السير طبيعه خطها و طريقه صنعها، لا ينتفع بإشاراتهما، كذلك عالم الطبيعه الذى يركّز نظره فى خصائص ماده دون أن يجعلها معبرا إلى أسماء الله.

و من الناس من عقد عزمه على ألاّ يعرف الحقيقه، لأنّ الحقيقه تخالف ما انطوت عليه نفسه من الكبر، بل إنّ مجرد التسليم لها يتنافى و حاله الكبر التى فى قلبه.

بلى. إنّما يجوز الجدل فى آيات الله إذا كان يملك الإنسان الحججه الكافيه من الله، حينئذ يمكن تفسير آيه أو تأويلها انطلاقا من تلك الحججه، و أخذنا بمبدأ النسخ فى الآيات كما قال ربّنا: **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ**.

أمّا من لا يملك حججه و سلطانا، فلا يجوز له إلاّ التسليم.

بَغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ و يبدو أنّ المراد منه الوحى.

إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ **إِلَّا كِبْرٌ** مَا هُمْ **بِالْغَيْهِ** ما هو ذا الكبر الذى لا يبلغوه؟ هل هو مطلق الكبر و حبّ الذات، و هو النفس؟ أم أنه أكبر من ذلك؟ يبدو لى أنه نزعه الألوهيه فى النفس، حيث يزعم الإنسان أنه قادر على بلوغ درجه الألوهيه بإمكاناته المحدوده، و بعمره القصير.. و لعل سائر الخصال الذميمة تنبع من هذا الإحساس الخاطئ، و بالرغم من أنّ الإنسان لن يحقّق هذه الرغبه

فإنه يتعب نفسه من أجلها حتى يكون من الهالكين، و أبرز مثل لهذه النزعة الفراعنه و الطغاه الذين ينازعون الله رداء العظمه، و إنما آثار إبليس هذه النزعه فى نفس آدم أبى البشر حين أطمعه فى الخلود و الملك الدائم.

و كفار قريش و كل الكفار فى التاريخ و الحاضر يتبعون هذه النزعه حين يرفضون التسليم للحق، لأن تسليمهم للحق يفرض عليهم التسليم لقيمه و شرائعه، و لمن يمتثل تلك القيم و ينفذ الشرائع من القيادات الإلهيه.

و إن العلم- أى علم- يفرض على صاحبه مسئوليته و لذلك فهو صعب مستصعب، لأن احتمال المسئوليته أمر عظيم، لذلك ترفض النفس البشريه الانفتاح أمام حقائق العلم إلا بصعوبه بالغه.

و لكى نتخلص من جذر الفساد فى النفس و هو هذا الكبر، علينا أن نستعيد بالله، لأن الشيطان غوى مضل مبين، و هو يتقن أساليب المكر و الخداع، و يعرف من أين يدخل فى قلب هذا البشر الساذج، و لولا الاستعاذه بالله تضعف النفس أمام وساوسه و أمانيه.

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فهو يسمع أقوال المتكبرين و المجادلين و يبصر أعمالهم، كما يسمع همسات المناجين ربهم المستعيزين من مكر الشيطان و يبصر أعمالهم.

و نتساءل: كيف نستعيد بالله؟ أولاً: بالدعاء و المناجاه. و الملاحظ أن المؤمن قد تهجم عليه أمواج البلاء أو صنوف الإغراء فيتردد قليلا فى الأمر، و لكنه بمجرد أن يدعو الله حتى يعطيه القوه

ثانيا: بمعرفة الله و التقرب إليه بذكره و تسبيحه و الثقه بنصره.

[٥٧] و من الوسائل الناجحه لمحاربه كبر النفس النظر فى عظيم خلق الله و قيامه بذاته، فهل أنا المتكبر أكبر أم الجبال أم الأرض أم الشمس و القمر؟! أو أساسا: من أنا بالقياس الى هذا الخلق العظيم! لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ تعالوا لننظر الى ملكوت السموات و الأرض، لتتعرف على الحجم الحقيقى لأنفسنا، أنا واحد من خمسه آلاف مليون إنسان يمشون اليوم فوق كوكبنا، و الإنسان واحد من ألوف الأحياء، و الأحياء نوع من عشرات الأجناس غير الحيه، ثم كل ما فى الأرض لا تحتل إلا مساحه محدوده منها، ثم إننى لا أعيش عليها إلا سنين معدودات، لو قيست بالملايين من سنى عمر الأرض لكانت كلحظه خاطفه.

ثم الأرض هذه تابع صغير للشمس، فحجمها أقل من واحد الى مليون من حجم أمها، و هى لا- تزال تعيش على مقربه منها كالرضيع لا- يتعد عن أمه، و لكن مع ذلك تبلغ المسافه بين كوكبنا و الشمس حوالى ثلاثه و تسعين مليون ميل!! أما الشمس فهى من عضوات مجره تحتوى على نحو من مائه مليون شمس..

و لكن هذه المجره ليست الوحيده فى هذا الفضاء الأرحب، بل هى واحده من عشرات الملايين من المجرات اكتشفها البشر، و كلما اخترعوا أجهزه جديده اكتشفوا ملايين جديده من المجرات، حتى شاعت بين علماء الفضاء فكره تقول: إن الكون يشهد ولاده مجرات جديده لا تستطيع أن تلاحقها أجهزتنا المتطوره..

الله أكبر.. من أنا أمام هذا الحشد من المجرات!

قال رسولنا الأكرم لزينب العطاره التى زارته فى بيته قائله:إنما جئتك أسألك عن عظمه الله،فقال:جلّ جلال الله،سأحدّثك عن بعض ذلك.

ثم قال:و إنّ هذه الأرض بمن فيها و من عليها عند التى تحتها كحلقة فى فلاه قى (١)،و هاتان و من فيهما و من عليهما عند التى تحتها كحلقة فى فلاه قى و الثالثه..حتى انتهى إلى السابعه،ثم تلا هذه الآية: خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (٢)

و مضى الرسول صلى الله عليه و آله يبيّن طبقات الأرض و ما وراءها،و أنّ الواحده منها بالنسبه الى تاليتها كحلقة فلاه واسع،الى أن قال عن السماء:«و السماء الدنيا و من فيها و من عليها عند التى فوقها كحلقة فى فلاه قى،و هذا و هاتان السماء ان عند الثانيه كحلقة فى فلاه قى، و هذه الثالثه و من فيهن و من عليهن عند الرابعه كحلقة فى فلاه قى،حتى انتهى إلى السابعه،و هذه السابع و من فيهن و من عليهم عند البحر المكفوف عن أهل الأرض كحلقة فى فلاه قى (٣)و مضى النبى صلى الله عليه و آله يبين عظمه خلق الله حيث أنّ بعض خلقه أعظم من بعض كما الحلقة الصغيره فى الصحراء المتراميه،و هو أقرب مثل لاتساع المنظومات الشمسيه و المجزّات و ما أشبه.

فهل يحق لنا أن نتكبر على ربّنا الواسع الذى وسع كرسية السموات و الأرض أو ندعى مقامه سبحانه؟! هذا فى أفق المكان و امتداده.أما عن الزمان و امتداده فنحن لسنا أوّل ما خلق

ص:١٠٣

١-١) القفر من الأرض.

٢-٢) الطلاق ١٢.

٣-٣) التوحيد(للشيخ الصدوق)ص ٢٧٦.

اللّٰه، و لن نكون آخر خلقه سبحانه،

جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال في تفسير قوله تعالى: **أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** (١) قال: يا جابر تأويل ذلك أنّ الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلق و هذا العالم، و سكن أهل الجنة الجنة و أهل النار النار، جدّد عالما غير هذا العالم، و جدّد خلقا من غير فحوله و لا إناث يعبدونه و يوحدونه، و خلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم، و سماء غير هذه السماء تظلمهم. لعلك ترى إنّما خلق هذا العالم الواحد و ترى أنّ الله لم يخلق بشرا غيركم، بلى و الله لقد خلق الله ألف ألف عالم و ألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم و أولئك الآدميين « (٢) و أخيرا يرى بعض علماء النفس أنّ أفضل وسيلة لتربيته الإنسان أن يعطى له عند بلوغه مبلغ الرجال جهازان يرى بهما عظمه الخلاق، جهاز ميكروسكوب يرى به عجب لطف الصنع في خلقه الموجودات المتناهية في الصغر، و جهاز تلسكوب يرى به عظيم القدره في خلقه الأجرام المتناهية في الكبر.

[٥٨] هل يستوى من يستوعب هذه الحقائق ببصيره قلبه فيكون كالبصير، و الذي هو أعمى حتى لو اقتربت منه حقائق الكون جميعا لا- يعيها و لا يستوعب دروسها، و تراه كالشرنقه لا يزال في تلك الزنزانة الضيقه من نسيج أهوائه و شهواته و وساوس الشيطان.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ لَا الْمُسِيءُ أ رأيت الذي قضى عمره في جزيره مهجوره لا يعلم عن الدنيا شيئا، هل يختلف

ص: ١٠٤

١- (١) ق ١٥/.

٢- (٢) المصدر ص ٢٧٧.

بالنتيجة عمّن يعيش في غرفه ضيقه في وسط أضخم العواصم قد حجب نفسه عن كلّ ما حوله؟ كلا.. كذلك الكافر الذي تحيط به حقائق الكون فلا يستوعبها، ولا يعيش قلبه في أجوائها ولا تعيها بصيره نفسه، بل هو في ظلام جهله و جهالته، لا يعترف بشيء غير نفسه و أهوائها، إنه أشدّ عمى ممّن فقد عينه. أليس كذلك؟ و كم هو فرق بينه و بين من يعيش عوالم الخلق جميعا في ضميره و وعيه، و يرى نفسه منها و لا بدّ أن يتناغم سلوكه و سننها، لأنه يؤمن برّبها العظيم، و يعمل الصالحات التي أمر بها كما أمر سائر العوالم بمثلها.

قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ [٥٩] و في خاتمه الدرس يلخّص السياق عبره الحقائق التي ذكّر بها أنّها الساعه حيث يتبدّل النظام القائم هنا على أساس الابتلاء، بنظام يقوم على أساس الشهود و الجزاء.

إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا و كيف يرتاب في يوم تدلّ كلّ حقائق العالم على أنّه المنتهى، فحكمه الله التي تتجلّى في كلّ خليقه صغيره أو كبيره تدلّنا بوضوح كاف على يوم الجزاء.

و لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ فلا تتبع سلوكهم، و ذرهم يخوضوا في لهوهم، و أنقذ نفسك من المصير الذي ينتهون إليه بكفرهم بها.

وَ قَالَ رَبُّكُمْ اُدْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ اِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنِّ اَدْتِي سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيْنَ (٦٠) اَللّٰهُ الَّذِيْ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوْا فِيْهِ وَّ النَّهَارَ مُبْصِرًا اِنَّ اِلٰهَ لَدُوْ فَضْلٌ عَلٰى النَّاسِ وَّ لَكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُوْنَ (٦١) ذَلِكُمْ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَاَنى تُوْفِكُوْنَ (٦٢) كَذٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِيْنَ كَانُوْا بِآيٰتِ اَللّٰهِ يَجْحَدُوْنَ (٦٣) اَللّٰهُ الَّذِيْ جَعَلَ لَكُمْ اَلْاَرْضَ قَرَارًا وَّ السَّمٰوٰتِ بِنَآءٍ وَّ صَوَّرَكُمْ فَاَحْسَنَ صُوْرَكُمْ فَمَنْ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبٰتِ ذَلِكُمْ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ فَبَارِكْ اَللّٰهُ رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ (٦٥) قُلْ اِنِّىْ نُهَيْتُ اَنْ اَعْبُدَ الَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ لَمَّا جِئْتَنِى الْبَيِّنٰتُ مِنْ رَبِّىْ وَاْمُرْتُ اَنْ اُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعٰلَمِيْنَ (٦٦) هُوَ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْتَلُوْا اَشْدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُوْنُوْا شُيُوْخًا وَّ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفٰى مِنْ قَبْلِ وَا لَتَبْتَلُوْا اَجَلًا مُّسَمًّى وَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ (٦٧)

هدى من الآيات:

لكى نعالج الكبر الذى انطوت عليه النفوس، لا- بدّ أولًا: أن ننظر الى حجمنا بالقياس الى عظمه الخلاق، ثانيًا: إذا اطمأنت النفس الى عظمه البارئ الذى خلقها و أتقن صنعها، التجأت إليه بالدعاء، و خلعت رداء التكبر، و ارتدت ثوب العبودية لربّ العالمين، أمّا الذين يستكبرون عن عباده الله (و عن الدعاء و هو مَخَّ العباده) فسيدخلون جهنم داخرين، ثالثًا: نشكر ربّنا على نعمه التى تحيط بنا، و لولا واحده منها انعدمت حياتنا و تحوّلت الى جحيم لا يطاق، فهو الذى جعل الليل سكنا و النهار معاشًا، إنّه فضل عظيم، و لكنّ أكثر الناس لا يشكرون (و لذلك تجدهم يستكبرون).

و لماذا ينحرف البشر عن صراط الله الذى ربّاه و نعمه، و هو خالق كلّ شىء، و لا سلطان إلاّ سلطانه، و لا إله إلاّ هو الواحد الأحد؟ لأنّه يجحد بآيات الله (و هكذا عاد السياق الى موضوع رئيسى فى السوره، و هو التعامل مع آيات الله)

و آيات الله (التي هي السبل الى معرفته و عبادته) مبثوثة في الآفاق و في أنفسنا، فهو الذي جعل الأرض قرارا و السماء بناء (هذا عن الآفاق)، و هو الذي صور الإنسان في أحسن تصوير، و أغدق عليه من رزقه الطيب. إنه ربنا و رب العالمين تبارك و تعالى.

و هو الحي الذي تفرّد بالألوهية فإليه لا بدّ أن يجأ الإنسان خالصا له الطاعة و الانقياد، و إنّ له الحمد كلّ، لأنّه ربّ العالمين، لأنّه هدانا اليه بالبينات التي أرسلها، و يتجلّى حمدنا له في تحدّي الكفّار الذين يدعون الأنداد، و كذلك في تسليمنا له. أو ليس قد أسلم له كلّ شيء في العالمين؟ من هذا الإنسان المسكين الذي يتكبر على ربّه، و ينازعه رداء العزّه؟! إنّه مخلوق كان أصله التراب فجعله الله نطفه ثمّ علقه ثمّ أخرجّه طفلا- و رعاه حتى أضحي بالغا رشيدا، و أحاطت به نعم الله حتى أمسى شيخا، بينما البعض توفّاهم الله من قبل، كلّ قد حدّد له أجلا، كلّ ذلك بهدف أن يعرفوا ربّهم من خلال تطوّرات حياتهم و يعقلوا.

و بيده- لا بيد غيره- الحياه و الموت، و هو مطلق القدره، فعّال لما يريد، و أمره- إذا قضى شيئا- بين الكاف و النون.

بينات من الآيات:

[٦٠] الذين يعيشون في غياهب السجون، أو في ظلمات الحكم الطاغوتي، أو في ذلّ المهاجر بعيدين عن الأهل و الوطن. إنّ مثل هؤلاء سوف تهجم عليهم سحب اليأس و القنوط، و يتعرّضون لموجات من الشكّ و الارتياب. أحقّ نحن على حق أم هم؟ فلما ذا نراهم المسيطرين علينا، و إلى متى؟

و أكثر من هؤلاء جميعا، أولئك الذين يتحصّون بالتقاه، ويعيشون داخل الكيان الطاغوتي، حيث يتعرضون لعمليات غسل الدماغ المستمرة، و ترتبط مصالحهم و رغباتهم و مجمل وشائج حياتهم بعجله النظام، و في ذات الوقت يكتمون إيمانهم، و تكاد صدورهم تتفجّر ضيقا بالأسرار التي يحملونها، فما الذى ينقذهم من هذا الوضع، و أى وقود إيمانى يمدّهم بطاقه الاستمرار و قدره الاستقامه.. حيث لا- صله بالقياده، و لا- تفاعل مع المجتمع الإيماني، و لا جلسات للتعبئه الروحيه، و لا برامج اجتماعيه، و لا مصالح مشتركه مع المؤمنين.

لقد فتح الله لهؤلاء و أولئك جميعا باب الدعاء حيث تتصل قلوبهم بنور ربهم مباشرة، و ينهلون من نبع التوحيد الأصفى ما يمدّهم بالرجاء و الثقه و الاستقامه فقال ربنا:

وَ قَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ مَا هُوَ هَذَا الدَّعَاءُ؟ قَالَ الْمَفْسُرُونَ إِنَّهُ طَلَبُ الْحَاجَةِ مِنَ اللَّهِ، وَ تَفَرَّدَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِتَفْسِيرٍ آخَرَ حَيْثُ قَالَ أَنَّهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ، وَ يَبْدُو لِي أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ التَّقَطُّ إِشَارَةٌ خَفِيَّةٌ مِنَ آيَةٍ حَيْثُ أَرْهَفَ سَمْعَهُ إِلَى ضَمِيرِ «اذْعُونِي» وَ عَرَفَ أَنَّ الْمَعْنَى لَا تَدْعُو مِن دُونِي أَحَدًا، وَ حَقًّا: إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَا أَن يَدْعُو رَبَّهُ أَمْ يَدْعُو الْأُنْدَادَ.. وَ اللَّهُ يَأْمُرُنَا بِدَعْوَتِهِ دُونَ الْأُنْدَادِ، وَ سَوْفَ نَرَى- إِنْ شَاءَ اللَّهُ- كَيْفَ أَنَّ الدَّعَاءَ أَسْمَى دَرَجَاتِ التَّوْحِيدِ.

و عند ما وعد ربنا الاستجابه فإنّ ذلك يكون شرطاً ضمّياً بأن يكون الدعاء خالصاً لله، كما قال سبحانه: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ .

و لعلّ في كلمه «إِذَا دَعَانِ» إشاره الى هذه الحقيقه، كما نجد تصريحاً بذلك في قوله «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي».

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَكِبُونَ عَنِّي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ لماذا اعتبر الدعاء عباده؟ و أوعده الله على تركه النار؟ لكي نعرف الإجابة:

دعنا نتساءل: ماذا كان محور الخلاف الأصلي بين الموحّدين و المشركين؟ هل كان في وجود الله؟ كلا، هل كان في أسماء الله التي تتعلّق حسب المصطلح بذاته سبحانه؟ كلا، بل إنّ المشركين كانوا يعترفون بالله هو الخالق، و قد قال ربّنا:

وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (١) إنّما جوهر الخلاف و محوره الأصيل في كلمه: إنّ الموحّدين يقولون: إنّ الله هو المهيمن المدبّر لأمر الله، فهو القابض الباسط، المحيي المميت، المعزّ المذل، و هو الذي يولج الليل في النهار، و يولج النهار في الليل، و يدبّر الأمر ساعة بساعه و لحظه بلحظه، بينما كان يرى المشركون عوامل حتميه أخرى غير مشيئه الله في تدبير شؤون الخلقه، فيتوجّهون الى تلك العوامل من دون الله.

على أنّ المشركين قلوبهم شتى، و آراؤهم في ذلك مختلفه، إلا أنّ أبعدها ضلاله ما قالته اليهود بأنّ يد الله مغلوله، اتباعاً لفلاسفه اليونان حيث زعموا بأنّ الله قد فرغ من أمر الخلق و استراح و لا يمكن له التأثير في الخلق أبداً.

و تتناقض رسالات الله عن فلاسفه البشر في هذا المحور، حيث بشرت البشريه بأنّ ربّهم قريب منهم، يهيمن على حياتهم، و يسمع نداءهم، و يستجيب دعاءهم، و توضّحت هذه البصيره الإلهيه عبر آيات الذكر، و في تفسير أهل بيت النبي صلى الله عليه و آله

ص: ١١١

لكلمه (البداء) التي تعنى أن لربنا سبحانه مطلق المشيئة فى فعل ما يريد، و الذى تشير إليه الآيات القرآنيه:

إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (٢) وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣) كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤) لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥) أما الآيات التى تبين أن ربنا استوى على العرش و أنه المدبّر و المهيمن و الحاكم و ما أشبه مما تشير الى هذه الحقيقه بصوره ما فهى كثيره، بل هى - فى الواقع - المحور الأساس للقرآن كله.

و قد بينت آيات محكمات واقع البداء فى عدّه سور.. قال الله سبحانه:

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بَخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ

ص: ١١٢

١-١ (١) هود ١٠٧.

٢-٢ (٢) البروج ١٥-١٦.

٣-٣ (٣) الأحزاب ٣٧.

٤-٤ (٤) آل عمران ٤٠.

٥-٥ (٥) الأعراف ٥٤.

٦-٦ (٦) البقره ١٠٦.

يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ (١) لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٢) و جاء في تفسير أهل البيت لبصيره البداء في القرآن الكثير من الأحاديث الشريفة،

فقد روى عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال لسليمان المروزي: ما أنكرت من البداء يا سليمان والله عزّ وجلّ يقول: أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا، و يقول عزّ وجلّ: وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ يَقُولُ: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، و يقول: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ و يقول: وَ يَبْدَأُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ و يقول عزّ وجلّ: وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، و يقول عزّ وجلّ: وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ (٣) و

جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير قول الله عزّ وجلّ: وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ لَمْ يَعْزَمُوا بِذَلِكَ أَنَّهُ هَكَذَا.. و لكنهم قالوا: قد فرغ من الأمر فلا يزيد و لا ينقص فقال الله جلّ جلاله تكذبا لقولهم:

عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ أَلَمْ تَسْمَعْ لِلَّهِ عِزًّا وَ جَلًّا يَقُولُ: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٤) و ذكر الفخر الرازي في تفسير الآيه وجوها جاء في الرابع منها: لعله كان فيهم من كان على مذهب الفيلسوف، و هو إن الله تعالى موجب لذاته و إن حدوث الحوادث عنه لا- يمكن إلا- على نهج واحد، و إنّه تعالى غير قادر على إحداث الحوادث غير

ص: ١١٣

١- (١) المائدة/٦٤.

٢- (٢) الرعد/٣٨-٣٩.

٣- (٣) موسوعه البحار/ج ٤ ص ٩٥.

٤- (٤) المصدر/ص ١٠٤.

الوجه التي عليها يقع فعبروا عن عدم الاقتدار على التغيير و التبديل بغلّ اليد.

إنّ معرفه الله بأنّه قادر على كلّ شيء، و أنّه فعّال لما يريد، و أنّه كما أبدع الخلائق بعد ان لم تكن شيئاً، قادر على أن يبدع ما يشاء، هي المعرفة الحق، و هي التي تبعث على الثناء عليه و توصيفه بالحمد و الشكر، و أيّ حمد أو ثناء لمن لا يقدر على تغيير شيء حسب ما يزعمون.

و لذلك كان الاعتراف بهذه القدره للرب أي بالبداء أعظم عباده و أفضل تعظيم.

جاء في الحديث عن زراره عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليهما السلام) :

«ما عبد الله بشيء مثل البداء» (١)

و في حديث آخر عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : «ما عظم الله عزّ و جلّ بمثل البداء» (٢) و قال: «لو يعلم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه» (٣) و من مظاهر البداء الدعاء، ذلك أنّ في الدعاء اعترافا بسلطان الله الفعلي و المباشر على الخليقه، و أنّه القادر على أن يصنع ما يشاء فيما خلق، و أنّه المستعان على بوائق الدهور و نوائب الحياه، و لذا أضحي الدعاء العباده الأسمى، و قال ربّنا سبحانه: قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ .

و قد استعرض السياق القرآني كيف أنّ الرجال العظام بلغوا الدرجات الساميه

ص: ١١٤

١-١) المصدر/ص ١٠٧.

٢-٢) المصدر

٣-٣) المصدر/ص ١٠٨.

بالدعاء، شروعا من آدم أبى البشر حيث استغفر ربّه (بالدعاء) فغفر له، و آتاه النبوه و الصفوه، حتى نوح حيث دعا على قومه فأعانه الله عليهم بالطوفان العظيم، و إلى إبراهيم الذى ما ونى عن الدعاء فى كل موقع حتى اتخذه الله خليلا و جعله للناس إماما، و إلى موسى الذى نصره الله على فرعون بالدعاء، و كذلك سائر النبيين، الذين ما فتئوا يدعون ربّهم و يستجيب لهم الله بخرق سنن الطبيعه، فمثلا حين يرزق مريم من عنده، يتذكّر كفيها زكريا حاجه قديمه فى نفسه، فيدعو زكريا ربّه و يطلب منه ذريه، فيرزقه الله يحيى و كانت امرأته عاقرا، و قد بلغ من الكبر عتيا..

و هكذا يعرف من خلال حياه الأنبياء مقام العبد من ربّه، و كيف أنّه مقام الطلب و الدعاء، و هو من أبرز ما يستفيده المؤمن من قصص قدواته الصالحه الأنبياء و الأولياء،

و قد جاء فى الأثر عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير قوله سبحانه إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ قال: «الأواه الدعاء» (١)

و جاء فى حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه كان يقول لأصحابه: عليكم بسلاح الأنبياء، فليل: و ما سلاح الأنبياء؟ قال: «الدعاء» (٢) و للدعاء فوائد عاجله نتذكّر معا بعضها:

ألف: أنّه أفضل دواء لداء الكبر فى النفس البشريه. و إذا عرفنا أنّ الاستكبار أعظم حجاب بين العبد و ربّه، و هو العقبه الكأداء فى سبيل الصلاح و الفلاح، و هو مصدر أكثر الفواحش و الذنوب، فسوف نعرف أهميه الدعاء.

ص: ١١٥

١- (١) موسوعه البحار/ ج ٩٣ ص ٢٩٣.

٢- (٢) المصدر/ ص ٢٩٥.

و هكذا نجد في السياق القرآني هنا ما يوحي بأن من يستتكف عن الدعاء فقد استكبر عن عباده ربّه، و أنّه سوف يدخل جهنم داخراً، كما نجد هذه الآيه تأتي في سياق معالجه كبر النفس الذي لن تبلغه، الى جانب سائر طرق العلاج التي سبقت أو تأتي في هذه الآيات.

باء:الدعاء يلهم الأمل و يرفع اليأس، و يعيد إلى القلب حيويته و نشاطه و عنفوانه.

أ رأيت أعظم الهزيمة هزيمة القلب، و أعقد المشاكل انهيار النفس؟ بلى.

و الدعاء هو الدواء. كيف؟ إنّ الداعي يرجو ربّه الكبير أرحم الراحمين فكيف يعتريه اليأس؟ و هل يظماً من يرد على حياض مترعه؟

و قد روى عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: «إنّ الدعاء يردّ القضاء المبرم بعد ما أبرم إبراماً، فأكثر من الدعاء فإنّه مفتاح كلّ رحمه، و نجاح كلّ حاجه، و لا ينال ما عند الله إلاّ بالدعاء، فإنّه ليس من باب يكثر قرعه إلاّ أو شك أن يفتح لصاحبه» (١)

و روى عنه عليه السلام: «الدعاء كهف الإجابة كما أنّ السحاب كهف المطر» (٢)

و قد جاء في حديث-قدسى-مفصل عن النبي صلى الله عليه و آله عن جبرئيل عن ربّ العالمين أنّه قال: «يا عبادى كلّم ضالّ إلاّ- من هديته، فاسألونى الهدى أهدى لكم، و كلّم فقير إلاّ- من أغنيته، فاسألونى الغناء أرزقكم، و كلّم مذنب إلاّ- من عافيته، فاسألونى المغفرة أغفر لكم..الى أن قال ربّنا سبحانه: و لو أنّ أولكم

ص: ١١٦

١-١) المصدر/ص ٢٩٩.

٢-٢) المصدر/ص ٢٩٥.

و آخركم، و حيكم و ميتكم، و رطبكم و يابسكم، اجتمعوا فيتمنى كل واحد ما بلغت أمنيته فأعطيته لم يتبين ذلك في ملكي، كما لو أن أحدكم مرّ على شفير البحر فغمس فيه إبره ثم انتزعها (١) ذلك بأنّي جواد ماجد واجد، عطائي كلام، و عداتي كلام، فإذا أردت شيئاً فإنّما أقول له: كن، فيكون « (٢) جيم: الدعاء يزيد العبد حباً لربه، و الحبّ أفضل علاقه تصل قلب الإنسان برّب العالمين. إنّه يغمر القلب صفاء و عطاء، و حبّاً للناس و حبّاً للحياه، و بهجه و سكينه.. كذلك الدين ليس إلاّ الحب، و ما أغلى قيمه الحبّ إذا كان الحبيب ربّ السموات و الأرض.

و هل يشعر بوحشه من يعيش بقلبه في حضره ربّه؟ و هل يحسّ بالفقر من يجد مليك السموات و الأرض، و هل يجد الذلّ سيلاً الى قلب جليّس جبار السموات و الأرض؟ و من أحبّ ربّه سارع الى طاعته، بلا تكلف و لا توان و لا حزن، و كانت الصلاه قره عينه، و الزكاه مطيّه قربه، و الشهاده غايه مناه، لأنّ فيها لقاء ربّه. و إنّ أولئك الذين منّ الله عليهم بحبّه لا يبيعون لحظه مناجاته بملك الدنيا، لأنّ في تلك اللحظه وجدان الحقيقه و لذّه العمر، و حلاوه اللقاء بالحبيب.

و هكذا جاء في النصوص أنّ الله يحبّ الدعاء و يحبّ الدّاعين، و هل يحبّ الله أحداً ثم لا يرزقه حبّه، و هو أعظم نعمه؟! و

قال النبي صلى الله عليه و آله: «ما من عبد يسلك وادياً فيبسط كفيه فيذكر الله و يدعو

ص: ١١٧

١-١) معناه: إنّ كلّ تمنيات العباد ليست عند ملك الله الا بمقدار رأس ابره بالنسبه الى بحر عظيم.

٢-٢) المصدر/ص ٢٩٣.

إلا ملأ الله ذلك الوادى حسنات. فليعظم ذلك الوادى أو ليصغر» (١)

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «ما من شيء أحسن إلى الله من أن يسأل» (٢)

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السموات والأرض» (٣)

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لم يهلك مع الدعاء أحد، و ليسأل أحدكم ربه حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع، وأسألوا الله من فضله فإنه يحب أن يسأل» (٤)

وقال صلى الله عليه وآله: «إن الله يحب الملحين في الدعاء» (٥) دال: الدعاء يوفّر نية المؤمن لمتابعه مسيرته نحو الأهداف الصالحة، إذ مع طول الأمد يخبو الهدف في نفس صاحبه، خصوصا إذا واجهته الصعاب، فيتساءل: لماذا نسعى من أجله؟ وهل هو يستحقّ كلّ هذه التضحيات؟ فيأتي الدعاء ليكزس الغايات النبيلة في النفس، خصوصا الأمدعية المأثوره التي ترسم لنا خريطة متكامله للأهداف الساميه، فإذا بنا نزداد تعلقا بها كلما كزرناها.

هاء: الدعاء يساهم في تركيه النفس و التقوى، ذلك أنّ الإنسان ليعلم بفطرته أنّ دعاءه لا يستجاب إذا كانت بينه وبين ربه حجب الذنوب أو لم يف بعهد الله، وهكذا ينشط -بالدعاء- لتنفيذ واجباته.

ص: ١١٨

١-١ المصدر/ص ٢٩٢.

٢-٢ المصدر

٣-٣ المصدر/ص ٢٩٤.

٤-٤ المصدر/ص ٣٠٠.

٥-٥ المصدر

جاء في الأثر عن الإمام الصادق عليه السلام: «أطب كسبك تستجاب دعوتك، فإنَّ الرجل يرفع اللقمة الى فيه حراما فما تستجاب له أربعين يوما» (١).

و روى عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خمسه لا يستجاب لهم: رجل جعل الله بيده طلاق امرأته فهي تؤذيه و عنده ما يعطيها و لم يخل سبيلها، و رجل أبق مملوكه ثلاث مرّات و لم يبعه، و رجل مرّ بحائض مائل و هو يقبل إليه و لم يسرع المشى حتى سقط عليه، و رجل أقرض رجلا- مالا- فلم يشهد عليه، و رجل جلس في بيته و قال: اللهم ارزقني و لم يطلب» (٢) و العامل المشترك بين هؤلاء جميعا: الاكتفاء بالدعاء عن السعي. (٣).

و كلمه أخيره: إنّ من الناس من يحجم عن الدعاء بمجرد تباطؤ الإجابة عنه و هو لا يعلم:

أولا: أنّ توفيقه للدعاء أعظم مما يطلبه، و أنّ أجره عند الله أكبر بكثير من تحقيق رغباته العاجله، حتى أنّ المؤمن يتمنى يوم القيامة أن لو كانت أدعيته جميعا غير مستجابة في الدنيا لما يجد من الثواب العظيم لمن لم يستجب دعاؤه.

ثانيا: قد يدعو الإنسان بما يضره فيرحمه الله بعدم استجابته، و يبدله بما هو خير له.

ثالثا: بعض الدعاء يستدعى تغيير سنن الله التي لا- تتبدل، كأن يدعو المرء توقّف الأرض عن الحركة أو ألا يموت أبدا أو أن ينتهى الصراع القائم بين الناس أو

ص: ١١٩

١-١) المصدر/ص ٣٥٨.

٢-٢) المصدر/ص ٣٥٦.

٣-٣) للتفصيل في الدعاء يمكن مراجعته كتاب المؤلف عن الدعاء.

تتهاوى صروح الظالمين بلا جهاد و تضحيات، فإذا لم يستجب له يصيبه اليأس.

رابعاً: أنّ تأخير الاستجابة لا يعنى التعرّض للقنوط إذ أنّ الله قد جعل لكلّ شيء قدراً.

و لعلّ الله سبحانه قد أمر له بالاستجابة و لكن وفق سننه الجارية مما يحتاج الى بعض الوقت،

و جاء فى رائعته دعاء الافتتاح ما يهدينا الى حكمه التباطؤ فى الاستجابة :

«مدلاً عليك فيما قصدت فيه إليك، فإن أبطأ عنى عتبت بجهلى عليك، و لعلّ الذى أبطأ عنى هو خير لى، لعلمك بعاقبه الأمور، فلم أر مولى كريماً أصبر على عبد لئيم منك علىّ يا رب» [٦١] حين تأوى الخلائق الى مساكنها عند هبوط الظلام، و تستريح الى السكون و الهدوء، و تعيش خلايا الجسم و الأنسجه فى سبات بعيداً عن آثار أشعه الشمس، تتجلّى نعمه الليل التى جعلها الله سكناً، فلولا له لما تجلّت نعمه النهار للإنسان حين تستيقظ الطبيعه، نباتها و أحيائها، و تلبس الكائنات حلّه الضياء حتى لكأنّ بعضها يبصر بعضاً، إذ سبات الليل و سكونه يمهد لنشاط النهار و حركته و ضيائه.

□
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّهُ اللَّهُ الَّذِي قَدَّرَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ بِهذه الدّقه المتناهيه، فلو لا حركه الأرض حول نفسها فى مواجهه الشمس لما تعاقب الليل و النهار، و لو دارت بسرعه أكبر مما عليها لتناثر ما عليها و تفكّكت و أصبحت كهشيم يذرى فى الفضاء الأرحب، و لو دارت حول نفسها أبطأ ممّا عليها الآن لانعدمت الحياه بالبرد الشديد حيناً و بالحرّ الشديد

حيناً، فسبحان الذى قدّر الليل و النهار و ما أعجب حال الذى يستريح فى كنف الليل و يتقلب فى كَفّ النهار ثم يتكبر على ربه؟! إِنَّ اللَّهَ لَعَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ إِنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ عظيم نعم الله عليهم ليل نهار، و أنه لا حق لهم فيها، إنما هى فضل من الله عليهم و منه، و حق عليهم أن يشكروا ربهم الذى منّ عليهم بهذا الفضل، و أوفى الشكر أن يعرفوا بأنّه هو المنعم، فتخشع قلوبهم لذكره، ثم تسعى جوارحهم الى أوطان تعبده.

[٦٢] أنظر الى ما حولك من الكائنات. أو لا ترى فى كلّ شىء آثار قدره الله، و لطيف صنعه، و واسع علمه و خبره، و بالغ حكمته، و حسن تدبيره؟ بلى. كلّ شىء يسبح بحمد ربنا العظيم، و كلّ شىء ينطق بأفصح لغه بأنّ الله خالقه و مدبّر أمره، فهل خلقت الأشياء بذاتها أم وجدت صدفه و بلا عله و لا حكمه و لا تدبير؟! أى عقل يتقبل ذلك أم أى وجدان؟! ثم أين ينحرف البشر عن خالق كلّ شىء؟! أإله من دونه يتجهون إليه، أم يتممون صوب الضلال البعيد؟! ذلّكم الله ربّكم خالق كلّ شىء لا إله إلا هو أو يستقيم أن نقول: إنّ الله خالق كلّ شىء، و لكنّ من يهيمن على الأشياء هو غيره؟! فأنى تُوفّكون

و الإفك هو الانحراف، و إنما سمّيت الرياح الهوج بالموؤتفكات لانحرافها، و انما جاءتها الكلمه بصيغته المجهول للدلاله على أنّ العوامل الخفيّه التي تصرف البشر عن صراط الله تجرى بخلاف مصالحه حتى لكأنها تجبره على ذلك جبرا.

و أنّه لو اعتصم الإنسان بالله لما قدرت تلك العوامل على إضلاله عن سبيل ربّه و ربّ الكائنات.

[٦٣] و إنّما تهيمن عوامل الإفك على البشر، لأنّه لم يسلم لآيات الله بالرغم من وحي الفطره و دلاله العقل.

كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ فليس من سبيل هدى إلا في آيات الله، فإذا جحدها الإنسان فإنه ينحرف بفعل العوامل المضلّه.

و لا-ريب أنّ من آيات الله كتاب الله و رسوله، فمن لم يسلم لهما لم يعتصم بحبل الله، و من لم يعتصم بالله تقاذفته أمواج الفتن يمنه و يسارا، و حرّفته عوامل الضلاله الى التيه البعيد.

إنّ سبيل الله واحد، و هو الكتاب و الإمام، فمن جحدهما ألزمه الله التيه الى يوم القيامة.

و إنّ سبيل الله شرعه العقل المنور بالوحي، فمن اتبع أهواءه، و ظنّ أنّ لله طرقا بعدد أنفاس الخلائق، فقد افتري على الله بهتاناً عظيماً. أ رأيت معالم الطريق و إشارات المرور لو لم تأبه بها في سيرك، أين ينتهي بك المطاف؟ كذلك الذي لا يهتدى بمعالم الحقّ التي وضعها الله لعباده، و لم يتبع رسالاته و رسله و أوليائه الذين

يدعون الى رسالاته و يجسدون هدى رسله.

و كلمه أخيره: تبين لنا خواتيم الآيات فى هذا السياق درجات المعرفه و هى العلم و التذكر و الإيمان و التسليم و الشكر، كما تبين ما يخالفها من الإفك و الجحود، و هى فى ذات الوقت الذى تعالج حاله الكبر، تبين الموقف السليم من آيات الله، و هو موقف الانفتاح و التسليم، و تحذر بشده من الجحود بها الذى ينتهى الى الانحراف، و هذا التحذير نجده بصفه مكرره فى هذه السوره.

[٦٤] لا- ينبغى لمن يتقلب فى نعم الله أن يتكبر على ربه أو يجحد بآياته، فالله هو الذى جعل الأرض للإنسان قراراً، فلو كانت جاذبيه الأرض أقل أو أكثر إذا لصعبت الحركة فيها أو استحالت، و لو كانت قشره الأرض أسمك ممّا هى بمقدار بضعة أقدام لامتصّ ثانى أو كسيد الكربون الأوكسجين، و لما أمكن وجود حياه النبات، و لو كان الهواء أرفع كثيراً ممّا هو فإنّ بعض الشهب التى تحترق الآن بالملايين فى الغلاف الجوى كانت تدمر الأرض و لو كانت مادّه الأوكسجين بنسبه ٥٠٪ أو أكثر فى الهواء بدلا من ٢١٪ فإنّ جميع المواد القابله للاحتراق فى العالم كانت عرضه للاشتعال، لدرجه أنّ أول شراره من البرق تصيب شجره كانت تلهب الغابه ناراً، و لو أنّ نسبه الأوكسجين كانت أقل من ١٠٪ فإنّ مدنيّه الإنسان كانت غير موجوده (١) هذه الأرض التى كيفها الله حسب حاجات الإنسان، أو إن شئت قلت خلق الإنسان بحيث يعيش عليها بتناسق دقيق، إنّها قرار الإنسان.

أمّا البناء الذى يرتفع فوقه فهو السماء التى جعلها الله سقفا محفوظا و نحن عن آياتها معرضون، فلا علم لنا حتى اليوم بجميع أسرارها، بله المساهمه فى صنعها

ص: ١٢٣

إنّما هو فضل من الله و منه.

اللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ثُمَّ خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورِهِ وَأَفْضَلِ خَلْقٍ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ مِنْ جَمَادٍ أَوْ نَبَاتٍ أَوْ حَيْوَانٍ إِلَّا وَفَضَلَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَيْهِ تَفْضِيلًا فِي قُوَّةِ بَدَنِهِ وَصَلَابَةِ أَعْضَائِهِ وَقَدْرِهِ اِحْتِمَالِهِ لِلصَّعَابِ، وَزَوْدِهِ بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَ سَائِرِ الطَّاقَاتِ الَّتِي يَسْتَخِرُ بِهَا الطَّبِيعَةَ.

لقد زوّد الإنسان بالحياة ليكون وسيله تعايشه مع نظرائه و التصاقه بقيمه. أو ليس يقرى الضيف بالحياة، و يفى بالوعود بالحياة، و يقضى الحوائج، و يتحرى الفضائل، و ينشد الكمال، و يتنكب الرذائل و القبائح بفضيله الحياء التي خصّ بها دون سائر الخليقه؟ (١) و زوّد بالنطق ليكون وسيله التفاهم، و نقل التجارب، و تواصل المعارف، و تنامى العلوم المختلفه.

فإنّه لو لم يكن له لسان مهياً للكلام، و ذهن يهتدى به للأمر، لم يكن ليتكلم أبداً، و لو لم يكن له كف مهياً، و أصابع للكتابة، لم يكن يكتب أبداً، و اعتبر بذلك من البهائم التي لا كلام لها و لا كتابه. (٢)

و زوّد بالعلم عبر العقل و الوحي، و سخّرت به الطبيعه له حتى أصبح سيّدا مطاعا بين موجودات الأرض، هذا إلى جانب جمال الصوره، و حسن الوجه، و تناغم الأعضاء.

ص: ١٢٤

١-١) اكتسبنا الأفكار من كلمات الإمام الصادق عليه السلام في توحيد المفضّل، من موسوعه البحار/ ج ٣ ص ٨١.

٢-٢) المصدر/ ص ٨٢.

وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَلْيَبَارِكْ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِنَّ نَظْرَهُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَ إِمْكَانَاتِهِ وَ طِبَائِعِهِ وَ حَاجَاتِهِ، ثُمَّ إِلَى السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ آيَاتِهِمَا وَ عَطَائِهِمَا، وَ الْأَنْظُمَةَ الْجَارِيَةَ فِيهِمَا، تَهْدِينَا إِلَى وَحْدَةِ الْخَالِقِ.

وَ إِنَّهُ هُوَ رَبُّنَا، وَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، لِلتَّطَابُقِ الدَّقِيقِ وَ التَّنَاغُمِ التَّامِّ بَيْنَ تَصْمِيمِ الْكَائِنَاتِ وَ تَصْوِيرِ الْإِنْسَانِ الَّذِي خَلَقَتْ لَهُ.

وَ لَا تَسْعُنَا عِنْدَ مَا نَنعَمُ النَّظْرَ إِلَّا أَنْ نَسْبِّحَ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَ نَتَذَكَّرَ أَنَّ خَيْرَهُ عَظِيمٌ وَ ثَابِتٌ، وَ أَنَّهُ قَدْ تَضَاعَفَتْ بَرَكَتُهُ، وَ تَكَامَلَ خَلْقُهُ، وَ حَسَنَ تَدْبِيرِهِ.

[٦٥] وَ لَكِنْ حَاجَهُ الْكَائِنَاتُ إِلَى بَعْضِهَا، وَ حَاجَهُ الْإِنْسَانُ إِلَيْهَا، دَلِيلٌ عَجَزَ الْخَلَائِقُ وَ مَحْدُودِيَّتُهَا، وَ بِالتَّالِيِ إِنَّهُ يَكْشِفُ وَجُودَ نَسْبِهِ مِنَ الْمَوْتِ وَ مِنَ الْعَدَمِ فِيهَا.

فَهَذَا الْإِنْسَانُ حَيٌّ بِعَشْرَاتِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ السِّنَنِ الَّتِي تَحِيطُ بِهِ وَ قَائِمٌ بِهَا وَ مِنْ دُونِهَا فَهُوَ مَيِّتٌ، دَعْنَا نَأْخُذَ الطَّعَامَ مِثْلًا. أَوْ يَعِيشُ الْبَشَرُ مِنْ دُونِهِ؟ وَ كَذَلِكَ الْهَوَاءُ لَوْ انْعَدَمَ انْعَدَمَتْ حَيَاتُهُ. أَمْ لَا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّهُ مَيِّتٌ لَوْ لَا الطَّعَامُ وَ الْهَوَاءُ؟ مِنْ ذَلِكَ نَهْتَدِي إِلَى حَاجِهِ كُلِّ الطَّبِيعَةِ إِلَى حَيٍّ يَزُودُهَا بِحَاجَاتِهَا، وَ يَدَبِّرُ أُمُورَهَا، وَ هُوَ اللَّهُ الْحَيُّ.

وَ لَكِنْ يَتَّبِعُ الْبَعْضُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ فِي قِضَاءِ حَوَائِجِهِمْ. أَمْ لَا- يَرُونَ أَنَّهُمْ بِدَوْرِهِمْ مَحْتَاجُونَ؟ هُوَ الْحَيُّ حَيَاتُهُ بِنَاتِهِ، وَ حَيَاهُ غَيْرُهُ بِهِ، حَيَاتُهُ سَبَقَتْ الْمَوْتَ، وَ وَجُودُهُ سَبَقَ الْعَدَمَ.

□ □ □
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

فلا حياه إلا به، و إذا لا سلطان إلا سلطانه، فمن طلب حاجه أو أراد عزًا فليجأ إليه خالصا له الدين.

فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ و سَلِّمُوا لَهُ، و احمده حتى يستجيب لكم.

□
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

□
فقد جاء في الحديث المروي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: إذا قال أحدكم «لا إله إلا الله» فليقل «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١) بلى. إذا عرفنا ربنا بأسمائه الحسنى، و أخلصنا له التيات، فإنه يستجيب الدعاء بفضله،

جاء في حديث قال قوم للإمام الصادق عليه السلام: ندعوه فلا يستجاب لنا؟ قال: «لأنكم تدعون من لا تعرفونه» (٢) [٦٦] لقد تدرج السياق معنا في مراتب الكمال خطوه فخطوه، فعالج الكبر الذي يحجب صاحبه من الاهتداء بالآيات، و بيعته نحو الجدل فيها، و بسط القول في آيات الله في الآفاق و في أنفسنا، ثم أمرنا بالتسليم لله رب العالمين.

و ها هو الآن يأمرنا بمواجهه الأنداد، ذلك أن الإيمان الحق يتبين عند ما يحنف صاحبه عن البيئه الفاسده، و يتطهر من دنس الشرك و الخضوع لغير الله، و يكون خالصا دينه لله.. و لن يكون ذلك مع مدهانه المشركين، بل يجب تحديهم.

□
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

ص: ١٢٤

١- ١) نور الثقلين/ ج ٤ ص ٥٣٤.

٢- ٢) المصدر/ ص ٥٣٥.

و رفضى للالهه المزيفه نابع من إيمانى الخالص بالله و الذى هدانى إليه الله بالأدله اليينه.

لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ وَإِنَّا نَجِدُ تَأْكِيدًا مُجَدِّدًا عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِتَصْفِيهِ مَا تَبَقِيَ مِنْ آثَارِ الْكِبَرِ فِي النَّفْسِ، وَ هَلْ يَفْكَرُ عَاقِلٌ بِمَنَازَعِهِ رَبِّ هَذِهِ السَّمَوَاتِ الْوَاسِعَةِ وَ الْأَرْضِينَ الَّتِي نَشَاهِدُ عَنْ قَرَبِ عَجْزِنَا عَنْ مُوَاجَهَةِ بَعْضِ قَوَاهِئِهَا؟! [٦٧] وَ يَسْتَعْرِضُ السِّيَاقَ تَدْرِجًا الْإِنْسَانَ فِي مَرَاكِلِ الْخَلْقِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، وَ كَيْفَ أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ فِي كَفِّ السِّنَنِ الرَّبَّانِيهِ مِنْ لَدُنْ كَانَ تَرَابًا إِلَى أَنْ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ نَطْفِهِ ثُمَّ مَتَقَادِمًا مِنْ ضَعْفٍ إِلَى ضَعْفٍ حَتَّى أَضْحَى بَشَرًا سَوِيًّا، ثُمَّ يَنْكَسِرُ اللَّهُ فِي الْخَلْقِ بَعْدَئِذٍ حَتَّى يَبْلُغَ أَرْدَلِ الْعُمُرِ، فَهَلْ يَجُوزُ لِمِثْلِ هَذَا الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَكْبِرَ أَوْ يَتَكَبَّرَ؟! هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ عِنْدَ مَا خَلَقْنَا اللَّهَ جَمِيعًا فِي صُورِهِ ذَرٌّ مِنْ تَرَابِ الْأَرْضِ مَعَ أَبِيْنَا الْأَكْبَرِ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ.

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ بَيْنَ الذَّكَرِ وَ الْأُنْثَى. وَ لَوْ قَدَّرْنَا أَنْ نَرَى النُّطْفَةَ هَذِهِ لِاحْتِقَرْنَاهَا، وَ اسْتَصَغَرْنَا قَدْرَهَا، وَ لَكِنَّهَا -بِالتَّالِي- طَوْرًا مِنْ أَطْوَارِ خَلْقِنَا.

ثُمَّ مِنْ عُلُقَةٍ حِينَمَا تَجْتَمِعُ الْخَلَايَا إِلَى بَعْضِهَا وَ تَتَنَامَى حَتَّى تَبْدُو فِي صُورِهِ قِطْعَهُ دَمٍ عَالِقَهُ

بالرحم.

ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً نَاشِئاً بِحَاجِهِ إِلَى حَنِينِ الْأُمِّ وَحَمَايَةِ الْأَبِّ، وَالمَحَافِظَةَ مِنْ عَشْرَاتِ الْأَخْطَارِ الَّتِي تَحِيطُ بِهِ لِضَعْفِ بَنِيَّتِهِ وَصِغَرِ حِجْمِهِ.

ثُمَّ لِيَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ كَمْ هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَسَاهَمُ فِي بُلُوغِ ذَلِكَ الْوَلِيدِ الصَّغِيرِ مَرِحَلَةَ الشَّبَابِ وَالْفِتْوَى! ثُمَّ لِيَتَكُونُوا شُيُوخًا وَتَمَرَّ بِكُمْ أَلُوفِ الْأَخْطَارِ الَّتِي يَنْقُذُكُمْ اللَّهُ مِنْهَا حَتَّى يَضْحَى الْإِنْسَانُ شَيْخًا، وَ لَكِنَّ الْبَعْضَ يَخْتِطِفُهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ قَبْلَئِذٍ لِيَكُونُوا عِبْرَةً لِمَنْ نَعَى.

□
وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبِيلٍ وَ لِيَتَبَلَّغُوا أَجْلاً مُسَمًّى فَلَا يَمُوتُ الشَّخْصُ حَتَّى يَسْتَوْفَى أَجْلَهُ فِي الدُّنْيَا. وَ كَمْ مِنْ مَرِيضٍ دُفِنَ أَوْ مَعَارِضَ لِلسُّلْطَاتِ الْقَوِيَّةِ أَوْ مُحَارِبٍ فِي مِيَادِينِ الْقِتَالِ، يَتَطَاوَلُ بِهِ الْعُمُرُ مَتَجَاوِزًا مِائَاتِ الْعُقَبَاتِ، بَيْنَمَا يَمُوتُ الشَّابُّ الصَّحِيحُ الَّذِي يَحِيطُ نَفْسَهُ بِكُلِّ الْمَوَانِعِ، لِيَكُونَ مَعَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْأَجَلَ نَعْمَ الْحَارِسَ.

وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَرَادَ رَبِّكُمْ مِنْ تَطَوُّرَاتِ الْحَيَاةِ أَنْ تَتَعَرَّفُوا عَلَيْهِ، وَ أَنْ تَسْلَمُوا لَهُ، وَ أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

ص: ١٢٨

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَمَا إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّهُ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْعِقُونَ
(٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي
الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ
شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)

هدى من الآيات:

فى إطار معالجه داء الكبر الذى يحجب الحقائق عن الإنسان، و يبعثه نحو المجادله فى آيات الله، يذكّرنا الله بأنّ الحياه و الممات بيده، و أنّ قدرته لا تحدّ، و أنّ عاقبه الكبر فى الآخره هى السوءى، إذ الأغلال فى أعناقهم، و السلاسل تحيط بهم، و يسحبون الى مأواهم الأخير عبر مياه حاميه، و يقذف بهم فى النيران كما يقذف بالوقود فى التّنور.

و خلال التعذيب الشديد يبتون ليتمّ تعذيبهم نفسيا، و يقال لهم: **أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** (و تظنون أنّهم ينفذونكم من نار جهنّم لو ارتكبتم السيئات)؟! قالوا: ضلّوا عنّا (فلا- نرى لهم أثرا) ثم قالوا: إنّهم فى الواقع لم يكونوا سوى أوهام و تخيلات، فيقال لهم: إذا ذوقوا عذاب الله جزاء فرحكم (النفسى) و مرحكم

(العملى)فيدخلونهم(بعد أن يتمّ تعذيبهم فى القيامة)أبواب جهنم التى هى المثلوى البئس للمتكبرين.

و الملاحظ أنّ السياق الذى يذكرنا منذ الآيه(٣٥)عن الجدال فى آيات الله بين أولاء جزاء المجادلين فى آيات الله جزاءهم فى الدنيا بالختم على قلوبهم، ثم بين أنّ دافعهم الكبر فعالجه(٦٥)و ها هو يبين جزاءهم الأخرى (١)

بينات من الآيات:

[٦٨]كلّما قضيت على نسبة الكبر فى قلبك كلّما اقتربت من حقيقه نفسك و حقائق الكائنات من حولك، و اقتربت من معرفه ربك و أسمائه الحسنى التى تتجلى فى الخلائق، فهذه الحركه النسيطه من الموت الى الحياه و من الحياه الى الموت التى تقرّبنا الى كشف جوانب من ذلك اللغز الكبير فى الموجودات الذى نسميه بالحياه، هى أعظم مدرسه لمن طلب الحقيقه.

إنّنا أقرب شىء الى الحياه، فكلّنا و الحمد لله أحياء نعيش الحياه بكلّ جوارحنا و جوانحنا و أحاسيسنا و معارفنا، و لكن فى ذات الوقت-أبعد شىء عنها. ما هى الحياه حقًا؟ لعلّ هناك فروقا نتعرف عليها بين الحىّ و الميت، و لكن حقيقه الحياه هل عرفنا عنها شيئًا؟ كلاً.. ثم ما هى القدره المطلقه لربنا العظيم الذى يحيى و يميت؟ و كيف نتلمّس يد الغيب تحرك هذه الكائنات بين الموت و الحياه؟ عند ما تدبّ أيام الربيع الحياه فى أشجار الحديقّه القريبه منك، و فى نباتها، هل تدبّرت فيها لتقترب من لغز الحياه؟ عند ما استقبلت لأول مرّه و ليدك الجديد و هو يحاول أن يتكيف مع الدنيا

ص: ١٣١

الجديده،هل فكّرت فيمن أحياه كما أحياك من تراب ثم من نطفه؟ و أكثر من ذلك حين تقف على جثمان فقيد،هل تصوّرت الموت بجلاله و رهبته كيف اختطفه من بينكم،و ما الذى جرى عليه؟ إنّ بيننا و بين حقائق الخلق حجبا من كبر أنفسنا و غرورها،تعالوا نخرقها لنعرف جانبنا ممّا حولنا،و ليعرّفنا الربّ نفسه.

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ كَيْفَ يُحْيِي وَ يَمِيتُ؟ إِنَّ قُدْرَتَهُ لَا تَحَدُّ فَإِذَا قَضَىٰ شَيْئًا يَكْفِي أَنْ يَلْقَىٰ بِأَمْرِهِ إِلَيْهِ فَيَنْفِذُ فَوْرًا.

فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَ لَعَلَّ هَذِهِ الْخَاتَمَةُ جَاءَتْ لِبَيَانِ عَظَمَةِ الْإِحْيَاءِ وَ الْإِمَاتَةِ، وَ أَنَّهَا يَتَحَقَّقَانِ بِأَمْرِ غَيْبِي.

[٦٩]إذا كان موقف الإنسان من آيات الحقيقه و شواهدا سلبيا منذ البدء، لم يستطع بلوغ المعارف. أ رأيت الذى يجحد أصلا بوجود المصباح، كيف يستضىء بنوره؟ و هذه هى مشكله أكثر الناس، فهم يجادلون فى آيات الله، فلا يفتحون لها أفئدتهم، بل و لا أبصارهم، و ذلك بسبب حواجز نفسيه. ترى كيف ينبغى ثبهم عن هذا الموقف؟ الجواب نجده فى منهج القرآن عند ما يدعو إلى الله و عند ما يذكّرنا بآيات الله.

إنّه فى البدء يعالج هذا الموقف السلبى تجاه الآيات و الذى يسمّيه بالمجادله فيها، ثم يستعرض الآيات بعدئذ.

ففى هذا السياق مثلا نجد القرآن قد بصّرنا فى الآيه (٣٥) بعاقبه الجدل فى آيات الله، و كيف أنّ الله يطبع على كلّ قلب متكبر جبار، و ضرب لنا مثلا من تكذيب فرعون، و كيف زين له سوء عمله، و صدّ عن السبيل، و فى الآيه (٥٦) عاد مرّه أخرى إلى قضيه الجدل فى آيات الله، و بيّن كيف أنّه ينبعث من الكبر الذى لن يبلغه البشر، ثم نسف أساس هذا الكبر المزيف ببيان عظمه الخلق، ثم عاد و للمرّه الثالثه الى ذات الموضوع فى هذه الآيه ليبيّن عاقبه الجدل و جزاءه فى الآخره.

و فى كلّ مرّه نرى السياق بعد أن يحذّر من مغبه المجادله فى آيات الله، يبيّن طائفه منها لتعمر القلب-الذى طهر من حجب المعادله و الموقف السلبي تجاه الآيات-بضياء المعرفه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضَيَّرُونَ إِلَى أَى واد ضلال تسوقهم شهواتهم؟ و يبدو أنّ الآيات عامّه تشمل كلّ علامه تهدينا الى الحقيقه، إلّا أنّها هنا جاءت بمناسبه الحديث عن أدلّه النشور و شواهد الجزاء و المسؤوليه فهى تمهد لذكر تلك الآيات.

[٧٠] أولئك الذين كذبوا بالكتاب و بما أوحى الله إلى رسله من أحكام ينتظرهم جزاؤهم العادل.

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَ بِمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رَسُولُنَا لَعَلَّ ذَكَرَ الرُّسُلَ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى ضَرُورَةِ التَّسْلِيمِ لِلْحَقِّ، وَ أَيْضًا لِلشَّخْصِ الَّذِي يَمْتَلِهُ وَ هُوَ الرَّسُولُ وَ الْإِمَامُ، ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ الْوَحْيِ لَيْسَ مَفْصَلًا فِي الْكِتَابِ، بَلْ مِنْهُ مَا

بَيَّنَّه الرِّسُولُ فِي سُنَّتِهِ، وَأَنَّ مِنْ كَذَبِ رِسُولٍ وَاحِدٍ أَوْ بَكْتَابٍ وَاحِدٍ فَكَأَنَّمَا كَذَّبَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَبِالرِّسُولِ جَمِيعًا.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَيعرفون أَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ يَجْزُونَ بِهِ.

[٧١] إِنَّهُمْ يَسْحَبُونَ بِالْأَغْلَالِ الَّتِي فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلِ الَّتِي قَيَّدُوا بِهَا.

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ يَا لَلْخِزْيِ! هَكَذَا يَقْتِيدُهُمُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُمْ فِي الدُّنْيَا الْحَرِيَّةَ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا، بَلْ قَيَّدُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْأَغْلَالِ الشَّهَوَاتِ وَالسَّلَاسِلِ الْأَنْظُمَةِ الشَّرَكِيَّةِ.

[٧٢] وَلَكِنْ.. فِي أَيِّ وَادٍ يَسْحَبُونَ؟ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُشَجَّرُونَ يَجْرُونَ فِي مَاءٍ حَارٍّ مَحْمُومٍ ثُمَّ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا النَّارَ الَّتِي يَلْقَوْنَ فِيهَا حَتَّى تَلْتَهَبَ بِأَجْسَادِهِمْ كَمَا يَسْجُرُ النَّوْرُ بِالْوَقُودِ.

[٧٣-٧٤] كُلِّ ذَلِكَ - كَمَا يَبْدُو - يَجْرَى عَلَيْهِمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَقْتَحِمُوا فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْحُكْمَ الصَّادِرَ بِحَقِّهِمْ، وَالجِرمَ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ ذَلِكَ الْحُكْمَ.

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَقَدْ آمَنُوا بِالطَّاغُوتِ، وَخَضَعُوا لِلْمَجْتَمَعِ الْفَاسِدِ، لِلْمُتَرْفِينَ وَادِّعَاءِ الْعِلْمِ

و الذين، و زعموا أنّ ركونهم الى تلك الآلهه المزيفه تنجيههم من عذاب الله فسلوا عنهم.

□ قالوا ضلوا عنا فلا نجد لهم أثرا. بلى. إنهم ضلوا عن الحق في الدنيا اعتمادا عليهم، و لكنهم اليوم قد ضلوا عنهم.

بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا هَلْ إِنَّهُمْ شَرَعُوا فِي الكَذِبِ عَلَى رَبِّهِمْ بَعْدَ أَنْ وَجَدُوا صِرَامَهُ الْجِزَاءِ، وَ عَنفَ التَّبَكُّيْتِ، وَ خَزَى الشَّمَاتِهِ، أَمْ أَنَّهُمْ بَيَّنُّوا حَقِيقَةَ طَالَمَا أَخْفَوَهَا فِي الدُّنْيَا، وَ هِيَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا أَسْمَاءَ، وَ إِنَّمَا الْآلِهَةُ خَيَالَاتٌ وَ أَوْهَامٌ.

□ كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ □ حتى يعبدوا مجرد أوهام، لأنهم كفروا بآيات الله، و كذلك يذهب سعيهم في الحياه الدنيا سدى فلا يستفيدون منه في الآخره.

[٧٥] لقد أذهبوا طيباتهم في الدنيا، و سعوا نحو اللذات العاجله دون الأهداف الساميه.

□ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْمَارِضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالحِسَابِ يَمْتَلئُ غُرُورًا، وَ يَسْعَى فِي الْأَرْضِ بِالْبَاطِلِ، دُونَ كَوَائِحٍ أَوْ ضَوَابِطٍ، وَ دُونَ أَنْ يَأْبَهُ بِمَسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِ أَوْ عَاقِبَةِ أَعْمَالِهِ، وَ لَعَلَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى

و إذا فاض غرور المرء طفق يمرح، و ينشط في اتباع الشهوات، و يسرف في اللهو و الطرب، و يتدع وسائل جديده لقضاء الوقت (١) [٧٦] و جزء هذا الانسياق مع رياح الشهوات، و الترف في الملذات، هو ذلك الحميم، و السجر بالنار، و التبكيت، و الخلود في جهنم.

أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا و لماذا لا يدخلون من باب واحد؟ هل لكثرة عددهم أم لتنوع جرائمهم، حتى أدخل كل فريق من باب مختلف عن غيره؟ كل ذلك جائز، و علينا أن نسعى جاهدين لإغلاق كل أبواب النار من دوننا، و ذلك بتجنب كل طرق الضلال و سبل الفساد.

فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ و إن جدر سائر المفاسد هو الكبر الذي يتعالى به البشر عن سنن الله، و جزء المتكبرين الخلود أبدا في جهنم، و ساءت مصيرا.

ص: ١٣٦

١- ١) نقل عن اللغة: الفرحة انشراح الصدر بلذة عاجله، و المرح شدّه الفرحة و التوسع فيه (تفسير نمونه/ ج ٢ ص ١٧٦).

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ (٧٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضِ صَ عَلَيْهِكَ وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ حُدَّهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)

هدى من الآيات:

ما هو موقف الرسول و الرسالين من هؤلاء المجادلين فى آيات الله الذين بين السياق فيما مضى من الآيات انغلاق قلوبهم، و كبر صدورهم، و عاقبه أمرهم؟ إن عليهم الصبر بانتظار وعد الله الحق، و سواء أراهم الله بعض الجزاء الذى وعد أعداءهم أو توفاهم قبلئذ فإن الأمر بيده، و هذه سنه الرسل الماضين، سواء منهم الذين قص علينا القرآن عنهم شيئاً أو لم يقصص، فحتى الآيات التى تجلت على أيديهم إنما كانت بإذن الله، و لم ينزل العذاب على أممهم إلا بعد أن جاء أمر الله فقضى بينهم بالحق، فنجى المؤمنون، و خسرو هنالكَ المبطلون.

و يذكر السياق بآيات ربنا، و كيف جعل فى الأنعام ألوانا من النعم، نركبها و نأكل منها، و نستفيد من أشعارها و أوبارها و نترين بها، و نشبع عبرها حب التملك و السيطرة التى فى أنفسنا، و تحمل أثقالنا كما تحمل السفن.. و أعظم نعمه أنه يرينا

بها آياته حتى نحظى بمعرفه خالقنا العزيز، فما ذا ننكر من آيات ربنا؟! و لكي يرفع القرآن حجاب الغرور الذي يمنع الاهتداء بآيات الله، يذكرنا بعاقبه الكافرين بها، و يأمرنا بأن نسير في الأرض لننظر كيف كان عاقبه الذين من قبلنا.

أو لم يكونوا أكثر عددا منا و أشد قوه و أعظم آثارا في الأرض، و لكنهم دمّروا شر تدمير لما كذبوا، و لم تشفع لهم مكتسباتهم الماديه؟! إنهم أنذروا عبر الرسل، و لكنهم فرحوا بما لديهم من علم ضئيل و اغتروا به فلم يستجيبوا للنذر، فأحاط بهم ما كانوا به يستهزون.

و استمروا في غيهم حتى رأوا بأس الله، هنالك قالوا: آمنا بالله وحده، و كفرنا بالشركاء من دونه.. و لكن هل نفعهم إيمانهم؟ كلا.. جرت سنه الله بعدم ذلك، و خسر هنالك الكافرون.

أ فلا نعتبر بمصيرهم، و نستجيب لنذر الله، و نستمع إلى رسله؟!!

بينات من الآيات:

[٧٧] حين شاء الله خلق السموات و الأرض لم يخلقهما فجأه بل قدر لذلك سته أيام، و هكذا كان عالمنا عجينا بالزمن، و هكذا جرت سنه الله في سائر ما يقضيه من شؤون الدنيا، و لو افترضنا جدلا أن كل شيء يتحقق فورا لكانت ملامح عالمنا مختلفه جدا عن واقعنا اليوم، و لما تحققت حكمه الرب في الابتلاء، فهل كان مجرم يقترف ذنبا لو كان جزاؤه عاجلا، أم كان بشرا يني من السعي نحو المكرمات لو جاء ثوابها فورا؟! لا بد- إذا- من الصبر حتى يمضى الأجل المحدد، و يبلغ الكتاب نهايته، و هنالك لا يتأخر الجزاء ساعه واحده، فلو تكاثفت و تركزت جهود أهل الأرض

جميعا لتمديد حكم ظالم بلغ أجله لحظه واحده لما قدروا.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ سَوْفَ يَدْمُرُ الظَّالِمُونَ شَرَّ تَدْمِيرٍ، وَ سَوْفَ تَلَّاحِقُهُمْ لَعْنَةُ اللّٰعِنِينَ، وَ سَوْفَ يَتَنَصَّرُ الرَّبُّ لِرِسَالَاتِهِ، وَ يُمْكِنُ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ، كُلَّ ذَلِكَ وَعَدَ مِنَ اللَّهِ، وَ لَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَ لَكِنَّهُ بِحَاجَةِ إِلَى الصَّبْرِ.

فَإِمَّا أَنْزَرَيْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا لَمُزَجِّعُونَ بِمَا أَنَّ الرَّسُولَ وَ مَنْ يَتَّبِعُ نَهْجَهُ لَا يَبْحَثُ عَنِ النَّصْرِ لِنَفْسِهِ، بَلْ لِرِسَالَتِهِ، فَإِنَّ النَّتِيْجَةَ عِنْدَهُ وَاحِدَةٌ سِوَا أَنْتَصَرْتَ مَبَادِئَهُ فِي حَيَاتِهِ أَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

إِنَّ الرَّسُولَ وَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ شَرَوْا أَنْفُسَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاهِ اللَّهِ، وَ لَا يَبْحَثُونَ عَنِ تَشْفِي نَفْسِهِمْ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، بَلْ يَفْوِضُونَ أَمْرَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ فَسِوَا أَنْتَصَرُوا أَمْ تَوْفُوا، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَدَّوْا وَاجِبَهُمْ.

حَقًّا إِنَّهُ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْإِيْثَارِ، يُؤَدِّبُ اللَّهُ بِهَا مِنْ اصْطِفَاهُمْ مِنْ عِبَادِهِ الْأَكْرَمِينَ! كَمْ هِيَ صَعْبَةٌ (وَ عَظِيمَةٌ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ) أَنْ يَسْتَخْلَصَ قَلْبَ الدَّاعِيَةِ مِنْ كُلِّ رَغْبَةٍ خَاصَّةٍ حَتَّى وَ لَوْ كَانَتْ رَغْبَةُ الْإِنْتِقَامِ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ.

وَ لَكِنْ هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ فِي حَرَكَةِ اتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَ لَوْلَا هِيَ لَكَانَتْ تَزِيغٌ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَ لَا نَعْدَمُ الْإِطْمِئْنَانَ إِلَيْهَا وَ إِلَى حَمَلَتِهَا، وَ لَمْ تَقْمِ الْحِجَّةُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ حَيْثُ أَنَّ طُلَّابِ الْمَنَاصِبِ كَثِيرُونَ، وَ لَوْ وَضِعَ هَؤُلَاءِ أَيْضًا الْمَنَصِبَ نَصَبَ أَعْيُنِهِمْ لِأَشْتَبَهُ الْأَمْرَ عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ، فَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ أَيْضًا اتَّخَذُوا الدِّينَ وَسِيلَهُ

للسلطه، كلاً.. إن هؤلاء من نمط آخر، فحتى لو سعت إليهم السلطه سعياً ابتعدوا عن لذاتها و بهارجها، فهذا قدوتهم المثلى سيد البشر محمد بن عبد الله و خاتم النبيين صلى الله عليه و آله سعت إليه قريش يعرضون عليه أجمل نساءهم، و أصفى أموالهم، و الملك عليهم، فرفض إلا تبليغ دعوته.

و لو خالط حب الدنيا قلب الداعيه أثر من حيث يدرى أو لا- يدرى على قرارته الإستراتيجيه، ذلك أن عمل الإنسان إنما هو تجسيد لثباته، و قد قال ربنا: قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ، فشخصيه الإنسان الداخليه تبرز من خلال أعماله شاء أم أبى، و هكذا تنحرف الرساله عن مسيرها القويم، إذا لم يخلص حملتها ثباتهم لله.

و إن فريقاً من المنتمين الى الحركات الرساليه يزعمون أنها حركات سياسيه و لكن بصبغه إلهيه، فإذا زويت عنها المكاسب العاجله لمصلحه سائر السياسيين أتهموا قاده الحركه بالسذاجه و الانطواء، و حين يطول انتظارهم للنصر تراهم يرتابون فى القيم رأساً، و ينسحبون عن الساحه، كلاً.. إنها حركات دينيه أولاً، و سياسيه ثانياً، ذلك أنهم لا يصوغون استراتيجيتهم وفق المتغيرات السياسيه، بل حسب الواجبات الدينيه، و أعينهم مسمره على أجر الله و رضوانه قبل أن ترمق ملامح نصره، و لذلك تراهم لا يداهنون أعداءهم، و لا- يتنازلون عن قيمهم، و لا- يخادعون الناس، و لا- يمالئون المترفين على حساب دينهم، و لا يخشون قوه كبرى، و لا يظلمون قوه صغرى.

فهذا الإمام على- عليه السلام- حين أشار عليه قومه ببعض الحيل السياسيه نهرهم قائلاً: «أ تأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟!» (١)

ص: ١٤٢

و الحكمه فى ذلك أنّ الهدف الأول لأنصار الرساله تكريس الحق و إنذار الناس به، و قد لا- تكون السلطه أفضل وسيله لذلك، إذ قد يكون أثر حركه معارضه فى توجيه الحاله الاجتماعيه أشدّ و أبقي من تأثير السلطه الحاكمه.

و قد يكون المطلوب إيجاد قوه رساليه ضاغطه باتجاه القيم فى مواجهه قوه كافره تضغط باتجاه الضلال، و فى هذا الوقت تكون السلطه غير مناسبه لإيجاد تلك القوه.

و قد يخشى أن يولد الإنتصار فى غير أوانه فيكون ناقصا، و يجهض سريعا، و بتعبير آخر قد يمنع النصر العاجل المحدّد نصرا آجلا أرسخ جذورا و أوسع فروعا.

و قد تكون شهاده الرسالي أقوى حجّه لسلامه خطّه و صحه دعوته من انتصاره، فتكون هى الغايه الساميه له..

لذلك

نجد الإمام الحسين-عليه السلام-اندفع للشهاده قائلا:

«خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلاده على جيد الفتاه، و ما أولهنى إلى أسلافى اشتياق يعقوب إلى يوسف».

ثم ناضل أعداء الرساله، حتى إذا قدّم كلّ أنصاره و أهل بيته و حتى طفله الرضيع، و احتمل جسده عشرات الجراحات، و خرّ على الأرض صريعا، قال:

«إلهى رضا برضاك، لا معبود سواك» [٧٨] تلك هى سنّه الأنبياء جميعا، إنهم يتجرّدون لرسالات ربّهم، و يخلصون لله نياتهم و أعمالهم، و حتى الآيات التى تنزل عليهم كانت ياذن الله.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ

ص: ١٤٣

و لأنك في خطهم و على السبيل الذى مضوا عليه فلا بد أن تهتدى بسيرتهم، و تنظر الى سنه الله فيهم.

مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ

جاء فى حديث مأثور عن الإمام الرضا-عليه السلام-عن الرسول-صلى الله عليه و آله :-«خلق الله عزّ و جلّ مائة ألف نبي و أربعه و عشرين ألف نبي، أنا أكرمهم على الله، و لا-فخر. و خلق الله عزّ و جلّ مائة ألف وصي و أربعه و عشرين ألف وصي، فعلى أكرمهم على الله و أفضلهم» (١)

و جاء فى حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين-عليه السلام :-«بعث الله نبيًا أسود لم يقصّ علينا قصته» (٢) و كل أولئك الرسل مضوا على هذه السنه، و هى:

وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ فَحَتَّى الْآيَاتِ الَّتِي تَشْهَدُ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ لَيْسَتْ بِآذَنِهِ وَ إِنَّمَا يَأْذِنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ لِلَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَيْرٍ هُنَالِكَ الْمُبْطُلُونَ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ خَالَفُوا رِسَالَهُ، وَ هَكَذَا حِينَ فَوَّضَ الرَّسُلُ أُمُورَهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَحْسَنَ اللَّهُ تَدْبِيرَهُ، وَ انْتَقَمَ بِشِدَّةٍ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ، بَعْدَ انْقِضَاءِ أَجْلِهِمْ.

[٧٩] الآيات الخارقة التى كان المبطلون يزعمون أنهم إنما يؤمنون بالرسالة إذا

ص: ١٤٤

١- ١) تفسير نمونه نقلا عن موسوعه بحار الأنوار ج ١١- ص ٣٠.

٢- ٢) نور الثقلين/ ج ٤- ص ٥٣٧.

وقعت، ليست-فى الواقع-مختلفه عن آيات الله المبتوثة فيما حولهم، إلا أنهم تعودوها فلم تعد تثر فيهم الإعجاب، وإنهم لو شأؤوا الإيمان لكفتهم هذه الآيات شواهد على توحيد الله، ولكن قلوبهم كانت عليه، وهم بحاجة الى استيعاب عبره الأمم الذين خسروا حين جاءتهم الآيات التى طالبوا الرسل بها.

و هكذا نجد السياق يندر-من طرف خفى-بمصير أولئك الغابرين كل من لا يفتح أبواب فؤاده لآيات الله فى الخليقه.

□
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا فَهِيَ ذَاتُ الْأَنْعَامِ وَلَكِنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِيهَا فَوَائِدَ عَظِيمَةً لِلْبَشَرِ فَمِنْهَا رُكُوبِكُمْ.

□
و مِنْهَا تَأْكُلُونَ و المسافه شاسعه بين حاجه الأكل و حاجه الركوب، فبينما الأكل طعام الإنسان لا بد أن يكون متناسبا مع متطلبات جسده ولينا، و قابلا للقضم و الهضم، نجد مركبه ينبغي أن يكون قويا و متناسبا و طبيعه الأرض سهلها و حزنها و جبلها و حرّتها! دعنا نقيس السيّارات التى اخترعناها لسيرنا، هل تتشابه و خلق الله؟ إنّها بحاجة الى وقود لا يوجد فى كل أرض، بعكس طعام الأنعام النابت من كل أرض توجد فيها، و هى بحاجة الى مصانع، بينما الأنعام تتوالد، و هى ليست قابله للأكل بعكس الأنعام.. و أخيرا فهى بحاجة الى طرق معبده، بينما تسير الأنعام فى أشدّ السبل و عوره. أو لا يدلّ ذلك على حسن تدبير الله لحياه الإنسان؟! و بالرغم من أنّ مكاسب الحضاره الحديثه بدورها شاهده على عظمه الله، لأنّها

بالتالى تهدينا الى عظيم خلق الإنسان الذى سَخَّرَ الله له الطبيعه بالعلم و القدره، إلاَّ أنَّها تكشف أيضا عن خبايا الطبيعه المحيطه بنا، و التى هى خليفه الله، و من أحسن منه خلقا و تدييرا.

[٨٠] و فى الأنعام منافع أخرى فى جلودها و أوبارها و أشعارها و حتى فى فضلاتها، و اليوم حيث أغنى الله الإنسان بوسائل السير السريعه عن الأنعام لا زلنا بحاجة ماسه الى تلك المنافع.

وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَ لِيَتَّبِعُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صِيْدُورِكُمْ قَالُوا: تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بِلَادٍ أَعْيِدُوهَا، وَ تَقْضُونَ بِهَا حَوَائِجَكُمْ، وَ يَبْدُو لِي أَنْ فِي آيَةِ إِشَارَةٍ إِلَىٰ الزَّيْبَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ فِي الْأَنْعَامِ، حَيْثُ قَالَ رَبَّنَا سَبِّحَانَا:

وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ .

و معروف العلاقه الحميمه التى تنشأ بين الأنعام و مالكيها بسبب وجود هذه الحاجه فى الصدر.

وَ عَلَيْهِمْ ۗ وَ عَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ فَأَلَّهَ الَّذِي خَلَقَ الْإِبِلَ لِيَطْوِيَّ بِهِ الْإِنْسَانَ الْمَفَاوِزَ الْبَعِيدَةَ، هُوَ الَّذِي أَجْرَىٰ سِنْنَهُ فِي الْبَحْرِ، وَ سَخَّرَ لِلْإِنْسَانِ الْفُلْكَ لِيَحْمِلَهُ عِبْرَ الْمَحِيطَاتِ إِلَىٰ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ.

[٨١] فهذه آيات الله يستعرضها ربنا فى كتاب الخليفه و فى ثنايا كتابه المرسل، ليعرّف نفسه إلينا من خلالها، حتى لا نكاد نقدر على إنكارها لشده وضوحها و كثرتها و تنوعها، فإذا ضلَّ الإنسان فإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِهِ، و بعد كمال النعمه و إتمام الحججه.

وَبُرِّيَكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ [٨٢] أو ماذا يغنى الإنكار- لو أنكرتم- عنكم شيئاً؟! إنَّ الحجة قد تَمَّت، و الإنذار قد كان بالغا، و الانتقام شديداً، و لكم فى حياه الغابرين عبره لا ينبغي تجاوزها، أولئك أيضا أنكروا اعتمادا على قوتهم و غرورا بما لديهم من علم، و استهزءوا بالحقائق إيغالا- فى اللهو و اللعب، فانظروا كيف كانت عاقبه أمرهم، فما راعهم إلا- و بأس الله على رؤوسهم، فأعلنوا الإيمان لعلمه يدفع عنهم قضاء الله، و لكن هيهات! أَلَمْ يَسْتَبِيرُوا فى الْمَأْرُضِ لِيَنْظُرُوا مصارع عاد و ثمود و أصحاب الأيكة، و ليقرأوا على بقايا قلاع بعلبك، و أهرامات مصر، و أطلال مدينه بابل، و ما فى المدائن و.. تاريخ الظالمين.

بلى. ساروا و قرءوا و حفظت كتب التاريخ، و متاحف البلاد، و روايات الناس كثيرا من هذه الحقائق، و لكن الإعتبار هو المهم.

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ و هل أنهم انتهوا لقله عددهم، أو ضعف عدتهم، و محدوديه آثارهم بالقياس إليهم؟ كلا..

كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَاراً فى الْمَأْرُضِ لقد عمروا الأرض بإثاره التراب و تغيير ملامحه أكثر مما فعل هؤلاء فما أغنت عنهم القصور الشامخه، و القلاع المنيعه، و المنائر الضاربه فى السماء.

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٨٣] لقد اعتمدوا على منطق القوه فرفضوا المنطق السليم، و أرادوا دعم منطقهم بأموالهم و آثارهم فى الأرض، زاعمين أنهم على حق لأنهم الأقوى ظاهرا، و أنّ علمهم هو الأفضل لأنهم أكثر عددا و عدّه.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ و لعلّ معنى الفرح هنا: الاستغناء به عن العلوم الأخرى، كمن يعتزّ برأيه، و هذا يوجب الانغلاق دون الأفكار الجديدة، و هذه-فى الواقع-عاده الظالمين حيث أنّهم يصابون بالتعصّب و التقليد حتى لكأنّ قلوبهم فى أكّنه، يخشون من كلّ جديد، و ينغلقون دون كلّ دعوه.

و هذا ليس من حكمه العلماء إنّما هى صفه أصحاب القوه، فالعلم بذاته يدعو إلى التواضع، و يهدى صاحبه الى آفاق جهله، و أماد المعارف التى يجب عليه السعى إليها، و قد شبّه بعضهم العلم بحلقه فى صحراء الجهل كلّما اتسعت حدودها كلّما لامست مساحات جديده من هذه الصحراء، لذلك ترى أحد العلماء يقول عند موته عند ما يسأل: ماذا علمت؟ يقول: علمت بأنّى لا أعرف شيئا.

بلى. إنّنا نجد بعض الجهلاء اليوم يفتخرون بعلم العلماء (لا علمهم هم) و يرفضون رساله الله اعتمادا على تقدّمهم العلمى، بينما نجد علماءهم يزدادون تواضعا للحقائق كلّما ازدادوا علما.

وَ حَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ لَقَدْ اسْتَهْزَؤْا بِالْحَقَائِقِ فَأَهْلَكْتَهُمْ، و اليوم حيث يستبدّ بالمستكبرين فى الأرض

غرور القوه، و يفرحون بما لديهم من العلم، و ينغلقون دون دعوات الإصلاح التي يحملها أنصار الرساله، و يستهزءون بالإنذار تلو الإنذار الذي يبلغه أصحاب الرساله بأن عاقبه هذه الحضاره ليست بأفضل من عاقبه الحضارات الماديه السابقه، و أن الجهل، و الأنانيه، و الظلم، و الترف، و الغفله، و سكر الغنى، و غرور القوه، و كل الصفات الرذيله التي انتشرت في الأرض عاقبتها الدمار، إمّا بحرب ثالثه لا تبقى و لا تذر، أو بصاعقه منشأها ارتطام كوكب بكوكبنا، أو زلزال مدمر كالذى يتتبا به بعض العلماء فيما يتعلق بغرب أمريكا أو ما أشبهه..

و إذا كان كل ذلك الإنذار يذهب سدى فإننا نخشى من مصير رهيب نسأل الله العلى القدير أن يرحم البشريه، و أن يهدينا و العالم الى نور الإسلام الحق.

[٨٤] هؤلاء يعرفون الحقائق، و لكنهم ينكرونها غرورا، لذلك تراهم يؤمنون بالله عند ما ينزل عليهم بأسه.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهٖ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ مِنْ سُلْطَانٍ وَ مَالٍ وَ ضَلَالٍ.

إن غرورهم بالقوه و الثروه، و تعصبهم لضلالاتهم، يسمّى كل ذلك شركا فى هذه الآيه، و قد كفروا به و لكن بعد فوات الفرصه.

[٨٥] إن الكفر بالأنداد، و رفض الآلهه المزيّفه، كان ينبغى أن يسبق البلاء حتى يكون نافعا، لأن الدنيا دار ابتلاء، و وقت الابتلاء ينتهى عند رؤيه العذاب فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سئنت الله التي قد خلّت في عباده و خسر هنالك الكافرون إن الايمان ينفع قبل حلول البلاء، تلك سنه لا تتحول فيمن مضى و فيمن يأتى.

سوره فصّلت

اشاره

ص: ۱۵۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره:

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال :

«من قرأ حم السجده كانت له نورا يوم القيامة حدّ بصره، و سرورا، و عاش في الدنيا محمودا مغبوطا» (تفسير نور الثقلين / ج 4/ ص 538)

عن أبي عبد الله عليه السلام :

إن العزائم أربع: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» و النجم، و «الم تَنْزِيلُ» السجده، و «حم» السجده (المصدر)

ص: ١٥٣

تفتتح السوره ببيان عن القرآن الذى فضّلت آياته ببلاغه نافذه تنفع العلماء الذين تبشّرهم بالحسنى، كما تنذر المعرضين الذين لا يسمعون آياته.

و تلخّص هذه الفاتحه المحاور التاليه للسوره:

المحور الأول: الجحود و الإعراض و الاستكبار الذى ابتلى به أكثر القوم حتى زعموا أنّ قلوبهم فى أكنّه فلن تهتدى أبداً، و يذكر السياق عوامل هذه الحاله الشاذه، و يعطى وصفه العلاج لها.

و يقارن الذكر بين هذه الحاله الموغله فى الضلاله، و ما عليه المؤمنون الذين استقاموا فنزلت عليهم الملائكه، و اشتغلوا بالحمد و التسبيح لله بلا كلل و لا سأم.

و تكاد تكون هذه المقارنه أبرز سمات هذه السوره المباركه، فإذا تلونا فى الآيه (٥) قول الجاحدين فى آذاننا و قرّ و من بيننا و بينك حجابٌ فأعمل إنّنا عاملون متحدين بكل صلافة الرساله الإلهيه، فإننا نتلوا فى الآيه التاليه (٦) قوله:

فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ لِيَتَّحِدَى الْمُؤْمِنُونَ صَلاَفَهُ الْجَاحِدِينَ بِمَا يَفُوقُ إِصْرَارَهُمْ، وَ يَهْزِمُ عِنَادَهُمْ! وَ حِينَ نَقْرَأُ فِي الْآيَةِ (٢٥): وَ قَيِّضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ حَيْثُ يَبَيِّنُ الْقُرْآنُ مَدَى شِقَاءِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْجَاحِدَةِ حَتَّى لَزِمَتْهُمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، فَإِنَّا نَقْرَأُ فِي الْآيَةِ (٣٠): إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ . فَهَنَّاكَ قِرْنَاءَ السُّوءِ، وَ هُنَا أَوْلِيَاءَ الرَّحْمَةِ.

وَ أَخِيرًا حِينَ يَبَيِّنُ السِّيَاقُ فِي الْآيَةِ (٣٨) اسْتِكْبَارَ أَوْلِيَاءِ الْجَاحِدِينَ، يَبَيِّنُ أَنَّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَسْأَمُونَ عَنِ التَّسْبِيحِ.

وَ لِمُعَالَجَةِ حَالِهِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الذِّكْرِ وَ الْجُحُودِ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَنْذِرُهُمُ الرَّبُّ فِي دُنْيَاهُمْ بِصَاعِقِهِ مِثْلَ صَاعِقِهِ عَادَ وَ ثَمُودَ (١٨/١٣)، كَمَا يَنْذِرُهُمْ فِي عَقْبَاهُمْ بِنَارِ السَّعِيرِ فِي يَوْمِ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ (٢٢/١٩).

وَ يَشِيرُ السِّيَاقُ إِلَى بَعْضِ عَوَامِلِ الْإِعْرَاضِ كَالظَّنِّ السَّيِّئِ بِاللَّهِ، وَ قِرْنَاءِ السُّوءِ، وَ اللَّغْوِ فِي الْقُرْآنِ (التَّضْلِيلِ)، وَ يَحذِّرُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الَّذِي يَنْتَظِرُ الْجَاحِدِينَ حَتَّى أَنَّهُمْ يَبْحَثُونَ هُنَالِكَ عَمَّا أَضَلَّهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لِجَعْلِهِمْ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ (٢٩/٢٣).

كَمَا يَبشِّرُ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ وَ يَسْتَقِيمُونَ عَلَى الذِّكْرِ بِالسَّدَادِ وَ النَّصْرِ فِي الدُّنْيَا، وَ الْجَنَّةِ وَ الرِّضْوَانِ فِي الْآخِرَةِ.

المحور الثاني: التذكير بآيات الله في الآفاق و في أنفسهم، حيث يبين القرآن هنا قصه خلق الكائنات في أيام أو مراحل (١٢/٩) و أنّ من آياته الشمس و القمر حيث يدعو إلى نبذ السجود لها، و إنّما التوجه إلى خالقها بالسجود و التسبيح، و أنّ من

آياته إحياء الأرض بعد موتها، وهو الذى يحيى الموتى (٣٩/٢٧) ويرد إليه علم الساعة، وما تخرج من الثمرات من أكمامها (٤٧).. ويستعرض جانبا من أطوار النفس البشريه حيث ترى الإنسان لا- يسأم من دعاء الخير، ولكنه إذا مسه الشر تراه يؤساقنوطا، وحين يرزق نعمه يفقد من الفرح توازنه، وإذا أصابه سوء فهو ذو دعاء عريض (٥١/٤٩).

و كما هو منهج القرآن البديع فى سائر السور حيث يوصل الآيات الشاهده على الحق بالإنذار من الإعراض عنها، ذلك أن بيان الآيات لا- يجدى الجاحد نفعاً، فلا بد إذا من استصلاح الأرض قبل أن يزرع فيها الحب، كذلك نجد فى هذه السوره كيف تتماوج الآيات بين إنذار المعرضين عن الآيات و بين بيان آيات الله فى الآفاق و الأنفس، مثلاً بعد الآية (٣٩) التى تلفت النظر الى خشوع الأرض قبل أن ينزل الله عليها الماء فتتهتز و تربو و تحيى، و قبل الآية (٤٧) التى تبين علم الله بالساعه و بالثمرات التى تخرج من أكمامها، نجد الآيات (٤٦/٤٠) تنذر الذين يلحدون فى آيات الله أنهم لا- يخفون على الله، و أن الذين كفروا بالذكر لا يفلحون، لأنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، ثم يذكر بعض أعداء الجاحدين من قبل و من بعد الرسول.

و تتميز السوره بقوه الطرح، و شدة نبرات السياق، خصوصاً فيما يتصل بالإعراض و الجحود فى آيات الله، كما تتميز بالمفارقة الحادّه بين طرفى الصراع، بين من يصرّ على الجحود و من يستقيم على الطريق.

[سوره فصلت (٤١): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّهِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)

اللغه

٥[أكنه]:أى أعطيه فإن أكنه جمع كن و هو الغطاء.

[وقر]:أى ثقل عن استماع القرآن.

٨ [غير ممنون]: أى غير مقطوع، فإنّ «ممنون» منّ بمعنى قطع أو من «المنّ» بمعنى الأذى الذى يكدر الإحسان، أى غير مكدر بالمن.

ص: ١٦٠

هدى من الآيات:

يفتح القرآن سورة «فصلت» بما يمهد للحقائق التي تذكّر بها السوره..

أولاً: تبصير الناس بحقيقه القرآن، و أنه كتاب فصّلت آياته بإحكام، و قد أوحى بلغه عربيّه تبين الحقائق للذين يعلمون، فهو كتاب علم و معرفه كما هو كتاب حكمه و تربيّه تبشّر و تنذر، إلا أنه هدى للذين يستمعون إليه أما الذين لا يهتدون إليه فقد أعرضوا عنه حتى قالوا: قلوبنا فى أغطيه، و آذاننا ثقيه، و على أبصارنا غشاوه، و إنّ المسافه بيننا و بينك قد سدّت بحجاب، ثم تحدّوا الرسول صلى الله عليه و آله بأنّهم عاملون حسب أفكارهم فليعمل حسب آدابه لينظروا لمن العاقبه.

هكذا ذكر السياق فى فاتحه السوره بالمنهج الحقّ للانتفاع بالقرآن، و هو منهج التسليم لا الإعراض و التحدى.

ثانياً: تجرّد الرسل عما يتّصل بذاتهم من أجل الرسالة شاهد صدق عليها، فهم يدعون إلى الله وحده (لا إلى أنفسهم أو قوميتهم أو إقليمهم أو ما أشبهه) و يأمرّون بالاستقامه فى طريقه، و يعدّون بالرحمه عبر الاستغفار، و يندرون المشركين (الذين يعبدون الطاغوت أو سائر الأنداد) بالويل و الثبور.

و المشركون هم الذين يمنعون الزكاه و يكفرون بالآخره، و بإزاء هذا الإنذار تأتي البشاره للذين آمنوا و عملوا الصالحات بأنّ لهم أجرا لا ينقطع.

(و هكذا تتجلى صفات القرآن و دعوته فى هذه الكلمات البليغه).

بينات من الآيات:

بنور الله الذى يرشّه على الأشياء فيجعلها مخلوقات مدبّرات بأمره، بنور الله الذى يفيضه على الإنسان فيجعله خليفته فى أرضه، و يمنحه به العقل و الهدى و المعرفه و المشيئه، و بنوره الذى يوحىه الى أنبيائه فيجعلهم السرج المنيره فى ديجور الحياه..

بذلك الاسم العظيم و النور الباهر يبتدأ الوحي رسالته، و به نتلوا تلك الرساله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [١] حم مره أخرى تستقبل أفئدتنا هذه الكلمات المتقطّعه التى تستثير عقولنا، فهل هى أسماء للسوره التى تبدأ بها؟ أم هى إشارات إلى ذات القرآن و هى بمثابة هذه الأحرف أو هذه الكلمات أو هى رموز بين الله و الراسخين فى العلم من عباده؟ كلّ ذلك محتمل، و لا ضير فى أن يكون كلّ ذلك مراد القرآن، لأنّ للقرآن تخوما

و على تخومه تخوم، و يبدو أنّ كلمه «حم» مبتداء أسند إليها قوله تعالى: «تنزيل»، فيكون المعنى: هذا تنزيل من الله.

[٢] تتجلى في كتاب الله الرحمة الإلهية التي تتجلى في خلقه، تلك الرحمة التي تتسم بالشمول و الاستمرار.

تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هل استطاع العادون إحصاء رحمات الله؟ كلاً. و إن تعدّوا نعمه الله لا تحصوها، فهو الرحمن الذي وسعت رحمته كلّ شيء و أحاطت بكلّ شيء، و رحماته مستمره منذ أن خلقنا من تراب، ثم من نطفه، و الى أن يوارينا الثرى، و هي تستمرّ بالنسبه الى المؤمنين إلى الجنه.

أفلا ينبغي أن نسارع الى هذا الكتاب الذي أنزل من عند ذلكم الربّ الرحمن الرحيم؟ بلى. أو لسنا بشرا و قد أودع الله فينا حبّ المحسن إينا، و شكر من أنعم علينا؟ أو لا نريد المزيد من الرحمة؟ دعنا إذا نبادر الى قبول رسالته التي تتسم بالرحمه.

[٣] التنوع و الاختلاف سمه بارزه للمخلوقات، و العلم الحقّ هو الإحاطه بمعرفه خصائص الأشياء و اختلافاتها و نسبه بعضها إلى البعض الآخر.

و حاجات الإنسان هي الأخرى شديده التنوع و عظيمه الاختلاف، سواء منها النفسيه أو الجسميه، و لكلّ شيء حد إذا تجاوزه بطل، و هكذا حاجات البشر ذات مقدار فإذا أسرف فيها أفسد، و إذا قتر أفسد، فنحن إذا بحاجه الى خريطة مفضّله لوجود الكائنات و وجود الإنسان بينها، فأين نجدها؟ أو ليس في كتاب ربّنا الحكيم؟ بلى.

كَلِمَاتٍ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ إِنَّهُ كِتَابٌ (ثابت)، و إِنَّهُ مَفْصَّلٌ قَدْ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ وَ تَشَابَهَتْ وَ تَنَاسَقَتْ، لا تجد فيها عوجا و لا ثغره و لا اختلافاً، و هذا بذاته شاهد على صدقه، فكل آياته تنبعث من التوحيد الخالص، و تدعوا الى الحق و العدل و الجزاء.

و الكتاب قرآن عربى جاء بهذه اللغة الفريده التى سمت على كل اللغات فى إعرابها عن نوايا المتحدث بكل دقه و بلاغه.

قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَ إِنَّهُ لَشَرَفٌ عَظِيمٌ لِهَذِهِ اللُّغَةِ وَ لِلنَّاطِقِينَ بِهَا عِبْرَ التَّارِيخِ أَنَّ وَحْيَ اللَّهِ قَدْ اِمْتَطَى مَتْنَهَا، وَ لَعَلَّنَا نَسْتَوْحِي مِنْ هَذِهِ الْإِشَارَةِ: أَنَّ شَرَفَ الْعَرُوبِ بِاللُّغَةِ، وَ لِذَلِكَ فَكُلٌّ مِنْ تَحَدَّثَ بِهَا وَ اعْتَنَقَ الْمَبَادِئَ السَّامِيَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الذِّكْرُ فَهُوَ عَرَبِيٌّ، وَ إِنَّمَا تَتَفَاوَتُ عَرُوبُهُ النَّاسِ بِمَدَى التَّزَامُهُمْ بِتِلْكَ الْمَبَادِئِ، وَ أَكْرَمَ النَّاسِ جَمِيعًا أَتْقَاهُمْ.

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْقُرْآنَ كِتَابَ عِلْمٍ وَ لَا يَبْلُغُ آمَادَهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ، وَ إِذَا قَصَرَ عَنْ وَعْيِهِ إِنْسَانٌ فَلْنَقْصُ فِي مَعَارِفِهِ..

و كلما تقدّم علم البشريه كلما اقتربوا من محتوى القرآن و عرفوا عظمته، إلا أنّ ركب الإنسانيه يسير قدما نحو التكامل و يبقى القرآن أمامه أبدا، كالشمس ضوءها قريب و الوصول إليها مستحيل.

و هذا الاستفتاح يتناسب و الحقائق العلميه التى تشير إليها هذه السوره لكى لا ننكر بعضها عند ما نجعل أبعادها، فليس من خصائص الإنسان العاقل أن ينكر

ما لا يعرفه، بل يسعى من أجل معرفته.

[٤] و الى جانب أنه كتاب علم، فهو كتاب حكمه، تنفذ بصائره في الفؤاد، و تستثير عقل الإنسان من سباته، و تنهض إرادته، و تشحن عزائمه، و تربيه و تزكّيه، كلّ ذلك بما يحتوي من بشاره و إنذار.

بَشِيرًا وَ نَذِيرًا و لا يدع الكتاب نافذه على القلب إلا و ينفذ منها، و لا و ترا حساسا إلا و يغرب عليه. إنه يرغبهم في ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخرة بألوان من الترغيب لا تكاد تحصى، كما و ينذرهم بألوان من عذاب الدنيا و عذاب الآخرة.

و لكن هل يعنى ذلك أنّ القرآن يؤثّر في كلّ الناس؟ إذا بطلت حكمه الابتلاء. و لا يصبح الناس جميعا على هدى.

فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ لَقَدْ أَعْرَضُوا عَنْ ذِكْرِهِمْ، و لم تشأ حكمه الربّ إكراههم، فهم لا يسمعون الموعظه و لو سمعوها حقًا لاهتدوا إذ لا نقص أبدا من جانب القرآن، بل قد وفرّ الله وسائل الهدايه، و لكن ما ذنب الشمس لو كان الإنسان أعمى.

[٥] و كان من ملامح إعراضهم أنّهم زعموا أنّ قلوبهم موضوعة في أوعيه مغلقة، فهي لا تستجيب للحقائق الجديدة، و أنّ بينهم و بين الرسول حجابا لا يمكنهم رؤيه الرسول من ورائه.

وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ لَقَدْ عَزَمَت قُلُوبُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، و التعصّب الأعمى لما

كان عليه آباؤهم، فزعموا أنّ هناك سواتر و أغطية عديدة تلفّ أفئدتهم عن الدعوه الجديده، بلى. الغفله و الجهل و الكبر و العناد كلّها أكّنه على قلوبهم، فكيف تخترقها رساله؟! ثمّ قالوا: و حتى و لو كانت قلوبنا سليمه فإنّ آذاننا لا تسمع لما فيها من ثقل، و أبصارنا لا ترى و جوارحنا لا تحس لأنّ المسافه التى بيننا و بينك قد سدّت بالحجاب.

وَ فِي آذَانِنَا وَقُورٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ فَمَنْ أَعْرَضَ قَلْبَهُ ثَقُلَ سَمْعُهُ عَنِ اسْتِقْبَالِ الدَّعْوَةِ، كَمَا عُلَّتْ عَيْنُهُ غِشَاوَهُ.

ثمّ كشفوا عن غايه تعصّبهم و شده جمودهم إذ قالوا:

فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ فلم يطيقوا الحوار فقطعوه، و قالوا: اعمل أنت بما ترى، و نعمل بما نعتقد، و المستقبل يحكم بيننا و بينك، و إذا كنت تخطّط للمواجهه فنحن مستعدون!! هكذا أعرضوا عن الذكر، فهل يلام على ضلالتهم غيرهم؟ [٦] فى مواجهه الدعوات الصادقه يلتجئ المتعصّبون الى مكر شيطاني، و ذلك بأن يخلطوا بين الدعوه و بين صاحبها فيتهموه بحبّ السلطان أو الجاه و ما أشبهه، و من هنا كان من أقوى الحجج التى اعتمدها الرسل -عليهم السلام- التجرد للرساله عن شخصياتهم، و أنّهم لا يطالبون الناس بأجر (اللهمّ إلا ما يكون لهم) و أنّهم لا يبحثون عن جاه أو سلطه أو ثروه، و أنّهم لا يدعون التميّز عليهم إلا بالوحي.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ وَ أَن دَعْوَتُهُمْ خَالصه لله، و أَنَّهُمْ يَسْلَمُونَ أَمْرَهُمْ لَدُنكَ رَبِّ الْوَاحِدِ الَّذِي يَدْعُونَ النَّاسَ لِلتَّسْلِيمِ لَهُ..

أَتَمَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ هَذِهِ هِيَ الْمِيزَةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِرِسَالَاتِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ دَعْوَاتِ الْبَاطِلِ، أَنَّ تِلْكَ الدَّعَوَاتُ تَسْعَى لِإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنْ ظُلَامٍ إِلَى ظُلَامٍ، وَ مِنْ عِبُودِيَّةٍ إِلَى عِبُودِيَّةٍ، وَ مِنْ غَلٍّ إِلَى غَلٍّ آخَرَ، بَيْنَمَا رِسَالَاتُ اللَّهِ تَدْعُو إِلَى النُّورِ، إِلَى الْحَرِيَّةِ، إِلَى فَكِّ الْأَغْلَالِ جَمِيعًا.

و لَوْلَا حِجَابُ الْجَهْلِ وَ الْعَصْبِيَّةِ وَ الْعِنَادِ فَإِنَّ نُورَ الصِّدْقِ يَتَجَلَّى فِي دَعْوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَ مِنْ أَتَبَعَ نَهْجَهُمْ.

فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ هَذِهِ مِيزَةُ أُسَاسِيَّةٍ ثَانِيَةٍ: إِنَّ دَعْوَاتِ الْبَاطِلِ تَجَرَّ أَصْحَابُهَا مِنْ انْحِرَافٍ إِلَى انْحِرَافٍ وَ مِنْ ظَلَمٍ إِلَى ظَلَمٍ وَ مِنْ إِسْرَافٍ إِلَى تَقْتِيرٍ وَ مِنْ إِفْرَاطٍ إِلَى تَفْرِيطٍ، بَيْنَمَا رِسَالَاتُ اللَّهِ تَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى الْحِكْمَةِ وَ الْإِعْتِدَالِ وَ الْإِسْتِقَامَةِ، فِي طَرِيقِ اللَّهِ.

وَ بِمَا أَنَّ الْإِسْتِقَامَةَ إِلَى اللَّهِ تَعْنِي مَقَاوِمَ شَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَ ضِعْظَ الْمَجْتَمَعِ، وَ سَلْبِيَّاتِ الْمَاضِي، وَ إِرْهَابَ الطَّغَاهِ، فَإِنَّ الْبَقَاءَ عَلَيْهَا يَشْبَهُ الْمَسْتَحِيلَ، أَوْ لَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ شَيْبَتِي سُورَةُ هُودٍ، لِأَنَّ فِيهَا آيَةَ الْإِسْتِقَامَةِ، وَ لَدُنْكَ أَمْرُنَا اللَّهُ بَعْدَ الْإِسْتِقَامَةِ بِالِاسْتِغْفَارِ، كَمَا أَشَارَ فِي سُورَةِ هُودٍ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ .

وَاسْتَغْفِرُوهُ فَكَلَّمَا دَفَعْتَكْ أَعَاصِيرَ الضُّغُوطِ ذَاتِ الْيَمِينِ وَ ذَاتِ الشَّمَالِ عَدَّ إِلَى طَرِيقِكَ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّ عَلَى أَطْرَافِ طَرِيقِ الْجَنَّةِ حَفْرَ النَّيْرَانِ فَلَا تَسْتَرْسِلْ مَعَ الرِّيَّاحِ إِلَى نَهَائِهَا الْمَرِيعَةِ.

وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَ هُمُ الَّذِينَ انْحَرَفُوا مَعَ رِيَّاحِ الضُّغْطِ حَتَّى وَقَعُوا فِي حَفْرِ الشَّرْكِ فَلَحَقَهُمُ الْوَيْلُ، وَ نَسْتَوْحِي مِنَ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ رَبَّهُ بَعْدَ الْإِنْحِرَافِ عَنِ خَطِّ الْإِسْتِقَامَةِ يَنْتَهِي بِهِ الْمَطَافُ إِلَى الشَّرْكِ وَ الْكُفْرِ، كَمَا قَالَ رَبَّنَا فِي آيَةِ أُخْرَى: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَشَاءُوا السُّوَاءَ أَنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ .

[٧] و قد يكون الإنسان مشركاً دون أن يعرف، لاعتقاده أكثر الناس أن مجرد الشهادة بالتوحيد لفظياً تكفي علامته على الإيمان، بل إنه كاف في مجال التعامل الاجتماعي إذ يحسب من المسلمين ظاهراً، و تحلّ ذبيحته، و يجوز مصاهرته، و لكن لا يكفي عند الله الذي يعلم خائنه الأعين و ما تخفى الصدور.

إنّ الإيمان وقر في القلب، و أثر على السلوك و ممارسه للطقوس.. و من أبر علائمه الزكاه و الإيمان بالآخرة، فمن منع زكاه ماله و اعتبره مغرماً و ارتاب في الآخرة فهو مشرك حتى و لو لهج لسانه بالتوحيد.

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ أَيُّ زَكَاةِ هَذِهِ؟ هَلْ هِيَ النَّصَابُ الْمَعْرُوفُ أَمْ مَطْلَقُ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ يَبْدُو أَنَّ الثَّانِيَّ أَقْرَبُ بِاعْتِبَارِ الْآيَةِ مَكِّيهِ.

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ فَلَوْ لَا كَفَرَهُمْ بِالْآخِرَةِ لَمَا مَنَعُوا زَكَاهَ أَمْوَالِهِمْ.

جاء فى الأثر المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه وآله أوصى علينا عليه السلام فقال ضمن وصيه:

«يا على كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشره (وعدّ منه مانع الزكاه، ثم قال): من منع قيراطا من زكاه ماله فليس بمؤمن ولا مسلم ولا كرامه، يا على:

تارك الزكاه يسأل الله الرجعة الى الدنيا، وذلك قوله عزّ وجلّ: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ أَحْيَاهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١﴾ [٨] أمّا المؤمنون الذين يعملون الصالحات فإنّهم ينفقون زكاه أموالهم طلبا لأجر الله الذى لا ينقطع.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ و يبقى سؤال أخير: ما هو صراط الله الذى يجب أن نستقيم عليه؟ إنّه يتمثل فى كتاب الله الذى أوحى الى الرسول صلى الله عليه وآله فيكون الشرك هو مخالفه كتاب الله المتمثله فى مخالفه الرسول.

و مخالفه الرسول تعنى اليوم مخالفه القياده الشرعيه التى تدعو الى الله و تنفّذ كتابه، هذا ما نقرأه فى تفسير أهل البيت لهذه الآيات. (٢)

ص: ١٦٩

-
- ١- ١) تفسير نمونه/ج(٢٠)ص(٢١٩) نقلا عن وسائل الشيعة/ج(٦)ص(١٨-١٩)
٢- ٢) راجع نور الثقلين/ج(٤)ص(٥٣٩) نقلا عن الإمام الصادق عليه السلام فى حديث مفصل.

اشاره

قُلْ أَإِنكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذى خَلَقَ الْأَرْضَ فى يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَ جَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِينًا (١٠)

ص: ١٧٠

هدى من الآيات:

ربط حقائق الكون بعضها ببعض، ربطا متناسقا، ومؤثرا في قلب الإنسان، من الميزات التي يتسم بها القرآن الحكيم في منهجه التربوي والتعليمي، فبينما يحدثنا في هذا الدرس عن العالمين، عن الأرض كيف نظم شؤونها، وقدر فيها أقواتها، وعن السماء كيف استوى إليها، ووجه لها وللأرض الأوامر، وكيف قضاها سبعا، وكيف أوحى في كل سماء أمرها، نجده يحدثنا في ذات الوقت عن التاريخ ودروسه وعبره، عن تلك المجتمعات المقتدره التي دمرها الله شرّ تدمير، بسبب اغترارها بقوتها الماديه، ثم تحدثنا الآيات الحكيمه-بصوره مباشره-عن ضروره معالجه الأمراض النفسيه التي تعترى الفرد هكذا توصل آيات الذكر آفاق السماء وأبعاد الأرض بأعماق التاريخ وأغوار النفس لتصنع منها جميعا منهجا تربويا بديعا، كما أنّها تمهّد-فيما يبدو-فؤاد الإنسان لاستقبال الوحي الإلهي بالطريقه المناسبه.

فالذى بسط الأرض و قدّر فيها أقواتها، والذى سمك السموات و جعلهنّ سبعاً، و أوحى فى كل سماء أمرها، هو الذى هدى الإنسان الى القرآن الحكيم، بركه للإنسان و سلاماً و رحمه، و إنّ الأعراض عن منهاج القرآن خطير، كما الإعراض عن سنن الله فى السموات و الأرض، و كما الإعراض عن عبر التاريخ.

إنّ سنّه الله فى القرآن كسنته فى الخلقه.. فهل تستطيع أن تكفر بسنه الجاذبيه فتلقى بنفسك من قمه جبل دون أن يصيبك سوء، و هل تضرب رأسك بصخره و تنتظر السلامه، و هل تقدر على الاستغناء عن الهواء، عن الغذاء؟ كذلك لا يمكنك الاستغناء عن وحي الله بله الإعراض عنه.

و هل يستطيع أن يقول أحد أنّى أريد تنظيم الكون تنظيماً جديداً، و سلب الأرض جاذبيتها، و الهواء رطوبته، و الغازات خصائصها؟ كلا.. إنّ من يريد أن يفعل ذلك لا بدّ أن يجد طريقه يوماً الى دار المجانين! كذلك الذى يريد مخالفه وحي الله، و سنته فى التريبه، فى الإقتصاد، و السياسه، و الاجتماع.

بيانات من الآيات:

[٩] قد يأتى على إنسان عشرات السنين ينشغل فيها عن كبريات الحقائق التى تحيط به بأثفه الأشياء، فيرى الأرض بما فيها من آيات عظيمه، و لكنه لا يتساءل:

كيف خلقت، و كيف سطحت، كيف قدّر فيها أقواتها، و تهيأت لاستقبال الحياه هذه النعمه الكبيره و السرّ العظيم؟ و يأتى القرآن يذكرنا بأمتنا الأرض، و يشير الى سنن الله فيها، و أنّه خلقها فى يومين، لعلنا نهتدى الى ربّ القدره.

قُلْ أَإِنكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ

لَهُ أَنْدَادًا ذُرِّيَّتَكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ من خلال السياق نستوحى عظمه الأرض لعننا نهتدى الى عظمه الخالق الذى خلقها فقط فى يومين، و هكذا نعرف مدى خطوره الكفر برَبِّنا العظيم!! و لكن تتوارد التساؤلات الواحد بعد الآخر حول هذه الآيه: كيف تم الخلق؟ و ما هما اليومان اللذان خلقت الأرض فيهما؟ و لماذا التأكيد عليهما؟ أولا: تقول بعض النظريات الحديثه: إنَّ الأرض انفصلت عن الشمس قبل حوالى ألفى مليون عام، فهل هذا هو معنى خلق الأرض فى يومين؟ أم معنى خلقها تهيئتها بصورتها التى استعدت لاستقبال شروط الحياه، فقد مرّت مدّه طويله حتى بردت الأرض و تصلّب قشرها بعد أن كانت كره ملتهبه مثلما هى اليوم باطنها حيث لا زالت المواد تنصهر هناك فى حراره شديده.

و جاء فى حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيما يتصل بخلقه الأرض:

«كبس الأرض على مور أمواج مستفحله، و لجاج بحار زاخره، تلتطم أواذى أمواجهها، و تصطفق متقاذفات أثباجها، و ترغو زبدا كالفحول عند هياجها، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها، و سكن هيج ارتمائيه إذ وطأته بكلكلها، و ذلّ مستخدنيا إذ تمعكت عليه بكواهلها، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجيا مقهورا، و فى حكمه الذلّ منقادا أسيرا، و سكنت الأرض مدحوه فى لجه تياره، و ردّت من نخوه بأوه و اعتلائه، و شموخ أنفه، و سموّ غلوائه» (١) و يبدو أنّ حديث الإمام يتصل بمرحله واحده من أطوار الأرض، و كيف هيأها الربّ لسكن الأحياء، حيث مرّت الأرض بأطوار عديده تشير إليها سائر النصوص

ص: ١٧٣

المأثوره كما توضّحها النظريّات الحديثه.

ثانيا: وما هما اليومان اللذان مرت بهما الأرض؟ لقد اختلف المفسرون في ذلك اختلافا كبيرا حيث أنّهم قالوا: إذا كان تقدير اليوم بحركه الأرض فكيف نتصور اليوم قبل وجودها؟ فقال البعض: إنّ المراد منها الأوقات، كما قال سبحانه: وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ (١) أى حينئذ أو وقتئذ، وقال بعضهم: إنّ المناط في تقدير الأيام إنّما هو بحركه الأفلاك التي كانت قبل خلقه الأرض، وقال ثالث: ما يكون بقدر الأيام في فرض وجودها، وقال الرازي: المراد بالأيام الأحوال المختلفه.. (٢)

و يبدو هذا التفسير أقرب، ذلك لأنّ أقرب المعانى لليوم هنا برهه من الوقت و حين من الدهر، و ما نتصوره من اختلاف وقت عن وقت و حين عن حين هو اختلاف الأحوال، فمثلا- نحن نميّز بين اليوم الأول من الربيع عن اليوم الثانى منه، بفاصل الطلوع و الغروب بينهما، كذلك كانت هنالك فواصل معينه بين الوقت الأول و الوقت الثانى (أو إن شئت قلت اليوم الأوّل و اليوم الثانى) بتطوّر الأحوال.

و فى القرآن يصرّح بهذا التطوّر حيث خلق الله الكائنات بصوره ماء فكان عرشه عليه، ثم خلقها دخانا، ثم خلق السموات و الأرض، و لا- بدّ أن مرّت دهور متطاوله بين مرحله و مرحله حتى اليوم، كم مره هذه الدهور بقياساتنا المحدوده؟ حتى الآن لا نمتلك نظريّات حاسمه فى هذا الحقل، بالرغم من أنّ بعض العلماء يقدرّ ذلك بخمسه عشر مليار عام مرّت من بدايه ما يزعم انفجارا هائلا و موجّها حدث فى هذا الكون، و تمدّدت ماده الأوليه المخلوقه فى صورته مجرّات..

ص: ١٧٤

١- (١) الأنفال/ (١٦).

٢- (٢) نقلنا ذلك باختصار عن موسوعه البحار/ ج (٥٤) ص (١٠-٦).

و من أطرف ما قرأته حول هذه المده فى النصوص ما

جاء فى حدیث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين علیه السلام بعد أن سأله رجل قائلاً: فكم مقدار ما لبث الله عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض و السماء؟ فأجاب: أ تحسن أن تحسب؟ قال: نعم، قال: لعلك لا تحسن!، قال: بلى، إنى لأحسن أن أحسب، قال على علیه السلام :

«أ فرأيت لو كان صبّ خردل فى الأرض [حتى] سدّ الهواء و ما بين الأرض و السماء، ثم أذن لمثلك على ضعفك أن تنقله حبه حبه من مقدار المشرق الى المغرب، ثم مدّ فى عمرك، و أعطيت القوه على ذلك حتى تنقله، و أحصيته، لكان ذلك أيسر من إحصاء عدد أعوام ما لبث عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض و السماء، و إنّما و صفت لك ببعض عشر عشر العشير من جزء مائه ألف جزء، و أستغفر الله من القليل فى التحديد» (١) و لعلّ أتيام خلق الأرض و السماء، و توفير فرص الحياه على الأرض، هى التى أشارت إليها آيات الذكر من:

١- خلقه الماء، حيث كان عرش القدره مستويا عليه، و لعله كان أصل الكائنات مادّه تشبه الماء.

٢- خلقه الدخان، و لعله الحاله السديميه فى الكائنات.

٣- تكوّن المجرّات و الشموس و الكرات الأخرى، و انفصال الأرض عن الشمس.

٤- حاله دحو الأرض و تصلّب قشرتها، حيث نجد إشاره الى ذلك فى آى الذكر كثيرا.

ص: ١٧٥

٥-حاله توفر عوامل الحياه عليها من ماء و هواء و مواد ضروريه اخرى.

ثالثا:و يبقى السؤال:ما هي الحكمة التي نستفيدها من بيان هذه الحقيقه؟ و الجواب:

ألف:بيان قدره الله و عظمته المتجليه في تكوين الخلائق و تطويرها مرحله بعد مرحله و تدبير أمورها في كل مرحله،حتى انتهى المطاف بها الى صورتها الحاليه، و هي لا تزال تسير في ركب التطور الى حيث يشاء الله،و هنا نجد إشاره الى هذه الحكمة حيث يذكرنا الرب بقدرته بعد بيان خلق السماء في يومين.

حقاً،إننا حين نتصور الكائنات تتقلب في كفّ القدره الالهيه تلك الدهور المتطاولة التي لا يعلمها الا الله سبحانه،و نتصور-مثلا- ذلك الانفجار المهيب الذي يرى بعض العلماء أنه وقع في الكون قبل (١٥)مليار عام و لا تزال أصداؤه تدوى في جنبات العالم الرحيب بالرغم من هذه الدهور المتطاولة،لا بدّ أن تتضاءل نفوسنا أمام قدره الرب،و ندع التكبر و الغرور و المعاصي،و جدير بنا أن نقرأ خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام التي تصف الكائنات و تطوراتها،و تعظ الناس بالتواضع و اجتناب الكبر و المعاصي.

باء:لعلنا نستوحى من خلقه الله الخلائق في الزمن أنّ انقضاء الأجل و تقدّم المده و صيروره التكوّن من حقيقه الكائنات المحدثه،ذلك أنّ أول الشواهد و أبلغ الحجج على أوليه الخالق زوال الكائنات و على قدمه حدوثها،و على حدوثها صيرورتها و تقلباتها،و اكتمالنا بعد النقص،و انتقاصها بعد الكمال.

جاء في الحديث عن الإمام على عليه السلام :

ص:١٧٦

«الحمد لله الدال على وجوده بخلقه، و بحدث خلقه على أزلته» (١).

و بتعبير آخر: إن الزمن جزء من حقيقه الأشياء، و إن هذا آخر ما توصل إليه علماء الفيزياء ابتداء من كبيرهم إنشتاين.

إن بركات الله و رحماته مستديمه على الكائنات فهي تنتقل من طور الى طور أفضل بفضل الله فتتكمّل، و لكنّها قد تنتكس الى الأسفل إن هي تجبرت و تكبرت، و لعلّ هذه هي البصيره فى التكامل و التطور، و نستوحىها من قوله سبحانه فى سورة الأعراف: **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (٢).

فقد ختمت الآيه باسم «تبارك» بعد بيان خلقه الكائنات فى ستة أيام، ممّا بصرنا بالتكامل الذى تفضّل الله به على الخلائق ببركته و خيره العميم المستمر.

و فى سياق هذه الآيات نجد قوله تعالى: **وَبَارَكَ فِيهَا**.

جيم: و إن علينا أن نعيش و عى الزمن فى تقييمنا لما فى الكون ليكون تقييمنا سليما، فمن لم يضع فى حساباته (الزمن) يتكاسل دون أن يعرف أنّ عمره هو هذا الزمن الذى يستهين به، و لا يرى إلاّ ما يجرى أمامه فيصاب بالعجله و الجزع، و لا تحرّكه النتائج البعيده، فهو يزداد نشاطا إذا أوتى جزاؤه الحسن عاجلا، و يخمل كلما ابتعد زمن الجزاء.

و لعلّ و عى الزمن واحد من الغايات التربويه الساميه فى كثير من آى الذكر،

ص: ١٧٧

١- ١) موسوعه البحار/ج(٥٤)ص(٢٧).

٢- ٢) الأعراف/(٥٤).

و لقد ذكرنا بذلك مكررا.

[١٠] لقد وفر الله شروط الحياه فى الأرض، و أولها استقرار الأرض بالجبال الراسيات، التى تتصل ببعضها و تمنع الميلان، الناشئ من الرياح الهوج أو الغازات المتجمعه فى مركز الأرض و التى تسبب الزلازل.

وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ كُلَّ حَدَثٍ يَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ فِي سَطْحِهَا أَوْ فِيمَا دُونَ سَطْحِهَا يَكُونُ مِنْ أَثَرِهِ انْتِقَالَ مَادَةٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ يُوْثِرُ فِي سُرْعَةِ دَوْرَانِهَا، فَلَيْسَ الْمَدُّ وَالْجُزْرُ هُوَ الْعَامِلُ الْوَحِيدُ فِي ذَلِكَ، حَتَّى مَا تَنْقُلُهُ الْأَنْهَارُ مِنْ مَائِهَا مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ تُؤَثِّرُ فِي سُرْعَةِ الدَّوْرَانِ، وَ مَا يَنْتَقِلُ مِنْ رِيَّاحٍ يُوْثِرُ فِي سُرْعَةِ الدَّوْرَانِ، وَ سَقُوطُ فِي قَاعِ الْبَحَارِ، أَوْ بَرُوزُ فِي سَطْحِ الْأَرْضِ هُنَا أَوْ هُنَا يُوْثِرُ فِي سُرْعَةِ الدَّوْرَانِ، وَ مِمَّا يُوْثِرُ فِي سُرْعَةِ الدَّوْرَانِ أَنْ تَتَمَدَّدَ الْأَرْضُ أَوْ تَنْكَمِشَ بِسَبَبِ مَاءٍ، وَ لَوْ انْكَمَاشًا أَوْ تَمَدَّدًا طَفِيفًا لَا يَزِيدُ فِي قَطْرِهَا أَوْ يَنْقُصُ مِنْهُ إِلَّا بَضْعَ أَقْدَامٍ. (١)

و هذه الحساسيه البالغه بحاجه الى أثقال تحافظ على الأرض، سواء من تأثير الهواء المحيط بها أو الغازات المحتبسه فيها لكى لا يختل توازنها.

و المعروف أن الجبال هى التواءات الظاهره للقشره الصخريه التى تحيط بكره الأرض، و كأنها درع حديدى برز بعض جوانبه بينما تبقى سائر جوانبه غائره فى الماء أو مدفونه بالتراب.

هكذا أشار الإمام على عليه السلام إلى هذه الآيه الإلهيه حين قال:

ص: ١٧٨

(١ - ١) فى ظلال القرآن/ص (٣١١٣) نقلا عن كتاب «مع الله فى السماء».

«وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها (١)، وذوات الشناخيب الشمّ (٢)، من صياخيدها (٣)، فسكنت من الميلان، برسوب الجبال فى قطع أديمها و تغلغلها، متسرّبه فى جوبات خياشيمها، و ركوبها أعناق سهول الأرض و جراثيمها « (٤).

وَ بَارَكَ فِيهَا لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، حَتَّى تَكْمَلَتْ وَ تَهَيَّأَتْ لِاسْتِقْبَالِ الْحَيَاةِ، فَبَعْدَ أَنْ تَصَلَّبَتْ قَشْرُهُ الْأَرْضَ خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا الْمَاءَ مِنْ اتِّحَادِ الْأَيْدُرُوجِينَ بِنِسْبِهِ ٢ وَ الْأَكْسِجِينَ بِنِسْبِهِ ١ ثُمَّ تَعَاوَنَ الْمَاءُ وَ الْهَوَاءُ فِي تَفْتِيتِ الصَّخُورِ وَ تَشْتِيثِهَا حَتَّى صَارَتْ تَرْبَةً صَالِحَةً لِلزَّرْعِ وَ الْبِنَاءِ، كَمَا تَعَاوَنَا عَلَى نَحْرِ الْجِبَالِ وَ النَّجَادِ وَ مَلَأَ الْوَهَادَ فَلَا تَكَادُ تَجِدُ فِي شَيْءٍ كَانَ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ هُوَ كَائِنٌ إِلَّا إِثْرَ الْهَدْمِ وَ الْبِنَاءِ. (٥)

و مرّت العصور المختلفه، و فى كلّ يوم بل كلّ لحظه تتطوّر الكره الأرضيه أكثر فأكثر بإذن الله، و يبارك فيها، فحيننا بالثلوج التى غطّت وجه البسيطة، و حيننا بالطوفان، و آخر بالأعاصير، و رابع بالشروق المستمر للشمس، و كذلك بتلقّى أشعه تنطلق من النجوم البعيده، و بألوان العوامل الأخرى.. و خلال ملايين السنين بارك الله فى الأرض.

وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا وَ مِنْ مَصَادِيقِ الْبِرْكَهِ الْأَقْوَاتِ الَّتِي قَدَّرَهَا الرَّبُّ فِي الْأَرْضِ، حَيْثُ أَوْدَعَ التَّرْبَةَ

ص: ١٧٩

١-١) الجلاميد: الصخور.

٢-٢) الشناخيب الشمّ: القمم المرتفعه.

٣-٣) الصياخيد: الصخور الشديده.

٤-٤) موسوعه البحار ج (٥٤) ص (١١٢).

٥-٥) نقلا عن كتاب «مع الله فى السماء».

المواد الكيماويه النافعه للزراعه، كما خزّن في الجبال المعادن المختلفه من الحديد و الذهب و الفضة و أنواع الأحجار الكريمه و الصخور المفيده، كما خلق في أعماق الأرض بحيرات النفط و الغاز، كما أودع فيما حول الأرض حاجتنا من الهواء الذى نتنفس من أو كسيجينه، و يتغذى النبات من كربونه، و من أكسيد كربونه، كما ضمّنه النتروجين الذى يخفف من وطأه الأوكسجين، و أجرى فيه تيارات رطبه لتلطيف الجو.. و أرسل الرياح فى الجو مبشرات برحمته، حيث تحتل السحب المتراكمه الى الأراضى المتباعده ليسقيها الربّ حاجتها من الماء.

فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ قَالُوا: مَعْنَاهُ يَوْمَانِ لَخَلَقَهُ الْأَرْضَ وَ يَوْمَانِ لِتَوْفِيرِ الْأَقْوَاتِ فِيهَا، وَ يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ خَلَقَهُ الْأَرْضَ قَدْ تَمَّتْ فِي يَوْمَيْنِ، وَ قَدْ تَمَّتْ خَلَقَهُ السَّمَاءَ وَ تَهْيِئَةَ الْأَرْضِ فِي يَوْمَيْنِ بِالْتِزَامِنِ، ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ عَمَلِيهِ تَمْهِيدِ الْأَرْضِ لِيَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَيَكُونُ الْمَجْمُوعُ سِتَّةَ أَيَّامٍ، حَيْثُ أَنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ خَلَقَهُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ قَدْ تَمَّتْ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَ اللَّهُ الْعَالِمُ.

و هنا وقفه اعتبار، لقد خلق الأرض على عظمتها فى يومين فقط، بينما قدر فيها أقواتها فى أربعة أيام. أ فلا يدلّ ذلك على أنّ نعمه تهيئه الأرض للحياه أعظم من نعمه خلقها، بلى. فقد اكتشف العلماء مزيدا من الأجرام السماويه، و لكن حتى هذه اللحظه لم يكتشفوا شيئا من آثار الحياه فيها، ممّا يهدينا الى عظمه النعم التى أسبغها الربّ لأهل الأرض حتى تهيأت لحياتهم. أ فلا نشكره سبحانه؟! سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ فَكُلَّ الْمُحْتَاجِينَ إِلَى الْأَقْوَاتِ يَتَسَاوُونَ فِي الْحَصُولِ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا مُتَوَفَّرَةٌ فِي كُلِّ

مكان، فليس الهواء و الأرض و المعادن قليلة حتى يستأثر بها قوم دون آخرين، بل الناس فيها شرع سواء.

كما أنّ معرفه هذه الحقيقه متوفره لكل السائلين.

و يحتمل أن يكون التساوى فى الأيام التى هى الدورات التى مرّت بالأرض، و الله العالم.

ص: ١٨١

اشاره

ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انبِئَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ
وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)

هدى من الآيات:

لا تزال الآيات الأولى من هذه السوره-التي تأمر الإنسان بالسجود لربّ العزه كما سجّدت له السموات و الأرض-تستعرض خلق الكائنات، حيث قام ربّنا التقدير بأمر الخلق بعلمه و مشيئته، فقال للسماء و هى دخان و للأرض التى خلقها من قبل اثنا فأتنا طائعين، (و هكذا كلّ شىء مستجيب لمشيئته طوعا).

فخلقهنّ سبع سموات خلال يومين (أو دورتين) و أوحى فى كلّ سماء منها ما يتعلّق بها من شؤون، و زين السماء الدنيا و هى أقربهن الى الأرض بمصابيح هدى للناس فى ظلمات الليل و زينه، (و جعلها) حصنا للأرض. إنّ ذلك من تقدير الربّ ذى القدره الفاعله و العلم النافذ سبحانه.

بينات من الآيات:

[١١] بعد أن خلق مادّه الأرض قبل دحوها أو بعدها قصد ربّنا المقتدر بمشيئته

النافذه الى السماء،و كانت آنئذ مجرد دخان،وفرض عليها طاعته،فاستجابت.

ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ أُو تساءل المفسرون:لماذا استخدم حرف «ثم»وهو للتعقيب و التراخى،فهل تم خلق السماء بعد الأرض،بينما النظريات العلميه ترى العكس،ويقول ربنا في سورة النازعات: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. (١)

أجاب البعض:إنَّ ثمَّ للتعقيب البياني،أى ثم اسمع قصه السماء و هى كيت و كيت.

وقال البعض:إنَّ الله خلق الأرض أولاً- و خلق السماء ثانياً،ولكنه إنما دحا الأرض بعد خلق السماء،كما تدل الآيه فى سورة النازعات،و على ذلك تدل أيضا بعض النصوص الإسلاميه.

و يبدو لى أنَّ المراد من «السماء»هنا الهواء المحيط بالكوكب و ليست الأجرام الموجوده فى السماء..« وَ هِيَ دُخَانٌ »ذات طبقات سبع،و لكل طبقة أمرها،و على ذلك فىكون خلقها بعد خلق الأرض،و يكون معنى قوله سبحانه فى الآيه التاليه:

وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ حِفْظًا أَنْ اللَّهُ جَعَلَ السَّوَادَ الْمَحِيْطَ بِالْكَرهِ الْأَرْضِيهِ بِطَرِيقِهِ نَرَى النُّجُومَ الَّتِي خَلَقَهَا فِي صُورِهِ مَصَابِيحَ، كما جعلها حفظا بما خلق فيها من غازات خاصه.

ص: ١٨٤

ب/ و تساءلوا: ماذا يعنى «استوى» فقالوا: إن ربنا قصد و توجه الى السماء، و يبدو لى أن كلمه الإستواء تعنى معنى القيام و الاهتمام و القصد (بإضافه معنى إلى) و الهيمنه، و كلها مراده فى هذه الجملة، و لكن بالطبع من ملاحظه استخدام الكلمه فى مقام الربوبيه المقدس عن أيه همهمه أو تجوال فكره أو حركه، سبحانه.

ج/ ثم تساءلوا عن الدخان فقالوا: إنه غازات، و إذا قلنا بأن المراد من الآيه كل ما فى السماء، فإن الآيه تشير الى المرحله السديميه السابقه لتكوّن الأجرام الفضائيه، حيث تجمعت و تركّزت بعد ذلك فى صوره نجوم، و لا- تزال كميات كبيره منها منتشره فى الفضاء يقدرها الخبراء بمثل الكميّه التى خلقت منها النجوم، و لا- تزال النجوم تكنس الفضاء من هذه الجزئيات السديميه باجتذابها إليها، و لكنّها أكثر بكثير من قدرتها على الجذب!! فقال لها و للأرض انبثا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين و لماذا لا تستجيب السماء و الأرض لمشيئه الله الذى خلقهما بفضله، و أودع فيهما آياته، و جعلهما محلاً لعباده المكرمين من ملائكته و أرواح أوليائه، بلى..

إنهما و سائر الكائنات تستجيب للرب طواعيه، سعياً وراء مرضاته، و امتناناً لرحماته، و شكراً لبركاته، قبل أن تستجيب له خشيه غضبه، و مخافه سطواته، و قد تقول: تجلّى رحمه الله فى الخلائق أبهى من تجلّى عزّته، و قد سبقت رحمته غضبه، سبحانه الله رب العالمين.

و لعل الآيه تشير الى أن ربنا كان يجرى سننه فى الخلقه شاءت أم رفضت، و لكنّها خشعت لأوامر الله طوعاً لا كرهاً!! فجرت سننه فيها بلا إكراه.. و يا ليتنا و عينا عبره هذه الحقيقه، و أجرينا أحكام الله على أنفسنا طوعاً و رغبه فى مرضاه الله.

و نتساءل: هل كان للسماء و الأرض شعور حتى يخاطبهما الربّ بهذه الصورة؟ ينفي البعض ذلك بشده، و يؤولون كلّ الآيات التي توحى بذلك الى خطاب الحال، مثلاً في هذه الآية يقولون: المعنى: أمرهما بالتشكّل فامتثلتا طائعتين، و يبقى سؤال: ماذا كان إذا الخيار الآخر أى أن تأتيا كرها؟ أ فلا يدلّ التقسيم الى اختلاف طرفيه، فهناك حركة طوعيه و أخرى كرهيه، لم أجد من يجيب عن هذا النقاش، و لكنّ باب التأويل لديهم واسع، بيد أنّ الأقرب حمل الآيات التي توحى يا حساس الخلائق على ظاهرها أو صريحها، لأنّ ما يدعونا الى تأويلها مجرد استبعاد، فلأننا لا نعرف كيف تمّ خطاب الله للأرض و السماء نقول لم يتم هذا الخطاب أبداً، و أمّا ذلك أسلوب بلاغى فى القرآن، و لأننا لا نفهم كيف تسبّح السموات و الأرض، نقول: إنّ أهلها هم الذين يسبحون، و لأننا لا نعى كيف عرض الله أمانته على السموات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها، قلنا كلّاً.. إنّ كان مجرد افتراض.

إنّ عشرات الآيات القرآنيه و أضعافاً منها من الأحاديث المأثوره عن المعصومين -عليهم السلام- ظاهره أو صريحه فى وجود الشعور -بقدر ما- لسائر الخلقه، يتجلّى فى يوم القيامة عند ما يستنطقها الله، فهل يجوز أن نضرب بها عرض الجدار لمجرد أنّنا لا نعرف كيف ذلك؟ إنّ من الجهل أن ننكر شيئاً لأننا لم نحط علماً بتفاصيله، و من العقل أن نؤمن به ثم نبحت عن تفاصيله بروح إيجابيه.

بلى. إنّنا كبشر لا يمكننا بالوسائل المتاحة لنا أن ندرس الأحياء و الأشياء من باطنها، بل من خلال الظواهر التي تهدينا الى واقعها و حتى فيما بيننا كبشر هل يستطيع زيد أن يدرس نفسه عمر كما يدرس هو نفسه؟ كلّاً.. إنّما الظواهر تدلّ عليها، و إذا اتبعنا هذا المنهج لعلنا نبلغ الواقع.. فما هو الشعور؟ و ما هى الظواهر التي تدلّ عليه؟ يبدو أنّ الشعور هو الجهاز المنسق بين الشئ و المحيط الذى هو فيه،

فنحن نملك هذا الجهاز بفضل الحواس التي تنقل الى المخ الإشاره عبر الأعصاب، و هناك تقوم مجموعه أجهزه الدماغ بتحليل الإشارات و إصدار الأوامر المناسبه بشأنها، و لا ريب من وجود مثل هذا الجهاز- لو كان غير متطور- عند سائر الأحياء، بل و فى النباتات التي تنسّق وضعها-بصوره و بأخرى- مع بيئتها بفضل نواتها المركزيه، بلى. نحن لم نكتشف مثل هذا الجهاز عند الجمادات، و لكن يحقّ لنا أن نتساءل عنه بعد علمنا بوجود قدر كاف من التنسيق بين جميع الكائنات، و لو افترضنا قوه الجاذبيه- مثلا- إحدى ظواهر هذا الجهاز لم نجاف الحقيقه.

[١٢] و يمضى السياق بيّن قدره الله المتجلّيه فى هذا الخلق العظيم، لقد خشعت له السموات و الأرض و جاثتا اليه طائعتين، فقدّر و قضى أن تكون السموات سبعا بحكمته البالغه و بمشيئته التي لا ترد، فاستجابت السموات الهائله بلا تردّد، و أضحت سبعا خلال المده التي قرّرها الربّ لها، و هى يومان أو دورتان.

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ مَا هِيَ هَذِهِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ؟ هل هى طبقات سبع حول أرضنا تشكّل السماء المحيطه بنا؟ أم هى سبع مجاميع من المجزّات، و المجزّه الواحده كالتى نحن فيها المسمّاه بسكّه التبان يبلغ قطرها مئه ألف مليون سنه ضوئيه؟ أم كل ما فى المجزّات التي نعرف عنها من شمس و أجرام تقع فى السماء الأولى، و إنّ لله سموات أخرى غيرها فيها ما لا يعلمها إلاّ الله من كائنات عظيمه؟ و على أى تفسير فإنّ قضاء الله جرى خلال يومين، أو حسب تفسير سابق دورتين، لا أعرف عنهما شيئا.

فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا

يبدو أنّ أمر كلّ سماء قيادتها و نظامها و ما يتعلّق بها من شؤون التدبير أنّ كلّ تلك قائمه فيها كما لو كانت وحده إداريه، و لعل من أمرها ملائكه الله التي فيها.

وَ زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ مَا هِيَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا؟ فإذا كانت السماء المحيطه بالأرض فإنّ زيتتها بسبب طريقه تموج النور فيها، حيث لا ترى النجوم خارج الفضاء المحيط بهذه الصوره الجميله، و لكن القول المعروف عند المفسّرين أنّ السماء الدنيا هي جانب من الفضاء الأرحب، و على ذلك نستوحى أنّ كل النجوم التي ترى تسبح ضمن السماء الدنيا، و أنّ هناك سماوات لا نرى أجرامها.

وَ حِفْظًا فَالْغَازَاتِ الْمَحِيْطَهُ بِالْأَرْضِ تَحْفَظُ الْأَرْضَ مِنْ مَلَائِكَةِ الشَّهْبِ الَّتِي تَتَسَاقَطُ عَلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُ الْأَرْضَ بِالْمَصَابِيحِ مِنَ الشَّيَاطِينِ.

□ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ تَعَالَوْا لِنَنْظُرِ إِلَى لَطْفِ صَنِعِ اللَّهِ، وَ حَسَنِ تَدْبِيرِهِ، وَ جَمَالَ خَلْقِهِ، وَ بَدِيعِ تَقْدِيرِهِ.

أفلا يهدينا كلّ ذلك الى عزّته و عظمه قدرته في الخلق و التدبير؟! أفلا يهدينا الى أنّه العليم الذي لا يعزب عن علمه شيء؟ و أى قدره و أى علم لربّنا الذي سخر الشمس التي هي أكبر من أرضنا بمليون مرّه في مدارها المحدّد دون أن تفسق عن مسارها قيد شعره؟! و أى قدره و علم لربّنا الذي أجرى في قلب الذرّه المتناهيه في الصغر سننه النافذه التي لا تغيير فيها!!!

اشاره

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
 قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ
 لَعَمْرُؤُا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ
 لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصِرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى
 الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ
 إِلَى الدَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا
 لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)

اللغة

١٦ [ريحا صرصرًا]: و هي الريح الباردة، من الصّير بمعنى البرد، أو هي الريح العاصفه ذات الصوت الشديد، و اشتقاق الصرصر من الصرير، و ضوعف اللفظ إشعارا بمضاعفه المعنى.

١٩ [يوزعون]: أى يحبس أولهم ليلحق بهم آخرهم، من وزع بمعنى حبس و منع، و المعنى إذا حشروا حبسوا هناك على حافه النار قبل دخولها، و فيه زياده إهانه و إرهاب.

ص: ١٩٠

هدى من الآيات:

بمستوى الاجرام الذى يبلغه الإنسان حين يكفر بالله العظيم يكون مستوى الإنذار و العذاب،فليس هيناً تمرّد البشر هذا المخلوق الضعيف المحدود على سنن الله التى استجابت لها السموات و الأرض طوعاً! كذلك ليس هيناً الصاعقه التى ينذر بها-إذ ذاك- فهى مثل الصاعقه التى أخذت قوم عاد و ثمود!! إنها واحده من السنن التى أجراها الله فى الكائنات،و التى لا تغيير فيها و لا تبديل (كما تقدير العزيز العليم فى خلق السموات و الأرض).

لقد جاءتهم الرسل قبل و بعد انحرافهم و أنذروهم من عاقبه الشرك بالله، فكفروا بالرساله زاعمين أنّ الله لو شاء لأرسل إليهم ملائكه،و استكبرت عاد فى الأرض بغير الحق اغترارا بقوتهم التى قهرت كلّ قوه فى الأرض،و لكنهم لم يروا

أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَهَكَذَا جَحَدُوا بِآيَاتِ اللَّهِ (اغتراراً بقوتهم)..

فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا عَاصِفَةً، ذَاتَ صَوْتٍ وَصَرِيرٍ، فِي أَيَّامٍ سَيِّئَاتٍ نَحْسَاتٍ، وَعَذَّبَهُمْ بِعَذَابِ الْخِزْيِ وَالْهُوَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَانَ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابِ آخِرَةٍ فِي الْآخِرَةِ.

أَمَّا ثَمُودُ فَقَدْ هَدَاهُمُ اللَّهُ حِينَ جَاءَتْهُمْ النَّاقَةُ مَبْصُرَةً، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، وَكَانَ جَزَاؤُهُمُ الصَّاعِقَةُ الَّتِي تَمَثَّلَتْ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ.. كُلُّ ذَلِكَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنْ جَرَائِمٍ وَمُوبِقَاتٍ! (وَلَمْ تَكُنْ صَدْفَةً تِلْكَ الصَّوَاعِقُ، بَلْ تَنْفِيذًا لِسُنَنِ إِلَهِيَّةٍ جَارِيَةٍ، وَأَبْسَطَ الْأَدْلَةَ عَلَى ذَلِكَ) أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَنْقَذَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، فَلَمْ يَرْتَكِبُوا تِلْكَ الْمُوبِقَاتِ.

بينات من الآيات:

[١٣] إِنَّ ذَلِكَ الْعَذَابُ الْإِلَهِيُّ الَّذِي نَزَلَ عَلَى قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودٍ فَسَاءَ صَبَاحُهُمْ يُمْكِنُ أَنْ يَنْزَلَ عَلَى أَيِّ قَوْمٍ كَافِرٍ، إِذْ لَمْ يَنْزَلْ عَلَى الْأُمَّمِ صَدْفَةً بَلْ ضَمِنَ سُنَّةَ إِلَهِيَّةٍ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يَعْتَبِرُهُ النَّاسُ صَدْفَةً. إِنَّ عَثْرَةَ الرَّجُلِ فِي الطَّرِيقِ، أَوْ انْتِشَارَ مَكْرُوبٍ فِي جَسْمِ أَحَدِ الْأَشْخَاصِ دُونَ صَاحِبِهِ، وَحَوَادِثُ السَّيْرِ وَالزَّلَازِلِ وَالْبَرَائِكِ وَالسَّيُولِ وَالْحُرُوبِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، قَدْ يَتَصَوَّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّهَا مَجْرَدٌ صَدْفَةٌ، بَيْنَمَا لَيْسَ فِي هَذَا الْكُونِ بِأَكْمَلِهِ شَيْءٌ بِلَا سَبَبٍ، بَلَى. هُنَاكَ حَوَادِثٌ نَعْرِفُ أَسْبَابَهَا وَقَوَانِينَهَا، وَأُخْرَى لَا نَعْرِفُ فَرَمِيهَا بِالصَّدْفَةِ.

وَنَحْنُ بِصِفَتِنَا مُؤْمِنِينَ نَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ حَادِثَةٍ كَبِيرَةٍ أَوْ صَغِيرَةٍ، تَجْرِي ضَمِنَ سُنَّةِ إِلَهِيَّةٍ، وَلِهَذَا نَعْتَقِدُ أَنَّ الصَّدْقَةَ تَدْفَعُ الْبَلَاءَ، وَأَنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ وَقَدْ أُبْرِمَ إِبْرَامًا،

وَأَنَّ صَلَهِ الرَّحْمِ تَزِيدُ فِي الْعَمْرِ، وَأَنَّ الْإِحْسَانَ يَرْفَعُ الْبَلَاءَ، كَمَا وَنَعْتَقِدُ أَنَّ مِنْ يَمَارِسِ الْأَعْمَالَ الشَّرِيرَةَ يَصَابُ بِتِلْكَ الْحَوَادِثِ الَّتِي نَسَمِّيهَا صَدْفًا، وَ مَا هِيَ بِصَدْفٍ، وَقَدْ قَالَ رَبَّنَا: وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (١) لِذَلِكَ أَخْبَرَنَا الرَّبُّ أَنَّ إِعْرَاضَ الْعَرَبِ-لَوْ تَمَّ-يَوْمَ دَعَاهُمُ الرَّسُولَ إِلَى الْقُرْآنِ لَا يَخْتَلِفُ عَنِ إِعْرَاضِ عَادَ وَ ثَمُودَ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ وَاحِدَةٌ لِأَنَّ السَّنَةَ الْإِلَهِيَّةَ وَاحِدَةٌ.

فَمَا إِنَّ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ إِنَّ الْعَرَبَ يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثِ طَوَائِفٍ: الْعَرَبُ الْعَرَبَاءُ (عَرَبُ الْيَمَنِ) وَ الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ (الْعَرَبُ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْعَرَبُ الْبَائِدَةُ (كَقَوْمِ عَادَ وَ ثَمُودَ)، وَ السُّؤَالُ: هَلْ بَادَتْ عَادَ وَ ثَمُودَ صَدْفَهُ أَمْ لِأَسْبَابٍ وَ مَبَرَّاتٍ، وَ هِيَ تَتَجَدَّدُ (السَّنَةُ) فِيمَا لَوْ تَجَدَّدَتْ تِلْكَ الْأَسْبَابُ وَ الْمَبَرَّاتُ؟ بَلَى. إِنَّهَا بَادَتْ لِأَسْبَابٍ وَ مَبَرَّاتٍ.

[١٤] وَ يَجْمَعُ كُلَّ تِلْكَ الْأَسْبَابِ وَ الْمَبَرَّاتِ الْكُفْرَ، وَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ التَّالِيَةِ تَوْضِيحٌ لَذَلِكَ:

إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ كَانَتْ تَلَاخِقَهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَ تَأْتِيهِمْ بِكُلِّ طَرِيقَةٍ، وَ تَحَاوَلُ هِدَايَتَهُمْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ بَلِيغَةٍ، وَ بِكُلِّ أَسْلُوبٍ سَلِيمٍ، كَانَتْ تَأْتِيهِمْ «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» أَيْ تَقُولُ لَهُمْ قَبْلَ الْإِنْحِرَافِ: لَا تَنْحَرِفُوا، «وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» أَيْ تَقُولُ لَهُمْ بَعْدَ الْإِنْحِرَافِ: لِمَاذَا انْحَرَفْتُمْ؟ دَعُوا الْإِنْحِرَافَ.

ص: ١٩٣

لقد جاءوهم و دعوهم الى تلك الحقيقه الهامه التي هي خلاصه رسالات الأنبياء جميعا، و هي:

أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ و لكن، ماذا كان جوابهم؟ لقد زعموا أنّ الله ينبغي أن يبعث ملكا رسولا، أمّا أن يكون رسولهم واحدا منهم يأكل الطعام، و يمشى في الأسواق، و لا يملك خزائن الأرض فلا..

قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فكفروا بالرساله لاعتمادهم على منهج مادي بحت لمعرفة الحق، فهم كفروا بما أرسل به الأنبياء قبل أن ينظروا فيه، بل لمجرد أن المبعوث به ليس ملكا.

[١٥] ماذا كانت عاقبه كفر أولئك الناس من أسلاف العرب؟ فأمّا عادٌ تلك الحضاره القويه، التي هلكت في عزّ شبابها، و عنفوان قوتها.

فَأَسِئْتَكَبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ، أى يحسبون أنفسهم كبارا فيظلمون الناس، و يغضبون حقوقهم لمجرد أنهم أوتوا قدرا من القوه.

وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً و لكن من لا يستطيع أن يمنع عن نفسه عاديات الطبيعه، كعاديه الريح

و البركان، كيف يسمح لنفسه بأن يتعالى على الله ربّ الريح و البركان؟! كيف يستطيع أن يتكبر على النظام الذى يسير كلّ جزء جزء من كيانه، شاء أم أبى؟! أ و لم يروا أنّ الله الذى خلقهم هو أشدّ منهم قوّة أو لم يعرفوا هذه الحقيقة الواضحة؟ بلى. و لكنهم جحدوا بها برغم توافر الآيات عليها.

وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ و هذا الجحود كان نتيجة للاستكبار، لأنّ الاستكبار يصبح حجاباً سميكاً بين الإنسان و بين الحقيقة.

[١٦] و لكن هذا الجحود، و ذلك الاستكبار، سبباً فى إرسال العذاب المهين عليهم، متمثلاً فى ریح عاصفه ذات صوت و صرير..

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصِراً و تلك هى المعادله الحاكمه فى الخلق، من لم يستجب طوعاً لرسول الرحمه و الإنذار، يستجيب كرها لرسول العذاب و العاصفه..

فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ لَمْ يَكُن فِيهَا ذَرَّةٌ مِنَ السَّعْدِ..

لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لَا يُنصَرُونَ

هكذا كان العذاب في الدنيا مخزيا مهينا، لأنهم كانوا يستكبرون و يتجبرون، و أما العذاب في الآخرة فهو أعظم خزيا، و أبقى ألما.

و إنَّ شدة عذاب الله في الدنيا، و هول وقعه على الكافرين، تهادينا إلى أمرين:

أولاً: هول عذاب الله في الآخرة، و تناهى شدته بما لا يمكننا تصوّره، ثانياً: صرامه سنن الله و كيف تدمر الذين يكفرون بالله شرّ تدمير، بلى. لقد جاءت السماء و الأرض لرَبِّها طوعاً قبل أن يؤتى بهما كرها، فهلاًّ نأتى ربنا طائعين من قبل أن تذهب بنا ريح صرصر عاتيه؟! [١٧] وَ أَمَا تَتَمُودُ فَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، وَ زَوَّدَهُم بِالآيَاتِ الْمُبْصِرَةِ، وَ مَنْ عَلَيْهِم بِالْهُدَايَةِ..

فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ صَالِحًا فَاٰمَنُوا بِهِ، وَ لَكِنَّهُمْ انْحَرَفُوا بَعْدَئِذٍ عَنِ طَرِيقِ الرِّشَادِ.

بلى. إنَّ الطريق كان واضحاً أمامهم، و الحقيقة ظاهره كالشمس في كبد السماء، و لكنهم أغمضوا أعينهم، و قالوا: نحن لا نرى، فما ذا كان مصير كفرهم بعد الإيمان؟ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ - كما نزلت على عاد - صاعقه العذاب، المشبعة بالخزي و الإهانة، و السبب واضح:

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

ص: ١٩٤

لا- لضآله فى مغفره الله؁ لأنها أعظم من ذنوبهم؁ و لا لضيق فى رحمته؁ لأنها وسعت كل شىء؁ و لكن لأنهم أبعءوا أنفسهم عن الربّ الرؤوف الرحيم بما اجترحوه من سيئات.

و نستوحى من هذه الآيه أنّ كفر ثمود يختلف عن كفر عاد؁ فعاد كفروا بكلّ شىء؁ رأسا؁ و أمّا ثمود فآمنوا بالرسول و الرساله؁ و لكنهم فعلوا ما يتناسب و الكفر؁ من عقر الناقه؁ و مخالفه أوامر الرسول فيما يتعلق بها؁ فما كسبوه كان خاطئا.

و لهذا يقول الله سبحانه: «فهديناهم» أى اهتدوا فكريا و نظريا «فأشـ تحببوا العمى» أى انحرفوا عمليا و سلوكيا؁ و هذا يعتبر عمى؁ كالذى زوده الله بالبصر؁ و لكنه لا ينتفع به فيقع فى الحفره.

و من هنا نعرف أنّ عذاب الله يقصم ظهر من يخالف سننه فى الخليقه و التى نكشفها أحكامه فى الشريعة؁ سواء آمن بها و خالفها؁ أم كفر بها رأسا؁ فالذى يناطح الصخره ينفلق رأسه سواء آمن بهذه الحقيقه أو كفر بها.

و فى ذلك تحذير لأمه النبى محمد صلى الله عليه و آله أنّ مخالفتم لرسالته نظريا أو عمليا تجرّ إليهم الويلات.

[١٨] و بين هؤلاء المنحرفين-الكافرين عمليا- كانت هناك مجموعه من المؤمنين الصادقين؁ أنجاهم الربّ؁ و كان سبب نجاتهم هو تقواهم و اجتنابهم ما ارتكبه الآخرون من الجريمة و الفحشاء.

وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ

و يذكر الرواه فى تفسير هذه الآيه قصه مفيده هى مثلما أخرج ابن إسحاق و ابن

المنذر و البيهقي في الدلائل و ابن عساكر قال :حدث أن عتبه بن ربيعه و كان أشد قريش حلما قال ذات يوم و هو جالس في نادي قريش، و رسول الله صلى الله عليه و آله جالس وحده في المسجد:يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلمه فأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل منها بعضه و يكفّ عنا،قالوا:بلى يا أبا الوليد،فقام عتبه حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه و آله فذكر الحديث،فيما قال له عتبه،و فيما عرض عليه من المال و الملك و غير ذلك،حتى إذا فرغ عتبه قال رسول الله صلى الله عليه و آله :أفرغت يا أبا الوليد؟ قال:نعم،قال:فاسمع مني،قال:أفعل،فقال رسول الله صلى الله عليه و آله : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ،فلما سمعها عتبه أنصت لها،و ألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع منه،حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه و آله الى المسجد فسجد فيها،ثم قال:سمعت يا أبا الوليد؟قال:سمعت،قال:أنت و ذاك،فقام عتبه إلى أصحابه،فقال بعضهم لبعض:نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به،فلمّا جلس إليهم قالوا:ما وراؤك يا أبا الوليد؟قال:و الله إنني قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط،و الله ما هو بالشعر،و لا بالسحر،و لا بالكهانة،و الله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ. (١)

[١٩] و أمّا العذاب في الآخرة فهو الأكبر و الآلم، و الأشدّ و الأبقى، و ما أصاب الكافرين من عذاب في الدنيا، لا يقاس بذره من عذاب الآخرة إطلاقاً، لأنها تحمل عنصرى الشده و البقاء، و لعذاب الآخرة أشدّ و أبقي. (٢)

من تطوّف في المستشفيات و بالذات التي تأوى الحالات الصعبة، أو زار ساحات القتال و شاهد المناظر الرهيبة، ثم دار على المناطق المنكوبه ببر كان تفجّر

ص: ١٩٨

١- (١) الدر المنثور للسيوطي /ج(٥) ص(٣٦٤).

٢- (٢) سورة طه/(١٢٧).

فسال لعابه النحيس على القرى المحيطة فأذابها، أو بسيول عارمه اقتلعت في طريقها الأشجار و دمرت القرى.. أقول مثل هذا الإنسان يعى -بعض الشىء- معنى العذاب فى الدنيا، و فظاعته، و بشاعه مناظره..

و لكن كل ذلك العذاب، و كل تلك الويلات و المآسى، تعتبر تافهه إذا ما قيست بعذاب الآخرة، و هول ما يجرى فيها، و دوامه.

بلى. إن عذاب الدنيا يهدينا الى وجود العذاب الأخرى، و جانبا من حقيقته..

الحمى و آلامها التى قد تعترى الجسم فتحوله الى خرقة باليه! ليست سوى لفحة من نار جهنم.

و هذه النار التى تذيب الحديد، صوره مخفضه سبعين مره عن نار جهنم.

و لعله حتى الحراره التى يولدها تفجير قبله ذريه هائله فتحوّل الصخور دخانا خلال أقل من ثانیه ليست سوى لهيب من نار جهنم، التى هى أشد حرا مما نتصوره فى الدنيا.. و حتى الحراره الموجوده فى مركز الشمس المتناهيه الشده لا تقاس بنار جهنم. أو لا- نقرأ فى النصوص أنّ الشمس تلقى فى جهنم فتصرخ من حرّها؟! فهل تتحوّل العظام الناعمه، و الأجسام الترفه، و الجلود الرقيقه، و الأعصاب الحسيه، ذلك العذاب الرهيب الذى يحول ساكنيه الى شعله متقدّه؟! نعم هكذا يفعل العذاب بالكافرين، فهم لا يموتون فيها و لا يحيون، يقول تعالى:

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ كَمَا وَ أَنَّهُ لَا يَغْمَىٰ عَلَيْهِمْ، كما يحدث للمعذب أو المصاب بالأم فى الدنيا، و لا يعطون إجازات

يتخلصون فيها من عسر البلاء، ولا تجرى لهم عمليات جراحية ليتماثلوا للشفاء من أمراض العذاب، ولا تقدم لهم مهدئات لتسكن نفوسهم و يكفوا عن الصراخ.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ أَتْنَدُ سِيْلَاتُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرَ.

فَهُمْ يُوزَعُونَ يَتَقَسَّمُونَ، و يلقى كل واحد منهم فى سجنه المخصّص له.

[٢٠] كل ذلك العذاب الغليظ المهين ينتظر أولئك الذين عادوا ربهم، فلم يتبعوا رسله، و خالفوا أوامره و سنته، و تجاوزوا حدوده، فى الوقت الذى أطاعت الكائنات جميعا ربها، و اتبعت سنته التى قدرها فيها.

و حتى أعضاء جسد الإنسان تتبع سنن ربه، لو لا أنه قد سخرت له بعض الأيام فى الدنيا لينظر كيف يعمل بها، و فى يوم القيامة حيث يسلب منه هذه الحرية المحدوده تنقلب عليه أعضاء جسده فتكون شاهده عليه على شفير جهنم.

حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ مَا تَرْتَكِبُ بِالْأُذُنِ، كَسْمَاعِ الْغِيْبِ وَ الْغِنَاءِ، و ما ترتكب بالعين، كالنظر الى المحرمات، و قراءه كتب الضلال، و ما ترتكب عن طريق الجلد، كالزنا، و هذه الجوارح ستشهد على الإنسان يوم القيامة.

[٢١] يا لهول المفاجئه، و يا لصدق الشاهد!

وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا كَيْفَ تَشْهَدُونَ عَلَيْنَا؟! كَيْفَ وَنَحْنُ حَمَلْنَاكُمْ مَدَى حَيَاتِنَا؟! كَيْفَ وَنَحْنُ نَلْبَسُ الْمَلَابِسَ النَّاعِمَةَ
مَنْ أَجْلَكُمْ؟! كَيْفَ وَنَحْنُ كُنَّا نَحْمِيكُمْ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ فِي اللَّيَالِي الْقَارِصَةِ؟! كَيْفَ وَنَحْنُ كُنَّا نَقِيكُمْ الْحَرَّ؟! قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ مِنْ هَذَا الْمَقْطَعِ فِي الْآيَةِ يَتَّضِحُ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شَعُورًا- كَمَا قُلْنَا-وَ إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَعْطَاهُ الْقُدْرَةَ عَلَى النُّطْقِ بَلَّغَهُ
الْإِنْسَانَ حَتَّى يَفْهَمُ، وَ الْآفَهُو يَمْلِكُ شَعُورًا.

وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

ص: ٢٠١

إشاره

وَمَا كُنْتُمْ تَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَ ذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصَيْبَ حُتْمٌ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالذَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَضَيْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ (٢٦) فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)

اللغه

٢٣ [أرداكم]: أهلككم.

٢٤ [يستعتبوا]: يطلبوا العتبي «رضا الله»، و الإعتاب الإرضاء، و أصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في المدباغ، ثم أستعير فيما يستعطف به البعض بعضا لإعادته ما كان من الألفه.

هدى من الآيات:

أفضل باعث للإنسان إلى التقوى تحسيسه بأن الله يسمعه و يراه، و أنه أقرب إليه من حبل الوريد، ثم رؤيته بحقيقه الإيمان، و الحضور فى مقام قربه، و مقعد الصدق عنده، و بالتالى تلمس شهوده و شهادته على كل شىء، و أنه بحوله يكون كل حول، و بقوته تقوم كل قوه، و بحياته كل شىء حى.

و لقد ذكرتنا فاتحه هذا الدرس بهذه البصيره، و أن الردى الذى هوى إليه أولئك الخاسرون كان بسبب ظنهم السىء برّبهم فلم يقدرّوه حق قدره، و لم يعرفوه كما ينبغى، و أنه يعلم خائنه الأعين و ما تخفى الصدور، و أنه غفار لمن تاب و آمن ثم اهتدى.

و الآن لا يجديهم الصبر راحه، و لا العقاب خلاصا، بل النار مثواهم أبدا.

و بذلك الظن قبيض الله لهم قرناء السوء من الشياطين، من الأمام و الخلف

يزينون لهم سوء أعمالهم، حتى لا يهتدوا أبدا.

ذلك لأنهم تركوا الاعتصام بحبل الله المتين، وقالوا لبعضهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، و الغوا فيه (بأحداث أصوات مزعجه) لكي لا يسمعه الآخرون فتغلبون رساله.

(و حين يفرغ القلب من ذكر الله تهجم عليه الشياطين)، و هكذا يذيق الله الذين كفروا عذابا شديدا، و يجزيهم أسوء عمل عملوه (حين تتمثل السيئات بألوان من العذاب) و ذلك جزاؤهم بما عادوا ربهم أنهم يدخلون النار خالدين فيها، لأنهم جحدوا بآيات الله (بعد أن استيقنتها أنفسهم).

و فى الدنيا تراهم يطيعون قرناء السوء من الجن و الإنس، بينما هم فى الآخرة يبحثون عنهم ليجعلوهم تحت أقدامهم ليكونوا من الأسفلين (لشده غضبهم عليهم و برائتهم منهم).

بينات من الآيات:

[٢٢] لم يكن الكافرون يخافون-حين عصيانهم-من شهادة سمعهم و أبصارهم و جلودهم عليهم، بل إنهم لم يكونوا يتصوّرون شهادتها عليهم، إذ كيف تشهد عليهم هذه العين المطيعه لأوامرهم، و تلك الأذن و الجلود التى راعوها و حافظوا عليها؟! بلى. إنها لن تسمع أوامرهم فى الآخرة، بل و ستشهد عليهم شهادة الحق.

ثم إنهم حتى و لو عرفوا فى الدنيا بشهادة الجوارح عليهم لا يقدرّون على التخلّص من رقابتها، لأنّ الإنسان يتمكن من ستر أعماله و حجب تصرفاته حتى عن أمّه و أبيه، و لكن كيف يسترها عن عينه أو يده أو جلده؟

من هنا: إذا كانت شهود الله على الإنسان أعضاؤه، فلا بد أن يخاف مقامه، و يتقيه على نفسه.

وَمَا كُنْتُمْ تَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ يَبْدُو أَنَّ مَعْنَاهُ: إنكم لم تستتروا، ولا كنتم قادرين على أن تستتروا.

و لنفترض جدلاً: أن الأعين و الآذان و الجلود لن تشهد على الإنسان أثناء الحساب، فهل يعقل أن لا يكون الله شهيداً؟! كلاً. فالله محيط علماً بالبشر، و مطلع على خفياته التي ليس لأحد سبيل الى معرفتها سواه سبحانه.

إن الله سميع بصير، عليم خبير.. و لو شعرنا بذلك، و أنه يحصى أنفاسنا، و يعلم خطرات قلوبنا، و أن كل كبير و صغير مستطر، لما ارتكبنا السيئات.. و إنما فلت من شرك الفاحشه ذلك المخلص الصديق يوسف بن يعقوب -عليهما السلام- حينما تحسس رقابه الله عليه، و علم يقيناً أنه عزّ و جل أقرب إليه من حبل الوريد،

فعن أبي عبد الله صلى الله عليه و آله قال :

«لما همّت به و همّ بها، قالت: كما أنت، قال: و لم؟ قالت: حتى أعطى وجه الصنم لا يرانا، فذكر الله عند ذلك، و قد علم أن الله يراه ففرّ منها» (١) ينبغي أن نتذكر شهادة الله حتى نفوز برقابه ذاتيه على أنفسنا فلا تنحرف.

و أما الكافرون فهم بعيدون عن هذه الحقيقه، فهم يظنون برّبهم ظنّ السوء،

ص: ٢٠٦

١-١) بحار الأنوار/ج(١٢)ص(٣٠٠).

فمثلا قد يظنون أنّ الله يعلم فقط ظاهرا من أقوالهم و أعمالهم فيزعمون أنّهم قادرون على تبرير سيئات أفعالهم و فاحش أقوالهم أمام ربّهم، بأن يقول الواحد منهم: إنّنى كنت مجبورا، أو مضطرا الى السيئه، أو عملتها من دون وعيى و إرادتى.

كذلك يبرّر المجرمون قبل ارتكاب الموبقات سيئاتهم لأنفسهم، و يختلقون الأعذار التى يزعمون أنّها تغنيهم عن العقاب أو الجزاء، و لو عرفوا أنّ الناقد بصير، و أنّه لا تخفى عليه خافيه، لا ارتدعوا.

و ما دام الإنسان يعلم أنّ تبرير عمله للناس ليس بحق لأنّ الله يعلم به، فهو يرجى صلاحه، لأنّ فى قلبه لا تزال مسافه بين الحق و الباطل، و أمّا إذا وصل الى مستوى يختلط فى قلبه الحق و الباطل، و أنّ التبرير الذى يختلقه للناس يستطيع أن يخدع به ربّه، فقد هوى و لا أمل فى نجاته.

و مثل هذا الصنف كثير، و إنّهم ليأتون يوم القيامة ربّهم، فيوقفهم للحساب، فيشرعون فى طرح أعذارهم التى تشبّثوا بها فى الدنيا، بعضهم يقول: كنت مكرها، و يقول الآخر: كنت مستضعفا، و يقول ثالث: لم أرد إلاّ الخير، و هكذا، و من الناس من ينكر كلّ أفعاله السيئه، و يحلف على ذلك بالأيمان، يقول الرب: **و يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (١)** و عن المبرزين يقول: **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (٢)**

ص: ٢٠٧

١ - (١) الانعام/(٢٢-٢٣).

٢ - (٢) النساء/(٩٧).

وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ لَعَلَّ مَرَادَهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفِيَّاتِ، وَإِنَّمَا يَرَى ظَاهِرَ أَعْمَالِهِمْ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمَفْسِّرُونَ أَنَّ فَرِيقًا مِنَ الْكُفَّارِ اجْتَمَعُوا عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَ تَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُنَا؟ فَقَالَ الْآخَرُ: بَلَى. إِذَا رَفَعْتُمْ أَصْوَاتَكُمْ سَمِعَكُمْ، وَقَالَ الثَّلَاثُ: إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ النِّدَاءَ يَسْمَعُ النُّجُوى، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ.

و تحتمل الآية تفسيراً آخر هو عدم اهتمام أولئك القوم بشهادة الله عليهم، فمن لا يأبه بشيء كان كمن لا يؤمن به.

[٢٣] و لكن تلك الظنون أمطرت عليهم الويلات، و دفعت بهم إلى أسفل الهاوية.

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْرَبْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ شَخْصِيهِ الْإِنْسَانِ تَصَاغٍ حَسَبَ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ، فَمَنْ أَحْسَنَ بِهِ ظَنًّا حَسَنَتْ سِرِّيَّتُهُ، وَ طَابَ سُلُوكُهُ، وَ صَلَحَ عَمَلُهُ، وَ مِنْ أَسَاءَ بِرَبِّهِ الظَّنَّ سَاءَتْ سِرِّيَّتُهُ، وَ خَبِثَ سُلُوكُهُ، وَ فَسَدَ عَمَلُهُ..

و هكذا ينبغي أن يحسن العبد ظنه بربه ما استطاع،

فقد روى عن الإمام الصادق -عليه السلام- أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

«إِنَّ آخِرَ عَبْدٍ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ فَإِذَا أُمِرَ بِهِ التَّفْتِ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ:

رَدَّوهُ، فَيَرُدُّوهُ، فَيَقُولُ لَهُ: لِمَ التَّفْتِ الَّتِي؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لِمَ يَكُنْ ظَنِّي بِكَ هَذَا، فَيَقُولُ: وَ مَا كَانَ ظَنُّكَ بِي؟ فَيَقُولُ: كَانَ ظَنِّي بِكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي، وَ تَسْكُنَنِي جَنَّتِكَ!

قال: فيقول الجبار: يا ملائكتي لا وعزتي وجلالي وآلاتي وعلوي وارتفاع مكاني ما ظن بي عبدي هذا ساعه من خير قط، ولو ظن بي ساعه من خير ما روعته بالنار، أجزوا له كذبه، وأدخلوه الجنة «

ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

«ليس من عبد يظن بالله عزَّ وجلَّ خيراً إلا كان عند ظنِّه « (١) [٢٤] فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالَّذَارُ مَثْوَى لَهُمْ إِنَّ صَبْرَهُمْ فِي الْآخِرَةِ يَخْتَلِفُ عَنْ صَبْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَصَبْرُهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى الطَّاعَاتِ وَعَنِ الْمَعَاصِي يَعْقِبُهُ الْفَرْجُ وَالْجِزَاءُ الْحَسَنُ، وَلَكِنْ حَتَّى وَإِنْ صَبَرُوا فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ النَّارَ هِيَ مَثْوَاهُمْ لِلْأَبَدِ.

وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ وَإِنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ لَا تَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ، بَعْدَ عَكْسِ الدُّنْيَا حَيْثُ تَوَفَّرَتْ لَهُمْ فِرْصَةُ التَّوْبَةِ.

[٢٥] عوامل الانحراف عديده، وتختلف من إنسان لآخر، وفي حياه الشخص الواحد تختلف من مرحله لأخرى، ففي مرحله الطفوله يستهوى الإنسان عامل واحد اللعب، أمّا في مرحله الشباب فإنّ أصدقاء السوء من أشدّ عوامل الانحراف تأثيراً على النفس، بينما في مرحله الرجوله يتدرّج البشر عبر عوامل المال والبنين والتفاخر.

و هنا يشير القرآن الى أصدقاء السوء الذين يحيطون بمن ابتعد عن هدى ربه

ص: ٢٠٩

(١-١) نور الثقلين / ج (٤) - ص (٥٤٣).

فَيَزِينُونَ لَهُ سَوْءَ عَمَلِهِ، حَتَّى لَا يَكَادُ يَجِدُ سَبِيلًا لِلْهُدَايَةِ.

إِنَّ الضَّلَالَةَ - كَمَا الْهُدَايَةَ - تَبْدَأُ مِنْ اخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَ لَكِنَّمَا تَخْرُجُ تَقْرِيْبًا عَنْ حُدُودِ سَيِّطَرِهِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ ذَلِكَ، إِذْ تَتَكَثَّفُ حَوْلَهُ عَوَامِلُ الْإِنْحِرَافِ وَ أَغْلَالُ الضَّلَالِ حَتَّى يَكَادُ يَصْبِحُ عَاجِزًا عَنِ الْإِنْفِلَاتِ مِنْهَا، فَتَرَى قَلْبَهُ يَقْسُو مَعَ اسْتِمْرَارِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ، وَ مَحِيطُهُ الْاجْتِمَاعِي يَخْلُو مِنَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَنْصَحُونَهُ، وَ يَتَمَحَّضُ فِي قِرْنَاءِ السَّوْءِ، وَ يَكُونُ مِثْلَهُ مِثْلَ دُودِ الْقِرْزِ يَخْتَنِقُ فِي شَرْنَقَتِهِ الَّتِي صَنَعَهَا لِنَفْسِهِ! وَ قِرْنَاءُ السَّوْءِ نَوْعَانِ:

نَوْعٌ ظَاهِرٌ، وَ هُوَ الصَّدِيقُ السَّيِّئُ الَّذِي يَصَاحِبُ الْإِنْسَانَ وَ يِرَافِقُهُ، وَ حِينَ يَنْحَرِفُ الْإِنْسَانُ يَجِدُ نَفْسَهُ فِي جَمَاعَةِ الْمُنْحَرِفِينَ، وَ إِنَّ الطَّيُورَ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ.

نَوْعٌ بَاطِنٌ، وَ هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَزِينُ لَهُ السَّيِّئَاتِ.

وَ قَيْضُنَا لَهُمْ قُرْنَاءٌ قَالُوا: أَصْلُ كَلِمَةِ «الْقَيْضِ» بِمَعْنَى الْقَشْرَةِ الْمَحِيطَةِ بِالْبَيْضِ، وَ أَنَّ إِحْيَاءَ «قَيْضِ» التَّسَلُّطِ الْكَامِلِ، وَ الْإِحْاطَةَ التَّامَةَ، وَ لَكِن يَبْدُو لِي أَنَّ مَعْنَى قَيْضِ انْتِخَابِ الشَّيْءِ الْمُنَاسِبِ، فَإِنَّ حَجْمَ قَشْرَةِ الْبَيْضِ مُنَاسِبَةٌ لِمَذَاتِ الْبَيْضِ، كَذَلِكَ يَتِمُّ اخْتِيَارُ الْقَرِينِ الْمُنَاسِبِ لِلشَّخْصِ.

فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَعْمَالِ الْفَسَادِ الَّتِي لَمْ يَرْتَكِبُوهَا.

وَ مَا خَلَفَهُمْ

ص: ٢١٠

من الأعمال التي ارتكبوها. وقالوا: ما بين أيديهم الدنيا، وما خلفهم الآخرة، وقيل العكس.

و لكن يبقى سؤال: لماذا يقتض الله قرناء السوء لهؤلاء؟ الجواب: لأن الله قد غضب عليهم، و فرض عليهم الضلالة بسوء اختيارهم أولاً- كما فعل بأسلافهم من الأمم السابقة، و يا لسوء العاقبة إنَّ الربَّ الرحمن الرحيم الذي هو السبب الوحيد للهداية يريد إضلالهم و تعذيبهم! وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ و لعل المراد من الجن هنا الشياطين الذين يقتض الله منهم قرناء للخاسرين.

[٢٦] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ وَ الْغَوَا فِيهِ: أى أثيروا اللغو حينما يقرأ القرآن لصرف النظر عن أفكاره الحقة.

و فى كلِّ عصر و مصر هناك محاولات خاصه للغو فى القرآن، ففى بدء الدعوة الإسلاميه كانوا يحضرون القصص بجانب الرسول ليرووا للناس القصص التاريخيه الخياليه، و كان هناك من لا- يفرق بين القرآن و تلك القصص التافهه، فيجلس عند القصص ليستمع إليها، و يدع الرسول صلى الله عليه و آله و رسالته الحضاريه، و فى بعض الأحيان كان يقوم أحدهم بالتصفيق عند تلاوته أو التصفير.. و كل ذلك بهدف جذب انتباه الناس لكى لا يفهموا حقائق رساله، و أمّا فى هذا العصر فقد تطوّرت أساليب اللغو الذى يثيره الكفار فى القرآن، إذ أنّ عشرات الألوف من الصحف المأجوره، و الإذاعات، و محطات التلفاز، و مراكز صناعه الأفلام، تمثّل اليوم ظاهره اللغو الذى يثيره الكفار بين الناس لمنعهم من الاستماع الى القرآن.

و الهدف من كل ذلك اللغو الجاهلى الأول و هذا اللغو الجاهلى العريض هو التغلب على الساحه، و الاستكبار فى الأرض بغير الحق، مما يعنى أن بناء الكفار الثقافى قائم على أساس اللغو و التشويش على بصائر الحق.

و نستوحى من الآيه عدّه حقائق:

أولاً: إنَّ كلَّ ما بيّنه الطغاه من خلال أجهزتهم الدعائيه ضلاله و لغو، و إنّما الحق ما بيّنه الوحي الإلهى.

ثانياً: إنّ البناء الثقافى للطغاه قائم على أساس مواجهه الحق، و التشويش عليه، أو ليست الضلاله هى الانحراف عن الهدى، فهى ليست أصلاً أو محورا أو بناء متكامل، و هكذا فضح القرآن أهم استراتيجيات الدعايه الكافره، و هى معاكسه الاعلام الحق، و إثارة الضوضاء و الصخب من أجل صرف الانظار عنه.

ثالثاً: من خلال الهدف الذى يتوخاه الفرد نعرف طبيعه عمله، أو ليست الأعمال بالنيات؟ و إنّ هدف أجهزه الدعايه الكافره هو الاستكبار فى الأرض، و الغلبه فى الصراع مع الحق، و من كان هذا هدفه كيف يستطيع أن يهدى الناس الى الحق؟! إنّ الهدف هو الذى يحدّد مسيره العمل، و استراتيجيه التحرك، بل كيف يهدى الى الحق من لم يهتد بنفسه اليه.

و حين يكون هذا هدف مجمل التحرك الدعائى عند الكافرين، فإنّه ينعكس على أدوات هذا التحرك، و الأفراد المشاركين فيه، فكلّ فرد من العاملين فى هذا الجهاز يسعى نحو هدف مصلحى خاص به، فترى الواحد يحلم فى الشهره، و الثانى يبحث عن الثروه، و الثالث يتمنى ان يكون ذا حظوه عند السلطان، و كيف تهدى أقلام هذه الشراذم الى الحق؟!

ص: ٢١٢

[٢٧] بلى. إنهم يضلّون الناس عن الحق، و يمنعونهم عن بلوغ الحقائق، و يحجبون عنهم النور الإلهي، و بحجم الخساره التي يلحقونها بالناس يكون حجم العذاب الذي ينتظرهم.

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا و لَعَلَّ هَذَا هُوَ عَذَابُهُمْ فِي الدُّنْيَا.

وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ لَعَلَّ جَزَاءَهُمْ أَسْوَأَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ بِاعْتِبَارِ تَحَدِّيهِمْ لِرَبِّ الْعِزَّةِ، أَوْ تَحْمَلِهِمْ لِعَذْرِ الْآخِرِينَ. و لَعَلَّ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَجَازُونَ بِأَسْوَأِ أَعْمَالِهِمْ فَيَكُونُ بِالطَّبَعِ جَزَاءُ سَيِّئًا، و اللَّهُ الْعَالِمُ.

[٢٨] لماذا هذا الجزاء الشديد؟ لأنهم أعداء الله، و ليس هئينا عداوه هذا المخلوق الضعيف لخالقه القوى العزيز.

ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ يَا لَهُ مِنْ عَذَابٍ عَظِيمٍ، النَّارُ أَبَدًا سَاءَتْ مَسْتَقْرًا و مَقَامًا! و نَسَاءَلُ: كَيْفَ أَنَّهُمْ أَضْحَوْا أَعْدَاءَ اللَّهِ؟ بلى. حين عادوا رسالاته، و ألغوا في القرآن، فقد عادوا الله عزّ و جلّ.

جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ إِنَّ الْكُفْرَ بِالرِّسَالَةِ بَعْدَ أَنْ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ يَدُلُّ عَلَى عِدَاوَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ.

[٢٩] و في نهايه المطاف يكفر هؤلاء بقرناء السوء الذين أضلّوهم عن سبيل الله،

سواء كانوا من الإنس الظاهرين (كأصدقاء السوء) أو الجن (كالشياطين و الذين زينوا لهم سوء أعمالهم).

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَخْلَأْنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ و لكن ماذا ينفعهم لو جعلوهما تحت أقدامهم فى ذلك اليوم بينما جعلوهما قدوه لهم فى الدنيا؟!

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ
أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ
أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ
مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)

٣٧[نزغ]:التزغ هو النخس بما يدعو إلى الفساد، فإنّ الشيطان ينخس الإنسان و يهيّجه للباطل خصوصا عند الخصام و فى المعركة.

ص:٢١٤

هدى من الآيات:

فى آيات مضت بين القرآن نموذجاً من الناس تحدوا سلطان الرب، فقيض لهم قرناء السوء، واختار لهم أسوء المصير. و هنا يبين النموذج المعاكس له تماماً، وهم الرجال الذين تحدوا القوى الاجتماعيه و أعلنوا إيمانهم بالله (و دعوا الناس الى ذلك) ثم استقاموا، حيث ينزل الله عليهم الملائكة تنزيلاً يزيلون عنهم الخوف و الحزن، و يبشرونهم بالجنه، و يطمأنونهم بأنهم أولياؤهم، يؤيدونهم فى الدنيا، و يسعدونهم فى الآخره، هنالك حيث يتوفر ما يشتهونه أو يتمنونه، فى تلك الدار التى يستضيفهم الربّ الغفور الرحيم.

بلى. إنّ أحسن القول هو الدعوه الى الله المقرونه بالعمل الصالح و التسليم، و المقرونه كذلك بالخلق العظيم الذى يختار صاحبه أحسن السبل فإذا بالعدو يصبح ولياً حميماً.

وإنها لذروه الفضيله لا- يبلغها إلا الصابرون من ذوى الحظوظ العظيمة! وقد يدفع الشيطان أحدهم الى الوراء قليلا، ولكنهم يستعيدون بالله من شره فيستجيب الله دعاءهم.

بينات من الآيات:

[٣٠] كما يمكن أن يتسافل الإنسان الى الحضيض حيث يقبض له الله سبحانه قرناء يزينون له سوء عمله فلا يهتدى أبدا الى السبيل، كذلك يستطيع أن يسمو و يسمو حتى يصبح فؤاده مأوى لملائكة الله، فتهبط و فته تعرج متى؟ حين يكفر بالطاغوت، و يعلن توحيده على الملأ، و يقول: ربى الله، لا الأصنام لا الأنداد لا المجتمع الفاسد لا السلطه الطاغيه.

إنه لا يكتفى بالإيمان فى قلبه بربه، بل يعلنه متحديا القوى الماديه، و بذلك يشق للناس طريق التوحيد بين أوغال الشرك.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ إِنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ، و القول بذاته تحدى، و التحدى بدوره دعوه. إنه دعوه بكسر حاجر الصمت، و الخوف، و مقاومه حاله اليأس و السلبيه.

إِنَّا أَمَرْنَا بِأَنْ نَعْلَنَ الْبِرَاءَةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، و ممّا يشركون به، أ فلا نتلوا سوره الإخلاص: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ؟! إِنَّ الْمَطْلُوبَ مِمَّا أَنْ نَقُولَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ بِمَا تَحْمَلُ مِنْ مَخَاطِرِ الرِّفْضِ وَ التَّمَرُّدِ وَ الثُّورِهِ، و هى حقًا أعظم كلمه فى عالم الإنسان، لأنها مفترق الطريق بين العبوديه و التحرر، بين الذلّ و العزّه، بين النار و الجنة.

ثُمَّ اسْتَقَامُوا

ص: ٢١٨

و ماذا تعنى كلمه التوحيد من دون الاستقامه؟ أو ليس التوحيد بمعنى رفض الأنداد، رفض سلطه الطغاه، و المترفين، و حمير الأسفار، فإذا عاد الإنسان و خضع لهؤلاء الأنداد فإنه ينفى أصل التوحيد.

و يبدو أنّ الله سبحانه يهدى العبد الى معرفته، و يدلّه على ذاته بذاته، ثم يبتليه بألوان الفتن، تاره فى ماله، و أخرى فى جسده، و ثالثه بتسليط الجابره عليه، و هكذا ليمتحن إيمانه، فإذا أنهار و كله الى نفسه، و أما إذا استقام نزل عليه ملائكته ليثبتوه.

و هكذا تتركز صعوبات الاستقامه فى أيامها الأولى، حيث لا- تنزل الملائكته، و حيث يتساوى الناس فى درجه الضغط الذى يتعرضون له لامتحان قوه إيمانهم، أمّا فى المرحله التاليه فإنّ من استقام تهون عليه الضغوط لنزول الملائكته عليه بالسكينه و التأيد.

تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا مِنَ الْمَسْتَقْبَلِ وَ مَا يَحْمِلُهُ لَكُمْ مِنَ آلَامٍ، وَ هَكَذَا يَزِيلُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ قَلْبِ الْمُسْتَقِيمِ أَثَرَ أَمْضَى سَلَاحٍ تَسْتَعْمِدُهُ قَوَى الشَّرْكَ وَ هُوَ سَلَاحُ الْإِرْهَابِ. وَ حِينَ نَسِيرُ فِي الْأَرْضِ نَرَى الْخَوْفَ أَعْظَمَ دَعَامَهُ لِحُكْمِ الطُّغَاهِ وَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَإِذَا تَجَاوَزَ إِنْسَانٌ أَوْ شَعْبٌ حَاجِزَ الْخَوْفِ اسْتِعَادَ حَقُوقَهُ وَ حُرِّيَّتَهُ وَ اسْتِقْلَالَهُ.

وَ لَا- تَحْزَنُوا عَلَى مَا مَضَى مِنَ الْخُسَارِ، فَلَا- تَدْعُ الْمَلَائِكَةُ قُلُوبَ أَوْلَى الْاسْتِقَامَةِ عَرْضَهُ لِأَمْوَاجِ التَّشْكِيكِ الَّتِي يَبْثُهَا الشَّيَاطِينُ فِيهَا، قَائِلِينَ: إِلَى مَتَى نَقْدَمُ التَّضْحِيَّاتِ؟ أَلَا تَرَى سَائِرَ الشُّعُوبِ كَيْفَ تَنْعَمُ بِالْهُدُوءِ؟ أَوْ لَا تَنْظُرُ إِلَى صَاحِبِكَ قَدْ أَضْحَى غَتِيًّا،

و زميلك بالدراسه أضحي اليوم أكبر خير، و جارك أصبح وزيراً؟ أ فلا يكفي؟ إلى متى تعيش الغربه و الهجره و الحرمان؟ إن هذا النوع من الكلام يوئد الحزن، و بالتالي يسبب تراكم السلبيات، و يوهن عزائم العاملين، لو لا تدخل الملائكه لإزالته، و لكن كيف؟ إن الملائكه يزيلون أثر الخوف و الحزن من أفئده المستقيمين بأن يبشروهم بالجنه و نعيمها.

وَ أَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ و لَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَتَعَرَّضُونَ لَضَغُوطٍ مُخْتَلِفَةٍ، حَيْثُ يَجْرِبُ الطَّاعُونَ و أَعْوَانَهُ مِنَ الْمُتَرَفِّينَ و الْمُضَلَّلِينَ كُلِّ و سَائِلِ الضَّغْطِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَزَالُ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ (و لا تنزل مره واحده) فكلما تعرّضوا لنوع من الضغط بشّروهم الملائكه بما يقابله من النعمه عند الله، حتى يزول أثر الضغط و لعلّ

الإمام أمير المؤمنين-عليه السلام- يشير إلى ذلك حين يقول :

«و من اشتاق إلى الجنه سلا عن الشهوات، و من أشفق من النار رجع عن الحرمان، و من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، و من ارتقب الموت سارع الى الخيرات» (١) فكلّ إغراء أو ضغط أو إرهاب في الدنيا يقابله من شؤون الآخره ما يعاكسه، و يزيل أثره النفسى، حتى يستقيم المؤمن تماما.

و جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه و آله) و هو يأمر بالاستقامه، و يفسّر

ص: ٢٢٠

١-١) تحف العقول/ص(١١٠) في حديث مفصّل حول الإيمان و دعائمه، في أثناء الحديث عن دعائم الصبر.

«قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فهو مّمن استقام عليها» (١) و أبرز مظاهر الاستقامه الولايه، و اتباع الخط السياسى المستقيم فى ظلّ القيادة الشرعيه، ذلك لأنّ أعظم ما يتصارع عليه أبناء آدم هو قياده المجتمع السياسيه، و للمؤمنين خطهم السياسى الواضح الذى يدعون إليه، و المتمثل فى قياده الصالحين، و الاستقامه على هذا الخط تعنى محاربه كلّ قوى الشرك و الجهل و النفاق فى المجتمع، و التى تتركز عادة فى اتباع نهج أئمه الكفر و الضلال، و كذلك

حين يأتى أحد المجاهدين من أتباع أهل بيت الرسول إلى الإمام الرضا-عليه السلام- و يسأله عن الآية يقول له الإمام:

«هى و الله ما أنتم عليه» كذلك يقول الإمام الباقر-عليه السلام- لرجل من شيعته الأبرار. (٢)

[٣١] من ارتقى ذروه الإيمان عاش هنالك وحده، و يخشى عليه وحشه الانفراد، فها هم أصدقاؤه يتفرقون عنه لأنّه يستقيم على الحق، و هم يتساقطون تحت وطأه الضغوط، حتى يقول مثلما

قال إمام المتقين :

«ما ترك الحق لى من صديق» و ها هم أسرته يتخلّون عنه، و يقولون له لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به..

ص: ٢٢١

١- ١) نور الثقلين /ج(٤)-ص(٥٤٧).

٢- ٢) المصدر.

و ها هو المجتمع الفاسد أو اللّامسئول يواجهه، أو لا أقل يتخلّى عنه في ساعه المواجهه، حتى لتكاد الدنيا تضيق به على رجبها..

هنالك تنزّل عليه ملائكه الله ليعلنوا ولاءهم له و مساندتهم إياه.

و من عاش مع الملائكه الموكّلين بشؤون الكائنات لا يبقى غريبا.إنه يمشى فى الاتجاه الصحيح مع كلّ الخليقه،إنّما أعداء الحق هم الغرباء، لأنهم يعيشون ضد سنن الله فى خلقه،و فى الاتجاه المضاد لحركه الكائنات.

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَقَدْ عَاشَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحْدَهُ فِي ذُرْوَةِ التَّوْحِيدِ، فَهَلْ كَانَ غَرِيبًا؟ وَ كَيْفَ يَكُونُ غَرِيبًا يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ جِبْرَائِيلُ وَ مِيكَائِيلُ وَ إِسْرَافِيلُ؟ وَ حِينَ وَضَعَ فِي الْمَنجْنِيقِ لِيَرْمِيَ بِهِ فِي النَّارِ، هَرَعَتْ إِلَيْهِ سَائِرُ الْمَلَائِكَةِ الْمَوْكَلِينَ بِشُؤْنِ الطَّبِيعَةِ، وَ عَرَضُوا عَلَيْهِ دَعْمَهُمْ لَهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ، إِنَّمَا سَلَّمَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ النَّارَ بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَيْهِ.

وَ فِي الْمَآخِرَةِ عِنْدَ مَا تَبْلُغُ النَّفْسُ التَّرَاقِي، وَ تَهْبِطُ عَلَى ابْنِ آدَمَ كَرِبَهُ الْمَوْتِ، وَ يَقِفُ أَحْبَابًاؤُهُ حِيَالَهُ عَاجِزِينَ عَنِ تَقْدِيمِ أَىِّ عَوْنٍ لَهُ، هُنَالِكَ تَهْبِطُ مَلَائِكَةُ السَّلَامِ عَلَى مَنْ اسْتَقَامَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيُبَشِّرُونَهُ بِالْجَنَّةِ. اللَّهُ أَكْبَرُ، مَا أَحْلَاهَا مِنْ بَشَارِهِ، وَ مَا أَعْظَمَهَا مِنْ نِعْمِهِ.

و عند ما يوضع الإنسان فى لحدّه، و يتفرّق عنه أبناؤه و أحبّاءه، و قد تركوه تحت التراب و حيدا غريبا، تهبط ملائكه الله بالبشرى على المؤمن، و يزيلون وحشته،

و يرافقونه حتى النشور، و عند ما يبعث الناس الى ربهم فى صحراء المحشر يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمَّهِ وَ أَبِيهِ وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ ،
يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ، هنالك يتقدم ملائكة الرحمه لمرافقه المؤمنين الى
ربهم .

وَ لَكُمْ فِيهَا مِمَّا تَشْتَهُى أَنْفُسِكُمْ لَقَدْ زَهَدُوا فى الدنيا و شهواتها، فعوضهم الله بنعيم الآخرة، و إذا كانت شهوات الدنيا مشوبه
بالآلام، و مشحونه بالمصائب و النكبات، و هى سريعه الزوال، فإن نعيم الآخرة التى تشتتها نفوسهم صافيه لا زوال لها .

بلى . إن الدنيا و الآخرة ضربتان، فمن رغب فى الآخرة زهد فى الدنيا، و من أذهب طيباته فى هذه الحياه الزائله، فسوف لا يجد نعيما
فى تلك الحياه الأبدية .

لقد رثى على إمام المتقين على بن أبى طالب -عليه السلام- إزار خلق مرقع، فقيل له فى ذلك، فقال:

«يخشع له القلب، و تذلل به النفس، و يقتدى به المؤمنون، إن الدنيا و الآخرة عدوان متفاوتان، و سبيلان مختلفان، فمن أحب الدنيا
و تولأها، أبغض الآخرة و عاداها، و هما بمنزله المشرق و المغرب و ماش بينهما، كلما قرب من واحد بعد من الآخر و هما بعد
ضرتان» (1) وَ لَكُمْ فِيهَا مِمَّا تَدْعُونَ الدنيا دار السعى، و الآخرة دار الجزاء، و فى الدنيا لا يمكن أن تتحقق كل أمانى

ص: ٢٢٣

البشر، ولا- يمكن أن يرضى أحد أحدا، لأن ادعاءات ابن آدم أكبر من حجم الدنيا نفسها، وتمتيازاته أوسع من حياته على الأرض، فكيف تتحقق جميعا؟ بينما الآخرة دار واسعة، أكبر من طموحات البشر و تطلعاته، وهكذا تتحقق أمانى المؤمنين بلا جهد أو سعى.

جاء فى حديث مأثور رواه الإمام الباقر-عليه السلام-عن رسول الله-صلى الله عليه وآله ٧٤:-

«و ليس من مؤمن فى الجنة إلا- و له جنات كثيره، معروشات و غير معروشات، و أنهار من خمر، و أنهار من ماء غير آسن، و أنهار من لبن، و أنهار من عسل، فإذا دعا ولى الله بغذائه أتى بما تشتهى نفسه عند طلبه الغذاء من غير أن يسمّى شهوته» (١)[٣٢] و أعظم النعم لأهل الجنة أنهم فى ضيافته الرحمن ربّ السموات و الأرض ربّ العرش العظيم..

نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ [٣٣] أو مثلما الإيمان بالله ذروه الكمال و سبيل كل خير، فإن الدعوه إليه أحسن المقال، و طريق كل صلاح و إصلاح، و لأنّ الدعاء الى الله خير الأعمال فقد اجتبى له الربّ خير خلقه، و هم الرسل ثم الأمثل فالأمثل من عباده الصالحين.

و حين يرفع الإنسان صوته بالدعوه تتساقط الأوهام التى يبثها الشيطان فى روع البشر، كما تهتزّ الأصنام التى يصنعها فى المجتمع!!

ص: ٢٢٤

١- ١) نور الثقلين /ج(٤)-ص(٥٤٨).

الدعاء إلى الله يعنى محاربه الجبت و عباده الذات، كما يعنى مواجهه الطاغوت و عباده أولى القوه و الشروه.

الدعاء إلى الله ينطوى على تزييف الدعوات الكاذبه إلى القوميه و العنصريه و الإقليميه و ما إليها من ضلالات الشرك.

الدعاء الى الله يستدعى زكاه النفس ألا تسترسل مع الشهوات، و لا تستفز بهمزات الغضب الشيطانيه.

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ أَحْسَنَ قَوْلًا: لَأَنَّ مَحْتَوَى قَوْلِهِ الدَّعْوَةَ إِلَى الْغُفُورِ الرَّحِيمِ.

و أحسن قولاً: لأن أسلوب دعوته سليم، فلأنها مجردة عن ذاته لا تتأثر بالمصالح الشخصيه، أو بالظروف المتغيره، فيختار أفضل السبل للدعوه، يتواضع للناس، و يحسن إليهم، و لا يتجبر عليهم و لا يبحث في دعوته عن شهره أو سمعه، و لا يتأثر بعصبيته.

إن دعوته بذاتها خير عظيم حظى به فهو يحمد الله أبدا على هذا التوفيق، فلا يطلب على دعوته أجرا من الناس أو شكرا، و إذا واجه إغراضا أو كفورا لا يلويه ذلك عن سبيل الدعوه، لأن دعوته مدفوعه الثمن سلفا من عند ربه.

ثم إن دعوته ليست مجردة عن سلوكه. إنه يسارع إلى تنفيذ شرائع الله، و العمل الصالح، و التسليم للقياده الشرعيه، و الرضا بها، مما يشهد بصدقه في دعوته، كما يشهد على صدق دعوته، فمن دعا الى الله حقا فقد عرف ربه، و من عرف ربه صلحت أفعاله، و لم يطلب علوا في الأرض و لا فسادا، بل سلم الأمر لله و لأولى

الناس برسول الله.

وَ عَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ فهو أول من يسلم وجهه لربه، و يعلن عن ذلك، و يتحدّى -بدعوته- الطغاه و الجبابره، كما و يجابه بها شيطان نفسه النزاعه الى الرئاسة و السلطه.

و هكذا تبصّرنا الآيه -بكلمات و جيزه بليغه- بشواهد الصدق فى الدعاه، و كيف أنّهم الأحسن قولاً، و الأسبق إلى تهذيب النفس من شوائب الهوى فى الدعوه، و تهذيب أسلوب الدعوه من الرعونه و الخشونه و الكلمات النايه..

إنّ من الناس من يدعو الى الله، و يختار وسيله معينه لهذه الدعوه، مثلاً ينتمى الى تنظيم رسالى، أو ينخرط فى سلك العلماء و الخطباء، أو يصدر صحيفه، أو يفتح داراً للنشر.. و يقف الشيطان له بالمرصاد فيضلّه عن السبيل فيحرف اهتمامه من الله إلى تلك الوسيله التى اختارها، فإذا به يجعل تنظيمه أو جماعته أو مؤسسته محور دعوته، و يصارع من أجلها سائر الدعاه الى الله، و بدل أن يدوّب نفسه فى بوتقه الدعوه تراه يدوّب دعوته فى بوتقه نفسه، و يضلّ ضلالاً بعيداً.

و لعلّ خاتمه الآيه تعالج هذه الحاله، إذ الإسلام هو التسليم، و التسليم يتنافى و الصراعات المصلحيه عند الدعاه

يقول أمير المؤمنين الامام على -عليه السلام -:

«الأنسب للإسلام نسبه لم ينسبها أحد قبلى، الإسلام هو التسليم، و التسليم هو اليقين، و اليقين هو التصديق، و التصديق هو الإقرار، و الإقرار هو الأداء، و الأداء هو العمل» (١)

ص: ٢٢٦

١- (١) نهج البلاغه/الخطبه (١٢٥).

[٣٤]الذى يدعو إلى الله يختار أحسن القول،فما هو الأحسن؟هناك الحسنه و السيئه و الفارق بينهما كبير،و لكن للحسنه درجات متصاعده،كما أن للسيئه درجات متسافله،و الداعى الى الله يختار الأحسن بين درجات الحسنه..

□ وَ لَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ قَالَ الشَّيْخُ الطَّبْرَسِيُّ: وَ الْمَعْنَى: أَنَّ الْحَسَنَةَ وَ السَّيِّئَةَ مُتَفَاوِتَانِ فِي أَنْفُسَهُمَا،فَلَا تَسْتَوِ الْأَعْمَالُ الْحَسَنَةُ وَ الْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ،فَخُذْ بِالْحَسَنَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ أُخْتِهَا إِذَا اعْتَرَضَتْكَ حَسْتَانِ. (١)

إِدْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَ حَسَبِ هَذَا التَّفْسِيرِ،مَعْنَاهُ:اخْتَرِ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَفْضَلَهَا،و مِنَ الْوَسَائِلِ أْبْلَغَهَا أَثْرًا.

فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عِدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ إِنَّ الدَّاعِيَ إِلَى اللَّهِ يَدُلُّ النَّاسَ إِلَى ذُرْوَةِ الْكَمَالِ،و لَا يُوَفِّقُ لِهَدْفِهِ إِلَّا إِذَا اكْتَمَلَتْ نَفْسُهُ أَوَّلًا،و اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَعَالَى عَلَى غَضَبِهِ وَ مَصَالِحِهِ،فَإِذَا كَانَتْ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عِدَاوَةٌ لَا يَسْتَغْلُ مَرْكَزَهُ لِتَحْطِيمِهِ،بَلْ يَسْعَى إِلَيْهِ لِيَهْدِيَهُ حَبِيبًا لَهُ،و حَبًا لِدَعْوَتِهِ،إِذْ أَنَّ وُجُودَ حَزَازَاتِ بَيْنِ النَّاسِ وَ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ تَوْثُرٌ سَلْبِيًّا عَلَى الدَّعْوَةِ،و لَكِنْ مَاذَا يَمْلِكُ الدَّاعِيَةَ فِي هَذَا السَّبِيلِ؟إِنَّهُ يَمْلِكُ نَفْسَهُ فَيَسْخُو بِهَا لِرَبِّهِ وَ لِدَعْوَتِهِ،فَإِذَا بِهِ يَتَنَازَلُ عَنْ حَقُوقِهِ،و عَمَّا يَسْمَى عِنْدَ النَّاسِ بِالْكَرَامَةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَ يَطْفِقُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى أَعْدَائِهِ.

ص:٢٢٧

ثم يستخدم حكمته في اختيار السبيل الأحسن، ذلك أنّ التدبير و حسن الإدارة في الدعوه إلى الله ذوا أهميه كبيره، بالرغم من صعوبتهما البالغه، إذ أنّ حسن الإدارة بحاجه إلى علم غزير، و تفكّر مستمر، و مقدره فائقه في تنفيذ المهام، مثلاً يستدعي التدبير- عاده- الكتمان، و اتباع السبيل الخفيّ في العمل على ما نحمل من مشاق كبيره، و لكن أنّى كانت الصعاب فإنّ الكتمان و سيله هاتمه لإنجاح مهام الدعوه.

أو لم يقل الرسول-صلى الله عليه و آله-:

«استعينوا في أعمالكم بالصبر و الكتمان»؟ و هنا نعرف عمق تفسير أهل البيت-عليهم السّلام-حيث

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق-عليه السّلام-:

«إنّ الحسنه التقيّه، و السيئه الإذاعه» (١) ثم إنّ طموح الداعيه عال حيث لا يسعى الى تجنّب أذى العدو، بل إلى جعله ولياً حميماً له. إنّّه يسعى أبداً لكسب الناس لدعوته.

[٣٥] إنّها القمه السامقه في الخلق الرفيع، لن يبلغها إلا من تميّز بأمرين:

الصبر و الحلم.

وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا فَمَنْ تَجَرَّعَ مَرَارَهُ الصَّبْرِ أَوْ تَى الْخَلْقَ الرَّفِيعَ. و الصبر في جملة معانيه التطلّع الى المستقبل، و معايشه أحداثه، بتجاوز اللحظه الراهنه.

و هناك علاقته قريبه بين الصبر و العلم، فمن أحاط معرفه بالمستقبل، و طبيعه سير

ص: ٢٢٨

١-١) مجمع البيان/ج(٥)-ص(١٣).

الأحداث، لم يستبد به الحدث الحاضر و مؤثراته، و لعله لذلك قال ربنا سبحانه:

وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ فَمَنْ كَانَ حَظَّهُ عَظِيمًا مِنَ الْيَقِينِ وَ الْحِكْمَةِ حَسَنَ خَلْقِهِ، وَ صَبْرَ عَلَى الْمَكَارِهِ.

و الآيه تشير إلى أن من يردّ الإساءة بالإحسان يكون مجمل حظّه عظيماً (حيث جاءت الكلمه مطلقه) ممّا يعنى أنه ينتصر فى صراعه مع منافسيه و أعدائه، و يتمتع بالتقدم و الرقى فى كافه الحقول.

[٣٦] لأنّ الاستقامه، و ردّ الإساءه بالإحسان، و الصبر، صعب مستصعب، فإنّ الإنسان الذى خلق من ضعف قد يسقط تحت الضغوط، فلا ينبغى اليأس و الاسترسال فى الهبوط، بل لا بدّ من تجديد العزم، و تجاوز حاله الضعف، و الاعتصام بحبل الله، و الاستعاذه به.

وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ أَى دَفَعَكَ الشَّيْطَانُ دَفْعًا إِلَى الْإِنْحِرَافِ فِى حَالِهِ مِنْ حَالَاتِ الضَّعْفِ الِذِى يَعْتْرِى الْبَشَرَ عَادَةً..

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ذَلِكَ أَنَّ ضَعْفَ الْبَشْرِ لَا يُجْبِرُهُ سِوَى قُوَّةِ الرَّبِّ، فَحِينَ تَذَكَّرَ رَبِّكَ، وَ تَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِقَلْبِكَ، يَصِلُكَ الْمُدَدُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الِذِينَ يَثْبِتُ اللَّهُ بِهِمْ أَقْدَامَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَظْنَةِ الزَّلْزَلِ.

إنّ الشيطان الغوى يجنّد لمحاربتك جنوده، و يوسوس إليك بأمانيه و غروره،

و الريب و اليأس، و لكن إذا أقبلت إلى ربك، و ذكرته في سرّك، هرب إبليس و جنوده، و خرجت منتصرا.

و كلمه أخيره:

إنّ سياق الآيات في هذا الدرس يهدى إلى أنّها تعالج وضع الدعاه في أشدّ الظروف، حيث يحتاجون الى الاستقامه، و ردّ الإساءه بالإحسان و الصبر، و لا-ريب أنّ الدرع الحصين لهم هو التقية، و هى بحاجه الى أناه و حكمه، و صبر عظيم، و إنّ كثيرا من الحركات الرساليه فشلت فى صراعها ضد الطغاه بسبب فقدان بند أو أكثر من هذا البرنامج فى حياتهم، و ذهبت تضحياتهم الكبيره سدى، فعلينا ألا نستهيّن و لا بواحد من هذه الوصايا، بل نتمسك بها جميعا و بقوه حتى يأذن الله لنا بالنصر.

ص: ٢٣٠

اشاره

وَ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ اللَّقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)
 فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا
 عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ إِن الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِن الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ
 عَلَيْنَا أَمْ مَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِن الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا
 جَاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
 لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِن رَّبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ
 قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءٌ وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَ لَقَدْ
 آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)

اللغة

٣٨] لا يسمون]: من سأم بمعنى تعب، أى لا يتعبون عن التسييح و العباده.

٣٩] اهتزت]: تحركت، فإن الماء ينش الأرض و يحركها بالانتفاخ و تعليه الأملاح.

[و ربت]: ارتفعت لدخول الماء و الهواء خلالها.

إشاره

□ □
وَ لَا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ

هدى من الآيات:

من المحاور الرئيسيّه لسوره فضّلت بيان الصله السليمه بين البشر و الخليقه من حوله، المتمثّله فى أنّهما جميعا خلق الله، و خاضعان طوعا أو كرها لمشيئته، فلا- ينبغى أن يتخذ الإنسان آيات الله أندادا من دون الله، فيسجد للشمس أو للقمر، إنّما السجود (و التعبد) لله وحده. أليس هو الخالق للكائنات جميعا، و هكذا تسبّح ملائكه الله و من هم عند الله لربّ العالمين ليلا و نهارا بلا سأم أو ملل.

كذلك الأرض تراها خاشعه (كأنّها فى حاله تعيّد لربّها و انتظار لبركاته المتمثّله فى الغيث) فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزّت و ربت، و كان فى إحيائها بعد موتها شهاده حق على إحياء الموتى للنشور، و أنّ ربّنا على كل شىء قدير.

(كلّ ذلك من آيات الله، و لكن ماذا عمّن يلحد فيها؟).

إنّ الملحدين لا يخفون على الله (و هم لا يستون مع من يستجيب لها بالتصديق

و العمل) أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (و لا يعنى تأخير العقوبه جهلا و تهاونا، كلاً) فليعملوا ما شأؤوا فَإِنَّ اللَّهَ بصير بهم.

(من هم الملحدون فى آيات الله؟) إنهم الذين يكفرون بذكرهم (التمثّل فى القرآن) لَمَّا جاءهم، بينما هو كتاب عزيز يستمدّ قوته من ربّه، وإنه كتاب حقّ لا- يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه. أو ليس قد أنزله الحكيم الحميد، فكيف يأتيه الباطل؟ (و ما يجادلون به حول آيات الله و ذكره باطل).

و لا يقال للرسول إلاّ ما قد قيل للرسول السابقين..

(فاخذهم الله بأليم عقابه، بعد أن أمهلهم بمغفرته).

إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ .

(و كان بين ما قالوا أنّ من يعلم الرسول صلى الله عليه و آله أعجمى، بينما القرآن عربى مبين) و لو جعله الله أعجمياً لطالبوا بأن يكون عربياً مبيناً قد فصّلت آياته تفصيلاً، و لكن هل هذا هو مقياس الحق و الباطل، و الهدى و الضلال؟ (كلاً.. إنّ المقياس هو الإيمان) فمن آمن بالقرآن كان له هدى و شفاء، بينما الذين لا يؤمنون كان فى آذانهم وقر، و هو عليهم عمى، كمن ينادى من بعيد.

(و الله سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبه، كما لم يفعل بالأمم السالفه) فقد أتى موسى الكتاب فاختلف فيه فمنهم من آمن و منهم من كفر (و لكنّ الله أمهلهم ليبتليهم) و لو لا أنّه قدّر الابتلاء فى الدنيا لقضى بينهم.

(إلاّ أنّ تأجيل القضاء لا يدلّ على إلغائه بل الإنسان مسؤل عن أفعاله) مَنْ

عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا .

بينات من الآيات:

[٣٧] بين البشر و سائر الخليقه أكثر من صله، و حين يكتشف الإنسان آماذ هذه الصله لا يزداد وعيا بما حوله فقط، و لا يزداد قدره على تسخير الطبيعه فحسب، بل و يزداد إيمانا بربه، و معرفه بأسمائه الحسنى التى تتجلى فى السموات و الأرض.

فإذا نظرنا إلى الليل و النهار و الشمس و القمر راعتنا عظمتها و كبر حجمها و دقه نظمها، و لكن حين نجد أنها مسخرات بأمر الله، و خاشعه لمشيتته، محاطه بعلمه و قدرته، هنالك يهتدى المؤمنون الى ربهم، و يعرفون شيئاً من عظمته، فيخرون ساجدين لله وحده الذى له الحمد و المجد و الكبرياء و العظمه.

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ اختلاف الليل و النهار بما فيه من دقه التدبير و حسن النظم شاهد على عظمه مقدرهما و مدبرهما، كما أن حركة الشمس ذات الأبعاد الثلاث المتناهيه فى الدقه، و دورات القمر المتصله ذات الأثر البالغ فى مقدرات الأرض، كل ذلك آيه من آيات قدره الله، فمن الضلاله تقديس الشمس و القمر من دون بارئهما! لا تسجدوا للشمس و لا للقمر و كانت من عادات الجاهليه، و التى لا تزال شائعه عند بعض الأمم، و لعلها ناشئه من النظره السطحيه الى آيات الخليقه التى لا تنفذ الى ما ورائها من حقائق الغيب.

وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ

و كان بعضهم يزعم أنّ السجود للشمس و القمر و للأصنام التى تنحت كرمز لهما و لغيرهما من مظاهر القوه و الجمال فى الخلق يعتبر عباده لله أو ليس كلّ أولئك من خلق الله، و من مظاهر قوته و جماله؟ فنهرهم الربّ بأنّ عباده الله لا تتمّ إلاّ بالسجود له وحده، فإن كانوا يريدون الله فليعبدوه وحده، ذلك أنّ السجود للشمس و للقمر و لكلّ مظهر من مظاهر قدره و الجمال يبهر البشر و بالتالى الاستسلام للسلطه و الثروه، و ما إليهما من زينه الحياه الدنيا. كلّ ذلك أصل الفساد فى حياه الإنسان، و إنّ من عباده الله تحصيل البشر من هذا الفساد الكبير.

و بعضهم أخذ يفلسف هذا الفساد، و يزعم أنّ آيات الله هى عين ذاته، و أنّ الوجود و الموجود واحد، و أنّ الخالق و المخلوق واحد، و أنّ الطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق.

كلّا.. لا تعايش عند الله بين عباده الله و السجود للشمس و القمر، فمن سجد لهما خرج عن إطار عباده الله.

[٣٨] و لكن لماذا يترك الإنسان عباده الله إلى عباده مخلوقاته؟ لأنّ فى عباده الخالق استشعار الذلّ و الصغار، و التحسّيس بالمخلوقيه و العبوديه، و بالتالى الالتزام برسالات الله و ما فيها من قيم و شرائع، و اتقاء شخّ النفس، و مخالفه أهوائها، و التحلّق فى سماء العقل، و العبور من واقع الشهود الى حقائق الغيب، و ما إلى ذلك من الكمال الرفيع الذى يستصعب على البشر فتراه يتكبر، فكيف يشافى المنهج القرآنى حاله الاستكبار؟ بتذكير البشر بأنّ الملائكه و هم أفضل منه، و أقرب الى ربّهم، و أعظم قوه و سلطانا، يتعيّدون الله وحده، و يقدّسونه من الشركاء الموهومين، و أنّ المقرّبين من عباد الله الصالحين الذين يحظون بقرب الله يسبّحونه، و أنّ طريق التعالى هو الخضوع، و أنه لا يتسامى البشر من دون كسر حاجز

الاستكبار فى نفسه.

فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا وَ أَخَذُوا يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ خَلْقَهُ، وَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ، وَ يَخْضَعُونَ لِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَ يَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ طَرِيقَ الْكَمَالِ، تَكْرِيسًا لِلْأَنْثَانِيَّةِ، وَ إِبْقَاءً لِلْجَهْلِ وَ الْجَهَالَةِ، فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَى سَبِيلِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ.

فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْمُقَرَّبِينَ، وَ لَعَلَّ هُنَاكَ خَلْقٌ غَيْرُهُمَا لَا نَعْلَمُهُ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَاحِظُوا بِمَقَامِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ حَتَّى صَارُوا عِنْدَهُ، وَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَشْمَلَ الْمُقَرَّبِينَ وَ هُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ وَ قُلُوبِهِمْ، وَ لَيْسَ لَرَبِّنَا مَكَانٌ مُحَدَّدٌ، فَالْقُرْبُ مِنْهُ قُرْبٌ مَعْنَوِيٌّ.

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ فَآيَاتُ اللَّهِ لَا تَسْتَبَدُّ بِمَشَاعِرِهِمْ، بَلْ تَذَكِّرُهُمْ بِعَظَمَةِ رَبِّهِمْ. أَوْ لَيْسَ اللَّيْلُ يَزُولُ، وَ اللَّهُ دَائِمٌ لَا يَزَالُ؟ أَوْ لَيْسَ النَّهَارُ يَنْسَلِخُ، وَ اللَّهُ حَيٌّ قَيُّومٌ؟ فَهَمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَوَانِبِ السَّلْبِيَّةِ فِي الْخَلْقِ فَتَنْزَهُونَ بَارِئًا مِنْهَا، كَمَا أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَوَانِبِ الْإِيجَابِيَّةِ فَيَزْدَادُونَ حُبًّا لِرَبِّهِمْ وَ شَوْقًا، وَ هَذَا الْمُنْهَجُ فِي النَّظَرِ إِلَى اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ يُلْهِمُهُمُ الْمَزِيدَ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ بِاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ، فَلَا يَتَعَبُونَ مِنْ تَسْبِيحِهِ، لِأَنَّ النَّظَرَ الْإِيمَانِيَّ يُعْطِيهِمُ الطَّاقَةَ وَ النَّشَاطَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ.

وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَقْبِلُونَ يَوْمَهُمْ بِمِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ الَّذِي يَعْكَسُ بِصِيرَتِهِمُ التِّي

ص: ٢٣٧

ينظرون من خلالها الى ظواهر الخليقه، يقولون:

«اللهم يا من دلح لسان الصباح بنطق تبلّجه، و سرح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، و أتقن صنع الفلك الدوّار في مقادير تبرّجه، و شعشع ضياء الشمس بنور تأجّجه» (١) فالطبيعه تجليات لأسماء الله، و النظر إليها يهديهم الى تلك الأسماء.

و يعكس دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفه هذه المنهجيه في تفكير أولياء الله حين يقول:

«الهي علمت باختلاف الآثار، و تنقلات الأطوار، أنّ مرادك متى أن تتعرف إليّ في كلّ شيء، حتى لا أجهلك في شيء» (٢) و إذا أشرق نور معرفه الله على قلب مؤمن انسحب منه ظلام الأغيار، فلا شيء و لا شخص يشارك الربّ في القلب.

يقول الإمام الحسين عليه السلام في ذات الدعاء :

«أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك و وحدوك، و أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك، و لم يلجئوا الى غيرك، أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم، و أنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، و ما الذي فقد من وجدك» (٣)

ص: ٢٣٨

١- ١) فاتحه دعاء الصباح المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام في مفاتيح الجنان.

٢- ٢) المصدر/ص (٢٧٢).

٣- ٣) المصدر/ص (٢٧٣).

و كلمه أخيره:

اختلفت المذاهب فى موضع السجده فى هذا السياق بعد اتفاقهم على وجوبها، و أنها من العزائم، فقال فقهاء الشافعيه و المالكيه: تجب السجده عند قوله تعالى:

وَ هُمْ لَا يَشَاءُونَ، بينما قال الحنفيّه و الحنابله: إنّ موضع السجود الواجب عند قوله: تَعْبُدُونَ، و ذهب الشيعة الى هذا الرأى تبعاً لروايات أهل البيت عليه السلام .

و لا يجب ذكر مخصوص فى السجود، و لكن يستحب أن يقول ما

ذكر فى روايه «من لا يحضره الفقيه» قال:

و روى أنه يقول فى سجده العزائم:

«لا إله إلا الله حقاً، لا إله إلا الله إيماناً و تصديقاً، لا إله إلا الله عبوديه و رقاً، سجدت لك يا ربّ تعبداً و رقاً، لا مستنكفاً و لا مستكبراً، بل أنا عبد ذليل خائف مستجير» (١) [٣٩] القرآن بصيره لا بصر، و رؤيه لا نظر. إنه منهج تفكير لمن يعقل، و هدى و عبره لمن يعى و يعتبر. إنه يقول لك كيف تصبح متعلماً فى مدرسه الحياه و فيها من معارف الرب، و معالم الحق، و مشاهد النفس ما يكفيك حكمه و علماً.

و لو اتخذنا آيات القرآن بصيره للنظر الى ما حولنا لنطقت الطبيعه بألف درس و درس، و بأكثر من لغه، لغه العواطف و الأحاسيس، لغه العلم و الحكمه، لغه الضمير و الوجدان، و فوق كل ذلك لغه الشهود و الإيمان.

أنظر الى الأرض. أو لا ترى خشوعها لربّها، و كيف تتعطّش حبات التراب

ص: ٢٣٩

للغيث، و كأنها تناجي ربها طالبه إحياءها؟! وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْتَكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً لَا مُسْتَكْبِرَهِ وَلَا مُتَجَبِّرَهِ، وَ حَقَّ لَهَا أَنْ تَخْشَعَ لِرَبِّهَا الْجَبَّارِ، وَ مِنْ دُونِ خَشْوَعِهَا لَا- يُمْكِنُ أَنْ تَنْتَفِعَ بِبِرَكَاتِ رَبِّهَا، وَ كَذَلِكَ الْقَلْبُ الْخَاشِعُ يَهْبِطُ عَلَيْهِ نُورُ رَبِّهِ الْعَظِيمِ فَيُحْيِيهِ بِالْمَعْرِفَةِ وَ الْإِيمَانِ.

فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ كَذَلِكَ الْقُلُوبُ الطَّاهِرَةُ تَهْتَرُ لآيَاتِ رَبِّهَا.

وَ رَبَّتْ لَقَدْ تَنَامَى عَلَيْهَا الزَّرْعُ وَ الْوَرَقُ وَ الثَّمَرُ فَإِذَا بِالْأَرْضِ قَدْ عَلَتْ عَنْ مُسْتَوَاهَا الْأَوَّلِ، وَ كَذَلِكَ كُلُّ مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ يعلو، وَ مِنْ يَخْشَعُ يَرْبُو، وَ مِنْ تَزَكَّى يَنْمُو.

إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمْ يُحْيِ الْمَوْتَى وَ هَكَذَا بِهِذِهِ الْبَسَاطَةُ يَحُلُّ الْقُرْآنُ أَعْقَدَ لَغْزِ حَيْرِ الْبَشَرِ أَوْ لَيْسَتْ الْعُقُولُ تَقِفُ عَلَى شَاطِئِ الْحَيَاةِ مُتَسَائِلَةً: مَا هِيَ؟ كَيْفَ وَجَدتْ؟ وَ كَيْفَ تَعُودُ حِينَ تَذْهَبُ؟ بَلَى. إِنَّكَ إِنْ سَمَّحْتَ لِنِظْرَاتِكَ أَنْ تَعْبُرَ حَاجِزَ الظَّاهِرِ إِلَى حَقِيقَةِ السَّنَنِ فَإِنَّهَا تَغُورُ فِي أَلْغَازِ الْخَلْقِ.

لَا- بَدَّ أَنْ تَلَامَسَ رَافِدَ الْحَقِيقَةِ عَنْ كُتُبِ، أَمْيَا إِذَا وَقَفْتَ عَلَى الشَّاطِئِ بِاسْطِ كَفَيْكَ إِلَيْهِ لِيَبْلُغَ فَاكِ فَلَنْ يَبْلُغَهُ، خَضَّ الْبَحْرُ حَتَّى تَحْطَى بِالْجَوْهَرِ، أَلْقِ الْحِجَابَ عَنْ عَيْنِكَ تَرَى قَدْرَهُ اللَّهُ تَتَجَلَّى فِي الْبَسَاطِ الْأَخْضَرِ الَّذِي يَفْرُشُهُ الرَّبِيعُ- بِإِذْنِ اللَّهِ-

على الأرض من ملايين النباتات المفعمه بأسرار الحياه.

إن تنوع النباتات، و سرعه التهاب الحياه فى جنباتها، و انسياب القدره من أطرافها، يهدينا كل ذلك الى أن إحياء الموتى على الله يسير، و البشر بدوره كنبته واحده بين ملايين النباتات.

بل يهدينا ذلك الى أن القدره الإلهيه لا تحد، لأن شد التنوع، و كثافه الخلق، و عظمه التدبير، و سرعه التطوير، لا يدع كل ذلك مجالاً للشك فى أن الله واسع القدره، و لا شىء يعجزه أبداً.

إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

جاء على بن فضال إلى الإمام الرضا عليه السلام يسأله: لم خلق الله الخلق على أنواع شتى، و لم يخلقه نوعاً واحداً؟ فأجابه قائلاً:

«لئلا يقع فى الأوهام أنه عاجز، فلا تقع صورته فى وهم ملحد إلا و قد خلق الله عزّ و جلّ عليها خلقاً، و لا يقول قائل: هل يقدر الله أن يخلق على صورته كذا و كذا، إلا وجد ذلك فى خلقه تبارك و تعالى، فيعلم بالنظر الى أنواع خلقه أنه على كل شىء قدير»
[١] [٤٠] قلب البشر كالأرض، إذا خشع لربه و استجاب لآيات الله أحياه الله بالإيمان أما إذا استكبر و لم يستجب لآيات الله كان كالصخره الصماء التى لا تهتز للغيث.

ص: ٢٤١

١- ١) نور الثقلين / ج (٤) ص (٥٥١).

و بما أنّ الخليقه تفيض بآيات الله فإنّ الكفار يسعون جاهدين التخلص من آثارها على نفوسهم، فتراهم يلحدون فيها، و يحرفونها عن مواضعها، و يبحثون لأنفسهم عن تبريرات لكى لا- يؤمنوا بها، و لكن هل تنطلى تبريراتهم و خدعهم على ربّهم؟ كيف و هو الذى خلقهم و أحاط بهم علما؟ إنهم سوف يلقون فى نار جهنّم يوم القيامة، لقد فرّوا من مسؤوليات الإيمان الى ظلّ الإلحاد(التبرير) زاعمين أنّه ينجيهم من العقاب، بينما النجاه كانت فى التسليم لآيات الله، و تقبل مسؤولياتهم.

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ۖ جَاءت هذه الآيه بعد ذكر الآيات، لأنّ كثرة الآيات لا تنفع من يتهرّب من التأثر بها، و قال فريق من المفسّرين: إنّ معنى الإلحاد هو ما كانوا يفعلونه من المكاء و التصديه، و كأنّهم نظروا الى ظاهر كلمه الإلحاد الذى يدلّ على الفعل المتعدّى الى الغير، و يعنى حرف الآخريّن عن الإيمان كمن يحرف آيات الله، و قالوا: إنّ الآيه نزلت فى أبى جهل، بينما ذهب مفسّرون آخرون أنّ المعنى: الذين يميلون عن آياتنا، و يبدو هذا المعنى أقرب الى السياق.

لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمَلْحِدَ يَتَشَبَّهُ بِالْمَخْلُوعَاتِ الْبَعِيدَةِ، و يحاول إخفاء رفضه للآيات بابتداع نظريّات و فلسفات و أفكار باطله و تخزّصات واهيه، إلا أنّ كلّ ذلك قد يخدع الناس، و قد يخدعهم أنفسهم، و لكنّه لا يخفى على الله، لأنّ الله محيط علما بتياتهم الخبيثه، و يجازيهم عليها بالنار.

أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

ميزه الإنسان عن سائر الأحياء تطلّعه الى مستقبل أفضل. ألا- ترى كيف تبحث البشريه اليوم إلى التقدّم الحضارى؟ لماذا؟ لأنّهم يريدون أمن المستقبل، و لكنّهم يغفلون عن أعظم أمن لا بد أن يسعوا إليه، وهو أمنهم يوم القيامة، الذى لا يتوفّر إلا لمن ألقى السمع إلى آيات ربّه، واستجاب لها بخشوع.

و لأنّ الاستجابة لآيات الله تتمّ بوعى و شدّه عزم من قبل المؤمنين فإنّهم يأتون بأنفسهم الى ساحه المحشر آمنين، بينما الإلحاد يتمّ استسلاما للهوى فإنّ الملحدين يلقى بهم فى نار جهنّم إلقاء.

إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لقد سمح الله لعباده بقدر محدود من الحريه فى الدنيا ليتحمّلوا مسئولياتهم كامله يوم القيامة، و لكنّه حدّدهم من مغبه الإلحاد، و الالتواء، و التبرير، و خداع الذات، لأنّه بصير بما يعملون، فيعلم فعلهم، و لماذا يفعلون.

[٤١] الكتاب الذى أنزله الله لعباده يعكس آياته الماثوره فى الخليقه، فمن أعرض عنه فقد أعرض عن حظّه، لأنّ الكتاب ذكر يستثير ما نسيه البشر من حقائق هامه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّهُمْ هُمُ الْمَلْحَدُونَ فى آيات الله، و إنّ مصيرهم الدمار، لأنّهم أعرضوا عن كتاب مقتدر.

وَ إِنَّهُ لِكِتَابٌ عَزِيزٌ و كيف لا يكون عزيزا و قد وعد ربّ العزّه أن يحفظه، و ينصر من ينصره، و إنّهُ

ليعكس سنن الله التي تنتقم ممن خالفها بشده،

و قد أنبا الرسول صلى الله عليه و آله عن عزه الكتاب حيث قال عنه :

«من جعله أمامه قاده إلى الجنه، و من جعله خلفه ساقه إلى النار» و قال المفسرون: إن خبر المبتدأ هنا محذوف لدلاله السياق، كما لو قلنا: إن من يعادى زيدا و إن زيدا لقوى، أى أنه لا يفلح لأن من يعاديه قوى.

[٤٢] و عزه القرآن تتجلى أيضا فى أنه حق، و الحق منتصر.

لا- يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ فَلَإِخْبَارِهِ عَمَّا مَضَى يَشُوبُهُ الْبَاطِلُ، و لا إنبأؤه عمًا يأتى. إنه كتاب العصور جميعا. أو ليس يبين محض السنن، و لباب الحقائق، و عبر القصص، و هى لا تختلف من عصر لعصر، كما

قال الإمام الرضا عليه السلام عنه :

«هو جبل الله المتين، و عروته الوثقى و طريقته المثلى، المؤدى الى الجنه، و المنجى من النار، لا يخلق على الأزمنه، و لا ينعت على الألسنه، لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان، و الحجه على كل إنسان» (١) تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ اللَّهُ الَّذِي شَهِدَتْ آفَاقُ الْخَلِيقَةِ بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ هُوَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ، فَهُوَ الْنَاطِقُ عَنِ تِلْكَ الْحِكْمَةِ الَّتِي نَرَاهَا فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ.

و هو الحميد الذى نشرت محامده على كل أفق مبین، لأن رحمته وسعت كل

ص: ٢٤٤

(١- ١) المصدر/ص(٥٥٤).

شىء، و قد بعث آخر الأنبياء رحمه للعالمين، و أنزل معه كتاب رحمته.

[٤٣] إِنَّ طَبِيعَةَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَاحِدَةٌ عِبْرَ التَّارِيخِ، وَ تَبَرِيرَاتُ الْمَلْحَدِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَ الْمَعْرُضِينَ عَنْ ذِكْرِهِمُ الْيَوْمَ هِيَ ذَاتُهَا الَّتِي قَالُوهَا لِلرَّسُلِ مِنْ قَبْلِ، كَمَا أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي إِمْهَالِهِمْ بِرَحْمَتِهِ إِلَى أَجْلِ ثُمَّ أَخَذَهُمْ إِنْ لَمْ يَتُوبُوا بِعِقَابِ أَلِيمٍ جَارِيَةٍ فِيمَنْ يَأْتِي كَمَا جَرَتْ فِيمَنْ مَضَى.

مَا يُقَالُ لِمَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ. إِنَّهَا عَادَةُ الْمَلْحَدِينَ الَّذِينَ يَعْرَضُونَ عَنِ الذِّكْرِ، وَ يَقُولُونَ عَلَى الرَّسْلِ تَبَرِيرًا لِإِلْحَادِهِمْ وَ إِعْرَاضِهِمْ.

إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ فَعَلَى الرَّسُولِ وَ مَنْ يَتَّبِعُهُ أَنْ يُوَسِّعَ صَدْرَهُ، وَ يَتَعَاطَلَ مَعَ خَلْقِ اللَّهِ بِرَفْقٍ.

وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ فَلَوْ أَعْرَضُوا فَإِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ، فَلَا يَسْتَعْجَلِ الدَّاعِيَةَ الْعَذَابِ، وَ لَا يَحْمِلْ هَمَّ إِنْكَارِهِمْ.

[٤٤] الْقُرْآنَ ذَكَرَ، وَ قَدْ تَوَافَرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْهِدَايَةِ لَوْلَا - أَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَ لَوْ جَعَلَهُ اللَّهُ أَعْجَمِيًّا لَبَرَّوْا إِعْرَاضَهُمْ بِأَنَّهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ، أَوْ قَالُوا: كَيْفَ يَتَحَدَّثُ نَبِيُّ عَرَبِيٍّ بِقُرْآنٍ أَعْجَمِيٍّ؟! وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فَصَّلَتْ آيَاتُهُ وَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْأَعْجَمِيِّ الْكِتَابِ غَيْرِ الْمَبِينِ، كَمَا لَوْ كَانَتْ آيَاتُهُ

كلها فوق مستوى عقولهم فلم يستوعبوه، هنالك كانوا يطالبون بأن يكون واضحاً قد بينت آياته.

و ينهرهم القرآن أنّ القضيّه ليست في أن يكون عربيًا أو أعجميًا، بل في أن يكون القلب مستعدًا لتقبله.

ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ وَ قَالَ الْمَفْسُرُونَ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ تَكْمِيلٌ لِقَوْلِهِ «لَوْ لَا فَصَّلْتُ آيَاتُهُ»، أي يكون الكتاب أعجميًا بينما الرسول عربي، أو يكون الكتاب مختلطاً بين العربي والأعجمي.

قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءٌ يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ، وَ يَشْفِي قُلُوبَهُمْ مِنْ أَمْرَاضِهَا، أَمَّا الْمَعْرُضُونَ عَنْهُ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِالْكِتَابِ. إِنَّ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا مِنَ الْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ، وَ الْمَسْبِقَاتِ الذَّهْنِيَةِ الْخَاطِئَةِ.

وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى قَالُوا: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ مَحْجُوبُونَ عَنْهُ حَتَّى صَارُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَالْأَعْمَى، وَ لَعَلَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يَزْدَادُونَ بِهِ ضَلَالًا وَ طَعْيَانًا كَمَا قَالَ رَبَّنَا: وَ نُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا.

أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ذَلِكَ أَنَّ الْمَسَافَةَ وَاسِعَةً بَيْنَ الْقُرْآنِ وَ هِدَاةِ وَ شِفَاءِهِ وَ قُلُوبِهِمُ الْمَغْلُفَةَ الَّتِي غَلَّفَتْهَا الشَّهَوَاتُ وَ الْكِبَرُ وَ الْأَحْقَادُ.

[٤٥] وقصه الجحود طويله، فلقد أنزل الله التوراه على موسى فاختلف فيها الناس على الرغم من أنها كانت هدى و نورا.

و أمهلهم الله حتى يمتحنهم، و لو لا أنه قد قدر امتحان البشر في الدنيا لقضى بينهم، و أخذ الجاحدين أخذاً شديداً، لأنهم قد جاؤوا إفكاً مبيهاً، و لا يزال البعض يشك في التوراه شكاً مقلقاً.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ فَاخْتَلَفَهُمْ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى نَقْصٍ فِيهِ، حَاشَا لِلَّهِ! إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ وَقْرِ آذَانِهِمْ، وَ عَمَى أَبْصَارِهِمْ، وَ كَمَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَعَجَّلْ عَلَى أَوْلَائِكَ بِالْعَذَابِ، بِالرَّغْمِ مِنْ عَظِيمِ إِفْكَهِمْ، كَذَلِكَ لَمْ يَعَجَّلْ الْعَذَابَ عَلَى هَؤُلَاءِ. كُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ الدُّنْيَا دَارًا لِلْفِتْنَةِ وَ الْبَلَاءِ.

وَ لَوْ لَا - كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِقُضِي بَيْنَهُمْ وَ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُهُ أَنْ يَمْهَلَ الْجَاحِدِينَ إِلَى أَجْلِ مَسْمَى فَلَا يَعْزَمُ الْمَهْلُ، وَ لَا يَتَّخِذُ الْبَعْضُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَعَزُّ كِتَابَهُ أَوْ لَا يَنْصُرُ رِسْلَهُ.

وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ قَالُوا: الْمَعْنَى أَنَّ الْعَرَبَ لَا يَزَالُونَ فِي شَكٍّ مِنَ الْقُرْآنِ، وَ قَالَ الْبَعْضُ: بَلِ الْيَهُودُ لَا يَزَالُونَ فِي شَكٍّ مِنَ التَّوْرَةِ، وَ يَبْدُو أَنَّ هَذَا أَقْرَبُ إِلَى السِّيَاقِ وَ الَّذِي فِيهِ تَسْلِيهِ لِلرَّسُولِ لِيَتَّسِقَ الْمَعْنَى، هَكَذَا: لَا يَحْزَنُكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - شَكُّ قَوْمِكَ فِي الْقُرْآنِ فَبَنُوا إِسْرَائِيلَ لَا يَزَالُونَ فِي شَكٍّ مِنَ التَّوْرَةِ.

وقالوا:الريب هو أفضع الشك،فالمعنى-على هذا-أنهم فى شك فظيع.

وقالوا:الريب هو الشك المقرون بسوء الظن.

و يحتمل أن يكون معنى الريب هو الشك المفزع،فقد جاء فى اللغة:أراب خلافا أقلقه و أزعجه،

و فى حديث فاطمه:«يرينى ما يريبها» (1).

و لعلّ الفارق بين الشك المريب و غيره:أنّ من يهتّم بأمر يشك فيه يريبه الشك و يزعجه،بينما الذى لا يهتم بأمر لا يزعجه الشك فيه.

ص:٢٤٨

١-١) المعجم الوسيط/ج(١)ص(٣٨٤).

اشاره

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۴۶) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَانَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (۴۷) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۴۸) لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِسْ قَنُوطٌ (۴۹) وَلَئِنْ أَدْخَاَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْاءَ مَسَّتُهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْبَانِي فَلَنَبِيَّتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنَدِيَقَنَّهْمُ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (۵۰) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (۵۱) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (۵۲) سَنُرِيهْمُ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۵۳) أَلَا- إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (۵۴)

اللغه

۴۷[أكمامها]:أكمام جمع كم و هو الغلاف،يقال تكمم الرجل بثوبه إذا تلفف به.

[آذناك]:أعلمناك،و المعنى نعلمك و نعترف لك.

٥١]ننا]:بعد بجانبه عن الاعتراف بالله و شكره.

ص:٢٥٠

هدى من الآيات:

إنَّ المنهج القرآني يربط بين ما في الطبيعة و ما في النفس البشريه، و الآيه ما قبل الأخيره من هذه السوره تؤكد هذه العلاقه الوثيقه، و كلما ازداد الإنسان وعيا بآفاق الطبيعه ازداد معرفه بأعماق النفس، أو ليست النفس عالم كبير في حجم محدود، و سواء اهتدى الإنسان الى غيب الطبيعه الذي هو الحق، أو اهتدى الى غيب النفس الذي هو الحق أيضا، فإنه سيهتدى بإذن الله إلى خالق الطبيعه و النفس معا، و هو الله عزّ و جل.

و في الدرس تذكره بالغه للإنسان بنفسه التي هي الأقرب إليه، و لكنّه يغفل عن آمادها التي لو انتبه إليها أحسّ بعمق العبوديه التي اركزت فيها. أو لا ترى كيف تجزع إن مسّها شيء من السوء، و تفقد توازنها إن أصابها شيء من الخير؟ أو لا ترى حرصها على النعم الذي يمنعها من العطاء، و شدة يأسها و قنوطها؟ إن أطوار النفس و تغيراتها شاهده على أنّها مخلوقه مدبره، و تلك آيه من آيات الله في الخليقه.

[٤٦] مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ تَبَيَّنَ الْآيَةُ الْمَسْئُولِيَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ: أَنَّ مِنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَإِنَّمَا لِنَفْسِهِ يَعْمَلُ، وَ يَلْقَى جَزَاءَهُ الْحَسَنَ وَافِيًا، وَأَنَّ مِنْ عَمَلٍ سَيِّئًا فَإِنَّمَا عَلَى نَفْسِهِ، وَ يَجِدُ جَزَاءَهُ كَامِلًا.

و كلمه ظلّام تدل على المبالغه فى الظلم، و ربّنا ليس فقط لا يظلم كثيرا عبيده، بل أيضا لا يظلمهم قليلا، إذا فلما ذا ينفى الربّ ظلمه بصيغه المبالغه فيقول: «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»؟ و سبب هذا التساؤل هو التشابه الذى سيحدث بنفى المبالغه، فلو قلت: فلان لا يأكل، فهذا يعنى أنه لا يأكل كثيرا و لا قليلا، و أمّا لو قلت: و ما فلان بأكول، فهذا يعنى أنه لا يأكل كثيرا، و لكنّه قد يأكل قليلا، فنفى المبالغه نفي للكثرة فقط.

و الجواب-فيما يبدو لى- لو لم يربط ربّنا سبحانه بين عمل الإنسان و بين واقعه، بين سعيه و بين جزائه لكان ظلّاما، أو ليس من الظلم أن يصبح شخص رئيسا تهدي إليه خيرات الأرض و بركاتهما، و يصبح و يمسى شخص آخر و هو لا يجد ما يقتاتة؟! بلى. إنّه ظلم، بل ظلم كبير.

و أىّ ظلم أكبر من أن يدع الله سبحانه و تعالى الشعب الألماني-مثلا- تحت أقدام هتلر، أو الشعب الروسى تحت سلطه عتاه الشيوعيه، أو الشعب العربى تحت عنجهيه الصهاينه و الطغاه؟!!

و حيث نعرف أنّ الله الذى خلق السماوات و الأرض و ما فيهنّ و ما بينهنّ بالحكمه البالغه، و التقدير العادل الموزون، و وضع كل شىء موضعه المناسب، ليس بظلام، نعرف يقينا أنّ درجات الإنسان فى الدنيا و الآخره مقدّره حسب حكمه بالغه، ترتبط باختياره و سعيه، و إنّ الله لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١) إنّ الله لا يظلمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٢) فرَبَّنَا لم يسلط هتلى على الشعب الألمانى أبداً، و لكنهم هم الذين سؤدوه على أنفسهم، بجهالتهم و بتركهم مسؤولياتهم، و هكذا بالنسبه لسائر الشعوب.

[٤٧] و هناك تساؤل آخر تجيب عنه الآيه التاليه، هو: إنّنا فى كثير من الأوقات لا نكتشف الأسباب فى حدوث الأشياء، فنقول مثلاً: من الذى جعل الطغاه يحكمون البلاد؟! ما الذى أمرض و لماذا عوّق هذا و قتل فى حادث السياره ذاك؟! بلى. إنّك تجهل العلاقه بين حدوث الأمر الفظيع و بين الفعل، و لكنّ العلاقه قائمه، و الله سبحانه هو الذى قدّرها، و هو الذى يجريها.

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ متى تقوم قيامه هذا الكون؟! لا أحد يدري، فهذا غيب غائر فى المجهول، و حتى الأنبياء لا يعلمون ذلك، فعند الله علم الساعه يقرّرها متى يشاء، و كيف يشاء، و قد تقوم غداً، أو بعد غد، و فى بعض النصوص: أنّ الله لم يقدر للساعه وقتاً، و إنّما جعل لنفسه فيها البداء.

ص: ٢٥٣

١-١) الرعد/(١١).

٢-٢) يونس/(٤٤).

وَ مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا فَهُوَ الْمَحِيطُ عَلَمَا بِمَا فِي أَكْثَامِ الثَّمَرَاتِ مِنْ فَوَاكِه.

قف على شجره قبل ان تظهر ثمراتها، إنك ستري زهورا كثيره، و لكن كم تحمل من ثمره؟ و كم زهره منها ستسقط و تتلاشى؟ و كم ثمره ستسقط قبل النضوج؟ و كم ثمره ستواصل الرحله الى الأخير؟ إنك لا تعلم، و لا أحد يعلم، و يبقى الله هو العالم بخفيايا الأمور، و خبايا الطبيعه، ممّا يشكل رزق البشر الأساسى. أمّا عن أبنائه فالله هو المحيط علما بهم.

وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَ لَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ هَلْ تَحْمِلُ هَذِهِ الْأَنْثَى أَمْ لَا، وَ مَاذَا تَحْمِلُ؟ أَنْثَى أَمْ ذَكَرٌ؟ هَلْ يُولَدُ حَمْلُهُ سَوِيًّا، وَ مَا هِيَ انْعِكَاسَاتِ الطَّبِيعَةِ عَلَى جَسَدِهِ وَ نَفْسِهِ؟ كُلُّ ذَلِكَ يَرُدُّ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ.

إِنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ بَيَّنَّتْ مَسْئُولِيَةَ الْبَشَرِ عَنْ أَعْمَالِهِ، وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِعِبِيدِهِ، وَ قَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِتَأْكِيدِ الْمَسْئُولِيَةِ، أَوْ لَا: بَأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ عَلَمَا بِوَاقِعِ الْبَشَرِ، فَإِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ عِنْدَ مَا يَقُومُ لِلْحِسَابِ، وَ هُوَ عَالِمٌ بِرِزْقِهِ، وَ عَالِمٌ بِأَبْنَائِهِ، ثَانِيًا:

بِنَفْيِ الشَّرْكَاءِ الَّذِينَ يَزْعُمُ الْبَشَرُ أَنَّ التَّوَسِيلَ بِهِمْ يَبْعُدُهُ عَنِ عَذَابِ رَبِّهِ، فَيُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَضْحَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَتَبِّرًا مِنَ الشَّرْكَاءِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَغْنُوا عَنْهُ شَيْئًا.

وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ قَالُوا أَذْنَاكُمَا مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ يَقُولُ لَهُمُ اللَّهُ: أَيْنَ الشَّرْكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ؟ فَيُعْلَنُونَ لَهُ إِعْلَانًا: وَ اللَّهُ لَا نَدْرَى أَيْنَ الشَّرْكَاءِ، وَ لَا نَدْرَى أَيْنَ وَلَوْ.

[٤٨] وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ

عرفوا أنه ليس للشركاء المزعومين دخل في الأمر.

وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ الْمَحِيصِ هِيَ تِلْكَ الْحَفْرَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي يَحْفَرُهَا الطَّيْرُ - كَالْقَطَا مَثَلًا - بِجَوْنِجَتِهِ أَيْ بِصَدْرِهِ فِي الْأَرْضِ، وَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَظُنُّونَ أَيْ يَعْلَمُونَ يَقِينًا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّرْحِيزِ عَنْ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ وَلَا بِهَذَا الْمَقْدَارِ، وَ لَعَلَّ الظَّنَّ بِمَعْنَى التَّصَوُّرِ، وَ هُوَ هُنَا يَقَعُ مَعْنَى تَجَسُّدِ الْحَقِيقَةِ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ.

[٤٩] فِي أَعْمَاقِ نَفْسِ الْبَشَرِ آيَاتٌ بَاهِرَةٌ تَهْدِيهِ إِلَى رَبِّهِ، وَ لَوْ تَدَبَّرَ الْإِنْسَانُ فِي ذَاتِهِ، وَ كَيْفَ تَطَرُّأَ عَلَيْهِ الْحَالَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ مِنْ طَمَعٍ لَا يَحُدُّ، وَ يَأْسٍ لَا يُوَصِّفُ، لَعَرَفَ حَاجَتَهُ إِلَى الْخَالِقِ، وَ أَنَّهُ قَدْ أُرْكَسَ فِي الْعِجْزِ وَ الْفَقْرِ وَ الْمَسْكَنَةِ إِرْكَاسًا.

إِنَّ الْبَشَرَ حِينَ يَنَازِعُ رَبَّهُ رَدَاءَ كِبْرِيَّائِهِ يَحْتَجِبُ عَنِ نُورِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ قَدْ جَهِلَ نَفْسَهُ، وَ لَمْ يَعْرِفْ أَمَادَ عِجْزِهَا وَ ضَعْفِهَا، وَ شَدَّةَ فَقْرِهَا وَ فَاقَتَهَا، أَمَّا حِينَ يَتَصَوَّرُ حَالَاتَهُ الْمُخْتَلِفَةَ يَعْرِفُ نَفْسَهُ، وَ مِنْ ثَمَّ يَعْرِفُ رَبَّهُ.

و ربنا يرينا آياته في أنفسنا فيقول:

لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانَ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ إِنَّهُ عَمِيقَ الْإِحْسَاسِ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْخَيْرِ مِنَ الْغِنَى وَ الْعَافِيَةِ وَ الْأَوْلَادِ، وَ سِوَاءِ دُعَا رَبِّهِ أَمْ دُعَا الشَّرْكَاءِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ، وَ الْمُحْتَاجُ فَقِيرٌ ذَلِيلٌ عَاجِزٌ، وَ هُوَ بِالتَّالِي لَيْسَ بِإِلَهٍ وَ لَا - نِصْفَ إِلَهٍ. إِنَّهُ مُحَضٌّ. عَبْدٌ، صَفْرُ الْيَدَيْنِ. إِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى رَبِّهِ الْغِنَى، وَ يَعْلَمُ بِفَطْرَتِهِ أَنَّهُ غَنَاءٌ، وَ التَّقَرُّبُ إِلَيْهِ مَنَاهُ حَقًّا، وَ أَنَّهُ قَدْ ضَلَّ الطَّرِيقَ، وَ أَنَّ حِرْصَهُ عَلَى الدُّنْيَا لَا يَشْبَعُ طَمُوحَهُ، وَ لَا يَشْفِي غَلِيلَهُ، إِنَّمَا الْأُوبَةُ إِلَى رَبِّهِ غَايَةُ تَطَلُّعِهِ، وَ نَهَايَةُ

يقول الإمام السجّاد عليه السلام و هو يناجى ربه :

«إليك شوقى، و فى محبتك ولهى، و إلى هواك صبايتى، و رضاك بغيتى، و رؤيتك حاجتى، و جوارك طلبى، و قربك غايه
سؤلى، و فى مناجاتك روحى و راحتى، و عندك دواء علتى، و شفاء غلتى، و برد لوعتى، و كشف كربتى (الى أن يقول:). و لا
تبعدنى عنك، يا نعيمى و جنتى، و يا دنيائى و آخرتى « (١) و هذه النفس الواسعه التى تتطّلع الى امتلاك الدنيا و تزيد قد تضيق
بها الآفاق حتى يطبق عليها اليأس من أطرافها. أو ليس ذلك دليلا على فقر البشر، و شدّه حاجته، و سفاهه تكبره على ربه.

وَ إِنِّ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤْسُ قَنُوطٌ و لعلّ اليأس هو قطع الأمل قلبياً، بينما القنوط هو التوقّف عن السعى بسبب اليأس، و الكلمتان مثل
لفظتى الليل و النهار إذا اجتمعتا تفرّقتا، و إن تفرّقتا اجتمعتا، فلو استخدمنا لفظه اليأس فقط أعطت معنى القنوط، و هكذا العكس، و
لكن حينما نستخدمهما فإنّ لكل واحد منهما معنى.

و قال البعض: يئوس شده اليأس من الخير، و قنوط من الرحمه، و قال: اليؤوس من إجابته الدعاء، قنوط يسىء الظن بربه. ٢

[٥٠] و من تسوّلات النفس فى الهروب من المسؤوليه و الإعراض عن آيات الله هو الغرور بالنعم، ممّا يعالجه القرآن هنا..

ص: ٢٥٦

وَ لَئِنْ أَذَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَانِي مِنَ عَادَةِ الْمَخْرَجِينَ لِلْأَفْلامِ وَ مؤلفى الروايات تصوير أبطالهم فى حالات نفسيه متناقضه، فيصوّرون مثلا: أحد المجرمين فى لحظه جريمته، يعيش قمه الغرور، فيقع فجأه فى الفخ، أو يصوّرون: أحد المغرورين يتصوّر أنه يمتلك الشمس يمينه و القمر يساره، و إذا به يبصر، يرى شرطيا أمامه فيصبح كالخرقه الباليه.

و هذا التصوير يساعد فى كشف خبايا النفس، و أبعاد الخداع الذاتى الذى يعيشه الإنسان، و إنما يكتشف عبر الظروف المتغيّره التى يعيشها.

و القرآن- هنا- يصوّر لنا الحاله النفسيه الأولى التى يعيشها المفتون، حيث يتذوّق رحمه الرب و نعمته بعد أن عاش ظرفا صعبا، و ضيقا و شده، و تعبيرا عن فرحته يبادر قائلا: «هذا لى» كالطفل الذى يشتري له والده لعبه جديده، فيذهب مسرعا الى أترابه قائلا: (عندى لعبه جديده، هذه لى،...) مأخوذا بنشوه الغرور، و هذا ما تفعله جدّه النعم بصاحبها، فهى هاويه يجب الحذر من السقوط فيها، تسبب فى تغيّر حاله الإنسان النفسيه، و لهذا

كان الإمام الصادق عليه السلام يتبّه داود الرقيّ قائلا :

«يا داود! لا تدخل يدك فى فم التّنين الى المرفق خير لك من طلب الحوائج ممن لم يكن فكاك» (1) ثم إنّ ذلك المغرور المفتون لا يقتصر على الزهو و الفخر الذى يغمره، بل و يتصوّر

ص: ٢٥٧

الحياه متلخصه فى تلك اللحظه التى يعيشها، و فى ذلك المكان الذى يتنعم فيه، ثم بعد ذلك يخطر على باله أن لو كانت هناك ساعه و جزاؤه كان له عند ربه الحسنى، أو ليس الله قد أنعم عليه فى الدنيا، فهو لا بد أن ينعم عليه فى الآخرة! و هكذا يزعم السلاطين و الأغنياء و الرأسماليون، إنهم يتصوّرون أنّ الله إنّما فتح عليهم أبواب النعم الدنيا لحبّه إياهم، أو لأنهم عباده الذين اختارهم (و هذه هى العنصرية) فى حين أنّ الله إنّما أعطاهم تلك النعم ليمتنحهم، و يبلوهم أيهم أحسن عملا، أو حتى يستدرجهم، كما قال سبحانه: **وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيُزِدُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١) فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ أَمَّا رَبُّنا سبحانه فلا يحاسب الناس على أساس فقرهم و غناهم، و كبرهم و صغرهم، و إنّما على أساس كفرهم أو إيمانهم، كفرانهم أو شكرهم، و بالتالى أعمالهم، إن خيرا فخير و إن شرا فشر.**

وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَ سَوْفَ يَكُونُ الْعَذَابُ غَلِيظًا بِقَدْرِ التَّأثيرات السلبيه للنعمه فى نفسه و آثار تلك السيئه على سلوكه.

[٥١] تقدّم أطور نفس الإنسان دليلا. وجدائيا على عجزه و حاجته الى الخالق و الى الرساله التى تربيه و تزكّيه، و لو عاد الإنسان الى حرم نفسه لشاهد فيها من آيات الله ما يراها فى آفاق السماء و الأرض. و من تلك الأطوار مدى تأثره بحاله الغنى و الفقر، و العافيه و المرض.

ص: ٢٥٨

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ إِنَّهُ فِي حَالِهِ الرِّخَاءِ وَالنِّعْمَةِ يَعْرِضُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ، وَيَتَجَنَّبُ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ، بِجَعْلِ جَانِبِهِ مُوَاجِهًا لَهُمْ، ثُمَّ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ.

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ وَأَمَّا إِذَا أَصَابَهُ شَرٌّ فَإِنَّهُ يَعْتَكِفُ فِي الْمَسْجِدِ لِيَبْدَأَ مَرِحْلَةَ التَّبَتُّلِ وَالِدُّعَاءِ، وَهَذَا التَّوَجُّهُ إِلَى الدُّعَاءِ الْعَرِيضِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْإِعْرَاضِ دَلِيلٌ ضَعْفُهُ عَنِ مُوَاجِهَةِ الْمَشَاكِلِ، وَمَعْرِفَتُهُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَفَضَّلُ بِالنِّعْمَةِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَضَيْقِ نَفْسِهِ وَمَحْدُودِيَةِ اسْتِعْبَابِهِ تَاهَ فِي غُرُورِ النِّعْمَةِ، وَفَقْدِ سَيْطَرَتِهِ عَلَيْهَا، وَجَعْلِهَا حِجَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ.

وَهَذَا الْإِنْسَانُ الَّذِي تَتَحَدَّثُ الْآيَةُ عَنْهُ قَدْ يَكُونُ هُوَ أَنَا وَأَنْتَ وَنَحْنُ، لِذَلِكَ لَا بَدَّ أَنْ نَعِيَ وَنَنْتَبِهَ، لَا بَدَّ أَنْ نَعْقِلَ وَنَحْذِرَ.

[٥٢] بَعْدَ أَنْ أَلْقَى السِّيَاقُ الضُّوْءَ عَلَى مَدَى الْعِجْزِ وَالْفَاقَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّتِي أُرْكَسَتْ فِيهَا نَفْسُ الْإِنْسَانِ حَتَّى تَرَاهَا تَتَأَثَّرُ حَتَّى التَّطَرَّفَ بِالْمَوْثُرَاتِ الْخَارِجِيَةِ، مِمَّا يَهْدِيهِ عَلَى سَفَاهَةِ الْكِبَرِ وَيَحْسِسُهُ بِضُرُورِهِ الْعُودَةَ إِلَى فِطْرَتِهِ فِي التَّسْلِيمِ لِرَبِّهَا، بَعْدَئِذٍ أَخَذَ يَذْكُرُهُ بِضُرُورِهِ أَخَذَ الْحَيْطَةَ لِنَفْسِهِ، وَقَالَ:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ أَى لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ حَقًّا ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ، وَ لَمْ تَقُومُوا بِالْإِحْتِيَاطِ الْكَافِي لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ سَوْفَ تَصْبِحُونَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ عَنِ جَادَةِ الْحَقِّ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ يَبْحَثُ فِطْرِيًّا عَنِ الْأَمْنِ، وَ لَوْ لَا الْكِبَرُ الَّذِي انطوت نفسه عليه

و الغرور و الحجب لاستمع الى إنذار الرسل، و قال فى نفسه: لو كان هذا الإنذار صحيحا لوجب أخذ الحيطة لِنفسى بالاستماع الى شواهد المنذرين و آيات الله التى تتجلى على أيديهم، و لو فعل ذلك و ألقى السمع من دون وقر الكبر و العجب اهتدى الى الحق.

ثم إنَّ عقل الإنسان يهديه بضروره أخذ الحيطة حتى بمجرد افتراض صحه ما يقوله الرسل،

بهذا ذكّر الإمام الصادق عليه السلام أحد الملحدين الذى طال جداله فى الدين، فبعد أن رأى عبد الكريم ابن أبى العوجاء الامام فى الحج، و طلب منه العوده الى النقاش، رفض الإمام قائلا: لا جدال فى الحج، ثم قال له:

«إن يكن الأمر كما تقول -و ليس كما تقول- نجونا و نجوت، و إن كان الأمر كما تقول -و هو كما تقول- نجونا و هلكت» و هبطت كلمه الإمام كالصاعقه على قلبه، فقال لمن حوله: وجدت فى قلبى حرازه، فردّونى، فردوه، فمات (1).

[٥٣] و أمّا الطريق الى الحقيقه فهو بديع الخلق و حقائق النفس.

لقد حملنا السياق القرآنى و منذ فاتحه السوره الى آفاق السموات و الأرض، و أَرانا آيات الله فيها، من بديع الصنع، و عظيم الخلق، و لطيف التدبير، و حسن التقدير، ثم ذكرنا بأعماق النفس التى لو خضنا غمارها لرجعت النفس تائبه الى فطره العبوديه. أ رأيت جزعها حين يمسيها سوء؟ هل وجدت ياسها و قنوطها بعد حرصها و طمعها؟ إذا لم تكن هذه شواهد العبوديه فما هى إذا شواهدها؟! لقد أشار القرآن الى بعض هذه الشواهد التى يجدها كل واحد منّا فى نفسه

ص: ٢٦٠

١- ١) تفسير نمونه/ج (٢٠) ص (٣٢٦) نقلا عن الكافى/ج (١) ص (٦١).

وجدانا، ثم قال مشيراً إليها و إلى آياته في الآفاق التي ذكرت من قبل:

سُتْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ وَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ نَسْتَوْحِي بِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَتَجَلَّى لِلْإِنْسَانِ فِي آفَاقِ الْخَلْقِ حِينًا وَ حَقَائِقِ النَّفْسِ حِينًا بِالرَّغْمِ مِنَ الْحِجَابِ السَّمِيكَةِ الَّتِي يَغْلِفُ بِهَا قَلْبَهُ، وَ لَوْ فِي لِحْظِهِ مِنْ لِحْظَاتِ عَمْرِهِ، لَكَيْ تَتَمَّ الْحِجَابُ عَلَيْهِ، وَ حَتَّىٰ أُنَمَّ الْكُفْرُ وَ الطَّغْيَانُ وَ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ يَتَمَّ اللَّهُ حِجَّتَهُ عَلَيْهِمْ، وَ يَبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ بِشَكْلِ لَا يَسْعَهُمُ الْإِنْكَارُ، فَإِذَا كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَخَذَهُمْ بِعَذَابٍ بَنِيَسٍ، إِذْ أَنَّ كَفَرَهُمْ لَيْسَ عَنْ غَفْلَةٍ، إِنَّمَا عَنْ جِحُودٍ.

أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ شَهَادَةٍ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الشَّاهِدُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ.

فبنوره أشرقت السموات و الأرض، و بضياته عرف الخلائق أنفسهم، و بذاته دلّ من يشاء على ذاته، سبحانك يا رب:

« كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟! أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدلّ عليك؟! و متى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك عليها رقيباً « (١) [٥٤] و لكنّ العمى في الكفّار هو الذي يجعلهم لا يرون الله عزّ و جل، و سبب

ص: ٢٤١

(١ - ١) من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفه، مفاتيح الجنان/ص (٢٧٢).

العمى هو الكفر بالبعث، و نكران النشور.

إنَّ الرِّيبَ فِي يَوْمِ الْآخِرِ وَ بِالتَّالِي فِي الْمَسْئُولِيهِ يَبْرُرُ لِلنَّفْسِ التَّهَائُونَ، وَ إِذَا اسْتَبَدَّ بِهَا التَّهَائُونَ لَمْ يَهْتَمَّ بِالْحَقِّ، وَ لَمْ يَسْتَمِعْ إِلَى دَاعِيهِ، وَ لَمْ يَتَفَعَّ بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي الْآفَاقِ وَ الْأَنْفُسِ.

أَلَا- إِنَّهُمْ فِي مَرِيهِ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا- إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ إِنَّهُمْ يَشْكُونَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ سَاعَةِ الْحِسَابِ، بَيْنَمَا الرَّبُّ يَحِيطُ بِهِمْ إِحَاطَةً كَامِلَةً، وَ سَوْفَ لَا يَفْلَتُونَ مِنْ قَبْضَتِهِ، لِأَنَّهُ لَا مَنْجِيَّ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَ لَا مَهْرَبَ مِنْ سَطَوَاتِهِ.

ص: ٢٤٢

سوره الشورى

اشاره

ص: ۲۶۳

فضل السوره:

روى عن أبى عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) أنه قال :

«من قرأ (حم عسق) بعثه الله يوم القيامة وجهه كالثلج أو كالشمس حتى يقف بين يدي الله عزّ وجل، فيقول: عبدى أدمنت قراءه (حم عسق) ولم تدر ما ثوابها، أما لو دريت ما هى و ما ثوابها لما مللت قراءتها، و لكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنة، و له فيها قصر من ياقوته حمراء أبوابها و شرفها و درجها منها، يرى ظاهرها من باطنها، و باطنها من ظاهرها، و ألف غلام من الغلمان المخلدين الذين وصفهم الله عزّ وجل» (١)

ص: ٢٤٥

فى الوقت الذى تختصّ كلّ سورة فى القرآن بمحور يفردھا عن بقية السور فإنھا كلّھا تلتقى حول محور مشترك واحد، لذلك فإنّ من الصعب على المتدبّر أن يميّز بينها، لأنّها جميعا تنطلق من قاعده واحده لتنتهى إلى هدف واحد، تنطلق من معرفه الله، و تنتهى إلى الإيمان به و عبادته، فأياتها متشابهه كما يصف القرآن نفسه بذلك، إلا أنّ المتدبّر يجد لكلّ سورة محورا يميّز بما يلى:

أولا- إنّ كلّ القضايا المتعلقة واقعيّا بذلك المحور تكون مبحوثه فى السوره، بالرغم من أنّها- وبالذات فى السور الطويله- تبدو مختلفه أو حتى متباينه إلا أنّها ما دامت تمتّ بذلك المحور تبحث فى السوره، لأنّ المعالجه القرآنيه للمحاور هى معالجه شامله تسع جميع جوانب القضيه.

ثانيا: إنّ القرآن لا يعالج القضايا معالجه نظريه، بل يودع ضمن آياته الكريمه القوه التنفيذيه اللازمه لعلاجها، فهو لا يكتفى ببيان القانون العلمى أو الحكم الشرعى للقضيه مجردا، بل يشفعه بتوجيه الإنسان و تذكّرتّه، مستخدما من أجل

ذلك شتى الوسائل، و من أبرزها التذكرة بالله و بالآخرة، و إثارة العقل، و الترهيب، و الترغيب، و حتى التصوير الفنى، التى تدعو قارئ القرآن الى تطبيق أوامره و تعاليمه.

و نجد محور هذه السوره معالجه الخلافات البشريه.. لماذا يختلف الناس؟ و ما هى حدود الاختلافات الطبيعیه بين البشر؟ و ما هو جذور الخلاف؟ ثم ما هو علاج الخلاف؟ و إنما سميت هذه السوره بالشورى، لأنّ الشورى تعتبر بعد الوحي أفضل علاج للاختلاف.

و القرآن لا يبدأ السوره بالحديث عن الشورى، بل يبدأها بالحديث عن الوحي، لأنّ الوحي هو محور المجتمع الإسلامى، و أساس وحدته، ذلك لأنّ أىّ مجتمع يقوم على أساسين:

الأول: وجود شريعته، أو كتاب، أو منهج متكامل، و فى أمّتنا الإسلاميه يجسد القرآن هذا الأساس.

الثانى: وجود القيادة الصالحه التى تحدّد معانى الكتاب، و تستنبط الأحكام منه، و ترسم المنهج السليم للحياه به.

و هذا ما يفسّر ابتداء السوره بذكر القرآن و انتهائها الى ذكر الرسول، و بين هذا المبتدأ و ذلك المنتهى تبصّرنا آياته بلطائف القيم المباركه فى الوحده، و فيما يلي نستوحى تفصيلا لهذا الموجز:

فاتحه السوره تذكّرنا بالوحي الذى يلقيه الله العزيز الحكيم ملكك السموات

و الأرض العليّ العظيم، وكفى بالوحي عظمه أنّ السموات و الأرض يكسدن يتفطرن من فوقهنّ (من عظمه ربّهن أو من كلماته). أمّا الملائكة فهم يسبحون بحمد ربّهم، و يشفقون على من فى الأرض (بالذات المؤمنین منهم) فيستغفرون لهم (لأنّهم يرون جانباً من عظمه ربّهم) و الله غفور رحيم (٧/١).

و هذه الفاتحة تنسجم مع خاتمة السوره التى تبين صفات الوحي حيث لا يتلقاه البشر إلا إلهاماً أو من وراء حجاب أو عبر رسول من عند الله، و أنّه قد هبط الى الرسول الروح و من قبل لم يكن النبى يدرى ما الكتاب و لا الإيمان، أمّا اليوم فعنده نور يهدى به الله من يشاء الى صراط مستقيم، و هو صراط الله الذى إليه ترجع الأمور (٥٣/٥١).

و بين هذه الفاتحة و تلك الخاتمة اللتين تتحدّثان عن محور المجتمع الإسلامى و صبغته الأساسيه و هو الوحي تجرى آيات الذكر فى تبين أسس الوحده فى الأئمة، بل و يرسى هذه الأسس ببصائره و نذره و بشائره.

كيف؟ ألفت: تقسّم الآية (٨) الناس فريقين: من هداه و أدخله فى رحمته، و الظالمين الذين ما لهم من ولىّ و لا نصير.

و بعد أن يحدّد الصفه الرئيسيه للظالمين و هى الشرك بالله (و الذى يعتبر جذر كلّ فساد) يثبت مبدأ التحاكم الى الله فى الاختلاف (و بالذات الى وحي الله و من نزل عليه الوحي أو استوعبه) و الإنابه إليه، و التوكّل عليه (١٠/٩).

باء: و يذكّرنا السياق - بعدئذ - بأنّ الله الذى فطر السموات و الأرض خلق الناس و الأحياء أزواجاً ليكون نسل الناس بذلك (فالاختلاف حقيقه واقعه، و هو فى

كما أنه سبحانه بسط الرزق بين الناس بقدر ما يشاء حسب حكمته (فلا يجوز أن نسعى للتساوى المطلق بينهم) (١٢/١١).

جيم: و الدّين محور الوحده، و لكن بشرط الأ- نتفرّق فيه، و هذه وصيه النبيين أولى العزم نوح و محمد و إبراهيم و موسى و عيسى (عليهم السلام). أمّا سبب الاختلاف فليس هو الدّين بل أهواؤهم التي تنزع نحو البغى (و ما أعظم جريمه تنزل نقمه الرب لو لا أنه أخرها الى أجل مسّى) و يبقى الرسول (و من بعده خلفاؤه) محورا للوحده، و عليه أن يستقيم على الحق بعيدا عن أهوائهم المختلفه، مؤمنا بكلّ الكتب، و عادلا فى الحكم بينهم، (و ألا يكرههم بل يلزمهم بما ألزموا أنفسهم به) (١٥/١٣).

دال: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ (و يرفضون أحكامه) من بعد ما استجاب المؤمنون له (و أقاموا المجتمع المسلم) فَإِنَّ حُجَّتَهُمْ داحضه، و عليهم غضب من الله، و لهم عذاب شديد (و تطالهم العقوبات إذ رفضوا أحكام الله) أو ليس قد رفضوا الكتاب الذى أنزله الله، و الميزان الذى جعله سبيلا للعداله (و هو الإمام أو أحكام القضاء أو قيم العقل أو هى جميعا)؟ و بعد أن يحذّره الله الساعه التى يشفق منها المؤمنون، و يقول: بَأَنَّ الشَّاكِّينَ فِيهَا فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ يَذُكَّرُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ (و أنّ مخالفه الحق لا تجلب رزقا) و أنّ من يترك الحرام من الدنيا (و لا- يثير الصراع من أجل لقمه الحرام) يعوّضه الله فى الآخره كما يرزقه فى الدنيا، بينما الآخر لا نصيب له فى الآخره (و ربما يفقد الدنيا أيضا).

و هكذا عالج السياق جذرا أساسيا للخلاف الاجتماعى (٢٠/١٦).

هاء: (و لأنّ من الناس من يشرّع بأهوائه، و هو يسبّب الاختلاف الكبير) أنذر الله أولئك الذين اتخذوا من دون الله شركاء يزعمون أنّهم يشرّعون من الدّين ما لم يأذن به الله (و يستنون القوانين الوضعيّة) بأنّه لو لا كلمه الفصل لقضى بينهم، و أنّ لهم بالتالى عذابا أليما يوم القيامة، حيث ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا دون أن تجددهم الشفقة نفعاً، لأنّه واقع بهم، بينما ترى المؤمنين فى روضات الجنّات.

واو: و يرسم القرآن الخط المستقيم فى الأمّه بالأمر الناجز بمودّه أولى القربى التى هى الحسنه الكبرى (لأنّ بمودّتهم يتكرس الخط القيادى السليم).

(و لأنّ القضية القياديّه أهمّ قضيه و أكثر قضيه إثارة للخلاف) اتهموا الرسول بالافتراء فى الوحي، و أدحض الله فريتهم بأنّ الله لو شاء لختم على قلب الرسول، و أنّه يمحو الباطل، و يحقّ الحقّ بكلماته.. و بيّن أنّه سبحانه يقبل التوبه عن عباده (لأنّ الانحراف عن الخطّ القيادى كثيرا ما يقع فلو لا قبول التوبه هلك خلق كثير).

و بيّن السياق أخيرا بأنّ الذين آمنوا يستجيون (لهذا الأمر) بينما الكفّار (الذين لا يستجيون) لهم عذاب شديد (٢٦/٢١).

زاء: (و لأنّ حبّ الدنيا و التكاثر من متعها يعدّ أحد الجذور الرئيسيّه للاختلاف- بعد الاختلاف الطبيعى المشروع، و التفرّق فى الدين، و التشريع بغير إذن الله- فقد عالجتّه عدّه آيات بيّنت حكمه تحديد الرزق، فلو بسط الله الرزق بسطا لبغى الناس فى الأرض فقدره تقديرا حكيماً يتناسب و مقدره الناس على الإستيعاب، و الرزق بيد الله (و لا يجوز الاختلاف عليه) فهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) (و من أسباب التقتير فى الرزق الذنوب).

و ما أصاب الناس من مصيبه فيما كسبت أيديهم (و لعلّ من الذنوب

الاختلاف الذى يمنع الرزق)و إذا قَدَّرَ اللهُ العذابَ لأمَّةٍ لا يقدر أحد على دفعه عنها.

(و مظهر آخر لرزق الله الرياح التى تنقل سفن التجاره)فهذه الجوار فى البحر كأنهنّ الجبال إن يشأ الله يسكن الريح فيظللنّ رواكد أو يهلكهنّ بذنوبهم..كلّ ذلك ليعلم الذين يجادلون فى آيات الله(و ينكرون هيمنه الله أو عذابه)أنه لا-مفرّ لهم من عذابه.

و بعد كلّ ذلك، ما هى الدنيا؟!إنّ هى إلاّ متاع إذا قيست بما عند الله للمؤمنين فى الآخرة الذى هو أفضل و أدوم(٣٦/٢٧).

حاء:(و فى هذا المنعطف يبلغ السياق المحور الأساسى فى السوره المتمثّل فيما يبدو فى الشورى التى تكثّف التجارب البشريه،و يبيّنه القرآن ضمن صفات مختلفه للمؤمنين) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ،و يغفرون حين الغضب،و قد استجابوا لرّبهم(بالتسليم للقياده الشرعيّه) وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (يتبادلون بها خبراتهم)و مما رزقناهم ينفقون.

طاء:(تلك كانت طائفه من صفات المؤمنين تتعلّق بعلاقاتهم بينهم،و هناك طائفه أخرى منها تتصل بمواقفهم من أعدائهم)فهم الذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون(و لا يخضعون للبغاه بل يحاربونهم)و لكنهم لا يعتدون على الناس بل جزاء سيئه سيئه مثلها عندهم.

(و يبيّن القرآن هنا فضيله التعافى عند ما لا يكون مضرّاً،و يدحض اتهام مرضى القلوب و السلطات لمن ينتصر للحق بأنهم مسئولون عن ويلات الحرب،و يقول:): لا سبيل على من ينتصر بعد ما يظلم،إنما السبيل على الظالم.

ثم يأمر بالصبر و الغفر، و يقول بأنه من عزم الأمور(الذى يستدعى عظيمه شديده)و يسوق الحديث فى عاقبه الظلم، و أولها: الضلاله، و يقول: و من يضل الله فماله من ولى(و الثانيه: العذاب الشديد حيث) يقول الظالمون لَمَّا رَأوا العذاب هل نستطيع أن نعود الى الدنيا(لنعمل صالحا)هنالك تراهم خاشعين من الذل حين يعرضون على النار، و قد خسروا أنفسهم و أهليهم، و ليس لهم(من الذين أضلّوهم) أولياء ينصرونهم(٤٦/٣٨).

ياء: و فى خاتمه السوره يأمرنا القرآن مره أخرى بالمبادره بالاستجابه لله (و التسليم للقياده)من قبل يوم القيامه حيث لا مردّ له من الله و لا ملجأ يومئذ و لا من ينكر.

و يبيّن أنّ مسئوليّه البحث عن الإمام الحق تقع على عاتق الإنسان نفسه، و أنّهم إن أعرضوا فما أرسل الله نبيّه عليهم حفيظا إنّ عليه إلاّ البلاغ.

(ثم يبيّن مدى ضعف البشر و حاجته الى هدى ربّه و القياده الربّانيه، و يقول) إنّنا إذا أذقنا الإنسان رحمه فرح بها(و خرج عن طوره، و أصابه الغرور)و إن تصبهم سيئه بذنوبهم يكفرون بنعمه الله، و إنّ لله ملك السموات و الأرض(و هو الذى يهب أو يمنع حسب حكمته)فيرزق من يشاء ذكورا و من يشاء إناثا أو يهب الذكور و الإناث معا بينما يجعل البعض عقيما. إنّه عليم قدير.

ثم ينهى القرآن السوره بالحديث عن الوحي كما افتتح به. أو ليس الوحي أساس وجود الأمم؟

[سوره الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ٧]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)

اللغه

٥[ينفطرن]: يتشققن.

٧[أم القرى]: مكه.

ص: ٢٧٥

هدى من الآيات:

تفتتح سورة الشورى-التي تنظّم العلاقة بين المسلمين لكي لا يخوضوا في صراعات داخلية عقيمه-بذكر القرآن الذي هو مرجع كلّ خلاف،فهو الوحي الذي يكمل الرسالات التي أوحى بها الله العزيز الحكيم(بعزته عزّه الوحي،و من حكمته أنّه الحق المبين).

إنّهُ المالك لما في السموات و ما في الأرض(فله الحاكميه التي تتجلّى في حاكميه رسالاته و رسله)،و هو العليّ العظيم،(و من آيات مجده،و شواهد عظمتّه)أنّ السموات تكاد تتفطّر من فوقهنّ.أمّا الملائكّه(فهم لا- يشاركونه في الألوهيه بل) يسبّحون بحمده(أن يكون له شريك)و تراهم يستغفرون لمن في الأرض(و بالذات المؤمنين منهم،دون أن يقدرّوا على دفع الضرر عنهم،بلى.استغفارهم ينفع الناس) فالله هو الغفور الرحيم.

أما الذين اتخذوا من دونه أولياء (و يحسبون أنهم ينقذونهم من مسئولية أعمالهم فهم في ضلال مبين إذ) أن الله حفيظ عليهم (فهو يحفظ عليهم أعمالهم) و ما أنت عليهم بوكيل (فهم وحدهم يتحملون مسئولية أعمالهم و ما عليك سوى إبلاغهم الرسالة و إنذارهم بها).

و هكذا أوحى الله إليك القرآن العربى لإنذار أمّ القرى و من حولها (و من ثم العرب ثم العالمين) إنذارهم جميعا بيوم الجمع حيث الخلائق كلهم قائمون عند ربهم للحساب لا ريب فيه، و هنالك ينقسم الناس فريقين: أصحاب الجنة، و أصحاب النار. كذلك بين القرآن فى فاتحه سورة الشورى عظمه الوحي و مقام الرسالة، و تبعا لها مقام من يبلغها و يجسدها و يحكم باسمها لتكون الرسالة محور المجتمع الذى إليه يردون خلافاتهم و منه ينطلقون نحو تطعاتهم.

بينات من الآيات:

[٢-١] حم* عسق راجع تفسير الأحرف المقطّعه فى السور السابقه. و ممّا ذكر فيها أنّ الحروف هذه تشير إلى ذات السوره، أو أنّها إشاره إلى أسماء الله الحسنى، أو أنّها تشير الى مفاهيم معيّنه فى السوره و عموما تشير كلمه كذلك الى هذه الأحرف، و كأنّه يقال: هكذا الوحي من خلال هذه الأحرف، و ما تشير إليه من معانى عظيمه.

[٣] كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [□] مهمما اختلفت الأمم الذين تنزل عليهم الرسالات الإلهيه أو تفاوتت سمات

الذين يبلغونها فإنها تشترك في منهجها و أهدافها، كما تلتقى على نقطه مركزيه واحده و هي أنها كلها من عند الله، و ليست من صناعه البشر حتى تتأثر بطبائعه أو ميزات بيئته أو متغيرات حياته.

و الرساله الإسلاميه تأتي ضمن سلسله متكامله من الرسالات، فهي تكمل المسيره المتصاعده للبشريه المستجيبه لربها، و هي كآيته سنّه إلهيه لا بد من التصديق بها حينما تتكرر ضمن إطار محدّد، و هي بالتالي مفروضه على الناس، لأنّ الذي أوحى بها هو الله العزيز المطلق في قوّته مما يجعل وحيه نافذا شاء الناس أم رفضوا ذلك، و الحكيم الذي أتقن الرساله فجعلها مرآه أهداف الحياه و سنن الخليقه.

[٤] و يحدّثنا ربّنا عن نفسه، في إطار تذكّره برسالته. لماذا؟ لأنّ معرفته تعالى هي أساس كلّ معرفه، و تسبق في الأولويه الإيمان بكلّ الحقائق.

و من هذا المنهج يستوحى الإمام على عليه السلام بصيرته حين يقول:

«أولّ الدّين معرفته، و كمال معرفته التصديق به، و كمال التصديق به توحيده، و كمال توحيده الإخلاص له» (١) فمن دون معرفه الله، و هيمنته على كل شيء و إحاطته به، و ملكه للدنيا و الآخرة، لا يستطيع الإنسان أن يؤمن بالوحي الذي هو سنّه إلهيه خارقه للمألوف عند البشر، و ليس تكاملا يبلغه الإنسان بعقليته.

و لقد أشارت الآيه السابقه الى اسمى العزيز الحكيم لربّ العالمين، لأنّ العزّه تعنى القدره الفاعله أو انعكاس القدره على الخلق، و هو يستدعى بعث الرسل ليكونوا مظاهر قدره الله و هيمنته و عزّته و حاكميته، كما قال ربّنا عنهم: **وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**

ص: ٢٧٩

أمرًا الحكمة فهي انعكاس العلم على الفعل، ولأن ربنا حكيم فهو لا يترك الناس سدى، وتتجلى عزة الله في الوحي القرآني الذي يهدينا الى أسباب القوة، كما تتجلى حكمته في مناهجه الرشيدة.

ثم يشير ربنا هنا الى حاكميه الرب في السموات والأرض، مما تستوجب فطريًا حاكميته على الناس بالوحي، فيقول:

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَنْ يَشْكُ فِي رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَهُوَ لَمْ يَعْرِفْ رَبَّهُ حَقًّا، إِذْ أَنَّهُ لَوْ عَرَفَ عَزَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَمَالِكِيَّتَهُ الَّتِي يَهَيِّمُنْ بِهَا عَلَى الْحَيَاءِ لَمَا شَكَّ فِي وَحْيِهِ وَرِسَالَتِهِ، ذَلِكَ أَنَّ خَالِقَ الْكُونِ هُوَ نَفْسَهُ الَّذِي خَلَقَ الْمَنْهَجَ الَّذِي يَهْدِينَا إِلَى تَسْخِيرِهِ فِي صَالِحِنَا.

ولأن السبب في كفر الإنسان بالبعث و بكثير من الحقائق الأخرى التي يهتف بها الوحي، هو عدم إيمانه بقدره الله حيث يشك في عوده رميم العظام بشرا سويًا، يؤكد القرآن صفات الله الحسنی فور حديثه عن الوحي أو البعث أو..أو..، ذلك أننا إذا آمننا بقدره الله و حكمته و علمه فسوف نؤمن بكل ما يصدر عنه و ما يأمر به إيماننا واعيا، و نعمل به بلا تكلف، لأننا آتخذ نعرف عظمته. أو ليس قد أوحى به العظيم، وإن فيه صلاحنا؟ أو ليس قد أنزله ربنا الحكيم و نزداد يقينا بصدق أنبائه، مما يبعث فينا العزيمه و الأمل، و نستعد للدفاع عنه بأموالنا و أنفسنا، لأنه هبط من عند ربنا القدوس؟ و هكذا ينبغي أن نسلك الى معرفه الوحي طريق معرفه الخالق حتى نجعله في مقامه الأسمى، و لا نقيسه بسائر الكلام أبدا، و لا نرضى بأن يتخذ البعض مصدر تشريعاتهم من غيره، أو يتحاكموا الى قانون بشرى ناقص، كلاً.. إن ربنا مليك

السموات و الأرض، و وحيه تجلّ لحاكميته التامه علينا، و أىّ تنكّب عن ذلك شقاق و ضلال.

وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ما معنى العلو؟ و ما معنى العظمه؟ العلى المرتفع فى المكان، فهل الله موجود فى أعلى قمه فى الكون؟ كلا.. تعالى ربنا عن الحلول فى مكان، و هو شاهد حاضر وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (١)، و العظيم فى اللغه مشتقه من العظم، و صاحب العظم الغليظ يسمّى عظيماً، فهل لله عظم سبحانه و تعالى؟! عند تفسير هذه الألفاظ القرآنيه، و هكذا سائر أسماء الله يجب أن نأخذ الغايات و نترك المبادئ، ذلك أنّ لكل لفظه مبدأ يكسها مدلولاً حسيّاً مادياً، و غايه تعطيهها مدلولاً معنوياً و قدسيّاً بالنسبه الى الله، فإذا كانت كلمه العلى تدل على علو المكان حسيّاً، فهو يشير الى السيطره و التمكن، و ربنا على بهذا المعنى، كما أنّه عظيم بمعنى القوه و الشده و الهيبه. و إنّما نستخدم هذه الألفاظ عند الحديث عن الله لسببين:

الأول: عدم وجود ألفاظ بديله تدلنا على تلك الغايات، و حيث يريد القرآن تقريب تلك المعانى المطلقه لأذهاننا المحدوده التى عجزت حتى عن الإحاطه بالخلق استخدم هذه الألفاظ.

الثانى: لكى لا ننبهر بمخلوق حاز شيئاً من القوه أو الهيبه أو.. أو.. فنعبده من دون الله، فإذا بنا نخضع لفلان لأنّه صاحب ثروه أو قوه أو جمال أو هيبه، بل

ص: ٢٨١

نتذكر صاحب الملك و العظمه و..و..الحقيقى،و هو الله عزّ و جل الذى خلقه من بعد العدم فنسلم له أكثر فأكثر،و بتعبير آخر لا بد أن نطلق فى تقييمنا للحياه من الإيمان بالله،لأن كل ما فيها مخلوق له سبحانه،و إذا اشتمل على شىء من الحسن فهو قيس صغير من أسمائه الحسنى.

[٥] تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ربما يتصوّر البشر أنّ أقوى و أكبر شىء فى الكون هو السموات بعلوّها و قصور علمه عنها،حتى أنّ علماء الفلك كلما أجهدوا أنفسهم فى اختراع أنواع المناظر ذات القوه الهائله اكتشفوا المزيد من الكواكب و المجرات حتى انتهى بعضهم الى النظرية القائله بتوسّع الكون المستمر..و القرآن هنا يهديننا الى أنّ هذه السماء التى هى أعظم شىء فى نظرنا تكاد تتفطر من خشيه الله.

و مع أنّ السموات جمع مؤنث لغير العاقل،و الذى يناسبها هو كلمه «تتفطر»، نجد الآيه هنا تعبّر عنها كما لو كانت من ذوى العقول:«يتفطرن»ذلك للدلاله على أنّها فى مقام العبوديه لله و الخضوع له شأنها شأن سائر العقلاء،فهى تخشاه.

و كيف لا تتفطر السموات إذا تجلّى الربّ لها أو اخترقها وحي الله،و هى مشفقه من الساعه،منتظره لأمر الله لطويها كطىّ السجّل للكتب،و لا تزال زجرات ملائكه الله تلاحق الأجرام السابحه فيها ألاّ تحيد عن أمر ربّها قيد شعره.

أعرفتم ماذا يعنى وحي الله،و ما هى عظمه رسالات الله،و أىّ مقام كريم ينبغى أن نجعلها فيه؟ سبحانهك اللهم افتق عقولنا بنورك حتى نعرف قدر وحيك،و لا نخسر الدنيا و الآخره بالإعراض عنه أو الاستهانه بأحكامه..

وقال المفسرون: إنَّ تَفَطَّرَ السَّمَاوَاتِ بِسَبَبِ هَيْبِطِ الْوَحْيِ عِبْرَهَا، كَمَا قَالَ رَبَّنَا: لَوْ أَنْزَلْنَا لِهَذَا الْقُرْآنِ عَلَيَّ جَبَلًا لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بِسَبَبِ صُعُودِ أَنْبَاءِ شَرِكِ النَّاسِ مِنْ خِلَالِهَا، كَمَا قَالَ رَبَّنَا:

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَ لَدًّا .

و يبدو لى أَنَّ الْأَهَمَّ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ عَظَمَةُ اللَّهِ وَ خَشْيَةُ عِقَابِهِ، فَهِيَ الَّتِي تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهَا، وَ تَسْبِحُ بِحَمْدِهِ وَ تَعْبُدُهُ، وَ إِنْ كُنَّا لَا نَرَى ذَلِكَ أَوْ نَسْمَعُهُ.

وَ الْمَلَائِكَةُ وَ هُمُ الْقَوِيُّ الْعَاقِلَةُ الَّتِي تَشْرَفُ عَلَى جَمِيعِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَةِ وَ الْأَنْظُمَةِ وَ السَّنَنِ الْكُونِيَةِ تَرَاهُمْ يَخْشَعُونَ أَمَامَ جِبْرُوتِ اللَّهِ وَ عَزَّتِهِ، وَ يَقْدَسُونَهُ وَ يَنْزَهُونَهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَ يَتَمُّ التَّسْبِيحُ بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنْ نِعْمَةِ الْهُدَايَةِ وَ مِنَ التَّوْفِيقِ لِلتَّسْبِيحِ، وَ لَعَلَّ هَذَا أَحَدُ مَعَانِي «بِحَمْدِهِ» فَإِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِذَاتِهِ، وَ كَمَالُ مَعْرِفَتِهِ تَنْزِيهِهِ عَنِ الشَّرِيكِ وَ الشَّبِيهِ، وَ هُوَ مَعْنَى التَّسْبِيحِ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ الْعَبْدُ إِلَّا بِحَمْدِ اللَّهِ، أَيْ بِمَا يُوجِبُ الْحَمْدَ مِنْ نِعْمِ الرَّبِّ، وَ تَوْفِيقِهِ، وَ يُعْطَى هَذَا التَّرَكِيبُ «بِحَمْدِهِ» مَعْنَى الْمَقَارَنَةِ أَيْضًا، لِأَنَّ رَبَّنَا تَعَالَى هُوَ كَمَا

جاء فى الدعاء :

«يا من هو فى شرفه عزيز، يا من هو فى عزه عظيم، يا من هو فى عظمته مجيد، يا من هو فى مجده حميد» (١) فهو فى عين علو مقامه و قدسه و مجده و غناه حميد له الحمد كله و المحامد جميعا، لأنه تعالى شأنه لم يترك الخلق و شأنهم بل تعهدهم بفواضل نعمائه و سوابغ آلائه،

ص: ٢٨٣

فكان له الحمد كما كان له المجد.

يَسْتَبْخُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ هَذِهِ عِلَاقَتُهُمْ بِاللَّهِ، أَمَّا عِلَاقَتُهُمْ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ فَهِيَ الْاسْتِغْفَارُ لَهُمْ عِنْدَ الرَّبِّ، حَيْثُ تَرَى الْمَلَائِكَةَ أَنَّ
سُكَّانَ الْأَرْضِ لَا يَقْدِرُونَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ بِمَا يَعْصُونَ وَيَذْنِبُونَ.

وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِيْمَانًا مِنْهُمْ بِسَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ.

□ □
أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ و لو لم يكن كذلك لما ترك على وجه الأرض من دابه بما عصوا الله، و لعل الآيه تبين حقيقه هامه
هى أن الله هو الذى يغفر و يرحم من يشاء و متى أراد، و خطأ الاعتقاد بألوهية الملائكة أو أنها أنصاف آلهه، بينما لا يعدو دورها
الاستغفار للمؤمنين عند ربهم الذى يقرر قبول توبه أولئك و شفاعه هؤلاء أو لا- يقبل حسب مشيئته التى لا يسأل عنها و هم
يسألون.

[٦] و عجيب أمر البشر. إنهم لا يستفيدون من واسع رحمة الله، بل يتخذون الشركاء من دونه، و يزدادون بعدا عنه كلما توالى نعمه
عليهم! و ربنا يتوعد هؤلاء بأنه يكتب كل ما عمله أيديهم و جوارحهم ليعاقبهم عليه عاجلا أو آجلا.

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَرْزُقُونَهُمْ، وَ يَمْنَعُونَ عَنْهُمْ الْأَخْطَارَ، وَ يَخْطِئُونَ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَرْعَاهُمْ
وَ يَحْفَظُهُمْ.

اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ يَحْفَظُهُمْ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي تَشْمَلُ الْعَاصِيَ وَالْمَطِيعَ، وَيَحْفَظُ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ، وَهُمْ وَحْدَهُمْ يَتَحَمَّلُونَ مَسْئُولِيهِ أَعْمَالَهُمْ.

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ فَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ.

[٧] إِنَّمَا تَتَلَخَّصُ مَسْئُولِيهِ الرَّسُولِ وَكُلِّ مَصْلَحٍ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ لِلنَّاسِ بِإِيصَالِ صَوْتِ الْوَحْيِ إِلَى أَكْبَرِ عَدَدٍ مِمَّنْ مِنْهُمْ.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَرَأْفَتِهِ أَنْ يَبْعَثَ لِلنَّاسِ نَذِيرًا بِالْوَحْيِ مِنْ أَجْلِ هِدَايَتِهِمْ لِلْحَقِّ.

وَنَقَفَ قَلِيلًا عِنْدَ لَفْظِهِ «عَرَبِيًّا» لِتَسْأَلِ: لِمَاذَا يُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ عَلَى عَرَبِيَّتِهِ؟ وَالْجَوَابُ: إِنَّمَا يُؤَكِّدُ اللَّهُ عَلَى عَرَبِيَّةِ الْقُرْآنِ لِتَقْيِيمِ الْحُجَّةِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ حِينَ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ بَيِّنٌ أَنَّ كُفْرَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَغْمُوضًا فِي الْوَحْيِ فَهُوَ بَلْغَتُهُمْ. وَتَعْبِيرُ «عَرَبِيًّا» لَا يَدُلُّ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ وَحَسَبِ بَلِّ عَلَى وَضُوحِهِ أَيْضًا، كَمَا تَدُلُّ كَلِمَةُ أَعْجَمِي فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى الْغَمُوضِ.

ثَانِيًا: لِأَنَّ اللُّغَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَّسِعَ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا هِيَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، بِعَمْقِهَا وَمَرُونَتِهَا، وَمِنْ هُنَا يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ السَّبِيلَ الْأَفْضَلَ

لايصال معانى القرآن لغير العرب ليس ترجمه القرآن، لأنها تضيق بمعانيها، وإنما تعليمهم اللغة العربية.

لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۗ وَإِنَّمَا يَخْتَارُ اللَّهُ عِوَاصِمَ الْبِلْدَانِ مُحَلًّا ۖ لِيُبَلِّغَ الرِّسَالَةَ، لأنها من الناحية الإعلامية أكثر و أشمل تأثيراً، حيث تعتبر المركز لسائر الناس، فأى حدث أو حديث يقع فيها يكون خبره أكثر شياعاً مما لو وقع في غيرها، ثم إنها تحتل مركزاً سياسياً و اجتماعياً هاماً بين القرى الأخرى، ففتح العاصمة يؤدى فى الأغلب الى فتح سائر القرى و المواقع الأخرى، بالذات إذا كانت كمكّه فى عهد الرسول صلى الله عليه و آله مركزاً لتجمّع القوى الدينيه و السياسيه و العسكريه و الاقتصاديه، التى تسيطر عليها آنذاك قريش، و تتحكّم من خلالها فى شبه الجزيره.

و تدل الآيه على أنّ الرساله الإلهيه كانت ذات أمواج متلاحقه، فقد افتتحت بأمر الرسول بالقراءه: **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**، ثم أمرته بإنذار الأقربين:

وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، و توسّعت الى قومه -صلى الله عليه و آله- بقوله سبحانه: **وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ توصلت حتى شملت العالمين فقال ربنا سبحانه: **بِأَرْكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَيَّ عَبْدِهِ لِيُكَونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**.**

و مع أنّ الرساله كانت منذ البدء عالميه إلاّ- أنّها كانت واقعيه أيضاً تسعى نحو العالم عبر موجات متلاحقه بين الناس، الأقرب فالأقرب، و احقّ الناس بها و بحمل مسؤولياتها الرسول و أهل بيته الذين نزلت فى بيوتهم.

وَ تُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ فى الأثناء لا بد للرسالي أن يستوعب الحياه بواقعياتها، فلا ينتظر من الناس أن

يؤمنوا جمعهم برسالته، فإذا ما كفروا بزع نفسه، و شكك في جهوده و رسالته، فذلك من طبيعه البشر، إنهم بالتالى ينقسمون الى مؤمنين و كافرين.

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ هُم الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالرَّسَالِ، وَ يَعْمَلُونَ بِمُضَامِينَهَا.

وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ وَ هُم الْكَافِرُونَ وَ الْعَاصُونَ.

و فى هذه الجملة « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » إشاره الى الخلاف البشرى الذى يقسمهم الى خطين: خط الحق، و خط الباطل.. و سوف تبين الآيات القادمه هذه النقطه، و تميزها عن الاختلاف فى الرؤى و وجهات النظر بين أهل الحق أنفسهم، و الذى يجب ألا يبلغ حدّ الصراع بينهم.

ص: ٢٨٧

إشاره

وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
 أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي
 عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطْرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ
 كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ
 لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ
 كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)

اللغه

١١ [يذروكم]: ذرء بمعنى أوجد أى يخلقكم أنتم و الأنعام «فيه» أى فى هذا الجعل، فإن امتداد نسل الإنسان و الحيوان إنما هو
 بجعل الأزواج، و لذا ينقطع من لا زوج له.

هدى من الآيات:

ما هي علّة اختلاف الناس؟ وكيف ينبغي أن نعالجه؟ و من هو الوليّ حقًا يردّ إليه ما اختلف الناس فيه؟ هذه محاور الدرس من هذه السوره التي تعالج الخلافات الاجتماعيه.

كان من الممكن أن يخلق الله البشر بصوره واحده لا اختلاف بينهم، و أن يجعلهم كلّهم من أصحاب الجنه، و لكنّه تعالى ترك الإنسان يختار مصيره بإرادته بعد أن أوضح له سبيل الغي، و هداه الى سبيل الرشاد.

و هكذا يؤكّد القرآن مبدأ الحريه التكوينيّه التي جعلها الله للبشر، و التي صبغت حياتهم بصبغه الصراع الأبدى بين الحق و الباطل.

فبينما يتبع فريق منهم ولايه الله، يتبع الفريق الآخر الظالم لنفسه ولايه الشركاء المزعومين، فالسبب الرئيسي لضلاله البشر و ما يثير بينهم الخلاف من

الحروب التي تنتهي الى الدمار و التخلف هو تركهم ولايه الله،و تشبثهم بالأولياء من دونه.

أمّا الخلافات الخارجة عن إطار صراع الحق و الباطل -كالخلاف بين أهل الحق أنفسهم- فهي غير مشروعة، إذ لا بد من حلّها بالعودة الى قيم الرساله و من يمثّل ولايه الله في الأرض، و من الناس من يدعى الإيمان و لكنّه يتولّى غير الله، و إنّما آيه إيمان المرء أن يردّ ما تنازع فيه الى الله (و الى رسالته و رسله) ثم يتحدّى الضغوط، و يتوكّل على الله، و يتصرّع إليه (و يتعوذ بحوله و قوته من شياطين الإنس و الجن الذين ينزغونه في الاتجاه الخاطيء).

(و ولايه الله في المجتمع تجلّ لولايته في الكائنات) فهو الذي فطر السموات و الأرض، و خلق البشر أزواجا و كذلك الأنعام بهدف تكثير الخلق و انتشارهم، و هو المحيط بهم علما! و بيده مفاتيح الرزق، فيبسط لمن يشاء، و يقدر على من يشاء (إنّما بحكمته البالغه، لأنّه) بكلّ شيء عليم.

بينات من الآيات:

[٨]الاختلاف بين أهل الحق و أهل الباطل جزء من سنه الله في الحياه، ليس لأنّه تعالى يريد أن يكون بعضهم من أصحاب النار و البعض الآخر من أصحاب الجنة، بل لأنّه أعطاهم حريه الإختيار، و مقتضى هذه الحريه أن يتبع البشر أحد الخيارين.

وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ هَذَا لَا يَنْفِقُ مَعَ طَبِيعَةِ الْحَيَاةِ، وَ هَدَفَ الْخَلْقِ.

وَ لَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ

و هم المؤمنون الذين يأخذون بأسباب الهدايه فيوققهم الله لبلوغها، و الآيه تحذّرنا من الاغترار بإيماننا، و ذلك بالتأكيد على كونه من عند الله و بتوفيقه.

كما تبين لنا الآيه بأنّ الآخر الذي يختار طريق النار، إنّما يدخلها بإرادته، و بإيكال الله له الى نفسه حيث يمنع عنه توفيقه، فلا يحفظه من نوازع الشيطان، و لا من ضغوط الحياه، كما هو شأنه مع المؤمنين فإذا به ينقلب على عقبيه.

و هذا الإنسان قبل اختياره لطريق السعير كأى بشر فيه الخير و الشر، و لكنه بهذا الإختيار الخاسر يسلب منه عون الله و توفيقه فيتمخض في الشر، و لهذا ترى أولياء الله المخلصين يلحون على الله بأن لا يكلهم الى أنفسهم، و لا يقطع عنهم توفيقاته.

يقول ابن أبى يعفور: سمعت أبا عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام يقول و هو رافع يده الى السماء: «رب لا تكنى الى نفسى طرفه عين أبدا» لا أقلّ و لا أكثر، فما كان بأسرع من أن تحدر الدموع من جوانب لحيته، ثم أقبل علىّ فقال: «يا ابن أبى يعفور! إنّ يونس ابن متى و كله الله عزّ و جل الى نفسه أقلّ من طرفه عين فأحدث ذلك الظن» قلت: فبلغ به كفرا أصلحك الله؟ قال: لا و لكنّ الموت على تلك الحال هلاك (١) و الظالمون ما لهم من ولىّ يشفع لهم، و يخلصهم من العذاب..

و لا نصير يعينهم، و لعلّ فى هذا المقطع من الآيه إشاره الى حقيقه هامه: أنّ الظالم

ص: ٢٩٢

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ج (١٤) ص (٣٨٧).

لا يضّرّ نفسه فقط عند ما يتخذ من دون الله أولياء، و يتبع الجبابره، بل و يظلم الآخرين أيضا، ذلك لأنه باتباعه الجبار (بل بمحض السكوت عنه) يساهم في سيطرته على الآخرين.

و لعلّ الآيه تهدي أيضا- عند ما استخدم كلمه الظالمين- ألا عداله في غير ولايه الله، و ألا نجاه من الظلم إلا بالعوده إليها، فما للظالمين من ولى و لا نصير..

فمن رضى بحكومته الظالمين اکتوى بنارهم، و لا يستجاب دعاؤه في الخلاص منها.

و بالرغم من أنّ لفظه الظالم قد يتسع مدلولها ليشمل كلّ منحرف إلا أنّ انتخابها متناسب و السياق الذى يحدثنا عن الولايه، و حسب تعبيرنا القياده و ما تتبعه من فضّ الصراعات إمّا بعداله أو بظلم.

[٩] بلى. إنّ الكافرين و المشركين اتخذوا أولياء من دون الله، و لم يدركوا بأنّه وحده الولي الحقيقى للإنسان، و صاحب القدره المطلقه.

□
أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ لَأَنَّ إِلَيْهِ مَصِيرُنَا، وَ هُوَ الْقَاهِرُ عَلَيْنَا.

وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَمَا الْأَوْلِيَاءُ وَ الْأَنْصَارُ الْمَزْعُومُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَرِيدُهُ اللَّهُ لَهُمْ، فَهُمْ مَحْدُودُونَ، وَ الْأَوْلَى بِالْعَاقِلِ أَنْ يَنْتَمِيَ إِلَى صَاحِبِ الْقَدْرِ الْمَطْلُوقِ، فَعِنْدَهُ تَحَقُّقُ طُمُوحَاتِهِ، وَ يَصِلُ إِلَى أَهْدَافِهِ.

[١٠] و يبين ربنا معنى الانتماء الحقيقى لولايه الله، بأنه ليس مجرد الادعاء، و التمنى في القلب، و حتى طاعه الله في الأمور الاعتياديه التى لا تكلف الإنسان

جهدا و لا مصلحه و لا تنازلا، إنما التسليم لهذه الولاية في كل شأن، وبالذات عند الصراع، حيث يتشبث الواحد بفكرته و موقفه، و تثار فيه ذاتياته و عصيَّاته.

وَ مَا اِخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ اَنْى كَانَ هَذَا الشىء، و فى اى جانب من جوانب الحياه..

فَحُكْمُهُ اِلَى اللّهِ يَسْتَوْحى من كتاب اللّهِ، و من اودع قلبه علمه من أئمه الهدى-عليهم السلام- و أتباعهم الفقهاء، العلماء باللّهِ الأمانة على حلاله و حرامه.

ثم يقول القرآن عن لسان الرسول و كل مؤمن يسلم لآياته:

ذَلِكُمْ اللّهُ رَبّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ اِلَيْهِ اُنِيبُ و هذا تأكيد لانتمائه الى ولايه اللّهِ فى مقابل اتخاذ أولئك الأولياء من دونه، إذن فهو على عكسهم يستجيب لحكم اللّهِ، و نتساءل: لماذا يؤكّد القرآن ضروره التوكّل على الربّ هنا؟ و الجواب: لأنّ الكثير من الناس يزعمون بأنهم حينما يتنازلون للآخرين عند الاختلاف استجابته لحكم اللّهِ و أوليائه، فإنهم يعرضون أنفسهم للمخاطر، لأن الطرف الآخر عندها سوف يتصرّف من موقع صاحب الحق، و يستغل انتهاء الخلاف فى صالحه لضربهم. إنّ هذا الشعور من وساوس الشيطان الذى يريد من خلالها تضخيم الاختلافات الاجتماعيه، و تفتيت الأمة الواحده، و كم من مظلوم أصبح أكثر جورا من ظالمه بسبب هذا الشعور الذى يثير فى الإنسان ذاتياته السلبيه!

ص: ٢٩٤

و لكي يقاوم الإنسان هذا الضغط يحتاج الى قوه نفسيه كبيره حتى لا يخشى من المستقبل بتطبيق الحق، و هذه القوه يستمدّها المؤمن من التوكّل على الله و العوده إليه.

ثم إنّ التسليم لولايه الله يقتضى مواجهه الحكومات الظالمه، و هى بدورها بحاجة الى استقامه عبر التوكّل على الله.

[١١] و يعالج القرآن الاختلاف من زاويه أخرى حينما يذكّرنا بأنّه من طبيعه الحياه، التى تأبى اللون الواحد، الأمر الذى يجعل الإنسان غير قادر على صبغها كلّها لمزاجه و طبيعته الخاصه، و لكنّه عبثا يسعى لبلوغ هذه الغايه، فترى البعض يريد التحدّث لكلّ الناس بلغته القوميّه، أو أن يقلّدوا عاداته، فإذا لم يستجيبوا له أبغضهم، فالرومان صاروا يسمّون غيرهم بالبرابره أى المتوحّشين، و اليهود اعتبروا أنفسهم الشعب القارئ بينما اعتبروا الآخرين أمّيين لا يفقهون شيئاً، أمّا مدّعى الحضاره الحديثه فإنّهم يعتقدون بوحشيه الشعوب غير الآريّه.

هذه من طبيعه الإنسان فهو يريد العالم كلّه لونا واحدا هو لون شخصيته و تطلّعاته، و القرآن يؤكّد هنا الاختلاف الطبيعى فى الحياه، و يذكّر الإنسان بعجزه عن رفع أقرب الاختلافات إليه، و هو اختلافه مع زوجته.

و لكنّ القرآن الكريم يقرّر مبدأ الاختلاف بين حقائق الخلق، و علينا الاعتراف به، و التعرّف على حكمه الله فيه، و السعى وراء تلك الحكمه، و حكمه الاختلاف التكاملى، و ليس الصراع، فلقد جعل الله البشر شعوبا و قبائل بهدف التعارف (و ليس التدابر و التباغض)، و خلق الزوجين الذكر و الأنثى ليتكاملا، و لعلّ هذا أبرز أمثله الاختلافات الفطريّه.

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا

و هذا فى صالح الإنسان، و بيان القرآن لانشطار الأنثى من نفس الذكر، جاء لضرب الأفكار الجاهليه التى تزعم بأن الأنثى ذات روح حيوانيه، فبهذا الاختلاف يكون التناسل و التناسل، و لكن لو تحوّل هذا الاختلاف الى خلاف بين الطرفين، و انتهى بالتالى الى الطلاق و العداة. أ فلا- تنقرض البشريه من على وجه الأرض؟! بلى. و هكذا لو اختلفت القبائل و الشعوب، و سعت لفرض عاداتها و طبائعها على الآخريين، لأنّ الله خلق كلّ مجموعته بشريه لتحقق هدفا خاصا فى الحياه، أمّا لو تصارع الجميع لفرض شخصيتهم على بعضهم فسوف ينتفى التعارف و التعاون و التكامل مما يجعل الحياه جحيما لا تطاق.

يَذَرُّكُمْ فِيهِ أَى يجعل تكاثركم و انتشاركم بسبب هذا الاختلاف، و لعلّ من الحكم الأخرى للاختلاف إشعار الإنسان بعجزه الذى تدل عليه حاجته للآخرين، و التى هى بدورها تدل على حاجته الى الله، لأنّه الصمد الذى لا كفوله و لا شريك و لا شبيه.

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ و نتساءل: لماذا أضيف كاف التشبيه على «مثل»، فى الوقت الذى كان يكفى أن يقال: ليس مثله شىء؟ هل الكاف هنا زائده كما قال المفسرون؟ أم فى المعنى لطفاً بديعاً! نحن نميل ألاً ننسب الزيادة الى كلام ربّنا. اللهم إلاّ التى نكون للتأكيد، و لا معنى ظاهر للتأكيد هنا، فنعود و نتساءل: إذا ما معنى الكاف؟ التفت بعض المفسرين الى معنى المثل الذى يختلف ظلالة عن كلمه (ند) أو شبه و مساوى و شكل، حيث أنّ ظلالة كلمه المثل توحى بجانب القيم

و الصفات و الأسماء، بينما ظللال الند توحى بالتشابه فى الجوهر، و ظللال (الشبه) توحى بالتماثل فى الكيفيه، أما كلمه (المساوى) فتوحى بالتشابه فى الكميه، و إيهاء (الشكل) هو التماثل فى المساحه. (١)

فإذا قلنا: «ليس كمثل» أى لا يشابه صفاته و أسماءه أحد، فالكاف بمعنى التشبيه، و المثل بمعنى مجمل الصفات و الأسماء، و الله العالم.

وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فلا يزعم أحد أنه ما دام ربنا لا شبيه له و لا كفو فهو بعيد عنا لا يسمع و لا يرى، كلاً.. إنَّ تعاليه لا يتنافى و قربه الى درجه أنه يسمع ما نقول، و يبصر ما نفعل، فهو رفيع الدرجات و هو أقرب إلينا من جبل الوريد.

[١٢] و هو الذى يرزق من يشاء ما يشاء، فيعطى لشعب الطاقات و المعادن، و لآخر العلم و الإراده، فإذا بالناس يختلف بعضهم عن بعض لتعاون البشريه مع بعضها، كما أن ربنا يفتح للبشريه أبواباً متعدده من الرزق، و إذا ما نفذ شيء منه تلطف عليهم بآخر يحل محلّه، فإذا بالآفاق الواسعه تتفتح بقدره الله أمام البشريه لتجدد الطاقات البديله عن النفط الذى بات مهدداً بالانتهاء. و ما يدرينا لعلمهم يهتدون الى تحويل الماء الى طاقه محرّكه كما اهتدوا من قبل الى تفكيكه بقدرته تعالى! لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ فلما ذا يحسد الناس بعضهم، و يسعى كل واحد للتفرد بالنعم، و ربنا العليم ينزل من القدرات على من يشاء من البشر بقدر، حسب حكمته البالغه؟

ص: ٢٩٧

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ و بالتالى فهو يبسط الرزق للناس، و يعلم ما يحتاجون ممّا يقوم حياتهم.

و يختلف الرزق عن الكسب بأنّ الأوّل هو ما يتفضّل به الله على الإنسان، بينما الثانى هو ما يسعى إليه بنفسه، و هو تعالى يهب لكلّ واحد نوعا من الرزق، و على الإنسان أن يسعى (و يكسب) ليحلب رزقه، فالأرض و الأنهار و النشاط و العقل كلّها رزق من الله، أمّا الكسب فهو تسخير هذا الرزق ليتحوّل إلى حقول مزروعه.

و ما يتفاضل به الناس ليس الرزق بل الكسب، لأنّ الله رزقهم بصورة عادله فهو إذا سلب من أحد رزقا أعطاه رزقا آخر يتفضّل به على غيره، فشبّه الجزيره العربيه التى جعلها الرب حازّه رطبه أودع فيها (٨٠٪) من احتياطي النفط فى العالم، بينما جعل استراليا الفاقده للنفط بلايدا زراعيه فإذا بها تغطّى قدرا كبيرا من احتياجات العالم، و هكذا قسّم الموارد الزراعيه و الطبيعيه بين البشر، و عليهم أن يسعوا لتسخيرها لمصلحتهم! [١٣] و لكنّ الناس حوّلوا اختلافاتهم الى خلاف و صراع لا يكتسب شيئا من الشرعيه، لأنّ رسالات الله كلّها واحده، و جاءت لتحلّ مشاكل الناس، و من أهمّها مشكله الخلاف، و ربّنا إنّما بعث الأنبياء لتوحيد البشريه على أساس المبادئ.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى فِي الْأَحَادِيثِ المأثوره بعض التفصيل فى شريعه الله التى نزلت على الرسل، و فى الدين الذى أمرنا بإقامته، و نختار منها حديثا مأثورا

عن السيد عبد العظيم الحسنى أنّه قال :

دخلت على سيدى على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب-عليهم السلام- فلمّا بصر بى قال لى: مرحبا بك يا أبا القاسم أنت ولينا حقًا، قال: فقلت له: يا بن رسول الله إني أريد أن أعرض عليك دينى، فإن كان مرضيًا ثبتّ عليه حتى ألقى الله عزّ وجلّ، فقال:

هاتها يا أبا القاسم، فقلت: إني أقول: إنّ الله تبارك و تعالى واحد ليس كمثله شىء، خارج من الحدّين حدّ الإبطال و حدّ التشبيه، و إنّهُ ليس بجسم و لا- صورهُ و لا عرض و لا جوهر، بل هو مجسّم الأجسام، و مصوّر الصور، و خالق الأعراض و الجواهر، و ربّ كلّ شىء و مالِكهُ، جاعله و محدثه، و إنّ محمدا عبده و رسوله، خاتم النبيين فلا نبى بعده الى يوم القيامة، و أقول: إنّ الإمام و الخليفه و وليّ الأمر بعده أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ثمّ الحسن ثمّ الحسين ثمّ على بن الحسين ثمّ محمّد بن على ثمّ جعفر بن محمد ثمّ موسى بن جعفر ثمّ على بن موسى ثمّ محمد بن على ثمّ أنت يا مولاي، فقال عليه السلام: و من بعدى الحسن ابني، فكيف الناس بالخلف من بعده قال: فقلت: و كيف ذاك يا مولاي؟ قال: لأنّه لا يرى شخصه، و لا يحلّ ذكره باسمه حتى يخرج، فيملا- الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا، قال: فقلت: أقررت، و أقول: إنّ وليّهم وليّ الله، و عدوّهم عدوّ الله، و طاعتهم طاعه الله، و معصيتهم معصيه الله، و أقول: إنّ المعراج حق، و المسائله فى القبر حق، و إنّ الجنة حق، و الميزان حق، و إنّ الساعه آتية لا ريب فيها، إنّ الله يبعث من فى القبور، و أقول: إنّ الفرائض الواجبه بعد الولاية الصلاة و الزكاه و الحجّ و الجهاد و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. فقال علىّ بن محمد-عليهما السلام-: يا أبا القاسم هذا و اللّهم دين الله الذى ارتضاه لعباده، فاثبت عليه ثبتك الله بالقول الثابت فى الحياه الدنيا و فى الآخرة أنّ أقيموا الدّينَ

لأن إقامته بتطبيق أحكامه تماما كفيله بتنظيم حياه الناس و إسعادهم، ثم نهى ربنا عن التفرق في الدين بسبب الأهواء و الشهوات فقال:

وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ لَأَنَّا لَوْ أَقَمْنَا الدِّينَ حَقًّا فَلَن يَكُونَ هُنَاكَ مَجَالٌ لِلتَّفَرُّقِ، فالدين كله واحد و إن اختلفت الرسالات في صياغتها، و هذه من أعظم وصايا الأنبياء للأمم و للبشرية جمعاء.

جاء في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه و آله أنه قال :

قال الله جلّ جلاله: ما آمن بي من فسر برأيه كلامي، و ما عرفني من شبهني بخلقى، و ما على ديني من استعمل القياس في ديني (١) كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ و لو تدبرنا عميقا في هذا المقطع لاكتشفنا مدى علاقته بالمقطع السابق من الآيه، فهو يبين لنا بأن اختلاف الديانات السماويه ناشئ من تسرب ثقافات الشرك المحيطه بها إليها، فجوهر الدين واحد و لكن الرواسب و الأفكار الغريبه التي دخلت إليه هي التي أسست الخلاف بين رساله و أخرى، و هذه القاعده تنطبق حتى على الرساله الواحده، فالقرآن مثلا- واحد و كله حق، و لكن لماذا صار كل فريق من المسلمين يدعى أنه وحده يمثل القرآن؟ لأن بعضهم أضاف اليه إضافات من أفكاره و من الثقافات الغريبه عليه فلم يقم الدين، و لأن هذه الأفكار و الشهوات تختلف من فريق لفريق بل من شخص لآخر دبّ الخلاف بينهم، بل بدى القرآن نفسه مختلفا للناس.

ص: ٣٠٠

ثم إنَّ التحدى الكبير الذى يعيشه المؤمنون فى مواجهتهم لقوى الشرك يدعوهم للوحده بينهم،لكى لا يجد الأعداء ثغره للتسلل الى صفوفهم،و الإفساد بينهم من الداخل.

و فى ظروف التحدى تحتاج الأمه إلى المزيد من الاستقامه على طريق الدين (و إقامة الدين كله دون أن يختلفوا فيه)،و السبب هو أنَّ الشيطان قد يوسوس إليهم بأن يتنازلوا عن بعض بنود الدين لكسب المزيد من الأنصار،بناء على سلم الأولويات أو التدرج فى تطبيق الشريعة،و قد يؤدى ذلك الى الانحراف فى الدين،مثلما حصل عند النصارى فى التاريخ حيث كانت الديانه المسيحيه نقيه طاهره فلما رأى الأبحار قلبه المنتمين إليها صمّموا على الاقتباس من أفكار الفيلسفه القديمه الرائجه يوم ذاك ليؤمن الناس،و من بين ما أدخلوه عليها بعض الأفكار المقتبسه من الفيلسفه المعروفه ب(النيوافلوطينييه)،فصارت الديانه التى عليها كثير من النصارى اليوم مشوبه بها.

و اليوم نجد الناس يضيفون ثقافه قوميه أو الوطنيه أو الاشتراكيه أو الرأسماليه الى الفكر الإسلامى،و ما هى سوى ألوان من الشرك إذا عرفنا جوهرها المتمثل فى التسليم لغير الله.

إذا يجب علينا أن ندعو الى الدين الخالص بلا أى إضافه،فإن استجاب الناس و إلا فواجبنا بذل المزيد من الجهد،و بدل أن ننزل ديننا الى مستوى الناس يجب أن نرفعهم الى مستواه،و ليس علينا بعد الدعوه و التبليغ مسئوليه الهدايه،لأنَّ الهدايه من عند الله.

□
اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ □

من رسله، كالذين سبق ذكرهم من أولى العزم الذين فضّلهم الله على سائر أنبيائه، وهم نوح شيخ المرسلين الذي قدّمه السياق لأنه أوّل نبي عقد عزمات قلبه على إبلاغ رساله التوحيد، بتلك الصعوبات المعروفة و عبر (٩٥٠)عاما، و ذكر بعده نبينا محمد صلى الله عليه وآله لأنه الأَعْظَم من بين أولى العزم، ثم جاء ذكر الأنبياء الثلاثة بالترتيب الزمني إبراهيم ثم موسى ثم عيسى (عليهم السلام).

وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ مِنْ سائر عبادِه.

ص: ٣٠٢

اشاره

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أُسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨)

اللغة

١٨ [يمارون]: يجادلون، من المرء أى الجدل.

ص: ٣٠٤

هدى من الآيات:

انطلاقاً من محور الوحدة يبين لنا هذا الدرس سبب الخلاف بين البشر، وهو ظلم الإنسان للآخرين ممّا يسمّيه القرآن بالبغي، حيث يبدأ بسلب حقوقهم الأمر الذى يجزّ الى تنامى الصراعات، وبالرغم من أنّ كلّ ظالم يغلف بغيه بمختلف التبريرات، بل يصنع لنفسه ثقافه (و ديناً) يزعم أنّه يدافع عنها و يذبّ عن قدسيّتها، إلّا- أنّه كذّاب، لأنّ الاختلاف لا يكون من أجل القيم، فالقيم لا اختلاف فيها، وإنّما الاختلاف نتيجة للبغي و السعى وراء حطام الدنيا.

و عند ما يجد الإنسان الخلافات الاجتماعيه، يكاد ينكر هيمنه الخالق على الخلق، و يظنّ أنّه تعالى فوّض الأمور إليهم، و يتساءل: إذن لماذا لا- يحكم الربّ بين عباده، و يفضّ الخلافات؟ و لماذا لا ينصر أصحاب الحق؟ و ما هي إلاّ وسوسه شيطانيه لفصل الخلق عن هيمنه الله، إذ أنّها تدفع الإنسان

لاختيار وسائله الكفيله بتحقيق مصالحه، و لا يهّمه بعد ذلك لو ترك الدين جانبا، و الآيه الأولى من هذا الدرس تؤكد أنه قد سبقت كلمه تقضى بتأجيل الحسم فى الخلافات، و أنّ ذلك لا يدل على التفويض أو الإهمال، من قبل الله إبل مجرد إعطاء فرصه للابتلاء، و لو لا ذلك لكان يأخذ الظالمين أخذ عزيز مقتدر.

و يعتمد الاختلاف على أرضيه الشك بالقيم الحقيقيه المتمثله فى الكتاب، و لذلك لا تختلف الأمم حين تعتمد الكتاب محورا لوحدها، و مرجعا لخلافاتها و صراعاتها، و لكنّها حينما تفقد الإيمان بالكتاب، و تبحث عن مصالحها على حساب الآخرين، تنامى صراعاتها، لأنّ الضمانه التى تحجز عن دفع الصراعات نحو التطرف هو الإيمان بالقيم و الاعتصام بحبل الله، و إلاّ فما أسرع تأثر البشر بالأحداث الاجتماعيه و السياسيه من حوله، فهو و بسبب نفسه الأمّاره بالسوء يسعى للتطرف فى الردّ على من يخطئ عليه أو يقصّر تجاهه، و فى قوله تعالى: **وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى** إشاره صريحه لهذه الطبيعه فى الإنسان، و إنّما يستطيع أن يتجاوزها باليقين و الاستقامه، فلا تدفعه الأهواء و لا الدعايات الضاله الى المواقف المتطرفه تجاه الآخرين، و هذا أمر صعب أن يقول الإنسان الحق سواء كان معه أو ضده، و هذا ما أمر به الله نبيّه صلى الله عليه و آله أن يعدل بين الناس، لأنّ العدل ينتهى فى الأخير الى صالح الإنسان، ثم إنّ كلّ فرد مسئول أمام الله عن أعماله فى الحياه، فلا داعى إذن لفرض أحد آرائه على أحد، فالكل يتحمّل مسئوليّه عمله، و يتلقّى جزاءه.

ثم يؤكد القرآن بأنّ الله لا يهمل الصراعات الى الأبد، و إن كان سبحانه لا يتدخل فيها بصوره مباشره، فيد الغيب تتدخل الى جانب الحق فى الوقت المناسب لتدحض حجه الباطل، و لكن متى يكون ذلك؟ حينما تهبط الرساله يؤمن بها مجموعه من الناس، و يلتفون حول صاحبها، بينما يخالفهم فريق آخر

و بحجج واهيه،فينصر الله المؤمنين على أعدائهم،و لا- شك أن الرساله وحدها لا تنتصر،إنما تنتصر الرساله التي يلتف حولها الناس و يدافعون عنها.

إن البعض يستعجل فضّ الخلافات،و يريد ذلك في أسرع وقت،و لذلك يبين القرآن هنا فكره سبق أن بينها في أكثر من موقع،و هي عدم استبعاد الساعه،و إنما توقعها في كل حين.

بينات من الآيات:

[١٤]إن العامل الأقوى في اختلاف الناس و تفرقهم ليس هو الجهل بالحق، لأن الحق غالبا ما يكون واضحا بينا،و إنما يختلفون بسبب شهواتهم و أهوائهم التي تقودهم للبغي على بعضهم،فهم المسؤولون عن الخلافات التي بينهم.أو ليس قد جاءهم من الله العلم حتى يقضى عليها؟ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا- مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ و ربنا يمهل الناس في تفرقهم،و لكنه لا يهملهم إذ سبقت منه كلمه أن يعطيهم الفرصه لاختبار إرادتهم،و لو لا- ذلك لكان ينهى الصراعات الى صالح الحق في أسرع وقت،و يهلك أهل الباطل بلا إمهال.

وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَيَّمٍ لَّخِصِيَ بَيْنَهُمْ و من أسباب تفرق الناس أيضا:ابتعادهم عن القيم التي تمثل ضمان الوحده..

وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ فبينما كان الكتاب وسيله للوحده عند الأجيال الملتزمه التي آمنت به و عملت

بآياته، أصبح الشك فيه عاملا خطيرا في التمزق و التفرقه.

و هكذا أوصت الآيه بالعلاج الجذرى للخلافات البشريه التى تنبعث من اتباع الأهواء و الظلم على بعضهم (البغى) ذلك هو روح اليقين فى الكتاب، و الابتعاد عن حاله الشك و التردد فيه، كما أشارت الى سنه التراخى عن اليقين بسبب طول الأمد، حيث يختلف الالتزام بالكتاب بين الجيل الذى هبط فيه الكتاب، و بين الذين أورثوا الكتاب، و الشك المريب هو الشك المتعلق الذى يثير الاضطراب.

[١٥] و حيث قضى الله سبحانه فى كتابه بالحق، يجب على الرسول و على كل مؤمن أن يدعو إليه، و يستقيم على نهجه بالتحصن ضد الأهواء و الصراعات، لأنه لو زاغ المؤمن الى جانب من جوانب الصراع لانتهى دوره فى الهيمنه على الخلافات الاجتماعيه.

فَلذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ إِنَّمَا اتَّبِعِ الْهُدَى الْمَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، بعيدا عن الضغوط و الدعايات.

هنا يأمر القرآن الرسول و من خلاله كل من اتبعه أولا: بالدعوه، و إعلان الكلمه الصادقه (و من ثم إعلان المواجهه مع الكفر).

ثانيا: بالاستقامه، بالصبر على الأذى الذى يلحقه من جزاء الدعوه.

ثالثا: بجعل القرآن منهاجا للعمل.

رابعا: عدم التنازل عن الدعوه تحت ضغوط الآخرين الذين يتبعون أهواءهم، لكى يبقى الدين خالصا لله.

وَقُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ لِأَنَّ الْمِيزَانَ هُوَ الْوَحْيُ، وَكَمَا أَوْحَى اللَّهُ الْكِتَابَ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَدْ أَوْحَى إِلَى مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَإِعْلَانُ الرَّسُولِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِسَائِرِ الرِّسَالَاتِ الْإِلَهِيَّةِ شَاهِدٌ عَلَى أَنَّ دَعْوَتَهُ لَا تَشْوِبُهَا ذَرَّةٌ مِنَ الذَّاتِيَّةِ، إِنَّمَا هِيَ دَعْوَةٌ خَالِصَةٌ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى كِتَابِهِ وَرِسَالَاتِهِ جَمِيعًا، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَحْوَرِ الْإِنْسَانِ هُوَ الْحَقُّ، سِوَاهُ كَانَ مَتَمَثِّلًا فِيمَا عِنْدَهُ أَوْ عِنْدَ الْآخَرِينَ.

وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ عَلَى ضَوْءِ مَنْهَاجِ الْكِتَابِ، لِأَنَّ الْعَدَالَهَ وَحَدَهَا الْكَفِيلَهَ بِرَفْعِ أَنْوَاعِ الْخِلَافَاتِ فِيهِ. أَلَيْسَ الْبَغْيُ جَنْدَرُ كُلِّ خِلَافٍ؟ كَذَلِكَ الْعَدْلُ أَرْضِيهِ الْوَحْدَهَ، وَحِينَ لَا يَكُونُ الْعَدْلُ يَتَهَاوَى عَرْشَ التَّجَمُّعِ عَلَى أَطْرَافِهِ!

يقول الإمام على عليه السلام :

«وَأَنَّ أَفْضَلَ قَرَّةَ عَيْنِ الْوِلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ» (١) اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَ مَا دَمْنَا مَتَسَاوُونَ أَمَامَ اللَّهِ لِأَنَّا خَلَقَهُ وَ هُوَ رَبُّنَا، فَإِنَّا مَتَسَاوُونَ أَمَامَ الْقَانُونِ وَ هُوَ كِتَابُهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَ مِنْ هَذَا الْمَنْطَلِقِ تَرْتَكِزُ الْعَدَالَةُ عَلَى تَحْمَلِ كُلِّ إِنْسَانٍ جِزَاءَ عَمَلِهِ لَا الْآخَرِينَ.

لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ فَكُلُّ وَاحِدٍ يَتَحَمَّلُ تَبِعَهُ عَمَلُهُ، دُونَ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى إِقَائِهَا عَلَى الْآخَرِينَ بِعُذْرٍ أَوْ بآخِرٍ. وَ هَذِهِ الْبَصِيرَةُ ذَاتُ أَثَرٍ عَظِيمٍ فِي إِثَارِهِ وَ تَحْرِيكِ الْفِكْرِ، وَ وَقَفَ حَالَهُ

ص: ٣٠٩

الاسترسال.

□ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ لا جدال و لا خصومه فقد بان الحق و ظهر أمر الله، و لسنا نريد أن نكرهكم على قبول الحق، لأنَّ قبول الحق ينفعكم قبل أن ينفعنا، و رفضه يضركم و لا يضرننا.

و توحى الآية بأنّه لا يمكن للإنسان إخضاع الآخرين بالجدل لأفكاره.

□ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا غدا عند الميزان الحق، و يفصل بين الخلافات.

وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ فيجازى المسىء، و يثيب المحسن.

فعلى المؤمن أن يبلغ رسالته الى الناس دون جبر أو إكراه، فإن قبلوا اهتدوا، و إن رفضوا و كفروا فإنهم جميعا سوف يحضرون يوم القيامة للحساب حيث يقرّر الربّ مصير الجميع.

[١٦] و لكى لا- يتصوّر البعض أنّ ترك الجدال الذى أمر به فى خاتمه الآية السابقه يعنى أن الجميع على حق، بين السياق عاقبه المجادلين بالباطل، ليدحض هذه الفكره الفاسده التى وجد لها أنصار فى التاريخ، حيث زعموا صواب كلّ القضاة الذين يحكمون فى موضوع واحد بفتاوى مختلفه،

و قد فند الإمام على عليه السلام هذه الفكره حيث قال:

«ترد على أحدهم القضيّه فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثمّ ترد

ص: ٣١٠

تلك القضية على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاء بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعا، وإلهم واحدا! ونيبهم واحدا! وكتابهم واحدا! فأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه! أم نهاهم عنه فعصوه؟! « (١) إن للحق والباطل مقاييس ثابتة وواضحة، والله عز وجل ينصر الحق عند ما يحين الأجل المسمى عنده.

□
وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ أَى يُحَاجُّونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي مَنَاجِيهِ وَرِسَالَاتِهِ الْإِلَهِيَّةِ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ بَعْدَ اسْتِجَابَةِ اللَّهِ لَهُ.

□
حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَدْحُضُهَا بِالْمَقَائِيسِ وَ السُّنَنِ الثَّابِتَةِ، وَ بِإِرَادَتِهِ الْمَطْلُوقَةَ مِنْطَقِيًّا وَ عَمَلِيًّا، حَيْثُ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.

□
وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ لَقَدْ تَجَلَّى الْحَقُّ عَلَى يَدِ الرَّسُولِ بِأَظْهَرِ شَوَاهِدِهِ وَ أَسْنَى آيَاتِهِ، وَ لَقَدْ بَادَرُوا أَصْحَابَ الْقُلُوبِ الزَّكِيَّةِ إِلَى اسْتِجَابَةِ الرَّسَالَةِ، وَ اسْتِجَابَةِ اللَّهِ دَعْوَاتِهِ الْخَالِصَةَ بِالنَّصْرِ. أَلَمْ يَعِدْهُمْ بِذَلِكَ حِينَ قَالَ: إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُبَيِّتْ أَقْدَامَكُمْ.

فما بقى عذر لهؤلاء الذين يحاجون في الله، ولا يسلمون أمرهم لرسوله، و حان

ص: ٣١١

ميعادهم، فحجتهم داحضه، ليس فقط لأنها باطله، بل و أيضا لأن الاستجابة للرسالة هيأت أرضيه نصر الله لها.. و سوف تتوالى عليهم الهزائم الفكرية (بدحض حجتهم) و الدنيويه و السياسيه (بأن عليهم الغضب المتمثل فى الفشل) و الأخرويه (بأن لهم العذاب الشديد).

و من هنا نعرف أنه حين يستجيب فريق للرسالة فإنه يقترب ميعاد نصرها من عند الله، و تكون حجه المعاندين داحضه، و سعيهم فى ضلال.

[١٧] و من المقاييس التى يعرف الحق بها القرآن بآياته البينه الواضحه ثم الميزان.

□
اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ جَمَلَهُ الْحَقَائِقُ، ابْتِدَاءً مِنَ التَّذْكَرِ بِاللَّهِ وَ أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى وَ آيَاتِهِ فِي الْأَنْفُسِ وَ الْأَفَاقِ، وَ اسْتِمْرَارًا مَعَ تَبَصُّرِهِ الْإِنْسَانَ بِنَفْسِهِ وَ شِفَاءِ أَدْوَانِهِ، وَ انْتِهَاءِ بِالْأَحْكَامِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ.

وَ الْمِيزَانَ وَ قَدْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا حِينَ هَدَانَا إِلَيْهِ لِنَطْبِقَ الْعَدْلَ بَيْنَنَا.

و قد اختلف المفسرون فى معنى الميزان، فقال البعض: إنه مجمل الأحكام الشرعيه التى جاءت بها الرسالات. أو ليست تفصل بين العباد، و تحدّد حقوق و واجبات كل واحد بالنسبه الى الآخرين، و إن المعنى إن الله أنزل الميزان فى الكتاب، الذى ليس فقط يشتمل على الحق بل و يفصله ضمن موازين أى أنظمه عادله.

و قال أكثر المفسرين: إنه العدل، و لكن لم يذكروا كيف أنزله الله.

و قال البعض: إنه هذا الميزان الذى يقيس به الناس أشياءهم، و لم يحدّد هو الآخر كيف أنزله الله.

و لكن يبدو لى أنّ الميزان-هنا-شئ آخّر أنزله الله الى جانب الكتاب، و يشهد على ذلك أنّه لم يعطف كلمه الميزان إلى الحق بأن يقول: أنزل الكتاب بالحق و بالميزان.

و قد قال ربنا فى سورة الحديد: **وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (١)** و قال سبحانه فى سورة الرحمن: **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٢)** و قال تعالى فى سورة الأعراف: **فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ (٣)** فالميزان-إذا-قيم الكتاب، و أوضح معانيه هذا الذى يتعارف الناس عليه فى قياس سلعهم، و فى تحديد حقوق بعضهم على البعض، و يبقى السؤال: كيف أنزله الله؟ الجواب: إنّ الله أنزل على الإنسان العقل، و ضمّنه مقاييس ثابتة، و علمه

ص: ٣١٣

١- ١) الحديد/ (٢٥).

٢- ٢) الرحمن/ (٧-٨).

٣- ٣) الأعراف/ (٨٥).

كيف يعكس هذه المقاييس العقلية على أجهزه و أدوات و قوانين و تشريعات يقيس بها الأشياء، و أمر في كتابه الناس الى الالتزام بما تعارفوا عليه بعقولهم.

و إنما بعث الرسل ليقظوا العقل من سباته، و يفكّوه من أغلاله، و يفتحوا عن عقول الناس أفعالها، و يرفعوا حجبها.

و حين توافق الكتاب و الميزان، عرف الناس بما لديهم من ميزان إلهي (و هو العقل) صدق الرساله، و علموا بهدايه عقولهم أنّ دعوه الرسل صادقه، لأنها تتناغم و ما يجدونه بنور عقولهم.

و الرسل عليهم السلام و أوصياؤهم الصادقون يمثّلون بحق هذا الميزان في الشؤون الحياتيه، لأنّهم يهدون بالحق، و يسعون الى الخير، و يأمرن بالمعروف، و ينهون عن المنكر، و يخالفون أهواءهم، و يلتزمون بدقه متناهيه بالأحكام التي يأمرن الناس بها، فهم الميزان الصادق بين الحق و الباطل، و هم القضاء العدول بين الناس، و هم القسطاس المستقيم في المعارف الإلهيه.

و من هنا قال بعض المفسرين: إنّ المراد بالميزان النبي محمد صلى الله عليه و آله (١).

و لعلّ التفسير الشائع بين المفسرين يعود الى هذا المعنى حيث قالوا أنّ الميزان هو العدل، إلا أنّهم لم يذكروا كيف يقام العدل. أو ليس بحاكم عادل يأمر الله باتّباعه، و التحاكم إليه، و التسليم لقضائه، كما قال سبحانه: **فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** (٢).

ص: ٣١٤

١- ١) فتح القدير/ج(٤)ص(٥٣١).

٢- ٢) النساء/(٦٥).

كما أنّ ذكر الميزان في سياق سورة الشورى التي تمحورت حول فضّ الخلافات يدلّ على أهمّيّة القيادة العادله في القضاء على الصراعات الاجتماعيه.

و لا تتمّ معرفه الله إلاّ بالعقل،

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الكاظم عليه السلام :-

إن الله جل و عز أكمل للناس الحجج بالعقول، و أفضى إليهم بالبيان، و دلهم على ربوبيته بالأدله (١) كما لا تتمّ معرفه الإمام الصادق عليه السلام الناطق عن الله إلاّ بالعقل أى بتلك الموازين الثابته التي أودعها الله في ضمير كلّ واحد من أبناء البشر.

جاء في الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام :

«نصب الخلق لطاعه الله، و لا نجاه إلاّ بالطاعه، و الطاعه بالعلم، و العلم بالتعلّم، و التعلّم بالعقل يعتقد، و لا علم إلاّ من عالم ربّانى، و معرفه العالم بالعقل» (٢) إنّ الكتاب و الرسول حجه الله الظاهره، و لا يمكن الاهتداء إليها إلاّ بالعقل، الذى هو حجه الله الباطنه، و الى ذلك أشار

الحديث المروى عن الإمام الكاظم عليه السلام :

«إنّ لله على الناس حجتين: حجه ظاهره، و حجه باطنه، فأما الظاهره فالرسل و الأنبياء و الأئمه، و أمّا الباطنه فالعقول» (٣)

ص: ٣١٥

١-١) موسوعه بحار الأنوار/ج(١)ص(١٣٢).

٢-٢) المصدر/ص(١٢٨).

٣-٣) المصدر/ص(١٣٧).

أنى ذهبت و أى شخص سألت فسوف تجد ذات المقاييس العقلية عنده،و التى يؤمن بها جميع البشر،و هى الحجة القائمه بينهم،الصدق و الشجاعه و الوفاء و الإيثار و العدل و العفو و الإحسان إنَّها فضائل لا يختلف فيها الناس..و ذلك هو الميزان الذى أنزله الله للناس ليقوموا بالقسط،و بهذه المقاييس الثابته يختار الناس إمامهم العادل ليطبّق العداله بينهم،ففى حوار مفصّل بين ابن السكّيت (إمام اللغه المعروف)

و بين الإمام الرضا عليه السلام يسأل ابن السكّيت:فما الحجه على الخلق اليوم؟ فقال الرضا عليه السلام:«العقل تعرف به الصادق على الله فتصدقه،و الكاذب على الله فتكذّبه»،فقال ابن السكّيت:هذا هو و الله الجواب (١).

و لكن تبقى مشكله البشر الغفله و عصيان ما تأمر به العقول،و لعلاج هذه الحاله لا بد من إيقاظ العقل بالإنذار..و هكذا ذكّر السياق بالساعه بعد ما بيّن الميزان، لأنّ تذكّر الساعه حيث يفصل الله بين عباده،و حيث أحرّ الله الموازين القسط إليها،يهزّ أعماق البشر.

و أعظم ما فى الساعه إخفاؤها.متى تقوم الساعه؟و متى تقوم قيامه كلّ واحد منّا بالموت الذى لا يفصله عن الساعه شىء؟ألا ترى كيف يتساءل الناس فى يوم البعث:كم لبثتم؟فإذا بهم يقولون:يوما أو بعض يوم،و هم قد لبثوا الى يوم البعث؟! و ما دام يوم البعث خفياً عنا فلا بد من الاجتهاد أبدا.

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ و كفى بالموت الذى يزور البشر فى أيّه لحظه واعظا،و هذا من أهمّ أهداف ستر

ص: ٣١٦

و فى الحديث قال الإمام على عليه السلام :

«ما أنزل الموت حقّ منزلته من عدّ غدا من أجله» (١) [١٨] أو لو تدبّر الإنسان فى الساعه أصلح نفسه، بينما لا تعنى شيئاً بالنسبه للآخر الضّال، بل يزداد بسبب ذكر الآخره ضلالاً، لأنّه لا يعى حقيقه الساعه.

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ فترتعد فرائصهم من خوف هولها، بينما تتعمّق عقيدتهم فى الحق و بصيرتهم فى الحياه بذكرها، والخشيه ميزان العقل

ففى وصفه للمتقين يؤكّد الإمام على عليه السلام على عمق خوفهم من الله إذ يقول:

«و إذ مرّوا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنّوا أنّ زفير جهنّم و شهيقها فى أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم و أكفّهم و ركبهم، و أطراف أقدامهم، يطلبون الى الله تعالى فى فكاك رقابهم» هذا عن بعض حالهم فى الليل.

«و أمّا النهار فحلما علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف برى القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، و ما بالقوم من مرض، و يقول: لقد خولطوا» (٢) هذا هو حال المؤمنين، و هذا هو خوفهم من الساعه، و هو يكفى لنا مقياسا لمعرفه

ص: ٣١٧

١- ١) المصدر/ج (٦) ص (١٣٠).

٢- ٢) نهج/خطبه (١٩٣) ص (٣٠٤).

مدى ضلال الكافرين و المشركين و غيرهم ممن لا يتعظ بذكر القيامه، بل و يتخذ الحياه لعبا و لهوا.

أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ وَ هَذَا بِسَبَبِ شَكِّهِمْ فِي الْقِيَامَةِ وَ الْجَزَاءِ، وَ كُلِّ إِنْسَانٍ يَشْكُ فِي جَزَاءِ أَعْمَالِهِ لَا يَتَحَمَّلُ الْمَسْئُولِيَةَ تَجَاهَهَا، بَلْ وَ يَعِيشُ مَتَاهُونَ فِي حَيَاتِهِ مِمَّا يعمَقُ الضَّلَالَةَ عِنْدَهُ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ فِي الضَّلَالِ لَا يُمْكِنُ مَعَهُ الْإِهْتِدَاءُ إِلَى أَدْنَى مَرَاتِبِ الْحَقِّ.

ص: ٣١٨

اشاره

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاؤْنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)

اللغه

٢٠ [حَرْثُ الْآخِرَةِ]: أى زرعها، فكأن العمل بذر يعطى هناك ثماره.

هدى من الآيات:

خشية الإنسان من أن يفوته رزقه، و بالتالى سعيه من أجل الحصول عليه، و كذلك اتباعه الشرائع البشريه الضالاه، هما من العوامل الأساسية التى تفرق المجتمعات عن الدين الحق، و إذ يبين القرآن خطورتها يعالج مرض النفس ببعث الاطمئنان فيها عبر التأكيد على ضمان الله للرزق، كما أنه يداوى مرض الحرص بالتحذير من أهوال الساعه، و الترغيب فى نعيم الآخره.

بينات من الآيات:

[١٩] لقد تكفل ربنا بالرزق لعباده بما وفر لهم من وسائل العيش فى الحياه، و لو تدبرنا فى رزق البشر لعرفنا لطف ربنا، و حسن تدبيره.

□
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ قَالُوا: اللطيف العالم بخفيايات الأمور و الغيوب، و المراد به هنا: الموصول المنافع

الى العباد من وجه يدق إدراكه، وذلك فى الأرزاق التى قسّمها الله لعباده، و حرف الآفات عنهم، وإيصال السرور و الملاذ إليهم، و تمكينهم بالقدره و الآلات. (١)

و يبدو لى أنّ معنى اللطيف أنّه تعالى يدبّر شؤون خلقه بدقه و يسر و تنوع حكيم الى حدّ قد يسير الإنسان فى تطبيقها بدوافع لا تبدو واضحاً له، كما أشار القرآن الى ذلك بقوله: **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَ مَّا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ (٢)** و الكثير من الناس يخططون لأنفسهم، و لكنهم عند تطبيق ما رسموه يكتشفون عقبات جديده لم يحتسبوا، بينما يأتيهم ما تمّوه سعياً من حيث لم يحتسبوا، مما يدلّ على أنّ ما يدبّره الربّ من شؤونهم أكبر بكثير مما خول إليهم منها.

و هذا من آيات لطف الله فى تدبير الأمر،

و إليه أشار الإمام على عليه السلام :

«عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم، و حلّ العقود، و نقض الهمم» (٣) و من تدبّر حياه الناس وجد الكثير ممن يتمنون مستقبلاً معيناً ينتهون الى غيره، فالذى قدّر أن يصبح مهندساً أضحى عالماً بالدين أو تاجراً، لأنّ الله لم يجعل رزقه إلا فى هذه المهنة أو تلك، فلما ذا يختلف الناس إذن، و يشعلون نار الصراعات بينهم من أجل لقمه العيش التى يقدرها الله؟! **يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ** و ما دام الرزق مضموناً من عند الله فلما ذا اكتساب الموبقات، و ابتداء المذاهب

ص: ٣٢١

١-١) مجمع البيان/ج(٩)ص(٢٧).

٢-٢) لقمان/(٣٤).

٣-٣) نهج/حكمه(٢٥٠)ص(٥١١).

الباطله، والشرك بالله عبر تأييد السلطات الظالمه؟ إن دوافع الشرك كثيره، و لكن من أبرزها طلب الرزق، والحديث المأثور التالي يقص علينا حياه واحد من الذين أشركوا برّبهم طلبا للرزق الحرام، و كانت نهايتهم السوءى، و فيه عبره مؤثره:

قال الإمام الصادق عليه السلام :

« كان رجل فى الزمن الأوّل طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها، و طلبها من حرام فلم يقدر عليها، فأتاه الشيطان فقال له: يا هذا إنك قد طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها، و طلبتها من حرام فلم تقدر عليها، أ فلا أدلك على شىء تكثر به دنياك، و يكثر به تبعك؟ قال: بلى، قال: تبتدع ديناً، و تدعو اليه الناس، ففعل، فاستجاب له الناس، و أطاعوه، و أصاب من الدنيا، ثم فكّر فقال: ما صنعت؟ ابتدعت ديناً، و دعوت الناس! ما أرى لى توبه إلاّ أن آتى من دعوته اليه فأردّه عنه، فجعل يأتى أصحابه الذين أجابوه فيقول لهم: إن الذى دعوتكم إليه باطل، و إنّما ابتدعته، فجعلوا يقولون: كذبت و هو الحق، و لكنك شككت فى دينك فرجعت عنه، فلما رأى ذلك عمد الى سلسله فوتدها و تدا ثم جعلها فى عنقه، و قال: لا أحلّها حتى يتوب الله عزّ و جلّ على، فأوحى الله عزّ و جلّ الى نبيّ من الأنبياء: قل لفلان، و عزّتى لو دعوتنى حتى تنقطع أوصالك ما استجبت لك، حتى تردّ من مات الى ما دعوته اليه فيرجع عنه « (١) و لو أنّ الإنسان اتبع منهاج الرساله لرزقه الله بصوره أو بأخرى، قال الله:

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ . (٢)

ص: ٣٢٢

١- ١) بح/ج (٧٢) ص (٢١٩).

٢- ٢) الطلاق/ (٢-٣).

وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الْعَزِيزُ هُوَ الْمَهِيْمُنْ، وَالسَّلْطَانُ الْمُقْتَدِرُ الَّذِي يَفْرَضُ أَمْرَهُ عَلَى النَّاسِ.

[٢٠] ولكي يهذب القرآن دوافع الكسب عند الإنسان حتى لا يبعثه نحو الشرك بالله و الصراع مع أقرانه، يقارن بين ما يكتسبه الإنسان لدنياه و ما يسعى اليه لآخرته، فيقول:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ حَيْثُ يَبَارِكُ اللَّهُ لَهُ فِي سَعْيِهِ الْآخِرَى، وَ يَضَاعِفُ لَهُ الْجِزَاءَ عِنْدَ الْحِسَابِ، فَإِذَا بَعْمَلَهُ يَتَنَامَى مِنْ حِينَ قِيَامِهِ بِهِ حَتَّى يَجْزَى عَلَيْهِ، أَوْ لَمْ يَقُلْ رَبَّنَا: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. (١)

و لكن الذى يريد الدنيا بسعيه فإنه لا يحصل على كل أمانيه و إنما يحصل على جزء منها، ثم إنه يعدم أى نصيب له فى الآخرة.

وَ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ إِذْنِ فَعَلِيهِ أَنْ يَسْعَى مِنْ أَجْلِ الْآخِرَةِ عِبْرَ الْقُرْآنِ الَّذِي لَيْسَ فَقَطْ يَهْدِي إِلَى الْعِلَاجِ السَّلِيمِ بَلْ وَ أَيْضًا يَتَضَمَّنُ الْعِلَاجَ بِذَاتِهِ، وَ هُنَا يَعَالِجُ حِرْصَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى الدُّنْيَا بِإِصْطِحَالِ فِكْرِ الْإِنْسَانِ بِالْآخِرَةِ مِنْ خِلَالِ التَّذْكَيرِ بِهَا، وَ حَتَّى عَلَى أَنْ لَا يَجْعَلُهَا هَمَّهُ الْأَكْبَرَ فَيَخْتَلِفُ بِسَبَبِهَا مَعَ الْآخِرِينَ، أَوْ يَتَصَوَّرُهَا مَحْوَرِ الْحَيَاةِ الَّذِي

ص: ٣٢٣

١-١) البقره/(٢٦١).

يؤوّل الأمور على ضوئه، كما فعل ماركس حين اعتبر الإقتصاد و الطبقيه أساس الصراع.

إنّه لا- يمكن علاج مشاكل الإنسان السياسيه و الاجتماعيه و غيرها إلا إذا ترفع عن التبعية المطلقه للدنيا و لشهواتها، و لو تساءلنا عن علّه نموّ الرأسماليه فى أى بلد، الذى ينتهى الى تسلّط الأغنياء على الأمم، لوجدناه حبّ المال الذى يجعل الناس عبيدا و أصحاب الثروه آلهه مزيّفه.

و من جهه أخرى يمهد للحكم الطاغوتى، فإذا بمجموعه من الناس يتسلّطون على الناس من خلال سيطرتهم على خيرات الشعوب و مواردها الاقصاديه، الأمر الذى ينتهى الى الفساد السياسى، و لو فكّرنا عميقا فى عوامل الفساد السياسى فى السياسه، لرأينا الطمع و الخوف و الجهل من أبرز هذه العوامل. و لعلّ عامل الطمع الناشئ من حبّ الدنيا فى رأس القائمه، لا فرق فى ذلك بين النظام الرأسمالى و الاشتراكى، فبينما يدير أصحاب الثروه ك(روكفلر) من خلال شركاتهم التى تحتكر الموارد الاقصاديه الأمريكيه بصوره غير مباشره، نجد الحزب فى أى بلد شيوعى يدير السياسه من خلال سيطرته على الموارد الاقصاديه أيضا، و بالتالى السيد الحقيقى هنا و هناك واحد و هو المال، بالرغم من اختلاف طريقه الحصول عليه، ففى النظام الرأسمالى يحتكر أصحاب الثروه (و هم فى الواقع أرباب السلطه الحقيقيه) المال باسم الملكيه الفرديه، بينما نجد فى النظام الشيوعى يحتكر أصحاب السلطه الثروه (و هم فى الواقع الرأسماليون الجدد) باسم الملكيه الجماعيه، و هنا و هناك المال.

و حتى سبب خضوع الشعب واحد و هو حبه للمال، سواء كان هذا المال بيد الدوله أو كان بيد أصحاب الثروه.

فمن أجل تلافى معظم الصراعات البشرية لا بد من معالجه نقطه الضعف الرئيسي عندهم و هي عباده الثروه لكي لا تصبح أداءه السلطه الفاسده، و سببا للحروب التي أفنت لحدّ الآن أضعاف ما أفنته سائر أسباب الوفاة كالمجاعات و الأمراض، و الكوارث الطبيعه، و لو حاولنا التقرب الي هذه الفكره أكثر يجب أن نعرف بأن مصطلح المصالح الأمريكيه، أو المصالح الروسيه أو ما إلى ذلك هو التعبير الواضح عن اللهث وراء الدنيا، أو لم تدفع هذه المصالح الإداره الاميركيه لقتل الملايين في فيتنام و كمبوديا و السلفادور و..و..؟ أو لم تدعوا هذه المصالح الحزب الشيوعى الروسى لقتل الملايين في أفغانستان و غيرها؟! [٢١] ثم هل يكتفى الإنسان بخوض الصراعات، و إفساد البلاد و العباد، و حسب؟ كلاً.. بل يسعى لتبرير تصرفاته و مواقفه من خلال دين يصطنعه لنفسه، و لو درسنا الواقع الثقافى و الإعلامى فى عالم اليوم لانتبهنا الى نتيجته واحده، هي أنّ أكثر الأيديولوجيات و الثقافات منتزعه من الواقع المصلحى للإنسان، فمن أجل حمايه مصالحهم تجد هذه الدوله أو ذلك الحزب يتدعون الأفكار و النظريات المختلفه، فإذا بالصعاليك يؤسسون نظريه الصراع الطبقي، بينما يتدع المترفون إديولوجيه النخبه، و القرآن يستنكر هذا النهج و يعتبره صورته من صور الشرك.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ إِنَّ الشَّرِيعَةَ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ اتِّبَاعُهَا وَ الْخُضُوعُ لَهَا هِيَ الْمَوْحَاهُ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ، أَمَّا الشَّرَائِعُ وَ الْقَوَانِينُ الَّتِي يَتَدَعُهَا الْبَشَرُ وَ لَا يَرْضِيهَا الرَّبُّ فَإِنَّ اتِّبَاعُهَا شَرِكٌ بِهِ عَزَّ وَ جَلَّ، وَ التَّدْبِيرُ الْعَمِيقُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَهْدِينَا إِلَى أَنَّ الَّذِي يَشْرَعُ قَانُونًا مُخَالَفًا لِشَرَعِ اللَّهِ إِنَّمَا يَنْصِبُ نَفْسَهُ إِلَهاً مِنْ دُونِهِ، وَ الَّذِي يَسْمَى فِي الْقُرْآنِ دِينًا لَيْسَ الْقَوَانِينُ الْفِيزِيَائِيَّةُ وَ الْكِيمِيَائِيَّةُ، إِنَّمَا الْقَوَانِينُ السِّيَاسِيَّةُ وَ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَ الْاِقْتِسَادِيَّةُ وَ..و..

التي تحكم الناس، وهذه لا يجوز لأحد أن يسنّ منها شيئاً إلا على ضوء شرع الله، و من خلال رسالته.

و بعد أن يهدّد القرآن- في آيه سبقت- الذين يثرون الصراعات السلبية، أو يشرّعون القوانين، يتوعّدهم ربنا في هذه الآية بعذابه الأليم، محذرا لهم من أنّ تأجيل العذاب ليس دليلا على الإهمال، إنّما لأنه وعدهم بإعطائهم الفرصة لبيان طبيعتهم، و التي لولاها لأخذهم بالعذاب فور المعصية.

وَ لَوْ لَا كَلِمَةُ الْفُضْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ و تكاد تتميز هذه الكلمات إنذارا، فلو لا عهد الله على نفسه بإعطاء الفرصة لهم لكفت هذه الجريمة (ابتداع نظريه في غير إطار الشريعة) سببا للقضاء عليهم قضاء تاما، و لكنّ تلك الكلمه و ذلك العهد يؤجّل العذاب العظيم و لا يرفعه أبدا، و إنّ الشرك ظلم بذاته و هو ينتهي الى الظلم أيضا، إذ لا يمكن للنظام الشركي أن يكون عادلا أبدا، و نستوحى هذه البصيره من تبديل كلمه المشركين بالظالمين.

[٢٢] و في يوم القيامة حيث تنصب الموازين الحق للجزاء يخاف الظالمون من أعمالهم السيئه التي اجترحوها في الدنيا، فهي حينئذ تصير ألوانا من العذاب، و لكن هل يمنع هذا الخوف عنهم شيئا؟ كلا.. بلى. لو أنّهم خافوا من ارتكاب المعاصي في الدنيا لنفعهم خوفهم لأنّه حينذاك يصير سببا للتقوى، أمّا يوم القيامة فلا..

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ أَى ينزل عليهم سواء أشفقوا أم لم يشفقوا.

و يأخذنا القرآن في المقابل الى منظر مناقض آخر، هو منظر المؤمنين الذين تحوّل إيمانهم و عملهم الصالح الى جنه و رضوان من الله.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ وَ أَى رياض هذه التى يرزقها المؤمنون؟! ادعنا هنا نقرأ شيئاً من

كلام أمير المؤمنين عنها..

يقول عليه السلام :

«فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها و لذاتها، و زخارف مناظرها، و لذهلت بالفكر فى اصطفاق أشجار، غيبت عروقها فى كثبان المسك على سواحل أنهارها، و فى تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب فى عساليجها و أفنانها، و طلوع تلك الثمار مختلفه فى غلف أكمامها، تجنى من غير تكلف فتأتى على منيه مجتنيها، و يطاف على نزالها فى أفنيه قصورها بالأعسال المصفقه، و الخمور المروقه، قوم لم تزل الكرامه تتمادى بهم حتى حلّوا دار القرار، و آمنوا نقله الأسفار، فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول الى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقه، لزهقت نفسك شوقاً إليها، و لتحملت من مجلسى هذا الى مجاوره أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا الله و إياكم ممّن يسعى بقلبه الى منازل الأبرار برحمته» (١)

ص: ٣٢٧

١- ١) نهج / خطبه (١٦٥) ص (٢٣٩).

إشارة

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسَيْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحِ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)

إشاره

إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ

هدى من الآيات:

فى إطار معالجه القرآن الحكيم للاختلاف معالجه شامله، و بعد أن يردع من اتباع الشركاء الذين لم يأذن الله لهم بالتشريع، يأتى السياق ليين:

أولاً: جزاء الصالحين الذين يجتنبون الطاغوت.

ثانياً: القيادة الشرعيه البديله المتمثله فى أقرب الناس الى الرسول نهجا و نسيا، و يبشّر الربّ الذين يقترفون حبّ آل الرسول بزياده فى الأجر، و أن يشملهم بمغفرته الواسعه و شكره الجزيل.

ثم يبين القرآن الحكيم لنا بأنّ طاعه الله و موده القربى سوف تجلب للإنسان حسنات فى الدنيا و الآخره، و بعد أن يحدّثنا ربنا عن مقاله افتراها الكفّار فى شأن الرسول يبين بأنّ هذا الكلام فاشل و باطل، و السبب أنّ الله سبحانه و تعالى هو لذى بعث بالرساله، و لو شاء لمحى هذه الآيه و جاء بآيه أخرى، فالله هو صاحب

لرساله و ليس الرسول.

ثم يبين طائفه من أسماء الله سبحانه و تعالى و صفاته الحسنی، منها: قبول التوبه، و العفو عن السيئات، و العلم بأعمال الناس و نواياهم القليه.

بينات من الآيات:

اشاره

[٢٣] من العوامل الأساسية التي تؤدي الى الفرقة بين أبناء المجتمع، هو مرض الحرص على الدنيا الذي يعالجه القرآن في هذه السوره الكريمه بطرق شتى.. و منها أنه يعظم في نفوس المؤمنين الآخره و ما فيها من نعم و خلود حتى يسألون عن طعام الدنيا.

و نتساءل: لماذا القرآن الحكيم كلما عالج انحرافا في حياه الإنسان بين حقائق عن الآخره؟ يجيب عن ذلك حديث كريم

مروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام يعكس العلاقة بين معالجه النفس و بين التذكره بالآخره، فيقول:

«حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئه» و بالمقابل يكون استصغار الدنيا و تهوينها رمزا لكلّ فضيله، و مدخلا لكلّ خير.

كما أنّ طريق السيطرة على الدنيا و الهيمنه عليها و على ما فيها من خيرات، هو الاستهان به. إنك مثلا لا تستطيع أن تسيطر على سياره تخشى منها، و كذلك إذا خفت من سلطان ظالم فإنك لن تتمكن من القضاء عليه، فالهيبه قرنت بالخيبه، و قرن الخوف بالفشل، و هكذا الدنيا حينما نخشاها، و ندور في فلکها، فإننا لن نستطيع السيطرة و الهيمنه عليها.

أمّا إذا عكسنا الأمر، و استهنا بالدنيا، و هوّناها في أنفسنا، و عظّمنا في المقابل

أنفسنا و أكرمناها،فأنئذ نستطيع أن نسيطر عليهما من دون إسراف أو طغيان.

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَشْرِنَا اللَّهُ بِفَضْلٍ كَبِيرٍ، وَبِجَنَاتٍ فِيهَا كُلُّ مَا نُرِيدُ، وَأَكْرَمَ بِهِ وَعَدَا صَادِقًا، وَفَضْلًا كَبِيرًا، وَلَكِنْ هَذَا الْفَضْلُ الْكَبِيرُ مَقْتَرَنَ بِعَمَلٍ كَبِيرٍ هُوَ الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى الَّتِي جَعَلْتَ بِمِثَابِهِ أَجْرَ عَلَى الرَّسَالَةِ، فَقَالَ رَبَّنَا:

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَنَتَسَاءَلُ:

١- ما هو المفهوم من كلمه القربى؟ ٢- لماذا جاء هذا الموضوع في سياق موضوعات الوحده في القرآن الحكيم؟ ٣- لماذا لم يأمر القرآن بطاعه ذوى القربى بل بمودتهم؟

أولاً: من هم القربى؟

وقد استفاضت الأحاديث حول هذه الآيه و تفسيرها و كيف نزلت، وبالرغم من أنها تعالج قضيه القيادة التي كانت و لا تزال محورا لخلافات المسلمين، إلا أن تفسير الآيه حظى بقدر كبير من الاتفاق بين علماء المسلمين حسب النصوص التاليه التي نقلها من تفسير (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) للعلامة السيوطي، ولأهميتها البالغه نفيض في بيانها مفصلاً:

أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه من طريق مقسم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «قالت الأنصار: فعلنا و فعلنا، و كأنهم فخرنا، فقال ابن

عباس رضى الله عنهما: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فأتاهم فى مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار! ألم تكونوا أذله فأعزكم الله؟ قالوا: بلى.

يا رسول الله، قال: أفلا- تجيبونى؟ قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: ألا- تقولون ألم يخرجك قومك فأويناك. أو لم يكذبوك فصداقناك. أو لم يخذلوك فنصرناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا و ما فى أيدينا لله و رسوله، فنزلت: **قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .**

و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير قال: «قالت الأنصار فيما بينهم لو لا جمعنا لرسول الله صلى الله عليه وآله مالا- يبسط يده لا يحول بينه و بينه أحد، فقالوا: يا رسول الله إنا أردنا أن نجمع لك من أموالنا، فأنزل الله: **قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ** فخرجوا مختلفين، فقالوا: لمن ترون ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله فقال بعضهم: إنما قال هذا لنقاتل عن أهل بيته و نصرهم، فأنزل الله: **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا... الى قوله وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** فعرض لهم بالتوبة الى قوله: **وَيَسِّرْ تَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** هم الذين قالوا هذا أن يتوبوا الى الله و يستغفروه.»

و أخرج أبو نعيم و الديلمى من طريق مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

« لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ أَنْ تَحْفَظُونِي فِي أَهْلِ بَيْتِي وَ تَوَدُّوهُمْ بِي »

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: **قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ**

عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ قَرَابَتِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجِبَتْ مَوَدَّتُهُمْ؟ قَالَ: عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَوَلَدَاهَا. *» و
أَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ قَالَ: قَرِيبِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي الدَّيْلَمِ قَالَ: «لَمَّا جَاءَ بَعْلِيَّ ابْنَ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُسِيرًا فَأَقِيمَ عَلِيٌّ دَرَجَ دِمَشْقَ، قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ
الشَّامِ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَتَلَكَمُ وَاسْتَأْصَلَكَمُ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ ابْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَقْرَأْتَ الْقُرْآنَ؟ قَالَ:

نَعَمْ. قَالَ: أَقْرَأْتَ آلَ حَمٍّ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَمَا قَرَأْتَ: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ؟ قَالَ: فَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ.»

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً» قَالَ: الْمَوَدَّةَ لِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ،

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَالنَّسَائِيُّ وَالحَاكِمُ عَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ الْعَبَّاسُ عَلِيَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ: إِنَّا لَنَخْرُجُ فَرَى قَرِيْشًا تَحَدَّثَتْ إِذَا رَأَوْنَا سَكَتُوا، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَدَرَّ عَرَقَ بَيْنَ
عَيْنَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

«وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِيمَانٌ حَتَّىٰ يَجِبَ لَكُمْ لَّهُ وَلِقَرَابَتِي»

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ:

«أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي الْمَصَاحِفِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :

«إني تارك فيكم ما إن تمسّ بكم به لن تضلّوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله جبل ممدود من السماء الى الأرض، و
عترتي أهل بيتي و لن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»

و أخرج الترمذى و حسنه و الطبرانى و الحاكم و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه و آله :
أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، و أحبوني لحبّ الله، و أحبوا أهل بيتى لحبى و أخرج البخارى عن أبى بكر الصديق رضى الله
عنه قال ارقبوا محمد صلى الله عليه و آله فى أهل بيته، و

أخرج ابن عدى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«من أبغضنا أهل البيت فهو منافق»

و أخرج الطبرانى عن الحسن بن على قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«لا يبغضنا أحد و لا يحسدنا أحد إلاّ زيد يوم القيامة بسياط من نار»

و أخرج أحمد و ابن حبان و الحاكم عن أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«و الذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلاّ أدخله الله النار»

و أخرج الطبرانى و الخطيب من طريق ابن الضحى عن ابن عباس قال : جاء العباس إلى رسول الله صلى الله عليه و آله فقال: إنك
قد تركت فينا ضغائن منذ صنعت الذى صنعت، فقال النبى صلى الله عليه و آله :

«لا يبلغوا الخير أو الإيمان حتى يحبّوكم»

و أخرج الخطيب عن طريق أبي الضحى عن مسروق عن عائشه رضى الله عنها قالت: أتى العباس بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول الله إنا نعرف الضغائن فى أناس من قومنا من وقائع أوقعناها، فقال:

«أما و الله إنهم لن يبلغوا خيرا حتى يحبّوكم لقرابتى. ترجو سليم شفاعتى و لا- يرجوها بنو عبد المطلب؟!» (١) و يتساءل البعض: كيف طلب رسول الله على رسالته أجرا، أ فلم تكن له أسوه بسائر الأنبياء-عليهم السلام-الذين اتفقت كلمتهم على ألا يطالبوا أممهم بأجر، قال الله سبحانه على لسان أكثر من نبي: **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .** (٢)

و قد حدى هذا الاعتراض ببعض الرواه الى تغيير التفسير السابق الى تفاسير أخرى، بعضها بعيدة عن قيم الرسالات الإلهيه.

و لكن إذا عرفنا أن الإسلام هو آخر تجلّ لنور رساله، و أنه كان بحاجه الى قياده شرعيه نابعه من قيمه الربانيه، تحافظ عليه من زيغ المترفين، و إلحاد الطغاه، و ضلاله الجاهلين، و أن الله الذى أحكم تدبيره فى خلقه قد اختار لرسالته من يحمل مشعلها من أهل بيت الرسول كما اجتبى من آل إبراهيم و آل يعقوب من يحمل مشعل الرساله من بعدهما..

إذا عرفنا كل ذلك فإننا نهتدى الى الحكمة البالغه وراء جعل الموده فى القربى أجرا للرساله، إذ أن الهدف منها ولاء القياده الشرعيه التى تحمل مشعل الرساله، فمن أراد أن يشكر رسول الله على الأذى الكبير الذى يتحمّله من أجل تبليغ الرساله

ص: ٣٣٥

١- (١) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور/ج(٦)ص(٧).

٢- (٢) نجد ذات الآيه مكّره فى سوره الشعراء، فى الآيات: (١٨٠، ١٦٤، ١٤٥، ١٢٧، ١٤٩).

قال صلى الله عليه و آله :

«ما أودى نبى مثل ما أوديت» فلا شكر أفضل من محبه أهل بيته الذين يحملون ذات الرساله و يبلغونها للناس..و هكذا يكون أجر الرساله فى مصلحه الناس أنفسهم،و لهذا قال ربنا سبحانه: **قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ .**

و لأنّ البعض لم يستوعبوا هذه الحكمة تكلفوا فى تفسير الآيه بما لا يتناسب و سياقها،فقالوا:لأنّ نبينا صلى الله عليه و آله كان من أوسط قريش نسباً،و كانت له قرابه فى أكثر قبائلها،فقد سألهم أن يودّوه لأجل قرابته معهم،

و قد نقل هذا التفسير عن ابن عباس فى الحديث التالى :

«إنّ رسول الله صلى الله عليه و آله كان واسط النسب فى قريش،ليس بطن من بطونهم إلاّ و قد ولدوه فقال الله: **قُلْ لَا أَشِئُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا عَلَى مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ إِلَّا- الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** توّدونى لقرابتي منكم،و تحفظونى بها» (١)و عندى أنّ هذه النصوص لا تصلح تفسيراً للقرآن للأسباب التاليه:

١-إنّ الآيه من محكمات الذكر التى لا تدع شكاً فى معناها لمن تدبّر فيها و فى سياقها من الآيات،و المحكم لا ريب فيه،و لا يجوز أن نتحوّل عنه اعتماداً على الحديث.

٢-إنّ دعوه الرسول كانت خالصه لله و طاهره من كلّ قيمه ماديه و عصبية عشائريه فكيف يدعوا قومه لاتباعه باسم العصبية و لأنّه ينتسب إليهم،فهل تصلح

ص:٣٣٦

لداعيه من سائر الدعاه اليوم أن يدعو ابنه إلى اتباعه لأنه أبوه مثلاً، أو يدعو عشيرته لقبول الإسلام لأنه قريب نسبياً إليهم، وأكثر الأنبياء كانوا من بنى قومهم، فلما ذا لا نجد مثل هذا الكلام من أى واحد منهم، وإنما نجد الجميع يؤكدون بأنهم لا يطالبون من قومهم أجراً.

٣- إنَّ الجملة قُلْ لَا- أَشْتُلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا- الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى حسب تلك النصوص لا- تبدو متناسقه، فما هي العلاقة بين أجر الرساله و بين قبول الدعوه بسبب الموده في القربى، أليس هذا يشابه كلام من يأمر بالصلاه و يقول:

لا أسألکم أجراً إلا أن تصلّوا لأئى أخوكم؟! و لعدم تناسق المعنى نجد الذين يذهبون الى هذا الرأى يختارون فى كيفية ربط معنى الأجر بفكره قرابه الرسول مع قریش.

٤- وأخيراً إنَّ الأحاديث التى رويت فى تفسير الآيه بموده آل بيت الرسول أكثر عدداً، وأقوى سنداً، وأشدّ تماسكاً، لو قسناها بالروايات الأخرى التى لا- تماسك بينها، إذ أنّها مختلفه اختلافاً كبيراً، بينما تفسّر الآيه بهذا المعنى، أو بأنّ الرسول طالبهم بطاعه الله (علينا أن نبحت إذا عن كيفية استفاده ذلك من كلمه الموده فى القربى) أو فسرها بأن تودّوا الله، وأن تتقرّبوا إليه بطاعته. (١)

و بتفصيل أكثر:

الروايات التى وردت عبر مختلف الفرق الإسلاميه حول تفسير هذه الآيه بآل البيت تبلغ أكثر من (٤٤) حديثاً، روى زهاء (١٩) منها عن طريق أهل البيت عليه السلام و فى كتب شيعتهم (٢) و روى (٢٦) حديثاً من سائر كتب الحديث.

ص: ٣٣٧

١- (١) المصدر.

٢- (٢) راجع تفسير نور الثقلين / ج (٤) ص (٥٧٠-٥٧٦).

بينما يبلغ مجمل الروايات المعارضة لها (٦) أحاديث فقط، وفيها اختلاف كبير، بل نجد في روايه منها ينسب الى سعيد بن جبير الرأى المشهور المخالف لتلك النصوص.

فهل يجوز ضرب (٤٤) حديثا موحّدا في المعنى ب (٦) أحاديث مختلفه فيما بينها أشدّ الاختلاف؟ على أنّ كلمه «القربى» وردت في (١٥) موضعا من القرآن بمعنى أقارب الفرد، ممّا يؤيد ذات المعنى هنا أيضا، على أنّ هذه الأحاديث ليست نصوص شرعيه، لأنها لم ترو عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وإتّما هي اجتهادات الجيل الأوّل من المفسّرين، بينما الطائفه الأولى من النصوص مرويه في الأغلب عن شخص رسول الله، و من هنا نجد المفسّر المعروف الشوكاني يقول في تقرير هذا المعنى: و لكنه يشدّ من عضد هذا. إنّه تفسير مرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وآله و إسناده عند أحمد في المسند هكذا: حدّثنا حسن بن موسى حدّثنا قزعه بن سويد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس: أنّ النبي صلى الله عليه وآله.. فذكره، و رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن قزعه به، و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه و أبو نعيم في الحليه و البيهقي في الشعب. (١)

و تساءل الإمام الرازى كيف يجوز للرسول أن يطلب الأجر من أمته على تبليغ الرساله، أفلا اقتدى نهج إخوته من المرسلين؟ فأجاب قائلا:

الجواب عنه من وجهين: (الأوّل): إنّ هذا من باب قوله:

و لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بها من قراع الدار عين فلول

المعنى أنا لا أطلب منكم إلّا هذا، و هذا في الحقيقه ليس أجرا لأنّ حصول

ص: ٣٣٨

١ - ١) تفسير فتح القدير/ج (٤) ص (٥٣٧).

الموده بين المسلمين أمر واجب، قال تعالى: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

و قال صلى الله عليه و آله :

«المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا».

و الآيات و الأخبار فى هذا الباب كثيره، و إذا كان حصول الموده بين جمهور المسلمين واجبا فحصولها فى حق أشرف المسلمين و أكابرهم أولى، و قوله تعالى:

قُلْ لَا أَشْتَلِكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ تَقْدِيرُهُ وَ الْمَوَدَّةَ الْقُرْبَىٰ لَيْسَتْ أَجْرًا، فَرَجَعَ الْحَاصِلَ إِلَى أَنَّهُ لَا أَجْرَ الْبَتَّةِ (و الوجه الثانى) فى الجواب: أَنَّ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مَنْقُطِعٌ، وَ تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: قُلْ لَا أَشْتَلِكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ثُمَّ قَالَ: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» أَيْ لَكِنْ أَذْكَرُكُمْ قُرَابَتِي مِنْكُمْ، وَ كَأَنَّهُ فِي اللَّفْظِ أَجْرٌ وَ لَيْسَ بِأَجْرٍ.

و مضى المفسر المعروف قدما فى تقرير الجواب

و قال: نقل صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال :

«من مات على حب آل محمد صلى الله عليه و آله مات شهيدا، ألا و من مات على حب آل محمد صلى الله عليه و آله مات مغفورا له، ألا- و من مات على حب آل محمد صلى الله عليه و آله مات تائبا، ألا- و من مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان، ألا- و من مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ثم منكر و نكير، ألا و من مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما يزف العروس الى بيت زوجها، ألا و من مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان الى الجنة، ألا و من مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا- و من مات على حب آل محمد مات على السنّه و الجماعة، ألا و من مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمه الله، ألا و من مات على بغض آل محمد مات كافرا، ألا و من مات

على بغض آل محمد لم يشم رائحه الجنة. « هذا هو الذى رواه صاحب الكشاف، و أنا أقول آل محمد صلى الله عليه و آله هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشد و أكمل كانوا هم الآل، و لا شك أن فاطمه و عليا و الحسن و الحسين كان التعلق بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه و آله أشد التعلقات، و هذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، و أيضا اختلف الناس فى الآل فقيل هم الأقارب و قيل هم أمته، فإن حملناه على القرابه فهم الآل، و ان حملناه على الامه الذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل، فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل، و أما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه، و

روى صاحب الكشاف: أنه لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ فقال: على و فاطمه و ابناهما، فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي صلى الله عليه و آله ، و إذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، و يدل عليه وجوه: (الأول): قوله تعالى: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، و وجه الاستدلال به ما سبق، (الثانى): لا شك أن النبي صلى الله عليه و آله كان يحب فاطمه عليها السلام،

قال صلى الله عليه و آله :

«فاطمه بضعه منى يؤذيني ما يؤذيها».

و ثبت بالنقل المتواتر عن محمد صلى الله عليه و آله أنه كان يحب عليا و الحسن و الحسين، و إذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله: وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ و لقوله تعالى:

فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ و لقوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ و لقوله سبحانه: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (الثانى) أن الدعاء للال منصب عظيم، و لذلك جعل هذا الدعاء خاتمه التشهد فى الصلاة، و هو قوله: اللهم صل على محمد و آل محمد، و ارحم محمد و آل محمد، و هذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، و قال

الشافعي رضى الله عنه:

يا راكبا قف بالمحصب من منى و اهتف بساكن خيفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجيج الى منى فيضا كما نظم الفرات الفاض

إن كان رفضا حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أنّى رافضى (١)

ثانيا: موده القربى فى سياق الوحده:

لماذا أمرنا بموده القربى فى هذا السياق الذى يحدثنا عن نبذ الخلاف، و التمسك بالوحده؟ حين نتدبر فى مجمل آيات الذكر نجد سياقها لا يذكرنا بالداء إلا و يشفعه بيان الدواء، فإذا كان داء الاختلاف ناشئا من التشريع البشرى، كما قال ربنا: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ فَإِنَّ دَوَاءَ الاختلاف هو موده القربى الذين هم امتداد قياده الرسول، فأفضل الناس أقربهم الى الرسول منهجا و عملا (و هم أهل بيته ثم العلماء من أمته الأمثل فالأمثل) و هم البديل الإلهى للشركاء الذين يشرعون بغير إذن الله.

فمن اتبع القياده الشرعيه التى أمر الله باتباعها كان كمن ركب سفينه نوح أمن و نجى، و من خالفها فقد تخلف عن السفينه فغرق فى طوفان الشرك و الهوى.

و نجد هذا المنهج فى قول ربنا سبحانه فى سوره آل عمران: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا .

فلا بد إذا من حبل الله نعتصم به حتى نوحّد صفوفنا، و هو قياده الرسل

ص: ٣٤١

١- (١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى/ج(٢٧)ص(١٦٥-١٦٦).

و أوصيائهم، ثم الأمثل فالأمثل من شيعتهم و التابعين لنهجهم.

و من هنا نعرف أنّ الموده هنا هي ضمان الطاعه، فلو لا- حبّ الله ما تيسّرت للعبد طاعته، و لو لا- حبّ الرسول ما سهل على المسلمين اتباعه، و لو لا- حبّ آل الرسول ما تسنى للمؤمنين التمسك بهم، ذلك لأنّ الحب هو ذلك الانسجام النفسى الذى يحدث بين شخصين، و هو يقتضى الطاعه للحبيب بشوق و بلا تكلف، يقول الشعر الحكيم:

تعصى الإله و أنت تزعم حبه هذا لعمر ك فى الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

و جاء فى الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام :

«و هل الدين إلاّ الحب».

و كثيره آيات الذكر و أحاديث الرسول التى تأمر بطاعه القياده الشرعيه المتمثله فى أهل البيت-عليهم السلام- كقوله تعالى: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ، و قوله سبحانه: وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ .

و قول الرسول صلى الله عليه و آله :

«النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، و أهل بيتى أمان لأمتى من الاختلاف فى الدين» (1).

ص: ٣٤٢

١ - ١) تفسير نمونه نقلا- عن الحاتم فى المستدرک ص (١٤٩) حيث عقب عليه هذا حديث صحيح الإسناد، و لم يخرجاه (أى البخارى و مسلم).

حديث الثقلين المجمع عليه:

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» إلا أن النصوص التي استفاضت بها كتب التفسير والحديث والتاريخ هي التي تبين فضيله حب أهل البيت، لأن الحب أعظم درجه من الطاعة، فقد تطيع شخصا مكرها، ولكن إذا أحببته فإن طاعتك له تكون أيسر وأسمى، ألا ترى كيف أن الله يصف أفضل عباده (وهم حزبه المفلحون) بأنهم يحبون الله ويحبهم الله فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .﴾

بلى. حب الله أسمى درجات الإيمان، وحب الرسول وأهل بيته أسمى درجات التسليم للحق والتمسك بحبل الله، وبالتالي أفضل ضمان للوحده.

ثالثا: لماذا المودة بالذات؟

و يستدرجنا السياق الى السؤال الثالث: لماذا أمرنا السياق هنا بالمودة للقربى بينما كلمه الطاعة أكثر صراحة وأقرب الى حسم الخلاف؟ ولعل الإجابة الصحيحة تلخص في أمرين:

أولاً: لأن جذر الاختلاف بين الناس كامن في القلب، وأعظم أسبابه الحب والبغض، فالكبر والحسد والعصبيات القبليه والقوميه والسياسيه والأحقاد المتوارثه والجهالات العقيمه هي وراء أكثر الاختلافات، وإذا لم تزك القلوب من آثارها فإن الخلاف لا يقضى عليه حتى في إطار الأهداف الواحده والمصالح المشتركه.

و ممّا يساهم في تصفيه جزء كبير من أمراض القلب حب أولياء الله حيث يغمر نوره القلوب فيفيض حتى يشمل طائفه المحبين جميعا.

إِنَّ حَبَّ الرَّسُولِ يَجْعَلُنَا نَحْبَ كُلِّ تَابِعِيهِ، وَحَبُّ أَهْلِ بَيْتِهِ يَسْرِي إِلَى مَحَبَّتِهِمْ حَتَّى يَصْبِحُوا حِزْبًا إِلَهِيًّا وَاحِدًا، وَيَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ، وَيَتَرَاوَرُوا فِي اللَّهِ، وَيَتَعَارَفُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

هَكَذَا شَبَّهَ الرَّسُولُ حَبَّهُمْ بِسَفِينَةِ نُوحٍ الَّتِي وَحَدَّتْ بَيْنَ رَاكِبِيهَا، كَمَا حَمَلَتْهُمْ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ.

إِنَّهُمْ الْحَبْلُ الَّذِي يَشُدُّ أَزْرَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِبَعْضِهِمْ، إِنَّهُمْ النُّجُومُ الَّتِي تُوَحِّدُ مَسِيرَهُ الْمُهْتَدِينَ بِهِمْ.

وَلِأَنَّ طَاعَةَ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَالتَّمَسُّكَ بِالْقِيَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ الرَّائِدَةِ، تَقْتَضِي جِهَادَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَقَاوِمَهُ الطَّغَاةَ وَالْمُتْرَفِينَ، وَتَحْدِي تِيَارَ الْفَسَادِ وَالضَّلَالِ، وَبِالتَّالِي تَقْتَضِي هَذِهِ الطَّاعَةَ الْجِهَادِيَّةَ وَالْإِيثَارَ وَالشَّهَادَةَ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ مَنْطِقَةَ الْحُبِّ الَّذِي بِهِ يَسْهَلُ كُلُّ صَعْبٍ، بَلْ وَيَتَلَدُّ الْحَبِيبَ بِمَا يَبْذُلُهُ فِي سَبِيلِ مَنْ يَحِبُّ. أَلَمْ تَرَ كَيْفَ يَصْبِرُ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَجُونِ الطَّغَاةِ عَلَى أَوْسَى أَلْوَانِ التَّعْذِيبِ، ثُمَّ يَقُولُونَ كَمَا

قَالَ حَبِيبُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :

«إِلَهِي إِنْ كَانَ هَذَا يَرْضِيكَ فَخُذْ حَتَّى تَرْضَى» أَلَمْ يَأْتِكَ نَبَأُ أَهْلِ الْإِيثَارِ فِي سُوحِ الْقِتَالِ، كَيْفَ اسْتَسَاغُوا شَرَابَ الْمَوْتِ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَشْهَى مِنَ الْعَسَلِ، لِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا نَهْجَ إِمَامِهِمُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي قَالَ وَهُوَ يَعَالِجُ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ تَحْتَ رِكَامِ مِنَ السُّيُوفِ وَالخَنَاجِرِ وَالسَّهَامِ وَالْحِجَارَةِ، وَقَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ، وَتَرَى بِأَفْضَلِ أَهْلِ بَيْتِ وَأَبْرَ أَصْحَابِ،

قال :

«إِلَهِي رِضَا بِرِضَاكَ، لَا مَعْبُودَ سِوَاكَ» وَقَالُوا عَلَى لِسَانِهِ:

ص: ٣٤٤

تركت الخلق طرا في هواك و أيتمت العيال لكى أراك

فلو قطعنى بالحب إربا لما مال الفؤاد إلى سواك

ثانيا: الطاعه الحقيقيه هى لله و أميا الموده ففى القربى، نحن لا نطيع القياده لذاتها أنى كانت، إنما نطيعها لأنها امتداد لولايه الله سبحانه و تعالى.

الطاعه ليست إلا لله و لمن أمر الله، و هذا يتناسب و أجر رساله، لأن أجر الرسول هو أن يستمر نهجه، حيث كان يتطلع نحو بقاء خطه الرسالى فى الأتمه، و هذا كان أهم أجر تقدمه الأتمه الإسلاميه لرسول الله الذى ما ونى لحظه عن تبليغ رسالات ربه، و لا ادخر وسعا حتى أمره الله بالأ يهلك نفسه حزنا عليهم، و قال:

فَلَعَلَّكَ بِأَخِي نَفْسِكَ عَلِيٍّ أَتَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا و قال: طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى .

و إنى أعتقد بأن كثيرا من أبناء الأتمه الإسلاميه قد أقروا عيني رسول الله صلى الله عليه و آله، فالذين استشهدوا فى صفين مع الإمام على عليه السلام، و الذين استشهدوا فى كربلاء مع الإمام الحسين عليه السلام، و الذين دافعوا عن خط رساله على امتداد التاريخ و خلال (١٤) قرنا و حتى اليوم.. و المعذبون فى السجون، و شهداء الحق، و المجاهدون فى كل حقل، هم شهود على ما أقول. إنهم قدموا لرسول الله الأجر، و ليس من الصحيح أن ننظر الى الجانب السلبي من التاريخ، فليس من المنطقى أن نفتش فى الليل عن الظلام فكل العالم ظلام، و لكن يبهر أبصارنا فيه نور القمر، و يلفت انتباهنا ضياء النجوم.

و مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا تَوْجِدُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ لَفْتَهُ فَنِيهِ بِالْغَيْهِ اللَّطْفُ وَ الدَّقَّةُ تتركز فى كلمه «يقترف»،

فهذه الكلمه عادہ ما تأتي مقارنه للسيئه و ليس للحسنه، حتى قالت العرب (الاعتراف يزيل الاقتراف)، فما هو السر في استعمالها هنا؟ إن الاقتراف معناه السعي المكثف للقيام بشيء صعب، و أصل الكلمه نزع لحي الأشجار أو الجلد الإضافي من الجسم، و لعلها استخدمت هنا لأن السياق يهدى الى طاعه أولى القربى و مودتهم و هي حسنه بالغه الصعوبه، فمن أجل تطبيق هذه الآيه الكريمه أريقت دماء، و أطاحت برؤوس، فليس كل إنسان أهلاً لأن يكون من أصحاب المودّه.

□
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ أَي أَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يَقْدَرُ هَذَا الْعَمَلَ الْبَطُولِي الشَّجَاعَ، وَ يَغْفِرُ لِصَاحِبِهِ ذُنُوبَهُ.

و هكذا

روى عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام أنه قال :

«فاقتراف الحسنه مودّتنا أهل البيت» (١).

كما

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال :

«إنما نزلت فينا خاصّه أهل البيت فى على و فاطمه و الحسن و الحسين و أصحاب الكساء عليهم السلام» (٢).

و روى مثل ذلك عن ابن عباس.

و كلمه أخيره: لماذا اختار الله أولى القربى لقياده الأمم؟ هل لأنهم من صلب الرسول، و قد أراد ربنا إكرام نبيه العظيم بذلك، و إيتاء بعض أجره فى الدنيا،

ص: ٣٤٦

١- ١) نور الثقلين / ج (٤) ص (٥٧٣).

٢- ٢) المصدر / ص (٥٧٢).

ليبقى ذكره العطر فواحاً في كلِّ عصر، ولكي يتحقّق بالتالي ما بشّر ربّنا به الرسول حين قال: **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**، ونهر أعداءه حين قال: **إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**، فهذه سلاله الرسول تزين مجالس المسلمين في كلِّ عصر.

بلى. ولكن ليس هذا سبب اختيارهم قاده، لأنّه ليس كلّ من انتسب الى الرسول صلى الله عليه وآله يصلح للإمامه، إنّما كان أشخاص معيّنون بالصفات و الأمثال اجتباهم الله للإمامه المسلمين، وأشارت إليهم الآيات، و ذكرتهم النصوص، و كانوا هم الأقربون الى رسول الله نهجا و سلوكا، قبل أن يكونوا الأقربين إليه نسبا و صهرا، و هم على و فاطمه و الحسن و الحسين عليهم السلام، و حين نستقرأ كتب التاريخ و الحديث لمختلف الفرق الإسلاميه نجدها تؤكد بأنّ أقرب الناس خلقا و خلقا و علما و عملا الى رسول الله صلى الله عليه وآله هم أهل بيته الذين نزلت فيهم الآيه، و سّماهم الرسول اسما اسما، كما سبق في النصوص المتقدّمه، و ليس كل من انتسب الى رسول الله بنسب الدم و القرابه.

فإذا أكرمنا الصّديقه فاطمه الزهراء فليس فقط لأنّها بنت رسول الله (و للبت كرامتها) و إنّما القيمه المثلى فيها هي أنّها الصّديقه الكبرى التي جسّدت رساله النبي في حياتها، و كذلك الإمام على عليه السلام، فنحن لا نكرم العباس عمّ النبي بقدر ما نكرم ابن عمّه عليّ بن أبي طالب لأنه الأقرب إليه نهجا و سلوكا.

و كذلك أولاد على عليه السلام، فله سبعة عشر ولدا نكرم بينهم الإمامين الحسن و الحسين ليس فقط لأنّهما سبطى رسول الله و ابني فاطمه الزهراء، بل لأنّهما سيّدا شباب أهل الجنه بما قدّماه للإسلام من عطاء.. و من هنا ننطلق الى الحلقة الثانيه و هم الأقرب الى خط الرسول صلى الله عليه وآله من أصحابه، و الأقرب الى خط الإمام على عليه السلام من أصحابه، و الأقرب الى خط الحسن و الحسين و فاطمه الزهراء و الأئمّه

عليهم الصلاة والسلام من أصحابهم، ثم الأقرب الى خطهم فى التاريخ، و من هنا

جاء فى الحديث المعروف :

«العلماء ورثة الأنبياء» من هم العلماء الذين يشير إليهم هذا الحديث؟ إنهم أولئك الذين يسيرون فى خط رسول الله و أهل بيته، لأن القرآن يقول: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَأُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَيْسَ أَبْنَاءُ إِبْرَاهِيمَ، وَ إِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ.

و كذلك أولى الناس بمحمد و آله هم الذين اتبعوهم و اتخذوهم قدوة لهم، و من هنا

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام :

«ولايتى لمحمد أحب إلي من ولادتى منه».

بلى. حين يريد الله أن يجعل رسالته فى ذريته طيبه بعضها من بعض، يختار ذريته الرسول أكرم الخلق عنده، و أفضلهم لديه، فيطهرهم من الدنس، و يذهب عنهم الرجس، و يصطفيهم لدينه، كما اصطفى آل إبراهيم و آل عمران شخصا شخصا.

و هكذا اجتنبى ربنا أئمة هذه الأمة من آل الرسول صلى الله عليه و آله .

[٢٤]كلما ذكرنا ربنا بأمر عظيم نهر المكذبين بالقرآن الذين اتهموا رسوله بالافتراء، لماذا؟ لأن التبرير الشائع الذى يلتجئ إليه مرضى القلوب للهروب من مسئوليات قبول أوامر رساله المستصعبه هو التكذيب بها، و هكذا حين جاء الأمر بأداء أجر رساله فى المحافظه عليها عبر موده القربى ثارت عصبية البعض، و قالوا:

إنما قال هذا لنقاتل عن أهل بيته و نصرهم، فأنزل الله: أَمْ يَقُولُونَ (١).

ص: ٣٤٨

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّهُ لَقَوْلُ عَظِيمٍ، كيف ينسبون الى رسول الله الصادق الأمين الكذب، وبالذات حين يتمثل في الافتراء على الله، وهم يعرفون مدى تفانيه في الله؟ ثم هل من المعقول أن يدع الله رسوله الذي اختاره بعلم، وأسبغ عليه نعمه الرساله، وأولاه بالنصر، وأظهر على يده الآيات، هل يدعه يتقول عليه؟! كلاً..

إنه إن يشأ يعاقبه، وأبسط العقاب هو سلب رسالته منه، بأن يختم على قلبه فلا يكاد يعرف شيئاً.

فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَنَسْتَوْحَى مِنَ الْإِيه: إِنَّ مِنْ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ يِعَاقِبُهُ اللَّهُ بِالْخْتَمِ عَلَى قَلْبِهِ، فيسلبه حلاوه مناجاته، ولذو التقرب إليه.

و من سنن الله في الحياه إزهاق الباطل، وإحقاق الحق.. وهذا دليل على أن رساله الله حق، ورسوله صادق أمين.

وَ يَمِئِحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يَحِقُّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّ مِنْ أَدَلِّهِ صَحْهِ الرِّسَالَةِ أَنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَتْ مِنْ أَجْلِ الرِّسُولِ أَوْ مِنْ أَجْلِ قَوْمِهِ وَ عَشِيرَتِهِ أَوْ مِصَالِحِهِ، أَوْ مِصَالِحِ فَئِهِ مَعِينِهِ، إِنَّمَا مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ، تتطابق مع السنن الجارية في الخلق، فهي باقيه، بينما الثقافات الأخرى تنتهي حينما تزول عوامل نشوئها، فإذا كانت ناشئه الطبقيه أو العنصريه أو القوميه زالت حين تبدل الدوله الحاكمه، وإذا كانت ناشئه الخرافات و الجهالات و العصبيات زالت بزوالها، وهكذا ترى كلمات الله في القرآن لا تؤثر فيها المتغيرات أنى كانت،

لأنها ناشئه الحق الذي لا يتغير، مما يدل على أن هذا القرآن هو الصحيح، وأن تلك الثقافات هي الباطله.

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي صُدُورِنَا لِذَلِكَ فَهُوَ يَعَالِجُ الْجَوَانِبَ السَّلْبِيَةَ مِمَّا فِي صُدُورِنَا بِالْجَوَانِبِ الْإِجَابِيَةِ، يَعَالِجُ شَهَوَاتِنَا وَأَهْوَاءَنَا بِمَا أُرَكِّزُهُ فِي قُلُوبِنَا مِنَ الْعَقْلِ وَالْمَعْرِفَةِ.

[٢٥] مهما كان الإنسان حذرا فإنه لا يمكنه اتقاء السقطات، وهذا دليل على أن الإنسان ليس بإله، وأن الضعف طبيعه فيه، لذلك فإن الله يقبل التوبه عن عباده. أو ليس هو الخالق و يعلم تكوين الإنسان الجسمى و النفسى، و أنه ضعيف أمام أمواج الشهوات، و ضغوط الحياه؟ و لكن المؤمنين هم الذين يستعيدون إيمانهم بسرعه، و ينهضون من سقطتهم، بالتوبه الى الله، لما يعرفونه من عظيم مغفرته، و واسع رحمته.

وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ إِذَا عَادُوا إِلَيْهِ اسْتَقْبَلَهُمْ بِرَحَابٍ.

وَ يَغْفِرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ فَحِينَمَا تَفْعَلُ سَيِّئَةً بَعْدَ سَيِّئَةٍ فَإِنَّ السَّيِّئَاتِ تَتْرَاكُمُ عَلَى ذَهْنِكُمْ، وَ يَكُونُ لَهَا آثَارٌ سَلْبِيَةٌ عَلَى وَاقْعَعِكُمْ، وَ لَكِنْ رَحْمَةُ اللَّهِ الْوَاسِعَةُ تَأْتِي لِتَطَهَّرَ قَلْبُكَ مِنْهَا.

وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ فَأَنْتَ بَيْنَ التَّوْبَةِ إِلَى رَبِّكَ أَوْ أَنْتَظِرُ عِقَابَهُ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُ فَلَا تَسْتَطِيعُ كِتْمَانَهُ.

[٢٦] وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ مَاذَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ؟ السياق يوحى بأن المؤمنين بولاية الله و المسلمين لإمامه الحق يتعرضون لضغوط هائلة، فإذا انهاروا ثم تابوا قبل الله التوبه منهم، و عفى عن سيئاتهم، و إذا طلبوا من ربهم النصر انتصر لهم، و زادهم من فضله.

و هذا أحد مصاديق الآيه، إلا أن الآيه تسع كل دعوات المؤمنين، و بالذات حين تكون لبعضهم البعض، و قد وردت روايه بذلك حيث فسرت الآيه بالشفاعه فيما بين المؤمنين، و لا ريب أن دعاء المؤمنين لبعضهم نوع من الشفاعه، بل هو الشفاعه.

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله فى قوله:

وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ :

«الشفاعه لمن وجبت له النار ممن أحسن إليهم فى الدنيا» (١).

و يحفزنا هذا التفسير على المزيد من التعاون بين بعضنا البعض، لأن آثار التعاون تمتد من الدنيا حتى الآخره، و لعل الواحد منا قد استحق النار بعمله إلا أن ربنا يغفر له بدعاء إخوانه.

أما أولئك الذين لم يستجيبوا لنداء الله و دعوه الحق فليس لا يستجيب الله دعاءهم فحسب، و إنما هم يعرضون أنفسهم أيضا لعقاب الله و عذابه الأليم.

وَ الْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

ص: ٣٥١

اشاره

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ يَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٣١) وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسَيِّئِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَ يَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)

اللغة

٣٢[الجوار]: جمع جاريه و هى السفينه سميت بها لجريها فى الماء.

[كالأعلام]: جمع علم و هو الجبل الطويل.

٣٤] أو يوبقهنّ]: أى يهلك السفن بأن يجعل الريح عاصفه حتى تغرقها، و الإيق الإيتلاف و الإهلاك.

ص: ٣٥٣

إشاره

لَبَعَثُوا فِي الْأَرْضِ

هدى من الآيات:

لتطهير القلب من درن الحرص والكبر، ولإقتلاع جذور البغى والخلاف، يذكّرنا ربّنا- في هذه الآيات- بأنّ الله إنّما ينزّل الرزق بقدر لأنّ الناس يبغون على بعضهم لو بسط الله لهم الرزق، (فتقدير الرزق من الله، ولا داعى للحرص، ولا للصراع من أجله، وتحديد من أجل مصلحه البشر).

(وحرىّ بالإنسان التوكّل على الله. ألا يرى كيف يرزقه؟).

وهو الذى ينزّل عليه الغيث فى أوقات المحنه حيث يستبدّ به القنوط، فهو الوليّ الحميد (ولا بدّ من النزوع عن الحرص، وتفويض الأمور اليه).

(وكلّما عظم الخالق فى قلب الإنسان تضاعل ما سواه فى عينه، وتواضع للحق أكثر فأكثر. أنظر الى آثار عظمه ربّك) وهو الذى خلق السموات والأرض ونشر

فيهما أنواعا لا تحصى من المخلوقات المتحرّكه، وحين يشاء يجمعهم بقدرته.

(و رزق الإنسان كما سائر جوانب حياته يخضع لسعيه و نوعيه عمله) و ما أصاب أحدا من مصيبيه فيما كسبته يداه، بينما يعفو عن كثير (فلو عاجلهم بذنوبهم لأفناهم جميعا).

و لا أحد يقدر على منع الكوارث عن نفسه إذا أراد الله أن يأخذه بذنوبه، و لا أحد يدافع عنه أو ينصره من دون الله.

و إنّ قدره الله محيطه بالبشر، فإذا ركبوا فى البحر و جرت الرياح بهم الى أعالي البحار أ رأيت لو شاء الله و أسكن الرياح أليس تبقى سفنهم هنالك دون حراك؟! (إنما يعى هذه الحقيقه الذى يتعالى عن ضغط النقمه و إغراء النعمه أى) الصبّار الشكور.

و الله قادر على أن يهلك الناس بسفنهم فى عرض البحر بسبب ذنوبهم، و لكنّه يعفو عن كثير من خطاياهم.

(إذا لماذا الجدال فى أمر الله و تحدّى أحكامه؟).

إنّ كلّ ذلك يكفى آيه لهؤلاء المجادلين فى آيات الله أنّهم لا يملكون عن ربّهم مهربا.

(ثم لماذا الحرص على الدنيا و الصراع من أجلها و هى لا تسوى شيئا؟! فما أوتيتم من شىء ليس سوى متاع الحياه الدنيا التى لو قيست بالآخرة لم تكن شيئا، لأنّ الآخرة أفضل و أبقى للذين آمنوا و على ربّهم يتوكّلون) فينزعون جلاباب الكبر، و يتعالون على الحرص، و لا يثيرون الخلاف من أجل الدنيا).

[٢٧] إذا كان الربُّ يحبُّ عباده فلما ذا لا ينشر رحمته عليهم أكثر فأكثر؟ لماذا لا يملأ الأرض رحمته و رخاء؟ ذلك لأنه عالم بطبيعته البشر، فلو أعطاهم أكثر من قدرتهم على الإستيعاب لبغوا فى الأرض، و انحرفوا عن الحق، فمن رحمه الله على العباد أنه لا يرزقهم دفعه واحده، و إنما يرزقهم بقدر حاجتهم و استيعابهم..

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ إِنَّ نَفْسَ الْإِنْسَانِ قَبْلَ تَرْوِيضِهَا بِالْقِيمِ السَّامِيَةِ جَمُوحَةٌ، و قد كبح الله جماحها بالحاجه الى الرزق، و لولاها لدفعها البغى الى الفساد و الشقاء، كما نجدها تطغى حين تحسّ بالاستغناء، حتى و ان كان هذا الإحساس خاطئاً، حسبما قال ربنا:

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى ﴿٢﴾.

وَ لَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ و من أخبر من الله بعباده، الذين خلقهم حسبما شاء، و أركز فى وجودهم الغرائز كيفما أراد، و هيمنته العلميه بالغه فهم على عينه و بصره سبحانه.

و كل فرد يجرى له الربُّ الرزق بقدر لا يدعوه الى الطغيان،

و قد جاء عن أنس عن النبي صلى الله عليه و آله عن جبرئيل عن الله جلّ ذكره :

«إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلِحُهُ إِلَّا السَّقْمُ، و لو صححته لأفسده، و إنّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى، و لو أفقرته لأفسده، و إنّ مِنْ عِبَادِي مَنْ

ص: ٣٥٤

لا يصلحه إلا الفقر، و لو أغنيته لأفسده، و ذلك أنى أدبر عبادى لعلمى بقلوبهم « (١)

و عن الإمام الحسن عليه السلام قال :

«أرزاق الخلائق فى السماء الرابعه تنزل بقدره، و تبسط بقدر « (٢)

و قال الإمام الصادق عليه السلام :

« وَ لَوْ بَسِطَ اللَّهُ الرَّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ »: لو فعل (أى بسط رزقه) لفعلوا (أى لبغوا فى الأرض) و لكن جعلهم محتاجين بعضهم الى بعض، و استعبدهم بذلك، و لو جعلهم أغنياء لبغوا « وَ لَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ » ممّا يعلم أنه يصلحهم فى دينهم و دنياهم « إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ » (٣) [٢٨] و مظهر آخر لحكمه الله فى تدبير الحياه الغيث الذى يمنعه عن العباد أو يرسله إليهم حسب حاجتهم و استحقاقهم و استيعابهم، فبعد أن يجتاحهم القنوط، و تكبح صفه الكبر من أنفسهم، و تمنع عنهم صفه الطغيان، لأنهم لم يقدروا على تحصيل الماء بطريقه أخرى، بعدئذ يرسل الغيث، و ينشر عليهم رحمته من خلال الغيث.. و هذه آيه من آيات الهيمنه و الحكمه.

وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ خَتَمَ الْيَأْسَ عَلَى أَفْئِدَةِ النَّاسِ جَمِيعًا وَ هُنَا تَتَجَلَّى بِوُضُوحٍ بِلَاغِهِ الْقُرْآنَ حَيْثُ تَتَوَازَى فِيهِ كَلِمَةُ الْغَيْثِ الَّتِي تَعْنَى فِيهَا تَعْنَى الْإِغَاثَةِ مَعَ كَلِمَةِ الْقَنُوطِ الَّتِي تُشِيرُهُ

ص: ٣٥٧

١- ١) نور الثقلين / ج (٤) ص (٥٧٩).

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) المصدر.

شده الحاجه.

وَ يُنْشِرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَاكِمُ الْمَطْلُوقُ الَّذِى يَتَوَلَّى تَدْبِيرَ الْخَلْقِ..

الْحَمِيدُ لَا يَفْعَلُ إِلَّا الْفَعْلَ الْمَحْمُودَ، وَ إِنَّمَا يَنْشُرُ الرَّحْمَةَ بَعْدَ الْقُنُوطِ لِكَيْ يَتَّبِعَهُ النَّاسُ مِنْ غَفْلَتِهِمْ وَ ضَلَالِهِمْ، وَ لَوْ أَنَّهُمْ عَرَفُوا رَحْمَةَ اللَّهِ (وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ) بِهِمْ، وَ حِكْمَتَهُ الْبَالِغَةَ فِي تَدْبِيرِهِ لَشُؤُونَ الْخَلْقِ، لَأَكْتَشَفُوا أَسْبَابَ انْقِطَاعِ الْغَيْثِ عَنْهُمْ الَّتِى قَدْ تَكُونُ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، بَلْ وَ لَعَرَفُوا أَيْضًا حِكْمَةَ عَوْدَتِهِ إِلَيْهِمْ لِعَرَفُوا قَدْرَ رَبِّهِمْ فَيَعْبُدُونَهُ لَا يَشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا.

[٢٩] وَ لَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِى تَهْدِينَا إِلَى اللَّهِ، وَ إِنَّمَا هِيَ آيَةٌ مِنْ بَيْنِ الْآيَاتِ الَّتِى لَا تَعَدُّ وَ لَا تَحْصَى..

وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَلَى سَعْتِهِمَا، وَ مَتَانَتُهُمَا، وَ عَظْمَةُ خَلْقِهِمَا..

وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ كَالطَّيُورِ وَ الْحَيَوَانَاتِ وَ مُخْتَلَفِ الْأَحْيَاءِ الْمَتَنَاتِرَةِ هُنَا وَ هُنَاكَ.

وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ لِأَنَّ لَهُ مَطْلُوقَ الْإِرَادَةِ، وَ إِنَّ الْاِخْتِلَافَ فِي طَبَائِعِهَا وَ شَرَائِعِ حَيَاتِهَا

ص: ٣٥٨

و انتشارها فى الكون لا- يدلّ أبدا على تحرّرها من إرادته الله، و خروجها عن المنهج الذى عيّنه الله لها، أو السنن التى تحكم الخليقة، فمتى ما شاء ربّنا جمعهم فى صفّ واحد للحساب.

[٣٠] و يؤكّد على الصلة بين سعى الإنسان و واقعه مرّتين، مرّه عن طريق العوامل الماديّة الظاهره التى تربط بين السعى و النتيجة، فهو إذا سعى و ناضل و صل إلى أهدافه، فالصحة بعد المرض و الغنى بعد الفقر، و الأمن بعد الخوف، كلّ ذلك رهين سعيه فى السبيل القويم الذى جعله الله..

و هذا ما يؤكّده القرآن فى آيات عديده كقوله تعالى: **وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (١)** و قوله: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٢)** و مره عبر العوامل الغيبية غير الظاهره، حيث يؤكّد الإسلام أنّ أى عمل يقوم به الإنسان ينعكس على واقعه شاء أم أبى، و ليس بالضروره أن يكتشف البشر كيفية ذلك، بل كثيرا ما تكون العلاقة بين العمل و العاقبه غير معروفه و مثيره للتساؤلات، فما هى العلاقة بين صله الرحم و طول العمر، و بين انتشار الزنا و انتشار موت الفجأه، و بين انحراف قوم لوط و الصاعقه التى دمّرتهم، و بين يقظه الإنسان بين الطلوعين و بين سعه رزقه، و بين قيام الليل و طول العمر، و بين الصدقه و دفع البلاء، و بين الزكاه و النماء الاقتصادى، و بين الصدق و الأمانه و بين العزّه فى المجتمع؟ كلّ هذه العلاقات قد تبقى مجهوله لدى الإنسان، و لكنّها حقائق واقعه فى

ص: ٣٥٩

١- ١) النجم/ (٣٩).

٢- ٢) الزلزله/ (٧-٨).

الحياه عرفناها أو جهلنا بها.

من هنا بدل أن يدفعا الحرص الى الصراعات الاجتماعيه دعنا نطبّق المناهج الإلهيه فهى كفيله بتحقيق طموحاتنا المشروعه، سواء عرفنا حكمتها و بالتالى علاقتها بتلك الطموحات أم لم نعرف، لأننا لا بدّ أن نعترف بعجزنا عن الإحاطه علما بدين الله، أليس دين الله آيه علمه، فهل يزعم أحد بأن يبلغ بعلمه مستوى علم ربّه؟ و من هنا

جاء فى الحديث :

«إنّ دين الله لا- يقاس بالعقول» و بهذه الرؤيه العميقه و الواقعيه للحياه يتقدّم الإسلام خطوه على الماديه، و خطوتين على القدريه، فالقدريه تعتقد بانعدام العلاقه بين سعى الإنسان و واقعه منكره بذلك عقلائيّه الأنظمه الحاكمه على الكائنات، أمّا الماديه العمياء فتعتقد بأنّ نظام الكون عقلائى، و لكنها لا- تعترف إلاّ- بالعلاقات الظاهره فى هذا النظام، منكره العلاقات الخفيّه التى يكشفها الغيب.

بينما الإسلام بواقعيته يؤمن بعلاقه أكيدته بين سعى الإنسان و واقعه، مره عن طريق العوامل الماديه الظاهره، و أخرى عن طريق العوامل الغيبيه، و ذلك انطلاقا من الاعتقاد بأنّ كل ما يجرى على الإنسان، بل كل ما يجرى فى الحياه، إنّما هو بعلم الله و بإذنه، و هو لا- يمنع أو يأذن إلاّ- بحكمه بالغه يعلمها عزّ و جل، و هو القائل: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١)** و تؤكّد آيات القرآن هذه الحقيقه ببيان هيمنه الله على نظام الكون، فالسحب التى تجمعها الأقدار، و المطر الذى يهطل على الأرض الجرداء فيبعث فيها الحياه من

ص: ٣٦٠

١-١) الرعد/ (١١).

بعد ما يقنط الإنسان، كل ذلك لا يصير عبثاً، إنما بحكمه إلهيه دقيقه، فإذا قلَّ الصدق بين الناس و تضاءل تعاطفهم على بعضهم، و إذا ساد الظلم و الضلالة، و إذا كثرت الذنوب و الفواحش، بعدت رحمه الله المتمثلة في الغيث، كما أن لنجاه أصحاب السفينه التي تمخر عباب البحر أو غرقهم علاقه بركابها، فإذا كانوا أهل صلاح و سعى، ساقتهم الريح الطيبه الى سبل السلام، أما إذا كانوا ظالمى أنفسهم و قد انتهى أجلهم ابتلعتهم العواصف الهوج.

هكذا يبين ربنا العلاقه بين واقع الإنسان و عمله فيقول:

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أَيَا كَانَ نَوْعَ هَذِهِ الْمَصِيبَةِ وَطَبِيعَتِهَا.

وَيَغْفُوا عَنْ كَثِيرٍ و لو لم يكن الله رحيمًا بعباده لانتهدت بهم أعمالهم الى الهلاك، لأنهم يكسبون كل يوم ما يستوجب غضبه سبحانه.

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام :

«ليس من عرق يضرب، و لا نكبه، و لا صداع، و لا مرض، إلا بذنب» (١)

و جاء فى حديث آخر عنه عليه السلام :

«إنّ الذنب يحرم العبد الرزق» (٢)

ص: ٣٤١

١- (١) نور الثقلين / ج (٤) ص (٥٨١).

٢- (٢) المصدر / ص (٥٨٣).

و جاء فى روايه مآثوره عن أبى الحسن عليه السلام :

«حق على الله ألا يعصى فى دار إلا أضحاها للشمس حتى تطهرها» (١) فلكى لا تصيبك ألوان العذاب تجب الذنوب، هكذا

أوصانا أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: «توقوا الذنوب، فما من نكبه و لا - نقص رزق إلا - بذنوب، حتى الخدش و الكبوه و المصيبه (ثم قرأ الآيه و قال:) و أوفوا بالعهد إذا عاهدتم فما زالت نعمه و لا نضاره عيش إلا بذنوب اجترحوها. أن الله ليس بظلام للعبيد، و لو أنهم استقبلوا ذلك بالدعاء و الإنابه لما نزلت، و لو أنهم إذا نزلت بهم النقم، و زالت عنهم النعم، فزعوا الى الله عز و جل بصدق من نياتهم، و لم يهنوا و لم يسرفوا، لأصلح لهم كل فاسد، و لرد عليهم كل صالح» (٢)

و فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام :

«تجنبوا البوائق يمد لكم فى الأعمار» (٣)

و روى عن الإمام الباقر عليه السلام :

«إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق» (٤)

و قال :

«إن العبد يسأل الله الحاجه فيكون من شأنه قضاؤها الى أجل قريب أو الى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنبا فيقول الله تبارك و تعالى للملك: لا تقضى حاجته

ص: ٣٤٢

١- ١) المصدر.

٢- ٢) المصدر/ص (٥٨٢).

٣- ٣) المصدر.

٤- ٤) المصدر/ص (٥٨٣).

و احرمه إياها فإنه تعرّض لسخطى و استوجب الحرمان منى « (١) [٣١-٣٢-٣٣] و يذكر الله الناس بأن عدم أخذه لهم على كثير من الذنوب ليس عن عجز، وإنما هو رحمه منه بعباده..

وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ أَى لو أراد أن يأخذهم على ما تكسب أيديهم، لأنه تعالى الولي الحقيقي للإنسان و لا- ولي غيره و هو ذو القوه المطلقه، فلا- أحد يستطيع نصر نفسه أو الانتصار للآخرين عليه سبحانه. و هذه هي الأخرى من آيات رحمه الله و قدرته:

وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ وَ هي السفن الشراعيه التى تجرى فى البحار بدفع الرياح، و التى لو شاء الله لأوقفها فلا تتحرك.

إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ أَى على سطح البحر..

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ، فلا ينحرف عن الحق و الطاعة لله بسبب الضغوط السلبيه فى الحياه..

شُكُورٍ

ص: ٣٤٣

يذكر الله و يحمده عند النعمه، و على كل حال، و هذا يخالف طبيعه الإنسان الذى يجزع عند البلاء، و يكفر عند الرخاء، بسبب علاقته الخاطئه بالحياه، إذ يعيش لحظته الراهنه فقط و لا ينظر للمستقبل، و هذا الأمر هو الذى يجعله يئأس و يستسلم للواقع، بينما ينظر المؤمن ببصيره ربّانيّه ثاقبه الى خلفيات الحوادث، و مستقبل الأمور، فلا تبطره النعمه، و لا يؤيسه البلاء.

[٣٤] و إذا أراد الله أن يبتلى أحداً أو ينزل عليه العذاب فهو قادر على ذلك و بطرق متعدده، فهو تاره يوقف الرياح لتقف السفن التى نستقلها، أو ربما أرسلها بشده فإذا بها تهيج أمواج البحر فتبتلع سفننا، و إلى جانب هذه القدره الإلهيه توجد فى الطرف الآخر الأسباب و المقومات لإنزال النقمه، و هى ذنوبنا التى نكتسبها كل يوم..

أَوْ يُوبِقُهُنَّ يَغْرِقُهَا، و يهلك من فيها..

بِمَا كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ بِرَحْمَتِهِ وَ لَطْفِهِ، لذلك ينبغى المبادره الى الاستغفار ليل نهار حتى نأمن من سطوات الربّ الجبار،

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام :

«تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ سَطَوَاتِ اللَّهِ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ، قَالَ: قُلْتُ: وَ مَا سَطَوَاتِ اللَّهِ؟ قَالَ: الْأَخْذُ عَلَى الْمَعَاصِي» [٣٥] و لا بدّ أن يعلم أولئك الذين يكذبون بآيات الله، و يتشبهون بثقافه الجدال و التبرير من أجل ردّها و التهزّب من مسئوليّه الإيمان بها، أنّهم محاطون بعلم

اللّٰه و قدرته، و من ثمّ فإنّ جدالهم فيها لن يرفع عنهم المسؤوليه..

و يَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ أَيْ مَهْرَبٍ وَ مَفْزَعٍ مِنَ اللّٰهِ.

قالوا: إنّ نصب «يعلم» جاء لأنّه عطف على تعليل محذوف، و كأنه قال:

ينتقم منهم و يعلم الذين يجادلون.

[٣٦] و كخاتمه لهذا الدرس الذى يحدثنا عن دور الحرص فى الصراعات الاجتماعيه كفكره أساسيه، يصغّر القرآن الدنيا و يهونها فى أعيننا و أنفسنا، لكى لا تكون من المنزله عندنا بمكان تثيرنا نحو الصراع و البغى على بعضنا.

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَهْمَا كَانَ حِجْمَهُ وَ قَدْرُهُ فَإِنَّهُ لَا يَعْدُو كونه بسيطا و ضئيلا نسبه الى متعه الآخره و نعيمها..

و مَا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَ أَفضليه نعيم الآخره على متاع الدنيا من ناحيتين: فهو أفضل فى كفاءته، و أدوم فى بقائه و متعه الإنسان به.

و لعلّ خاتمه الآيه تهدينا الى أنّ التوكّل على اللّٰه هى الصفه المقابله للحرص على الدنيا، و إنّما لا يتسامى القلب عن الانجذاب الى الدنيا لضعفه، و الذى يجبر بالتوكّل على اللّٰه سبحانه.

وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارًا لِلْإِيمَانِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَرَّ بِمَنْ غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مِمَّا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

هدى من الآيات:

يتكلم القرآن في هذا الدرس عن المحور الذى سمّيت السوره باسمه و هو الشورى، و لكنّه بعد أن يجعله فى إطار الحديث عن أبعاد الشخصيه الإيمانيه. لماذا؟ لأنّ الصفات خيرها و شرها تنبع من حاله فى شخصيه المجتمع، و تترادف مع بعضها، فالصدق يستتبع الإحسان، و الأمانه تستتبع الوفاء، و هكذا، لأنّ أصل صفات الخير البصيره و الإيمان، كما أنّ الصفات الرذيله يلحق بعضها بعضاً، لأنّ جذرها واحد ألا و هو مرض القلب.

و صفه الشورى التى يتركز حولها هذا الدرس تمثّل العلاقه الإيجابيه بين أفراد الأمه على صعيد اتخاذ القرارات العامه.

و لا تتحقّق إلا إذا كانت العلاقات الاجتماعيه عبر مختلف الأصعده المتدرجه طاهره و إيجابيه و بمستوى التبادل الفكرى، إذ لا فائده للشورى فى مجتمع الظلم

و الطبقة و العنصريه، و لا- فى المجتمع الذى لا- يعتقد بالعقلائيه و المنهجيه العلميه فى حياته و لا يبحث عما يثير عقله و يزيده علما، و الحال إن الشورى أحوج ما تكون لتؤتى أكلها الى مجتمع فاضل يتحلّى بالصفات النفسيه التى تدعم تطبيق المناهج العلميه التى تصدر على ضوءها.

و لعلّه لذلك بدأت هذه الآيات بيان جانب من صفات المؤمنين كاجتناب كبائر الإثم و التجاوز عن المسىء قبل بيان صفه الشورى، ثم بعد بيانها يذكرنا القرآن بجانب آخر منها كالاتصار بعد الظلم، و الصبر الذى هو من عزم الأمور.

بينات من الآيات:

[٣٧] هناك بعض المجتمعات تحصر الدين فى اتباع بعض الطقوس دون التوجه الى القضايا المصيريه الهامه التى تكلفهم الإيثار و الجهاد و الشهاده، وفى الوقت الذى يبنون المساجد و دور العلم تراهم لا يتورعون عن ظلم بعضهم، و لا يدافعون عن أحكام الله، و إنّما يهتم القرآن ببيان صفات المجتمع المسلم فى كثير من سوره و بصوره مجتمعه لكى يعطينا صورته متكامله عنه نعيش بها مجتمعنا، و نعرف مدى قربيه و بعده من المجتمع الذى يبشّر به القرآن.

و من أبرز صفات المجتمع الإسلامى السعى من أجل اجتناب كبائر الإثم و الفواحش، حيث يجب أن ينتظف المجتمع المسلم من الجاهليه بكلّ أبعادها الثقافيه و الاقتصاديه و السياسيه و الاجتماعيه.

وَ الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَ هِيَ - كما يبدو - الذنوب الاجتماعيه و الاعتداء على حقوق الناس، و قيل بأنّها الشرك، و لا ريب أنّ الشرك أفحش ظلم، و أعظم ذنب، و هذا التفسير نسب

الى ابن عتيّاس، و قيل بأنّها البدع و الشبهات، و بالتالى الضلاله الثقافيه، و هى بدورها من الذنوب الاجتماعيه، و قال البعض بأنّها مطلق الذنوب التى أوعد الله عليها النار فى القرآن أو ثبت بحجه قويه أنّها من كبائر الذنوب.

وَ الْفَوَاحِشُ وَ هِىَ الذَّنُوبُ الشَّخْصِيَّةُ، كَالزَّنا، وَ اللُّوَاطُ، وَ شَرَبُ الخمر، وَ اجْتِنابُها هذِهِ مِنْ أَهمِّ الصِّفَاتِ الَّتِي يَجِبُ تَوَفُّرُها فِي مَجْتَمَعِ الْمُؤْمِنِينَ الْفَاضِلِ.

وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ إِنَّهُمْ حينَما يَخْتَلِفُونَ مَعَ بَعْضِهِمْ أَوْ مَعَ الْآخَرِينَ، وَ حينَما يَسِىءُ أَحَدٌ إِلَيْهِمْ، يُؤَثِّرُ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِمْ، وَ لَكِنَّهُمْ لَا يَحْوِلُونَ تِلْكَ الْآثَارَ إِلَى صِرَاعٍ، بَلْ يَعُودُونَ إِلَى الْقُرْآنِ وَ إِلَى سَائِرِ التَّعَالِيمِ، لِيَجْعَلُوا ذَلِكَ حِكْمًا فَاصِلًا بَيْنَهُمْ، فَتَرَاهُمْ بَدَلِ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِلَيْهِ.

و لعلّ من العوامل الأساسيه التى تجعلهم يتجاوزون سوره الغضب الى سعه الصدر و سماحه الحلم أهدافهم الساميه، فهم يؤمنون بأنّ غضبهم و حدّتهم يجب أن يصرفا فى الصراع مع العدو، بينما الذين تتضاءل أهدافهم فى أعينهم تراهم يصبّون جام غضبهم على أنفسهم، و يساهمون فى تحطيم مجتمعهم بأيديهم.

و العفو صفه ساميه جدا لأنّ هناك من لا يملك نفسه عند الغضب فتراه يتجاوز حدود الشرع و العقل و الأعراف، و يهدم فى لحظه ما بناه فى عقد من الزمن.

و المؤمن ليس فقط لا يخرج رضاه و غضبه عن حدود الله بل و يتجاوز غضبه الى العفو.

جاء في الحديث المروى عن الإمام الباقر عليه السلام :

«من كظم غيظا و هو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمانا و إيمانا يوم القيامة »

و قال :

«من ملك نفسه إذا رغب و إذا رهب و إذا غضب حرّم الله جسده على النار» (١)

و روى عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه و آله أنه قال :

«ألا- أخبركم بخير خلائق الدنيا و الآخرة: العفو عن ظلمك، و تصل من قطعك، و الإحسان الى من أساء إليك، و إعطاء من حرمك» (٢) [٣٨] أو من صفات مجتمع الشورى إيمان أفراده بخطّ واحد، فلا يسمّى اجتماع خليط من المذاهب المختلفة بمجلس شورى، إذ كيف يشترك من يكفر بإله الكون أو يشرك به مع من يؤمن بالتوحيد و بالإسلام فى مجلس واحد؟! وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ فَهُمْ يَلْتَقُونَ فى خطّ واحد هو خطّ الإمام المطاع بإذن الله.

وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ بطقوسها و قيمها.. ثم يؤكّد ربّنا مباشرة على صفة التشاور كأبرز صفة للمؤمنين..

ص: ٣٧٠

١- ١) نور الثقلين / ج (٤) ص (٥٨٢).

٢- ٢) المصدر.

وَ أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ و إِنَّمَا تَقَدَّمَ ذِكْرَ الْاِسْتِجَابَةِ لِلَّهِ، و إِقَامَةَ الصَّلَاةِ بِشُرُوطِهَا، لِأَنَّهُمَا ضَرُورَتَانِ لِكَيْ تَكُونَ الشُّورَى ذَاتَ فَاعِلِيهِ إِيجَابِيهِ فِي الْمَجْتَمَعِ.

و هُنَاكَ ثَلَاثَ نَظَرِيَّاتٍ فِي الشُّورَى:

الأولى: تقول بأنَّ الشورى «حق»، و الثانية: ترى أنَّها «واجب»، و تجمع الثالثة بين النظريتين، و بالذات في المسائل العامه التي تتعلق بمصير الأمة و شؤونها، فعلى ضوء هذه النظرية لا يجوز لحاكم الشرع و لو كان الفقيه العادل أن يجرى الأمور في إدارته للأمة كما يريد، و إنما يجب عليه أن يستشير الآخرين، و يجمع علمهم و عقلهم الى ما عنده، ثم يتخذ القرار على أساس هذه المشورة، كما يجب من جهة أخرى على الآخرين أن ينصحوه، و من أبرز الواجبات الإسلامية النصيحة لولي الأمر.. و هكذا

روى عن الرسول صلى الله عليه و آله :

«ما من رجل يشاور أحدا إلاّ- هدى الى الرشده» و لأنَّ الشورى انعكاس لروح الإيمان فهي تتسع لسائر مرافق حياه الجماعه المؤمنه، ابتداء من الأسره، و انتهاء بالدوله، و مرورا بالمرافق الاجتماعيه و الاقتصاديه، و الشؤون البلديه و القرويه. إنها أكثر من مجرد نظام سياسى، بل تشكّل جوهر العلاقه بين المؤمن و أخيه المؤمن، لأنها نابعه من احترام المؤمن و رأيه ثم التسليم للحق، و البحث عنه أنى وجد.

و حين تكون الشورى صبغه المجتمع المسلم تضمن حريه الرأى، و حقّ الانتخاب، و واجب المساهمه فى صنع القرار السياسى، بل و تكون كلّ هذه المفاهيم ذات هدف مقدّس.

ص: ٣٧١

ولقد رسم الدين منهج الحكم في قياده أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وآله، وهم الأَكْثَرُ علما و الأَتْقى عملا و الأكفء إداره، وجعل على الناس واجب التعرّف على هذا القائد، و انتخابه حاكما عليهم، فإذا فعلوا و جبت طاعته ضمن إطار المشوره.

فجاء في الحديث الشريف :

«من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه، مطيعا لأمر مولاه، فعلى العوام أن يقلّموه» «أنظروا الى رجل منكم قد روى حديثنا، و عرف حلالنا و حرامنا، فاجعلوه حكما فإنّي قد جعلته حاكما» و بهذا يتكفّل الإسلام حريه الرأى فى انتخاب أعلى قياده فى الأُمّه (بالطبع ضمن الإطار الدينى للمجتمع) و لكن لا ينتهى دور الأُمّه عند هذا الحد بل يجب على الإمام أن يند استشاره الأُمّه، ثم العزم على رأى و التوكّل على الله فى تنفيذه، كما قال ربّنا: **وَ شَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (١)** و هكذا كان يفعل النبي صلى الله عليه وآله و آله و الأئمّه من أهل بيته حسبما

روى معمر بن خلّاد عن الإمام الرضا عليه السلام قال :

«هلك مولى لأبى الحسن الرضا يقال له سعد فقال: أشّر علىّ برجل له فضل و أمانه، فقلت: أنا أشير عليك؟ فقال شبه المغضب: إنّ رسول الله كان يستشير أصحابه ثم يعزم على ما يريد الله» **(٢)** إنّ الرأى الأخير يكون للقائد المنتخب الذى يجتهد فى سبيل استنباطه من قيم

ص: ٣٧٢

١-١ (١) آل عمران/ (١٥٩).

٢-٢ (٢) موسوعه بحار الأنوار/ ج (٧٢) ص (١٠١).

الدين، ولكن لا يتعجله بل يسعى إليه عبر مشوره الرجال،

يروى في ذلك على بن مهزيار عن الإمام الجواد و يقول: كتب إلى أبو جعفر أن: سل خلافا يشير على و يتخير لنفسه، فهو يعلم ما يجوز في بلده، و كيف يعامل السلاطين، فإن المشوره مباركه، قال الله لنبية في محكم كتابه: فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ فَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مِمَّا يَجُوزُ كُنْتَ أَصَوَّبَ رَأْيَهُ، و إن كان غير ذلك رجوت أن أضعه على الطريق الواضح إن شاء الله (1) و من خلال النصوص الإسلاميه التي تأمر بالاستشاره نتبين أن أفضل الأنظمه الاقتصاديه في الإسلام هي التي تجمع أكبر قدر من صفه الشورى، و لعلها التعاونيات الاقتصاديه التي نستوحى أهميتها أيضا من مجمل القيم الإيمانيه كالتعاون و الإحسان و الإيثار و حرمه الترف و حرمه سيطره الأغنياء على مقاليد السلطه.

و قد حدّدت النصوص معالم الشورى في الحياه الاجتماعيه،

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله :

«استرشدوا العاقل و لا تعصوه فتندموا» (2)

و روى عن الإمام الصادق عليه السلام :

«استشر في أمرك الذين يخشون ربهم» (3)

و قال رسول الله ، و هو يوصى أمير المؤمنين عليه السلام :

ص: ٣٧٣

١-١) المصدر/ص(١٠٤).

٢-٢) المصدر/ص(١٠٠).

٣-٣) المصدر/ص(١٠١).

«يا على لا- تشاور جانا فإنه يضيق عليك المخرج، ولا تشاور البخيل فإنه يقصد بك عن غايتك، ولا تشاور حريصا فإنه يزین لك شرهما، واعلم يا على أن الجبن و البخل و الحرص غريزه واحده يجمعها سوء الظن» (١) و مثلما أمر الإسلام بالمشوره أمر المستشار بالنصح، فحرام أن يمحصك أخوك المؤمن ثقته ثم تخونه بالرأى الباطل و الرأى الفطير..

قال الإمام الصادق عليه السلام فيما روى عنه :

«من استشار أخاه فلم ينصحه محض الرأى سلبه الله عزّ و جلّ رأيه» (٢) و بين الإسلام كيف ينبغي أن يشير من يطلب منه الرأى،

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام :

«لا تكوننّ أوّل مشير، و إياك و الرأى الفطير (٣)، و تجنّب ارتجال الكلام، و لا تشر على مستبد برأيه، و لا على و غد (٤)، و لا على متلون، و لا- على لجوج، و خف الله فى موافقه هدى المستشار فإنّ التماس موافقه لؤم، و سوء الاستماع منه خيانه» (٥) و كلمه أخيره: إنّنا نسعى جميعا نحو رحاب الحريه، و نطالب أولى الأمر بها.

أ فلا نبدأ بأنفسنا و نشبع أجواءنا بعقب الحريه، و نبادل الرأى فيما بيننا؟ أ فليس أحقّ الناس بالخير الدعاه إليه؟

ص: ٣٧٤

١-١ (١) المصدر/ص(٩٩).

٢-٢ (٢) المصدر/ص(١٠٢).

٣-٣ (٣) قالوا: الرأى قبل التروى و التعمق.

٤-٤ (٤) الدنى الضعيف رأيا و عقلا.

٥-٥ (٥) المصدر/ص(١٠٤).

أو ليس أقرب السبل الى الحرية جعلها واقعا يعيش بيننا؟ أو ليست الحرية سلاحا نستخدمه ضد من يصادرها، وهي قوه تهاب، و جمال يستهوى اللباب؟ دعنا إذا نبدأ بأنفسنا و داخل أطر التحرك الدينى بالذات،فتشاور فى سائر شؤوننا،ذلك لأن الحاجه الى المشوره تزداد عند ما تخوض الأمه صراعا حضاريا مع الكفار و المنافقين..

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام :

«ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير رجلا عاقلا له دين و ورع؟ ثم قال: أما إنه إذا فعل ذلك لم يخذله الله، بل يرفعه الله و رماه بخير الأمور، و أقربها الى الله» (١)

و قال الرسول صلى الله عليه و آله :

«الحزم أن تستشير ذا رأى و تطيع أمره» (٢)

و قال الإمام على عليه السلام :

«الاستشاره عين الهدايه، و قد خاطر من استغنى برأيه» (٣) ثم و بعد التعرض للشورى يسرد لنا القرآن مجموعه أخرى من صفات المؤمنين التى تتكامل و صفه الشورى فيقول:

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

ص: ٣٧٥

١-١) المصدر/ص(١٠٢).

٢-٢) المصدر/ص(١٠٥).

٣-٣) المصدر/ص(١٠٤).

سواء كان رزقا ماديا كالمال و الشروه، أو معنويا كالحكمه و العلم، فإنّ المؤمنين ينفقون منه فى سبيل تقدّمهم جميعا، و لا ريب أنّ المجتمع البخيل الذى ينحصر أبناؤه فى حدود أنفسهم و مصالحهم لا يستفيد من الشورى، لأنّ تبادل الأفكار و المعلومات و الخبرات يستدعى تبادل المنافع، و دائما يكون وراء مبادله الخبرات التى تنفع اقتصاديا مبادله للأفكار، إذ لو لا وجود حاله العطاء و الكرم، و بالتالى الخروج عن نطاق الذات، إذن لما أمكن الإنسان الجلوس و التفاوض مع الآخرين، و لذلك جاء لنا التأكيد القرآنى على الإنفاق بعد الحديث عن الشورى.

[٣٩] و هناك مسأله أخرى تتصل بموضوع الشورى اتصالا متينا و هى قضيه الكرامه فى حياه المجتمع و الفرد، و التى من خلالها يتحدّد مصير الحريه، ذلك أنّ تحسّس الإنسان بكرامته هو الذى يدعو للتحرّر و رفض الضيم.

و المجتمع الذى يبقى يدور فى حدود المطالبه بالحريه زاعما بأنّها ستأتيه على طبق من الذهب لا- يفلح أبدا، لأنّه عند ما يستجديها ممّن سلبها منه فإنّه يثبت له بأنّه ليس أهلا للحريه و لا للكرامه، و إنّما أهل الحريه هم الذين يأخذون حريتهم بالقوه، و يستعيدون كرامتهم بدمائهم، و لذلك أكّد القرآن و فى هذا المقطع بالذات على فكره هامه هى أنّ الشورى التى تعدّ تعبيراً عن الحريه و الكرامه لا تعطى للمجتمع، و إنّما يجب أن تؤخذ بالقوه، و هذا يهدينا الى ضروره الجهاد و التضحيه من أجلها.

وَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَ الضمير المنفصل «هم» يأتى هنا للتأكيد على أنّ المؤمنين لا- ينتظرون أحدا لينتصر لمظلّمتهم، و إنّما يسعون بأنفسهم لرفع البغى عن أنفسهم، و فى الآيه فكرتان: الأولى: إنّ هؤلاء يقاومون البغى و يستعيدون حقوقهم بالقوه، و الثانیه:

إنهم ينصر بعضهم بعضا فى هذه المقاومة، فإذا سعى الظالم للبعى عليهم وقهرهم وقفوا جميعهم صفاً واحداً ضده.. ويتساءل البعض: لماذا أمرنا الله -إذا- بالعفو فى آيات عديدة؟ والجواب: إن التعافى إنما هو بين المؤمنين، أما إذا كان العفو سبباً لتمادى الظالم فى ظلمه فإنه لا يكون حسناً،

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام زين العابدين صلى الله عليه وآله :

«و حق من أساءك أن تعفو عنه، وإن علمت أن العفو يضر انتصرت، قال الله تعالى: وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» (١).

[٤٠] و حيث توجد بعض الجوانب السلبية فى نفس الإنسان، فإذا به و هو يجاهد لمقاومه الظالم يصبح أظلم منه، أو ينشر الفساد و البغى تحت رايه المقاومة، أكد القرآن على ضروره التقوى فى المقاومة، و أن لا يتعدى المؤمنون حدود الله فى جهادهم للظلم و الظالمين، بل و يدعوهم للعفو و الإصلاح ما استطاعوا إليه سبيلاً.

وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَاَلْمَقَابِلَةُ مَشْرُوعَةٌ وَ لَكِنَّهَا مَحْدُودَةٌ بِالتَّمَاثُلِ إِذْ قَالَ رَبَّنَا: فَمَنْ اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ (٢) و هذا التأكيد من قبل الله على التماثل مهم جداً، لأن النفس البشرية تزلزلها ردات الفعل و تخرجها من حد المعقول، فإذا بالضربه الواحده تقابل عندها بعشر ضربات مثلها تشفياً و انتقاماً و علواً و استكباراً، و هذه المعادله مرفوضه بتاتا فى كتاب الله.

ص: ٣٧٧

١- ١) نور الثقلين /ج (٤) ص (٥٨٥).

٢- ٢) البقره / (١٩٤).

لذلك ينبغي و من أجل الاحتياط و عدم مخالفه قانون التماثل فى القصاص، أن يأخذ الإنسان أقل من حقه و لو بقليل، و المثل الذى يقول: (نردّ الصاع بصاعين) لا يصلح قاعده للقصاص عند الإسلام، و إنما الصاع ينبغى أن يقابل فقط بصاع، كما قال القرآن الحكيم فى معرض حديثه عن بنى إسرائيل: وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ (١) و يرتفع الإسلام باتباعه الى قمة الفضيله و الإحسان بدعوته للعفو.

فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ و الدعوه للعفو هنا لا تدلّ على أنّ ربنا يأمر بغض النظر عن الظالمين، أو أنّه سبحانه يدافع عنهم، كلاًّ. فهو لا يحبّ الظالمين كما تشير الى ذلك خاتمه هذه الآيه الكريمة، و لكنّ الإنسان لا يمكنه أن يحكم قطعياً على الآخرين بالظلم من خلال تعامله اليومي مع الناس، فبرغم أنّ فلانا ظالم استنادا الى بعض ممارساته فيقع فيما وقع فيه الظالمون من البغى على الناس زعماً بأنهم إنّما يستردّون منهم حقوقهم المسلوبه فينبغى له أن يعفو عن الناس ما أمكنه ذلك، و بالذات إنّ العفو فى كثير من الأحيان يكون نفسه دافعاً قوياً للمسىء نحو التوبه و الاعتذار، و بالتالى الإصلاح، و هذا الأمر هو الذى يجعل من العافى مصلحاً، حسبما تشير الآيه إليه.

أمّا الذين يتسرّعون و يغضبون لأنفه الأسباب، أو لمجرّد بعض الأخبار التى ينقلها المغرضون، فيثيرون النزاع بين المؤمنين، فإنّهم لا يقاومون الظلم فى الواقع، لأنّهم لن يستأسدوا على الضعفاء، بينما يستسلمون للأقوياء، فهم كما قال الشاعر: أسد على و فى الحروب نعامه، بينما المجتمع الفاضل هو الذى تسود

ص: ٣٧٨

علاقاته الداخليه فضيله التعافى و الإيثار، و يدخر قوته و غضبه لمقاومه الظالمين و الجابره.

و ما أوجنا اليوم و نحن نعيش ظروف الصراع مع أعداء الدّين الى التعافى بيننا، و لو عرفنا ما فى العفو من ثواب عظيم لاستصغرت فى أعيننا المكاسب الجزئيه التى ترتجى من صراعنا الداخلى أو انتصارنا من بعضنا البعض، هكذا

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«عليكم بالعفو، فإنّ العفو لا يزيد العبد إلا عزّاً، فتعافوا يعزكم الله» (١) و لعلّ العزّه تأتى عبر انتصارهم على عدوّهم بما يوفّره التعافى عن بعضهم من التماسك الداخلى، و ربما تشير الروايه التاليه الى هذه الحقيقه، إذ تقول (نقلاً

عن الإمام أبى الحسن عليه السلام) :

«ما التقت فتتان قط إلاّ نصر الله أعظمهما عفوا» (٢) [٤١] أو ينقض القرآن جانباً من الأفكار السلبيه التى ينشرها البعض فى الأّمه، من قبيل أنّ مقاومه الظالمين و الثوره ضدّ الانحراف هى السبب فى اضطراب الأوضاع و انحسار الأمن، بينما السبب هو ظلم السلطه الحاكمه و انحرافها، فالظلم هو السبب فى انعدام الأمن، و ليس ردّ الظلم من قبل المجاهدين.

وَ لَمَنْ ائْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ فَلَاحِجٌ إِذْنُ أَنْ نَلْقَىٰ بِاللُّومِ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَطَالِبُونَ بِحَقُّوقِهِمُ الْمَشْرُوعَةَ، وَ بِهَذَا

ص: ٣٧٩

١- ١) المصدر.

٢- ٢) موسوعه بحار الأنوار/ج (٦٨) ص (٤٢٤).

يقطع القرآن الكريم ألسنه ضعفاء النفوس و مرضى القلوب الذين يقفون دائما مع القوى ضد الضعيف.

[٤٢] إذن فعلى من يقع اللوم؟ و من هو المسؤول عن الواقع الفاسد؟ إنما المسؤول الأول عن مشاكل الصراع هم الحكام الظلمه الذين يريدون السيطرة على الناس و نشر الفساد.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَالْقَوَى الْأَسْتِكْبَارِيَّةَ الَّتِي تَسْعَى لِبَسْطِ سُلْطَانِهَا الْفَاسِدِ عَلَى الشُّعُوبِ وَ أَنْظَمَتِهَا الْعَمِيلَةَ هِيَ الْمَسْئُولَةُ عَنْ مَشَاكِلِ الشُّعُوبِ وَ مَآسِيهَا، أَمَا دِفَاعُ النَّاسِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَ عَنْ مَصَالِحِهِمْ فَهُوَ جِهَادٌ مُشْرَعٌ لِاسْتِرْدَادِ الْحَقُوقِ الضَّائِعَةِ.. وَ الْإِرْهَابُ هُوَ السِّيَاسَةُ الَّتِي يَقُومُ بِتَطْبِيقِهَا الْمُسْتَكْبِرُونَ وَ الْأَنْظَمَةُ الرَّجَعِيَّةُ الْعَمِيلَةُ لَهُمْ، وَ لَيْسَ مَا يَضْطَرُّ إِلَيْهِ الْمَصْلُحُونَ وَ الْمُدَافِعُونَ عَنْ حَقُوقِهِمْ.. وَ يَتَوَعَّدُ رَبَّنَا الطَّغَاةَ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ.

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَدْ يَرُونَهُ فِي الدُّنْيَا وَ رَبَّمَا يَتَأَخَّرُ إِلَى الْآخِرَةِ.

[٤٣] و إذا كُنَّا نريد الانتصار على هؤلاء الظلمه فنحن بحاجة ماسه الى الصبر..

أولاً: الصبر و الاستقامه أمام إغراءات العدو، فالظالم يبيث في المجتمع ألوانا من الأحلام و الأمانى و كلها كاذبه، ثانياً: الصبر لتحدى إرهاب العدو و قمعه، ثالثاً: الصبر لمقاومه الاستعجال و الارتجاليه في أنفسنا و عند أصدقائنا، فما أحوجنا

لذلك و نحن نسعى لتنظيم أنفسنا و أمورنا استعدادا لمحاربه العدو.

وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَ العزم فى الأمور هو أن لا يأخذ الإنسان الأمور مأخذا هينا دون التخطيط الدقيق لها و السيطرة عليها، بل الحسم و الإراده القويه لتحقيق الأهداف المنشوده، بعيدا عن روح التشقى، و ذلك لا يتأتى إلا بالصبر و الحلم.

و يبدو أن هذه الآيات و بالذات الأخيره منها تهدف-فيما تهدف-تربيه نفوس المؤمنين على مقاومه الترف و التعجل و فورات الغضب التى تصيبهم فى لحظات الضعف فتذهب بحلمهم و أناتهم و رفقهم و تطفهم، و ربما كشفت عن واقعهم، و أفسدت خططهم الرساليه.

بينما حاجه المؤمنين الى الصبر بانتظار اللحظه المناسبه حاجه مضاعفه، من أجل ذلك أوصى أئمه الهدى المجاهدين ضد الطاغوت بكظمهم الغيظ، و اعتبروا ذلك من الحزم الذى يساهم فى نجاح المهمات الصعبه.

قال الإمام الصادق عليه السلام :

«كظم الغيظ من العدو فى دولا-تهم تقيه(تقاه)حزم لمن أخذ به، و تحرز عن التعرض للبلاء فى الدنيا، و معانده الأعداء فى دولا-تهم، و مماظتهم (١)فى غير تقيه ترك لأمر الله، فجاملوا الناس يسمن ذلك لكم عندهم (٢)و لا- تعادوهم فتحملوهم على رقابكم فتدلّوا» (٣)

ص: ٣٨١

١-١) المماظه:شده الخلق و المنازعه.

٢-٢) اى ينمى قدركم عندهم.

٣-٣) المصدر/ص(٤٩).

و يبلغ بالإمام زين العابدين التأكيد على كظم الغيظ تقيه درجه

يقول :

«وددت أنّي افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض ساعدى: النزق و قلّه الكتمان» (١) و تزداد صفه العفو أهميه عند المقدره، و بالذات عند سيطره فريق على آخر، و ما أحوج حكام المسلمين اليوم الى هذه الصفه الإيمانيه التي كانت رمز بقاء الإسلام و انتشار نوره، أ فلا تأسوا برسولهم الكريم الذي عفى عن قريش بعد أن شئت عليه (١٧) حربا بكلمه واحده قائلاً:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء» و عفى عن قاتل حمزه عمّه الكريم، بالرغم من أنّ قتله أحدث في فؤاده جرحاً نازفاً، بل و عفى عن تلك المرأه اليهوديه التي سمّته، و سبّبت -بالتالى- فى وفاته حسب بعض النصوص!

و يروى الإمام الباقر عليه السلام قصه عفوّه عن اليهوديه هكذا :

«إنّ رسول الله أتى باليهوديه التي سمّت الشاه للنبي فقال لها: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: قلت: إن كان نبياً لم يضرّه، و إن كان ملكاً أرحت الناس منه، قال: فعفا رسول الله عنها» (٢) إنّ خلق الرسول كان من أعظم أسباب انتشار نور الإسلام و عزّه المسلمين،

و قد قال صلى الله عليه و آله :

«ما أعزّ الله بجهل قط، و لا أذلّ بحلم قط» (٣)

ص: ٣٨٢

١-١) المصدر/ص(٤١٦).

٢-٢) المصدر/ص(٤٠٢).

٣-٣) المصدر/ص(٤٠٤).

وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعِيدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ (٤٤) وَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ
عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ خَفِيِّ وَ قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا
إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَ لَمَّا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦)

هدى من الآيات:

فى إطار بيان مبدأ «الشورى» و الذى يتجلى فى النظام السياسى الكفيل باحترام الرأى، و التسليم للحق، و إتماما لما ذكر فى الآيات السابقة من واجب مقاومه الظالمين و الانتصار منهم، يبصرنا السياق بالعاقبه السوئى للظلم. أو ليس الظلم أكبر عقبه فى طريق النظام الشورى الصالح و التى لا بدّ للمؤمنين من تصفيتها؟ أولى السيئات التى تلحق الظالمين الضلاله « وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ».

و الثانى: الندم البالغ حينما يرون العذاب فاذا بهم يتساءلون بذلّ: هل الى رجوع سبيل؟ و الثالثه: خشوعهم الذليل عند ما يعرضون على النار، حتى أنّهم ينظرون إليها من طرف خفى ذلّه و صغارا.

و الرابعة:التبكييت الذى يلاحقهم من عند المؤمنين حيث يذكرونهم بأنهم خسروا أنفسهم و أهلهم يوم القيامة.

و الخامسة:خلودهم فى العذاب.

و لقد فقدوا أنصارهم الذين التفتوا حولهم فى الدنيا فلا أحد ينصرهم هنالك فى الآخرة.

بينات من الآيات:

[٤٤]فى فاتحه الدرس و خاتمته نقرأ عن ضلاله الله،و أنّ من يضلّه الله لا وليّ له و لا سبيل أمامه،و لا ريب أنّ فقد الهدايه أعظم مصيبه و أكبر خساره،و أنّ الله لا يضلّ أحدا إلاّ بسبب ارتكابه جريمه كبيره.أو ليس الله بأرحم الراحمين،فكيف يحجب نور هدايته عن البشر و هو لا يملك هاديا سواه؟ و هنا يطرح السؤال التالى:لماذا لا تكون الهدايه إلاّ عبر النهج الإلهى؟ إنّ للهدايه شروطا ثلاثه و هى:

أولا:وجود نور من عند الله يهدى الإنسان الى الطريق.

ثانيا:وجود إرادته عند البشر يتغلّب بها على شهواته و سائر العقبات التى تمنعه من رؤيه النور.

ثالثا:انعدام الحجب التى تمنع النور،كما الرؤيه لا تتم إلاّ بضياء و بصر و ألاّ يكون بينهما حجاب ساتر.

و لا تتوفّر هذه الشروط لبشر إلاّ بإرادته الله تعالى.دعنا نفضّل القول فى ذلك،

فمن الشرط الأوّل نقول: من الذى يهب لنا العقل و العلم؟ من الواضح أنّ العلم بوسائله القديمه و الحديثه عجز عن إصلاح ألياف المخ التى تتلف، فكيف يعطى الإنسان نورا؟ كما لا يزال الجنون لغزا أمام الطلب و العلم البشرى إلا بعض أنواعه البسيطه..

كما أننا نمرّ فى حياتنا بعهود ثلاثه يتضح لنا من خلالها أنّ العقل و العلم من عند الله عزّ و جل، ففى عهد الطفوله يولد الإنسان و هو لا يعلم شيئا و الله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١)، و فى عهد القوه عند ما يكون المرء فى عزّ شبابه، و حيث قواه العقليه و الجسميه و النفسيه فى أوج قوتها، لا- يكتشف إلا بعض الأمور، و قد يفقد علمه بالنسيان و عقله بغلبه الغضب، ثم يبدأ مسيرته المتكسه علميا و جسميا و نفسيا، فإذا به ينقص علمه و مَنْ نُعَمِّرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَوْ فَلَآ يَعْقِلُونَ (٢).. و من الأمور التى تتكرّر لكلّ بشر فى جانب العلم من حياته أنّه قد تبدو له بعض الأمور واضحه و لكنّ عقله يعجز عن استيعابها و إذا به يلهمها إلهاما، و إلى هذه الحقيقه يشير أكثر المفكرين و المبتكرين فى كلامهم عن كيفيه وصولهم الى المعرفه، و إن كانت مذاهبهم تختلف فى تفسير ماهيته الإلهام و مصدره.

و فى النصوص الإسلاميه نجد بيانا لحقيقه العلم، ففى سوره العقل نقرا: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٣) إذن فالقراءه و هى إحدى طرق العلم و المعرفه لا- تكون إلا بالله الذى يتكرّر ذكر اسمه فى أوّل كلّ سوره تذكيرا بذلك،

و الحديث

ص: ٣٨٤

١- (١) النحل/ (٧٨).

٢- (٢) يونس/ (٤٨).

٣- (٣) العلق/ (١-٥).

المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام يقول :

«ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك و تعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبوديّة، و اطلب العلم باستعماله، و استفهم الله يفهمك» (١) و حينما نعود الى تجاربنا الشخصية في الحياه و الى وجداننا و فطرتنا نكتشف بأنّ العلم ليس من ذات أنفسنا، كما أنّه ليس من ذات الأشياء، و إنّما هو حاله في قلوبنا مستجدّه، و بالرغم من وجود إثارات خارجيه له إلاّ أنّه غير تلك الإثارات، بل مثله مثل العين التي تثيرها الأشياء بما فيها من أنوار إلاّ أنّنا لو لم نملك عينا لم تنفعنا إثارة الأشياء أبداً، كذلك الإثارات التي تبدو عندنا أسباباً للعلم فمن دون حاله العلم لما نفعتنا شيئاً. إذا العلم من عند الله.

الشرط الثاني: من الذي جعل لكلّ شيء علامه تدلّ عليه، أو ليس الله؟ كما العين تبصر و لكن بشرط وجود النور المنعكس من الأشياء عليها، كذلك العلم يكتشف الحقائق بشرط وجود دلالة منها عليها، و الله هو الذي جعل لكلّ شيء دلالة عليه.

و كلّ شيء يكشف عن نفسه من خلال أمارات و علامات ظاهره، فآبار النفط، و عيون الماء، و المناجم، جعل الله لها جميعاً آيه تدلّ عليها، فمثلاً قديماً كانوا يكتشفون المياه بواسطة غصن أخضر يمشون به في عرض الصحراء، فإذا مال الى جهه ما تأكّدوا من وجوده فيها. من الذي جعل هذه العلاقة بين الغصن و الماء؟ إنّهُ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٢) و الإمارات و الآيات التي أودعها

ص: ٣٨٧

١-١ (١) بح/ج (١) ص (٢٢٥).

٢-٢ (٢) طه / (٥٠).

اللّٰه في الخلق بمثابه النور الذي يكشفها للإنسان،

و قد قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه و آله :

«إِنَّ لِكُلِّ حَقِّ حَقِيْقَه، و على كَلِّ صواب نورا» و لو أخفى اللّٰه شيئا، و لم يجعل بينه و بين علم الإنسان علاقه، فمن الذي يمكنه أن يهدينا إليه؟ و فعلا أخفى اللّٰه عن علم الإنسان أكثر ممّا أظهر.

الشرط الثالث: و لأنّ الإنسان يفقد قدرته على الرؤيه و التمييز في بعض الحالات، كالغضب الشديد، أو الاهتمام بقضيه معينه، أو عند الشهوه، إذ ينعدم حينها شعوره الداخلي، فهو بحاجة الى إرادته قويه يتغلب بها على تلك الحالات، و الإراده من اللّٰه و مَا تَشَاوَنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ كَمَا أَنَّ قُوَّةَ الْإِرَادَةِ وَ ضَعْفَهَا بِيَدِ اللّٰهِ، و لو لا تأييده لخارت أمام الضغوط، و إذا لم يهتد أبدا.

وَ مِمَّنْ يُضَلِّ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ يَسْتَطِيعُ هِدَايَتَهُ أَوْ إِنْقَاذَهُ مِنْ مَصِيرِهِ الْأَلِيمِ. فإذا كان يستحقّ النجاه فإنّ اللّٰه أحقّ بنجاته، لأنّه خالقه و بارئه و أرحم به من كلّ شخص، فمن لا- يرحمه أرحم الراحمين، و من لا- يسعه حلم اللّٰه الواسع و كرمه العظيم، ترى هل من رحمه تسعه أو حلم أو كرم؟! و نقرأ في سورة الرعد: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَ مَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١) و الذي يتبع السبل الأخرى غير سبيل اللّٰه المتمثّل في رسالاته و أوليائه، فإنّه يكتشف خطأه و ضلاله البعيد يوم القيامة، أو حتى في الدنيا عند الجزاء.

ص: ٣٨٨

وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَ قَدِ انْتَهتِ الفرصه التي أعطيت لهم ليجزّوا بها إرادتهم.

يَقُولُونَ هَلْ إِلِي مَرَدٌّ مِنْ سَبِيلِ إِنْهُمْ وَ قَدِ انْتَهى بهم الظلم الى نار جهنم يتمنون الكره ليختاروا هدى الله على ضلالات الشيطان، و لكن هيهات، هل تعود عقارب الزمن الى الوراء، هل الشباب يردّ الى العجوزه المتهاويه، أم تعود نضاره الطفوله الى من عركته السنين، و بلغ من العمر عتياً؟! حقاً تثير هذه الحقيقه النفس من أعماقها، فأى خساره كبرى تلحق بالظالمين، بل أى ثمن يسوى فى مقابل هذه الخساره التي لا تعوّض؟! [٤٥] و تتواصل الآيات فى بيان عاقبه الظالمين الذين لو تسنى لهم لماتوا ملايين المرّات حسره على التفريط فى جنب الله، و هم يتعدّبون نفسياً و جسدياً، نفسياً لأنهم يشعرون بالذلّه و المهانه بعد العلوّ و التكبر فى الدنيا، و جسدياً لأنهم سيصيرون حطبا لجهنم.

وَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ إِنْ أَهَمَّ الْعُقَبَاتِ النفسيه التي تعترض طريق الإنسان الى الهدايه هو التكبر، الذى أخرج إبليس من الجنه، و لا- زال يخرج به إبليس أبناء آدم من رحمه الله الى غضبه و عذابه، و على الإنسان أن يقاوم جموح النفس المتكبره، بتصوّر تلك اللحظه التي يعرض فيها المتكبرون على النار، خاشعه نفوسهم من الدلّ.

و هذا الخشوع السلبي لا يتجاوزه الإنسان إلا بخشوع الإيمان الإيجابى، و لذلك

جاء فى الدعاء :

«اللهم ارزقنى خشوع الإيمان قبل خشوع الذلّ فى النار» و حيث تبلغ الذلّه بالظالمين ذروتها يوم القيامة فهم لا- يستطيعون الالتفات الى من حولهم بكامل نظرهم و أعينهم، و بالذات أولئك الذين أظهروا أنفسهم مظهر المؤمنين، و خدعوا الناس فى الدنيا، و لذلك فإنّهم حينما يريدون الالتفات الى الناس، أو حتى مجرد رفع طرفهم نحو الآفاق، يختلسون النظرات ذلّه و مهانته.

يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ بحيث لا يرون أحدا، و هذه من طبيعه المجرم، أو الإنسان حينما يصعد عنده الشعور بالذلّ.

و قال البعض: إنّ شدّه العذاب تمنعهم من النظر إلى النار، و لكنّهم ينشدون إليها خوفا منها و فرقا، و لذلك تراهم ينظرون إليها من طرف خفى، كالذى حكم عليه بالإعدام ينظر الى المشنقه نظرا خفيا، بعكس الذى ينظر الى روضه غنّاء فإنّه يملأ منها عينيه.

أما الصالحون فإنّهم يستفيدون من هذا الموقف موعظه و عبره..

و قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بسبب ظلمهم و ضلالهم. لقد وفرّ الله سبحانه فرصه عظيمه للإنسان حيث أعطاه قوى نفسه، و متعه بأهليه، و الظالمون يفقدون هذه الفرصه، فلا يعملون بأنفسهم عملا صالحا حتى يستفيدوا من طاقاتهم يوم القيامة، و لا يربّون أهلهم

ص: ٣٩٠

على العمل الصالح حتى يستفيدوا من حسنات ذريّتهم يومئذ، وهكذا تكون خسارتهم مضاعفه في ذلك اليوم الرهيب.

أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ أَى دَائِمٍ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ.

[٤٦] كما أنّ الظالمين يخسرون أنصارهم و أعوانهم يوم القيامة، حيث تنقطع كلّ العلاقات و الروابط التي منعتهم في الدنيا من الاستقامه على الطريق..

وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُنصِرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ هَذَا الْمَعْنَى يَتَكَرَّرُ عَشْرَاتِ الْمَرَّاتِ فِي الْقُرْآنِ، وَ لَكِنْ لِمَاذَا تُوكَدُ الْآيَاتُ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِمُ الْإِنْسَانُ وَ يَتَوَسَّلُ بِهِمْ وَ يَعْبُدُهُمْ، كَالطَّوَاغِيتِ، وَ أَصْحَابِ الْقُوَّةِ وَ الْمَالِ، وَ أَصْحَابِ الْعِلْمِ الضَّالِّ وَ الشَّهْرَةِ لَنْ يَنْفَعُوهُ؟ لِأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ عَوَامِلِ الضَّلَالَةِ أَصْحَابَ السُّوءِ الَّذِينَ يَغْتَرُّ بِهِمُ الظَّالِمُ فَيَتَوَسَّلُ فِي اغْتِنَابِ حَقُوقِ النَّاسِ اعْتِمَادًا عَلَيْهِمْ. أَ فَلَا يَتَفَكَّرُ أَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَهُ شَيْئًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! وَ مَنْ يُضَلِّلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الْهُدَايَةِ، لِأَنَّ السَّبِيلَ الْوَحِيدَ إِلَيْهَا هُوَ سَبِيلُهُ.

و أخيرا:

نتساءل: ما هي علاقه هذه المجموعه من الآيات و الأفكار المستوحاه منها بموضوع الوحده و معالجه الاختلافات الاجتماعيه؟ إنّ القرآن الحكيم يسعى لمعالجه جذور الفساد و الاختلاف، و من أهمها

ص: ٣٩١

الضلاله، ذلك أن البعض يعرف الحقيقه بينما يجهلها البعض الآخر، الأمر الذى ينتهى الى الخلاف فى أغلب الأحيان، و القرآن يعالج الضلاله البشريه مؤكّدا بأن سببها الابتعاد عن منهج السماء، فإذا ما عاد الى الله و استجاب لدعوته اهتدى الى الحق، و ابتعد عن التكبر الذى يقف بصوره أو بأخرى خلف الصراعات الاجتماعيه.

ص: ٣٩٢

اشاره

اِسْتَجِيبُوا لِلرَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرَحَّ بِهَا وَ إِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَ إِنَاثًا وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) وَ مَا كَانَ لِيُشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

اللغه

٤٨] و ما لكم من نكير]: أى منكر ينصركم، أو إنكار: بمعنى إنكم لا تقدرّون على الاستنكار لشده الهول و الفزع أو لما ترون من عدم الفائدة فى إنكاره.

هدى من الآيات:

تواصل خاتمه آيات السوره لتطهير الأفتده من غفلتها عن الرساله، و اتكالها على الرسول، و غرورها بما تملك، و جزعها مما تفقد، كيف؟ يهزّ مطلع الدرس القلب هزًا عنيفا بعد أن يأمره بالاستجابة للرساله فينذره بيوم عظيم لا يردّه شيء، هنالك حيث لا ركن يلجأون إليه، و لا نصير ينكر ما يفعل بهم.

ثم ينسف فكره الاتكال في الهدايه، فحتى الرسول لا يتحمّل المسؤليه إلا بقدر تبليغ الرساله.

و يحطّم غرور الإنسان، و يعريه على ضعفه، و كيف يهتزّ فرحا برحمته، و لا يلبث أن يتميّز كفرا و يأسا إذا أصابته سيئه، أ فلا يهديه ذلك الى أنه لا يملك من أمره شيئا، و أنّ لله ملك السموات و الأرض، و أنّه يخلق ما يشاء، و أنّه الذى يقسم

رحمته بين عباده كيفما يشاء، فيهب لهذا ذكرانا، و لذلك إناثا، و يجعل الثالث عقيما؟ و يكرم من يشاء بأعظم مكرمه و هى الوحي ثم يمضى السياق فى بيان حقائق عن الوحي، فتكتمل السوره التى تبين جوانب عن النظام السياسى فى المجتمع المسلم بالحديث عن الوحي. أو ليس هو محور هذا المجتمع، و قيمه نظامه السياسى؟

بينات من الآيات:

[٤٧] أعظم ما يعانى منه البشر الغفله، حيث تحيط بهم مشاكل يومية تنسيهم قضاياهم الهامه، و عاده تحجب الشجره الناس عن رؤيه الغابه المتراميه.. و يعالج الذكر هذه الحاله بالإنذار الصاعق من يوم القيامه حيث لا يمكن الفرار من أهواله.

اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ بِالاسْتِمَاعِ اِلَى دَاعِيهِ، و التسليم للحق الذى نزل معه، و الطاعه للقياده التى أمر بها.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ و هل يرد أحد ما يريد الله تعالى؟ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ فَلَا أَحَدًا.

وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ [٤٨] و يعالج القرآن- و فى أكثر من آيه- عقبه نفسه أمام تحمل مسئوليته

الإيمان، حيث ترى الإنسان ينتظر من يحمله الإيمان تحميلاً، و يزعم أنه ما دام لا يوجد من يكرهه على الإيمان فهو معفى عنه و عن التزاماته.

كلاً.. الإيمان مسئوليتك قبل أى شخص آخر. أو ليست فائدته لك، و خسارته-إن خسرتة-عليك، فما ذا تنتظر؟ إن الرسول ليس إلا مبلغ، فإن شئت آمنت بحرّيتك، و إن شئت اشتريت العذاب بما اخترته لنفسك من الكفر.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ هَذَا دَوْرُ كُلِّ قَائِدٍ رَسَالَى فِي أَى مَجْتَمَعٍ وَ أَى زَمَانٍ، وَ كَفَى بِذَلِكَ مَسْئُولِيهِ كَبِيرَهُ بِتَحْمَلِهَا. وَ إِذَا مَا أَعْرَضَ النَّاسَ عَمَّا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ فَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى قُصُورٍ فِي الرِّسَالَةِ، وَ لَا تَقْصِيرٍ فِي الْقَائِدِ، بِمَقْدَارِ مَا يَدُلُّ عَلَى ابْتِعَادِهِمْ عَنِ مِيزَانِ الْعَقْلِ الثَّابِتِ، وَ اتِّبَاعِهِمْ لَطِبَائِعِهِمُ الْمُتَقَلِّبَةَ، وَ الَّتِي تَتَأَثَّرُ بِالضَّغُوطِ وَ الْعَوَامِلِ الْخَارِجِيَةِ، وَ الَّتِي يَسْتَعْرِضُهَا السِّيَاقُ هُنَا لِيَهْدِيَ الْإِنْسَانَ إِلَى مَرَاكِزِ ضَعْفِهِ، لِكَيْ لَا يَسْتَبَدَّ بِهِ الْغُرُورُ فَيَكْفُرُ.

إن ضعف الإنسان يتمثل فى تقلب حالته النفسية مع تقلبات الظروف الخارجة عن إرادته، فهل تكون هذه الحالة ميزانا صالحا لتقييم الحق و الباطل، أو منهجا سليما للسلوك، أم لا بد من اتباع الرسول.

وَ إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرَحَّ بِهَا وَ تَوَقَّفَ عِنْدَ حُدُودِ النِّعْمَةِ دُونَ التَّفَكِيرِ فِيمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ مَسْئُولِيهِ، وَ قَدْ نَهَى اللَّهُ عَنِ الْفَرَحِ قَائِلًا: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (١) وَ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ:

ص: ٣٩٧

لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازِهِ مِنَ الْعَذَابِ (١) و الفرح المنهى عنه هو حاله الإشباع التي تؤدى الى الغرور أو نفى المسؤولية و الوصول الى الكمال. و هذا الشعور يوقف مسيره التقدم عند الإنسان، و على العكس من ذلك لو أشعر نفسه بأن أمامه مسئوليات أخرى لم يؤدّها، فإنه يستشعر الحزن فى نفسه لاعتقاده بالتقصير فى عمله.

و هكذا

أوصانا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين قال:

«و اعلموا عباد الله! إنَّ المؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا و نفسه ظنون عنده، فلا يزال زاريا عليها، و مستريدا لها، فكونوا كالسابقين قبلكم، و الماضين أمامكم، قوضوا من الدنيا تقويض الراحل، و طوها طي المنازل» (٢)

و أوصى الإمام الكاظم بعض ولده بذلك قائلا:

«يا بنى عليك بالجد، لا تخرجن نفسك عن حدّ التقصير فى عباده الله و طاعته فإنَّ الله لا يعبد حقَّ عبادته» (٣) و هناك جانب آخر من طبيعه البشر هو اليأس عند المصيبة و الابتلاء، حيث ينسى نعم الله عليه بسبب مصيبه يتعرّض لها فى حياته، ممّا يدلّ على مدى ضعفه.

و لماذا يكفر بالنعم؟ لأنه فقد بعض المال أو أصابه شىء من المرض، أو فلا فكّر فى سائر نعم الله التى لا يزال يتقلّب فيها، ألا تذكر أيام الرخاء و الراحة عند ما كان يفرح بالنعم و يحسب أنّها دائمه لا تزول عنه أبدا؟! بلى. ينبغى أن يركّز المبتلى نظره فى سائر نعم الله عليه، فيستعيد شخصيته،

ص: ٣٩٨

١-١ (١) آل عمران/ (١٨٨).

٢-٢ (٢) موسوعه بحار الأنوار/ ج (٦٨) ص (٢٣١).

٣-٣ (٣) المصدر/ ص (٢٣٥).

و يثق برّبّه، و يسرع فى مقاومه البلاء بروح إيجابيه، كما ينبغى أن يتذكّر أبدا نعم الله السابقه عليه فيزداد بالله أملا و له حمدا كثيرا، كما فعلت امرأه أيوب حيث حاول إبليس إغواءها عند ما أحيط بها البلاء، فنهرته و استقامت على صبرها و تجلّدها حتى فرّج الله عنها..

جاء فى الحديث: إنّه جاءها ذات يوم فقال لها:

أ لست أخت يوسف الصديق عليه السلام! قالت: بلى. قال: فما هذا الجهد؟ و ما هذه البليه التى أراكم فيها؟ قالت: هو الذى فعل بنا ليؤجرنا بفضلله علينا، لأنّه أعطاه بفضلله منعما، ثمّ أخذه ليبتلينا، فهل رأيت منعما أفضل منه؟! فعلى إعطائه نشكره، و على ابتلائه نحمده، فقد جعل لنا الحسنين كليهما، فابتلاه ليرى صبرنا، و لا نجد على الصبر قوه إلا بمعونته و توفيقه، فله الحمد و المنه ما أولانا و ابتلانا (1) هكذا يوجّه المؤمنون الابتلاء و المصيبه، و يقاومون وساوس الشيطان الذى يحاول تحريف مسيرتهم، بينما يكفر سائر الناس بسبب الابتلاءات التى يتعرّضون لها، و التى لو درسناها لوجدنا أكثرها تحلّ بهم لذنوبهم و ما قدّمته أيديهم من سيئات.

وَ إِنْ تُصِـبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ يكفر بالنعم القديمه كما يكفر بسائر النعم التى تحيط به الآن، فتظلم الدنيا فى عينيه، و يفقد قدره على مقاومه البلاء و التمتع بالرخاء.

[٤٩] هذا ضعف الإنسان، و خور عزمه، أ فلا اتصل بالقوه التى لا تقهر، و بالملك الذى لا يحد، و بالعزّه التى لا تغلب، بالله القوى العزيز؟ لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ

ص: ٣٩٩

و من أوسع ملكا مَمَّن يملكهما، و من أنفذ ملكا مَمَّن خلقهما؟ أو ليست السموات مطويات بيمينه؟ ثم إن ملكه لا يحدّ بالسموات والأرض، لأنّه:

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ دُونَ أَنْ يَحِقَّ لِأَحَدٍ الِاعْتِرَاضَ عَلَيْهِ أَوْ السُّؤَالَ.

و تتجلى هذه المشيئة فى مختلف جوانب الحياه، و من بينها تصرّفه فى أعظم ما خوّله للإنسان من الملك و هو الولد.

يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ فَلَا الَّذِى يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ نَسْلُهُ كُلَّهُمْ إِنَاثًا قَادِرًا عَلَىٰ إِنْجَابِ الذُّكُورِ، وَ لَا الْعَكْسَ. وَ لَعَلَّ تَقْدِيمَ الْإِنَاثِ عَلَى الذُّكُورِ كَانَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْبِنْتَ هِيَ الْآخَرَىٰ هَبَهُ مِنَ اللَّهِ عَظِيمِهِ، أَوْ لِأَنَّ الْجَاهِلِيَّيْنَ كَانُوا لَا يُحِبُّونَ الْإِنَاثَ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ - بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ - يَهَبُ الْإِنَاثَ، فَهُوَ الْوَاهِبُ لِمَا يَشَاءُ، كَيْفَ يَشَاءُ، أَوْ لَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى سَعَةِ مَلِكِهِ، وَ شِدَّةِ هَيْمَنَتِهِ؟ [٥٠] أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَ إِنَاثًا أَىٰ يَجْعَلُ النَّسْلَ مِنَ الْجِنْسَيْنِ الْإِنَاثِ وَ الذُّكُورِ.

وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا فَلَا يَهَبُ لَهُ شَيْئًا، وَ هَذِهِ الْمَشِيئَةُ لَيْسَتْ اِعْتِبَاطِيَّةً، وَ إِنَّمَا تَدْخُلُ ضَمْنَ حُكْمِهِ اللَّهُ وَ إِرَادَتِهِ الْمَطْلُوقَةَ.

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ

ص: ٤٠٠

و لو أنه يعطى الناس كيفما أرادوا لربما فسد العالم، فقد يتمنى الجميع أو الأكثرية الذكور أو العكس، بينما لا بد من التنوع و التوازن للحفاظ على الجنس البشرى، و من جانب آخر يجعل ربنا البعض عقيما لحكمه يعلمها، فربما يفسد العقيم لو أعطى ذريته.

و معرفه هذه الحقيقه تبث السكينه فى النفس، فمن علم بأن الله هو الوهاب لأفضل النعمه و أشدها تأثيرا على النفس، و هى نعمه الذريه التى تهش لها نفس كل حى، لا يستبد به الفرح حتى يدخله فى الغرور، كما أنه لو فقد شيئا من النعمه لا يستبد به اليأس حتى يدخله فى الكفر بالنعم، لأنه يعلم بأن المقدر لكل ذلك هو الله الذى لا يظلم و لا يجور سبحانه و تعالى.

[٥١] و فى سياق الحديث عن آماذ ضعف البشر، و أبعاد حاجته، و ضروره اتصاله بمعدن القوه، و ينبوع الغنى برحمه الله الذى له ملك السموات و الأرض يهدينا الرب الى نعمه الرساله، و يتصل الحديث عن الرساله بالجو العام لسوره الشورى التى تختم بهذه الآيات اتصالا متينا، ذلك لأن الشورى - كما أسلفنا - متممه للنظام السياسى للأمم، و محور هذا النظام بل و أساس الأمم هو الوحي الذى يضىفى على المجتمع المسلم صبغه الله، و يحييه بكلمه التقوى، و يوحده حول محور قياده الرساليه المتمثله فى الرسول صلى الله عليه و آله و ذوى القربى من أهل بيته المعصومين و من اتبع نهجهم من الفقهاء الصالحين! و لم يمن الله على عباده بنعمه أعظم و لا أروع و لا أنفع من الوحي. إنه التجلى الأعظم لرحمه الله التى وسعت كل شىء، و أى تقدير أو أى احترام أكبر من أن يتلقى الإنسان كلمات جبار السموات و الأرض؟! و أى قلب عظيم هذا الذى يتلقى هذا الأمر الثقيل فلا يتصدع؟! أى سماء تحلق بها هذه النفس الكريمه

التي تستقبل كلمات الله التي لو ألقيت على الجبال لتصدّعت و لو وَّجَّهت الى الموتى لتكلّموا أو الى الأرض لسارت سيراً؟! و لكن كيف ينزل الله كلماته على البشر؟ بواحدة من السبل التاليه:

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا مَا هُوَ الْوَحْيُ؟ حسب اللغة و موارد استخدام الكلمه أنه قذف الحقيقه فى القلب قذفاً.

قال الشيخ المفيد: و أصل الوحي هو الكلام الخفى، ثم قد يطلق على كل شىء قصد به إفهام المخاطب على الستر له عن غيره و التخصيص له به دون من سواه، و إذا أضيف الى الله كان فيما يخصّ به الرسل (صلى الله عليهم) خاصه دون سواهم على عرف الإسلام و شريعه النبى. (١)

و روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال فى معانى الوحي:

«و أما تفسير وحى النبوه و الرساله فهو قوله تعالى: **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ أَنْ أَرْضِعْ بِرَأْسِهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ**، و أما وحى الإشاره فقوله عزّ و جل: **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**» (٢) و ما يجمع هذه المعانى و غيرها لكلمه الوحي هو الإلقاء إشاره و بنحو من

ص: ٤٠٢

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ج(١٨)ص(٢٤٩).

٢- ٢) المصدر/ص(٢٥٥).

و نتساءل: كيف يتم الوحي من الله للبشر؟ قبل الإجابة لا بد أن نعرف أنه لا ينبغي السؤال عن الكيفية في الجانب الالوهي، لأن علمه محبوب عنا، وقد ضلّ كثير من الناس حين تفكروا في الذات الالوهيه و ما يتصل به سبحانه من حقائق، بلى. يحقّ لنا أن نسأل عن الجانب الآخر حيث يتمّ التلقّي و الاستجابة و الأخذ، و القضية هنا هيّنه إذ أنّ لها أمثله: فنحن البشر لم نعلم شيئاً حين خلقنا الله من بطون الأمهات ثمّ قذف في قلوبنا العلم، كما أنّ كثيرا من البشر يقذف الله في أفئدتهم نور معرفته و روح الإيمان به، و كلّ ذلك نظائر للوحي.

و لكن حين يكلم الله أحدا بالوحي فإنّ ذلك لا- يعني مجرد قذف نور العلم بصوره مجمله، بل و أيضا بيان تفاصيل العلم، و بينات الهدى، لأنّ القضية هنا قضية التكلّم، و التكلّم يعني وجود كلمات، و الكلمات تعني المفصّلات من العلم.

و يبدو أنّ الوحي هو اتصال مباشر بين الربّ و عبده المنتجب، و لعلّه أسمى درجات التكلّم، و قد كان نبيّنا (صلّى الله عليه و آله) يعيش في لحظات التجلّي وضعاً خاصاً كان يسمّيه المسلمون (برحاء الوحي)..

سأل زواره من الإمام الصادق- عليه السلام- قائلاً: جعلت فداك: الغشيه التي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه و آله إذا نزل عليه الوحي؟ فقال:

ذلك إذا لم يكن بينه و بين الله أحد، ذاك إذا تجلّى الله له (١)

و جاء في حديث آخر :

ص: ٤٠٣

كان جبرئيل إذا أتى النبي قعد بين يديه قعده العبد، و كان يدخل حتى يستأذنه (١) من هنا فإن برحاء الوحي إنما كانت تنتاب النبي عند ما يتمّ تجلّي الله له بالوحي المباشر، و ليس عند ما يبعث إليه رسولا من عنده (و هو جبرئيل عليه السلام) الذى كان يتمثّل فى أجمل صورته و هو صورته دحيه الكلبي المعروف بصباحه وجهه، و لم ينزل عليه بصورته الأصليّة إلاّ - مرتين، حسب بعض النصوص.. ماذا كانت برحاء الوحي، و لماذا؟

روى أنّه كان إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل.

و

روى أنّه كان ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه و أنّ جبينه يتفصّد عرقا. (٢)

و

روى أنّه كان إذا نزل عليه كرب لذلك، و يربّد وجهه، و نكس وجهه و نكس أصحابه رؤوسهم منه. (٣)

و

□ فى الحديث أنّه أوحى اليه و هو على ناقته، فبركت و وضعت جرانها (٤) فما تستطيع أن تتحرّك، و أنّ عثمان كان يكتب للنبي لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ... □

الآية و فخذ النبي على فخذ عثمان فجاء ابن أمّ مكتوم، فقال يا رسول الله: إنّ بي من العذر ما ترى، فغشيه الوحي، فثقلت فخذته على فخذ عثمان، حتى قال:

خشيت أن ترضّها فانزل الله سبحانه: غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ (٥)

ص: ٤٠٤

١-١) المصدر.

٢-٢) أى إذا انتهى عنه الوحي تصبّب عرقا.

٣-٣) المصدر/ص (٢٦١).

٤-٤) مقدّم العنق.

٥-٥) المصدر/ص (٤٦٤).

و حقّ للنبي أن يتكأّده ثقل الوحي، و لو لا توفيق الله لتصدّع قلبه لتجلّيات ربّه. أو ليست السموات يكدن يتفطرن من خشيه الله؟ ما أعظم هذا القلب الذي يتحمّل كلمات الله، و يتلقّى أمره مباشرة! إنه حقًا آيه عظمى من آيات الله! و لعلّ توفيق الله و تسديده للرسول و الذى تكتمل مقدرته على احتمال حاله الوحي و تجلّى الله العظيم ثم احتمال علم الله و كلماته، لعل هذا التوفيق يتمثل فى روح القدس التى أنزلها الله على نبيّه،

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال مفسراً قوله تعالى: **يَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** :

«خلق أعظم من من جبرئيل و ميكائيل كان مع رسول الله و هو مع الأئمه، و هو من الملكوت» (١)

و قال فى تفسير قوله تعالى: **وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ** :

«خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل و ميكائيل كان مع رسول الله يخبره و يسدّده و هو مع الأئمه من بعده» (٢) أو من وراء **حِجَابٍ** كما كَلَّمَ الله نبيّه موسى بن عمران عليه السلام تكليماً، و لكن دون أن يرى شيئاً، و ماذا تحتل العين من عظمه الله، أ رأيت كيف تتلف أنسجه العين، و تعطب أعصابها، لو تعرّضت لومضه شديده من النور الذى خلقه الله، أو يزعم أحد بأنّ الله

ص: ٤٠٥

١- (١) المصدر/ص (٢١٥).

٢- (٢) المصدر.

أقلّ نوراً من تلك الومضه وقد أشرقت السموات والأرض بنور ربّها؟! لقد تجلّى ربّك للجبل فجعله دكّاً، وخرّ موسى صعقاً، فإذا لم يصبر موسى على تصدّع الجبل فهل كان يتحمّل تجلّى الله له مباشرة؟! أو يُرسِلَ رَسولاً كما كان ربّنا يعث جبرئيل لرسله، ولكن كيف كان يتلقّى جبرئيل وحى ربه؟ حسب

روايه عن أمير المؤمنين -عليه السلام- عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه:

«سأل جبرئيل قائلاً: يا جبرئيل: هل رأيت ربّك؟ فقال جبرئيل: إنّ ربي لا يرى، فقال رسول الله: من أين تأخذ الوحي؟ فقال: آخذه من إسرافيل، فقال: من أين يأخذه إسرافيل؟ قال: يأخذه من ملك فوقه من الروحانيين، قال: فمن أين يأخذه ذلك الملك؟ قال: يقذف في قلبه قذفاً» (١) فَيُوحَى بِإِذْنِهِ مِمَّا يَشَاءُ وَلَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ يَتَلَقَّى الْوَحْيَ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهِ كَثِيراً أَوْ قَلِيلاً، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْوَحْيَ حَسْبَمَا أَمَرَ اللَّهُ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَأْذَنُ اللَّهُ.

إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ وَ مِنْ عَلَوِّ مَجْدِهِ تَسَامِيَهُ مِنَ الْقُلُوبِ الْمَرِيضَةِ، وَالنَّفُوسِ الْمَلِيئَةِ بِالْأَحْقَادِ وَالْأَغْلَالِ

ص: ٤٠٦

و آثار الذنوب، إنما الذين يصطفاهم الله لوجه من طهرت أنسابهم و أحسابهم، و صفت قلوبهم، و تسامت نفوسهم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته يختار لها أكرم خلقه، و أشدهم تسليما و طاعة و إخلاصا.

من هنا لا- ينبغي للناس أن يختاروا لقيادتهم إلا الأعلام الأتقى. أو ليس الله هو المخصوص بالطاعة؟ فلا بد أن يكون أقرب الناس إليه هو الذى يطاع بين الناس بإذن الله.

[٥٢] و هكذا عقد لواء القيادة فى هذه الأمة لرسولنا الأكرم لأنه تلقى الوحي من أمر الله..

وَ كَذَلِكَ بِمَثَلِ هَذِهِ السَّبِيلِ الثَّلَاثِ: بِالْوَحَى الْمُبَاشِرِ، وَ بِالتَّكَلُّمِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، وَ بِبِعْثِ الرَّسُولِ، تَلَقَّى الرَّسُولُ كَلِمَاتِ رَبِّهِ.

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا هُوَ ذَا الرُّوحِ الَّذِى أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الرَّسُولِ؟ قَالُوا: إِنَّهُ رُوحُ الْحَيَاةِ. أَوْ لَيْسَ الْقُرْآنُ حَيَاةَ الْقُلُوبِ، وَ فِيهِ مَا يَضْمَنُ لِلْبَشَرِ الْحَيَاةَ الْآخْرِيَّةَ، وَ قَدْ قَالَ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . (١)

و لكن يبدو أن الروح فى منطق الكتاب هو روح القدس، و قد قال ربنا سبحانه:

ص: ٤٠٧

(١) وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (٢/١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا (٣/٢) يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ عَلِيٍّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (٤/٣) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا (٤) وَالرُّوحُ -حَسَبِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ- غَيْرِ الْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ يَلْقَى عَلَى الرَّسْلِ حَسَبِ الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ، وَهُوَ يَحْمِلُ الرَّسَالَ حَسَبِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، وَ يُؤَيِّدُ بِهِ الرَّسْلَ حَسَبِ الْآيَةِ الْأُولَى.

و فِي النَّصُوصِ أَنَّهُ خَلَقَ أَكْثَرَ الْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَ يَصْعَدُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ.

وَ هُوَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَ مِنْ أَمْرِهِ، فَهُوَ إِذَا مِنْ عَالَمِ الْمَلَكُوتِ الْمَهِيْمَةِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ، وَ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ: إِنَّهُ مِنْ عَالَمِ الْأَنْوَارِ الْمُتَعَالِيَةِ عَنْ عَالَمِ الْأَجْسَامِ اللَّطِيفَةِ كَالْمَلَائِكَةِ أَوْ الْكَثِيفَةِ كَالْبَشَرِ، إِنَّهُ فِي أَفْقِ الْعِلْمِ وَ الْعَقْلِ وَ الْحَيَاةِ وَ الْقَدْرَةِ، وَ بِذَلِكَ فَهُوَ مِنْ عَالَمِ الْأَمْرِ، حَيْثُ يَنْزِلُ مِنْهُ الْقَدْرُ، وَ يَكُونُ بِهِ الْقَضَاءُ.

وَ يَكْفِينَا أَنْ نَعْرِفَ مِنَ الرُّوحِ هَذَا الْقَلِيلَ الَّذِي يَشِيرُ إِلَى آيَاتِهِ وَ عِلَائِمِهِ وَ مَظَاهِرِ وَجُودِهِ وَ لَيْسَ إِلَى ذَاتِهِ، كَمَا فِي سَائِرِ الْأَنْوَارِ الْعَالِيَةِ الَّتِي لَمْ نَعْرِفْ عِلْمَهَا إِلَّا بِقَدْرِ مَعْرِفَةِ آثَارِهَا، وَ قَدْ قَالَ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ: يَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا

ص: ٤٠٨

١-١ (١) البقره/ (٨٧).

٢-٢ (٢) النحل/ (١٠٢).

٣-٣ (٣) غافر/ (١٥).

٤-٤ (٤) النبأ/ (٣٨).

و هكذا يبدو أنّ الروح- كما العقل و الإرادة- هو نور إلهى ينزله الله على قلب من يشاء من عباده، ليشبع فيه سكينه الإيمان، و نور اليقين، و سداد التوفيق، و كلمه التقوى و العصمه.

و قد أعطى ربنا المؤمنين من عباده درجه من هذا الروح و هو روح الإيمان و التقوى، بينما أكمل لنبىه محمد و آله عليه و عليهم السلام درجات هذا الروح، و أبلغهم درجه اليقين التامّ و العصمه.

و لو لا هذا الروح لم يكن يعرف الأنبياء أنّ ما ينقر فى آذانهم أو يقذف فى أفئدتهم أو تراه أبصارهم هو من عند الله و ليس من نزغات الشياطين أو أوهام النفس.

كما أنّه لو لا نور العقل لم يقدر الإنسان على التمييز بين الحق و الباطل، بين ما تراه عينه من ماء و ما يترائى له من سراب.

و لو لا روح القدس لم يهزم النبى الشيطان كلياً، كما أنّه لو لا روح الإيمان لم يتغلب المؤمن على الشيطان فى الأغلب.

و بتعبير آخر: بروح القدس تتكامل نفس النبى حتى تستعد لتلقى وحى الله، كما بالعقل تتكامل نفس سائر البشر لتلقى المعارف و العلوم. إنّهُ إذا الجانب المتصل بالنبى من الوحى، بينما الرساله هى الجانب المتصل بالحق الذى يوحى، و كلاهما من الله سبحانه، و لهذا جاءت كلمه الروح هنا بعد الوحى، و كأنّه أوحى به بينما هو من أمر الله، و به يسود النبى لتلقى الوحى.

و نستوحى هذه الفكرة من بعض الأحاديث التي ذكرنا طائفه منها سابقا، و التي تبين أنّ الروح خلق أعظم من الملائكة، و نتلوا معا الطائفه الثانيه:

روى عن زراره قال: قلت لأبى عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام):

كيف لم يخف رسول الله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما ينترغ به الشيطان؟ قال:

فقال:

«إنّ الله إذا اتخذ عبدا رسولا أنزل عليه السكينه و الوقار فكان يأتيه من قبل الله عزّ و جلّ مثل الذى يراه بعينه» (١)

و روى عن محمد بن مسلم و محمد بن مروان عن أبى عبد الله الإمام الصادق عليه السلام):

«ما علم رسول الله أنّ جبرئيل من قبل الله إلا بالتوفيق» (٢) و فى تفسير هذه الآيه بالذات سبق و أن

روينا حديثا عن الإمام الصادق عليه السلام أيضا أنّه قال (عن الروح فى هذه الآيه):

«خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل و ميكائيل، كان مع رسول الله يخبره و يسدّده و هو مع الأئمه من بعده» (٣)

و جاء فى تفسير الآيه يَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (٤) عن

ص: ٤١٠

١-١) المصدر/ص(٢٦٢).

٢-٢) المصدر/ص(٢٥٧).

٣-٣) المصدر/ص(٢٦٤).

٤-٤) الإسراء/(٨٥).

الإمام الصادق عليه السلام أنه قال :

«أعظم من جبرئيل و ميكائيل، لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمّد و هو مع الأئمة يسدّدهم، و ليس كلّ ما طلب وجد» (1) و لكي يزداد الأنبياء يقينا بأنّ الله يؤيّدهم بروح منه و يزدادوا قربا منه بالإنايه إليه و التوبه فإنّ الله يكلهم الى أنفسهم لحظات فتهتّز قناعاتهم أو يرتكبون ما لا- يلقى بهم، كما همّ يوسف بها لولا- أن رأى برهان ربّه، و كما دعا يونس على قومه و كان الأولى أن يصبر عليهم، و كما سارع داود بالقضاء فذكرته الملائكه فأناب الى الله.

و قد جاء في حديثين يكمل الثاني منهما الأوّل ما يلي:

عن أبي بصير عن أبي عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) في قول الله:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا مَخْفَفَهُ قَالَ:

«ظنّت الرسل أنّ الشياطين تمثّل لهم على صورته الملائكه» (2)

و عن أبي شعيب عن أبي عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام):

«وكلهم الله الى أنفسهم أقلّ من طرفه عين» (3) هكذا نعرف أنّ نعمه الروح الذي يسدّد به النبي و يعصم من أن ينطق بهوى ليست بأقلّ من نعمه الوحي إن لم يكن أعظم.

ص: ٤١١

١-١ (١) المصدر/ص (٢٦٤).

١-٢ (٢) المصدر/ص (٢٦١).

١-٣ (٣) المصدر/ص (٢٦٢).

مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ ذَلِكَ أَنْ الْكِتَابَ لَيْسَ مِنْ عِبْقَرِيهِ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) بَلْ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ.

وَ لَا- الْإِيمَانُ فُلُو لَا- الْوَحْيُ لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ يَدْرِي شَيْئًا مِنْ كِتَابِ رَبِّهِ، وَ لَوْلَا- رُوحُ الْقُدُسِ لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَةَ الْإِيمَانِ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَتِمُّ بِرُوحِ مِنْهُ.

وَ لَا رَيْبَ أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ الرِّسَالَةِ، وَ لَكِنَّ هَذَا الْإِيمَانَ كِإِيمَانِ أَيِّ بَشَرٍ آخَرَ كَانَ بِاللَّهِ وَ بِرُوحِ مِنْهُ. أَلَمْ يَقُلْ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَبْلَ لَا- تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١) أَمَا الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ فَقَدْ سَدَّه اللَّهُ مِنْذُ نَعُومِهِ أَظْفَارَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، حَسْبَمَا يَبْدُو

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام :

« وَ قَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ- مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُوكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَ مُحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَ نَهَارُهُ « (٢) وَ لَكِنْ جَعَلَنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا إِنَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَ لِأَجْلِ كُلِّ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ هِدَايَتَهُ، وَ لَيْسَ مِنَ الرَّسُولِ أَوْ خَاصًّا بِهِ فَقَطْ.

ص: ٤١٢

١- ١) الحجرات/ (١٧).

٢- ٢) عن نهج البلاغه/ الخطبه (١٩٢).

وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٥٣] فالنور الذي أوحى به الله يهـدى الى السبيل المستقيم.

صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ وَ هـل صراط اللّٰه خالق الكون و مالكه أفضل، أم صراط الشياطين و الطواغيت الذين يشرّعون مناهج منحرفه تتنافى مع القوانين الطبيعه و السنن الكونيه فيضلّون و يضلّون؟! و هل من تصير إليه الأمور أحقّ بالطاعه و الإبتاع أم من لا يملكون شيئاً حتى من أمور أنفسهم؟! و قبل الختام نور حديثا في فضل هذه الآيه

نقله جابر بن عبد الله عليه السلام عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: سمعته يقول :

«وقع مصحف في البحر فوجدوه و قد ذهب ما فيه إلا هذه الآيه: أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» (١)

ص: ٤١٣

١- ١) نور الثقلين/ج(٤)ص(٥٩١).

سوره الزّخرف

اشاره

ص: ۴۱۵

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره:

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال :

«من أدمن قراءه (حم) الزخرف آمنه الله في قبره من هوام الأرض، و ضغطه القبر، حتى يقف بين يدي الله عزّ و جل، ثم جاءت حتى تدخله الجنة بأمر الله تبارك و تعالی» (تفسير نور الثقلين/ج ٤ ص ٥٩٠)

ص: ٤١٧

لكى تستقبل أفئدتنا ضياء الايمان لا بد أن نظهرها من طائفه من الأدران التى تترسب عليها، وآيات الذكر تذكّرنا بها، و تشجّعنا على تزكيه القلوب منها، و توصينا بكيفية ذلك، و يبدو أنّ سورة الزخرف تجرى فى هذا السبيل.. كيف؟ إنّ هدف الكتاب المبين الذى جعله الله قرآنا عربيا (بلغتهم، و يفصح جليا عن الحقائق) بلوغ العقل، و هو أسمى و أدق تعبير عمّا فى أم الكتاب (٤/١).

ثم ترى الآيات فى تبصير الإنسان بالعقبات النفسية التى لا بدّ من تجاوزها (أو الأقفال التى يجب فكّها، و الأمراض التى يجب معالجتها، و الأدران التى يجب تطهير القلب منها ليستعدّ للإيمان) و هى:

أولا: الغرور بالمال، و هل يضرب القرآن الذكر صفحا لأنهم قوم مسرفون؟ أ فلا يندرون قبل أن يكسر غرورهم عذاب عقيم، كما أهلك أشدّ منهم بطشا، و تركهم أحاديث لمن يعتبر بهم؟ (٨/٥).

ثانياً: الفصل بين ربّ السماء و ربّ الأرض، و الإعتقاد بأنّ إله الحق لا شأن له بديانهم، و إذا سئلوا عمّن خلق السموات و الأرض فلا مناص لهم من الاعتراف بالخالق العزيز العليم، و هكذا الأرض، فهو الذى جعلها مهدها، و سلك فيها سبلا، لعلهم يهتدون الى ما ربهم ثم الى ربهم الذى أتقن صنعه، و حتى تدبير رزقهم فهو بأمر الله. أو ليست حياتهم تعتمد على الماء، فمن ينزله من السماء بقدر حاجتهم؟ أ فلا يرون كيف يحيى به الله الأرض، فلما ذا لا يهتدون الى أنه كذلك يحييهم بعد موتهم؟! و من آيات تدبيره خلق الأزواج، و توفير وسائل النقل. أو ليس كلّ ذلك يدلّ على أنّ إله السماء هو إله الأرض، و يدعوهم الى طاعته، و شكر نعمائه، فإذا استقروا على ظهور الأنعام أو متن السفن سبحوا الله على تسخيرها لهم! و لم يكونوا بمستواها (١٤/٩) و نقرأ فى ختام السوره تذكره بهذه الحقيقه أيضا (٨٤).

ثالثاً: تقديس الأشياء و الأشخاص، فإذا بهم يجعلون للرحمن من عباده جزء (يعطونه صفه التقديس) و بالغوا فى كفرهم حين زعموا أنّ الله اختار لنفسه البنات، و اصطفى لهم البنين.

و يتساءل: هل شهدوا خلقهم؟ كلاً.. و يقول إنّ كلامهم الباطل شهاده عليهم، سوف تكتب و سوف يسألون عنها... و تراهم يبزون عباده الآلهه بالجبر الإلهي، بلا علم عندهم، بل بمجرد الخرص و التخمين، و لا بكتاب إلهي يستمسكون به، بل باتباع آبائهم.

و يعالج القرآن اتباع الآباء بأنّ ذلك من عاده المترفين الذين ما أرسل الله الى قريه نذيرا إلاّ تشبّثوا بتقاليدهم الباليه متحدّين بها رسالات ربهم، و لكن ألا ينظرون الى عاقبه أولئك المترفين الذين انتقم الله منهم؟!

و يضرب القرآن مثلا- على ذلك بقصه إبراهيم (أولاً: لأنَّ أبرز ما فى رسالته تحدّيه لعادات السابقين، ابتداء من أبيه و انتهاء بقومه، و ثانياً: لأنّه من أولى العزم الذين يذكرون فى هذه السوره باستثناء واحد منهم و هو نوح عليه السلام).

و إذا كانت الجاهليه العربيه تعتمد على عقائد آبائها، فإنَّ أعظمهم إبراهيم، رائد التوحيد و محطّم الأصنام. ألا يتبعونه و قد جعل رساله التوحيد كلمه باقيه فى عقبه؟ كلاً.. إنهم يتبعون أهواءهم لا آباءهم، و قد غرّتهم متع الدنيا عن اتباع الحق حتى نسبوا الرسول صلى الله عليه و آله الى السحر (٢٠/١٥).

رابعا: تقييم الحقائق بالمقاييس الماديه، فقد قالوا: لو لا أنزل الكتاب على واحد من العظيمين فى الطائف و مكه؟ و نهرهم الله: هل هم الذين يقسمون نعم الله؟ كلاً.. الله هو الذى قسم بينهم معيشتهم، و جعلهم يتفاضلون فى الأمور الماديه، لا لقيمه لهذا عنده أو هوان لذاك، بل لتتنظم الحياه الاجتماعيه، و يحتاجون الى بعضهم، و يتعاونون فيما بينهم، أمّا النعمه الكبرى فهى رحمه الله، لا المال الذى يكّدسونه.

و ما أتفه الدنيا عند الله، فلو لا أن يصعب على المؤمنين لجعلها كلّها للكفّار، لأنّها بالتالى متاع. أمّا الآخره التى هى الحيوان فهى للمتقين و حدهم.

خامسا: قراءه السوء الذين يزيّنون للإنسان سوء عمله ليراه حسنا، و إنّما يقبض الله قرين السوء من الجنّ و الإنس لمن يعش عن ذكر ربّه، (أمّا من يتذكّر فإنّه يبصر الحقائق، لأنّ الشيطان يتهرّب من ذكر الله) و يقوم الشيطان بصدّ التارك لذكر الله عن سبيل الهدى، و تزيين الضلاله له، و إنّما ينتبه لدور الشيطان فى إضلاله حين يأتى ربّه، فيقول له: يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعِيدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ. و ماذا ينفع التبرّى منه يومئذ، لأنهما فى العذاب مشتركين بسبب ظلمهما.

(و هكذا يعالج القرآن وسوسة الشيطان بذكر الله).

و بعد أن ينذر القرآن أولئك الجاهلين بعذاب إِمّا فى عهد الرسول أو بعده، و يأمر النبى (و الذين اتبعوه) بالتمسك بالوحى الذى هو شرف له و لقومه (دون المال و الجاه) لأنّهم يسألون عنه، يأمره بأن يسأل السابقين من الرسل (و يستقرئ سيرتهم) هل كانوا يدعون قط الى غير الله (و يقَدسون آلهه المال و السلطه كلا) و يضرب مثلا من سيره موسى و عيسى عليهما السلام (و هما نبيان من أولى العزم ذكرًا فى هذه السوره مع إبراهيم و محمّد سلام الله عليهما).

فحين أرسل الله موسى بالبينات الى فرعون و ملئه إذا هم منه يضحكون، و كلّما أراهم ربّنا من آياته طلبوا من موسى أن يدعوا ربّه، و عهدوا إليه بالإيمان، فلَمّا كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم (و اعتمدوا على قيمه الثروه و السلطه الزائله).

و أثار فيهم فرعون نخوه العصبية و شهوه المال و القوه، و استخفّفهم فأطاعوه، فانتقم الله منهم و تركهم آيه لمن بعدهم.

(و كذلك كان موقف الجاهليين العرب من عيسى بن مريم عليهما السلام) و حينما ضربه الله مثلا صالحا جادل فيه قوم الرسول قائلين: أآلهتنا خير أم هو؟ (و كانوا يعرفون الحق، و لكنّهم عاندوا ربما لأنّهم اعتمدوا على قيمه الثروه و السلطه، فقدّسوا آلهتهم رمز الثروه و السلطه، و استخفّفوا بابن مريم الذى كان مثال الطهر و الزهد) بلى. إنّه عبد أنعم الله عليه، و جعله مثلا لبني إسرائيل (و لم يأمرهم بعبادته أبدا) و بعد أن ينذر ربّنا أولئك المعاندين بأنّه قادر على أن يهلكهم، و يجعل مكانهم ملائكه فى الأرض يعبدونه، يبيّن بعض جوانب عظمه عيسى -عليه السلام- بأنّه من أشرط الساعه، و أنّه قد جاء بالبينات و الحكمه و القول الفصل فيما اختلف فيه بنوا إسرائيل، و أمرهم بتوحيد الله ربّه و ربّهم جميعا، بيد

أنهم اختلفوا فيه (ظلماً و بغيًا) فويل للظالمين من عذاب يوم أليم (٦٥).

و يذكّرنا ربّ بآنّ الأخلاء أعداء بعضهم فى يوم القيامة إلاّ المتقين (و هكذا ينبغى أن نختر من المتقين أصدقاءنا، و قد أشارت آيات سابقه الى مسأله القرين) و يصف نعيم الله فى يوم البعث لعباد الله الذين تتلقاهم الملائكه بالسلام و البشرى، و تدعوهم الى الجنه التى فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ الأعين. كلّ ذلك جزاء لما عملوا (٧٣).

بينما المجرمون خالدون فى جهنم، دون أن يخفّف عنهم عذابها، و هم آيسون فيها من روح الله بما ظلموا، و حين ينادون كبير ملائكه العذاب (مالك) ليعدمهم الله يجيبهم بأنهم ثمه ما كثون، و يقول: لقد جئناكم بالحق، و أنتم كنتم تكروهون الحق. و قد عاندوا الحق فحكم الله عليهم بالعذاب الخالد (جزاء عنادهم) (٧٩).

و بهذه البصيره يعالج السياق حاله العناد الذى هو واحد من أبرز العقبات النفسيه فى طريق الإيمان، ثم يعالج سائر الحالات التى تمنع المبادره الى الإيمان، مثل التوهّم بأنّ الله لا يسمع سرّهم و نجواهم، و يذكّرنا الله بأنّه يسمعهم، و قد أحاط بهم ملائكته الكرام يسجلون ما ينطقون به (٨٠).

(و يعود الى معالجه حاله الشرك، حيث يلتجأ الإنسان -عاده- الى ظلّ الشرك فرارا من ثقل المسؤليه) و يقول: النبى ليس ولد الله، بل هو أوّل العابدين لله.

(و ينسف أساس الشرك القائم على الجهل بعظمه الله) و يقول: سبحان ربّ السموات و الأرض أن يكون له ولد مثلما يصفون. أو ليس هو ربّ العرش العظيم و الهيمنه التامه، فما ذا يفعل بالولد؟!)

و يأمر الرسول (و الرسالين) بأن يتركهم فى خوضهم يلتهمون بباطلهم، و يلعبون من دون هدف معقول فى حياتهم حتى يلاقوا يوم الجزاء الذى يوعدون (و هكذا ينذر كلّ المشركين بالله بأنهم يفرغون حياتهم من أى هدف سليم، كما يفرغون عقولهم من أى بصيره حق).

و يبيّن أنّ إله السماء هو إله الأرض، و هو الحكيم العليم (فلا يجوز الفصل بين الدين و السياسه، بين عالم الخلق و واقع الحكم).
(و كيف نتخذ من الثروه و السلطه آلهه و الله عنده كلّ خير؟!) أو ليس هو المالك للسموات و الأرض و ما بينهما، فهو الذى يبارك (أ فلا ينبغى أن نعبده ليعطينا من بركاته؟) و عنده علم الساعه (أ فلا نخشاه؟) و اليه ترجعون.

(أمّا شركاء المال و الجاه و..فهم لا يملكون أهمّ ما يحتاجه البشر و هو الخلاص من النار) و لا يملكون الشفاعة عند الله، و إنّما الشفاعة للحق و لأهله، و فى الوقت الذى يعترف الجميع بأنّ الله هو خالقهم تراهم يؤفكون عنه! (و لكن لا ينبغى أن يهلك المؤمن نفسه حسره عليهم) و حين قال الرسول داعيا ربّه: إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون، أمره الله بالصفح عنهم (و الإعراض) و أن يقول لهم: سلام (و لا يبادرهم بالحرب) لأنّهم سوف يعلمون أى منقلب ينقلبون.

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ١١]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِذَا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّ حَكِيمٍ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)

اللغة

٤[أم الكتاب]: هو اللوح المحفوظ، وإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ أَصْلُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيهِ وَ غَيْرِهَا.

٥[أفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ]: يُقَالُ ضَرَبْتُ عَنْهُ أَضْرَبْتُ عَنْهُ أَي تَرَكْتَهُ وَ أَمْسَكْتُ عَنْهُ.

[صفحة]: وَ أَصْلُهُ مِنْ ضَرْبِ الْحَيْوَانِ عَلَى صَفْحِهِ وَجْهَهُ لِيَمِيلَ عَنْ طَرِيقِهِ إِلَى مَا يَرَادُ بِهِ، ثُمَّ اسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ لِلتَّحْرِيفِ عَنِ الطَّرِيقِ.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يمهد الذكر الحديث عن الموضوع الأساسي في هذه السوره، وهو كما قلنا: التكيف السليم مع الحياه الدنيا، وذلك بالتذكيره بحكمه الكتاب المبين الذي أنزله الله و جعله قرآنا عربيا، والتي تتلخص في إيقاظ العقل من سباته، وهو أعلى و أحكم نسخه لأتم الكتاب الذي عند الله، و بعد بيان أن إسراف الجاهليين لا يمنع رحمه الله عنهم بتذكيرهم يعالج السياق واحده من أبرز عقبات الإيمان، و التي يهتم القرآن كثيرا بها، و هي حاله اللامبالاه و الاسترسال مع الواقع الفاسد، التي تنعكس في صورته الاستهزاء بالرساله و السخرية من الرسول، و يبدو أن منشأ هذه الحاله الرضا بالواقع القائم، فما دام الباطل يحقق أهدافه و مصالحه، و يشبع طموحه و رغبتى، لماذا الاستماع إذا الى داعى الله؟ ذلك لأن الباطل ضار زاهق، و إنما الحق وحده باق نافع. أنظر مثلك السابقين، و اعتبر بعاقبتهم، فإنك لا تملك حياتين تجرب في أحدهما السبل الكفيله

لسعادتك، و تعمل فى الثانى بتلك التجارب، إنما للإنسان فرصه واحده، و إذا مرّت فلن تعود أبداً، و قد جرت سنه السابقين على أن من يتبع الحق يسعد فى الدنيا و الآخره، و أن من يتبع الباطل تنتهى حياته بالبأساء و الضراء، و يحيط به فى الآخره عذاب أليم.. و إن هذا يعطينا حافزاً قوياً للبحث عن الحقيقه، و النزوع عن حاله الاسترسال.

بينات من الآيات:

[١] حم من الحروف المقطعه التى سبق أن فسّرناها.

[٢] وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ قسماً بالكتاب الذى يحتوى على الحقائق و يبينها.

[٣] إنا جعلناه قرآناً عربياً لعل الله قد جعل كتابه المنبعث من اللوح المحفوظ عربياً للأسباب التاليه:

أولاً: إن لغه الضاد أفضل لغات البشر إفصاحاً عن الحقائق و الضمائر، و اسمها (العربيه) مشتق من الإعراب أى الإفصاح، و لذلك فهى اللغه الأم عند الله التى بها نزلت كتب الله أصلاً إلا أنّها ترجمت عند الأنبياء بقدره الله الى ألسنه أممهم،

و قد جاء فى الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام :

«ما أنزل الله تبارك و تعالى كتاباً و لا- وحياً إلا بالعربيه، فكان يقع فى مسامع الأنبياء بألسنه قومهم، و كان يقع فى مسامع نبينا بالعربيه» (١)

ص: ٤٢٨

ثانياً: لقد قَدَّرَ اللهُ بحكمته البالغه أن يحمل العرب رسالته الى الأمم فأنزل الكتاب بلسانهم.

ثالثاً: إنَّ ربَّنَا يَكْرُرُ القول بأنَّ الكتاب قد نَزَّلَهُ عربيًّا ليدعو سائر الأمم- كما يبدو- لتعلِّم هذه اللغه، حتى يستوعبوا لطائف كتاب ربِّهم، والإشارات البلاغية التي تعجز الترجمات عن بيانها.

و قد أَلَّفَ أحد المستشرقين كتابا بالإنجليزية عن الإسلام فقال: لا أستطيع أن أبين لكم- أنتم أيها الإنجليز- عذوبه آيات القرآن، و لطافه معانيه، و كيف يُوَثَّرُ في العربي.. و يضيف قائلاً: إنَّه لن يفهم القرآن أحد حتى يتعلَّم العربيَّه.

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هذا هدف رسالاته جميعاً، و كلمه «لعلّ» تدلّ على معنى الرجاء و الهدفيه أى إنّما جعلنا القرآن عربيًّا لكي تعقلوا، و العقل هو موهبه لا يختلف الناس في أصلها، و لكنَّهم يختلفون في مدى استفادتهم منها، لذلك جاءت الكلمه بصيغه الفعل أى تستفيدون من العقل.

[٤] وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ إِنَّ هذا القرآن هو انعكاس للكتاب الذى عند الله سبحانه و هو أصل الكتاب.

و الأم بمعنى الأصل و الأساس، و الذى استوحيه من هذه الآيه أنّ عند الله كتابا مكنونا هو أمّ الكتاب، من نوره يفيض على البشر كتبه سبحانه، فمنه أنزل على نوح عليه السلام رسالته، و على إبراهيم عليه السلام كلماته، و بعث موسى عليه السلام و عيسى عليه السلام بالتوراه و الإنجيل، و منه أيضا أتى محمدا صلى الله عليه و آله القرآن.

و قياس كل كتاب إلهى يتم بميزان أم الكتاب الذى يسمّى -فيما يبدو- باللوح المحفوظ، و حينما يقاس القرآن به يكون الأعلى رتبه، و الأحكم شريعته و ديناً، فهو يعلو كل دين، و ينفع الناس بما فيه من حكمه و علم.

[٥] يزعم المسرفون الذين أترفوا فى الحياه الدنيا أنهم عباد الله المقربون. أو ليس قد أنعم عليهم بالغنى، فهو إذا يحبهم و يكرم مثوهم، و يقودهم هذا الزعم الشيطانى إلى وهم خطير حيث يحتسبون أنهم فوق القانون، و أعلى من الذكر.

و من جهه أخرى: ما دام الإسراف ذنب عظيم يتوهم البعض أنه يمنع عن المترفين رحمه رساله، كلاً.. فلا الإسراف خير يجعل المترفين فوق الإنذار بالرساله، و لا هو مانع من منه ابتعاث الرسل.

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذُّكْرَ صَفْحًا نترككم بدون تذكره و بدون رسل يذكرونكم ما نسيتموه؟ و أصل الضرب صفحا كما قالوا ضرب وجه الدابه حتى تصرف وجهها جانبا.

أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُشْرِفِينَ أى بسبب إسرافكم؟ كلاً.. و قد جرت سنّه الله بإرسال الرسل يذكرون الناس، و قد بعث رسالاته الى المستهزئين رحمه بعباده.

و يبدو أن الإسراف رأس سلسله من الانحرافات، و هو بدوره ناشئ من جهل الإنسان بحكمه الابتلاء فى الدنيا، و لماذا يحلم الله عن المذنبين، و من ضعف إرادته فى مقاومه الشهوات يسير فيها بلا حدود أو قيود.

و يتناسب ذكر الإسراف و المحور الرئيسى للسوره و هو الالتزام بحدود معينه فى الانتفاع بالحياه الدنيا.

[٦-٧] إِنَّ الرَسُولَ كَالطَّيِّبِ إِذَا يَزُورُ الْمَرْضَى، كَذَلِكَ تَزْدَادُ فُرْصَ ابْتِعَاثِ الْأَنْبِيَاءِ بِالرِّسَالَاتِ عِنْدَ انْحِرَافِ النَّاسِ وَ اتِّخَاذِهِمْ شَرِيْعَةَ الْإِسْرَافِ سَبِيْلًا.

هكذا بعث الله الأنبياء الى الناس سابقا، و هكذا مضت سنته.

وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَؤَاجِهُونَ بِالْإِسْتِهْزَاءِ، وَ لَعَلَّ الْإِسْتِهْزَاءَ أَسْوَأَ عِتَادَاتٍ مَوْقِفٍ عَلَيْهِ الْأُمَّمُ، لِأَنَّهُ مَوْغِلٌ فِي الصَّلْفِ.

وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ وَ الْإِسْتِهْزَاءُ بِالرِّسْلِ عَادَةٌ مَضَتْ فِي الْأَوَّلِينَ، كَمَا أَنَّ ابْتِعَاثَ الرِّسْلِ سَنَهُ إِلَهِيَّةً.

[٨] و لكن منع هذا الاستهزاء جريان سنة الله فى بعث الرسل أو فى إهلاك المستهزئين؟ كلاً.. لأن الله لا يضره كفر من كفر، كما لا ينفعه إيمان من آمن.

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْهُمُ الْجَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ، وَ أَكْثَرَ عِدَدًا مِنَ الْعَرَبِ الْمَكْذِبِينَ، وَ الْآيَةَ تَشِيرُ إِلَى ضَعْفِ الْجَاهِلِيِّينَ الْعَرَبِ وَ ضَعْفِهِمْ لِعَلِّهِمْ يَسْتَفِيقُونَ عَنِ جُنُونِ كِبْرِهِمْ وَ غُرُورِهِمْ، وَ لَا يَسْتَهْزِءُونَ بِرِّسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَ لَا يَسْتَرْسِلُونَ مَعَ تَقَالِيدِهِمُ الْعَفْنَةَ فِي الشَّرْكِ وَ الْفِسَادِ وَ الْإِسْرَافِ.

وقد تركزت الآيات التي تشير الى ذلك لأن علاج الغرور و الاسترسال و بالتالى الاستهزاء هو بيان نقاط ضعفهم، قال ربنا فى سورة الأحقاف (٢٦): « وَ لَقَدْ مَكَّنَّا هُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ».

و قد قالت الصّديقه فاطمه الزهراء عليه السلام تصف حال العرب قبل الإسلام :

«و كنتم على شفا حفرة من النار، مذقه الشارب، و نهزه الطامع، و قبسه العجلان، و موطىء الأقدام، تشربون الطرق، و تقتاتون القد، أذله خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم...» (١) وَ مَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ قَالُوا: أَى سَبَقَ الْقَوْلُ فِى تَصْرِيفِ الْأَمْثَالِ، وَ بَيَانَ عِبْرَةِ الْأَوَّلِينَ، كَمَا قَالَ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ: وَ سَيَكُنُّكُمْ فِى مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٢).

و يحتمل أن يكون المعنى: أنه قد تحقّق مثل الأولين، و انتشرت عبرتهم فى الآفاق مثلاً، و الله العالم.

[٩] و يستمر استهزأؤهم بالحق فى الوقت الذى يعترفون بأن من خلق السموات و الأرض عزيز حكيم، حيث تتجلى عزّته فى متانه الصنع، كما تتجلى حكمته فى دقه النظم.

ص: ٤٣٢

١- ١) الإحتجاج/ج (١) ص (١٠٠).

٢- ٢) إبراهيم/ (٤٥).

نهتدى بهذه السبل الى أهدافنا، و الى ربنا الذى خلق هذه السبل، فكلمًا كانت آيات الصنع و التدبير أكثر فى الطبيعه كانت أكبر شهاده على الخالق، و أقرب هدى.

[١١] و كما خلق السموات و الأرض، و جعل الأرض مهذا هيأ للإنسان رزقه فيها.

وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ بِتَقْدِيرٍ مِنْهُ، فَقَدْ يَكُونُ نَزُولُ الْمَاءِ شَدِيدًا فَتَصِيرُ سَيُولًا، وَ قَدْ يَكُونُ شَحِيحًا فَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ، وَ لَكِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَنْزِلُ الْمَطَرُ بِتَقْدِيرٍ مِنْهُ عَلَى حَسَبِ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ وَ الْأَرْضِ.

فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَ كَمَا يَحْيِي اللَّهُ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ بِالْمَطَرِ، فَيَنْمُو الزَّرْعُ وَ الضَّرْعُ..

كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَ قَدْ اسْتَفَادَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ مِنْ هَذِهِ الْمَقَارِنَةِ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَخْرُجُ يَوْمَ الْبَعْثِ مِنَ الْأَرْضِ كَالزَّرْعِ،

وَ قَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ :

«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ - أَنْ يَبْعَثَ الْخَلْقَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَاجْتَمَعَتِ الْأَوْصَالُ، وَ نَبَتَ اللَّحُومُ » فَيَكُونُ الْقَبْرُ لِلْإِنْسَانِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَرَحِمِ أُمِّهِ، أَوْ كَالْأَرْضِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْبَدْرَةِ.

ص: ٤٣٤

اشاره

وَ الَّذِي خَلَقَ الْمَرْجَاجَ كُفَّٰتًا ۚ وَ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ ۙ تَرْكٰبُونَ (١٢) لِيَسْبِتُوْا عَلٰى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

هدى من الآيات:

تسعى آيات هذه السوره الى ترشيد العلاقه بين الإنسان و ما حوله، و إنما يتم ترشيدها بالرؤيه السليمه، ذلك أن بصيره الإنسان تجاه الطبيعه و ظواهرها هي التي تكيف علاقته بها.

و يذكّرنا السياق هنا بأنّ ما أوتينا من نعم الحياه لا- بدّ أن يهدينا الى معرفه ربنا و التقرب إليه، فنعمه الزوجيه و سيله لمعرفه الله، كيف؟ فلقد خلق ربنا من كلّ شيء زوجين اثنين ليعرّف كلّ شيء بعجزه و حاجته، حتى لا- يشعر أيّ مخلوق بالاستغناء فيطغى، و ليبيّن له أنه مخلوق يحتاج الى قرين يكمله، و كما حاجه الإنسان الى الزوج كذلك حاجه الإنسان الى الأشياء و الأحياء من دونه، فالإنسان بحاجه الى دابه و سفينه إذا أراد قطع الفيافي و البحار، و حاجته دليل عجزه، و شاهده على غنى ربّه، و لكن بدل أن يعطى الله للإنسان جناحين يطير بهما، أو أرجل سريعه يسابق بهما الريح، أو أذنين حادّتين كما أذنى الحصان، بدل كل

ذلك زوّده بهبه العقل يستطيع أن يسخر بها الأشياء، فتراه يصنع السفينه، و يمتطى صهوه الطياره و الصاروخ، بل و يسخر حتى الأحياء من حوله لخدمته، كالأنعام، و الكلاب، و الدلافين و..و..

و لو لا- هبه العقل هل كان يستطيع ذلك؟ كلاً.. ألم تر كيف يقود طفل قطيعا من الإبل؟ لذلك عند ما يمتطى الإنسان صهوه فرسه، أو يستقل متن سفينه، عليه أن يذكر الله فيقول:

سبحان الله الذى سخر لنا هذا، و ما كان لنا أن نسخرها إلا بإذنه سبحانه.

إنّ المؤمن ينظر إلى الأرض باعتبارها أمه، و ينظر الى النخل و الشجر معتبرا إياها عمّاته، و ينظر الى الشمس و القمر معتبرا إياهما خلقان لله، و يجريان بأمره طائعين، و الإسلام ربطنا بالطبيعه من حولنا، فهناك دعاء لركوب الدّابه، و دعاء لظهور الهلال، و دعاء إذا سمعت الرعود، و..و.. و قد كان رسول الله صلى الله عليه و آله يتعيّد الله، و ينظر الى النجوم متفكرا فيها، و يتلو هذه الآيات: إنّ فى خلق السمّواتِ و الأرضِ و اختلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لآياتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ عَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ... (١).

بينات من الآيات:

[١٢] وَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا

ص: ٤٣٧

(١-١) آل عمران/(١٩٠-١٩١).

لماذا خلق الله الأشياء أزواجاً؟ لأمرين - فيما يبدو لنا - أولاً: لتتجلى قدرته المطلقة. أو ليس حسن الصنع و متانته الخلق في إطار التنوع دليل قدره؟ فإنك ترى في ذات الوقت الذي يختلف الزوجان عن بعضهما اختلافاً واسعاً، يخضعان لسنن واحده تسوقهما الى هدف واحد، أليس ذلك دليل قدره الرب؟ الثاني: لقد أركز الله في كل زوج الحاجه الى الآخر، فهم محتاجون الى بعضهم، و ذلك أبرز دليل على حاجتهم الشديده الى الله خالقهم و مدبر أمورهم.

وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الظُّلُمِاتِ وَ النُّجُومِ مَا تَرَكَّبُونَ فالذى خلق للبحار الفلك نمتطى سهوته لنبلغ أقصى الأرض بتجارتنا الثقيله، هو الذى خلق للصحارى الأنعام و سخرها لنا، ليس فقط لتوصلنا الى أهدافنا الماديه، بل و أيضاً لتقربنا الى الله، أسمى غايات البشر و أعلى مراميه..

لماذا؟ [١٣] لِتَشِيَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ كى نستقلها، و نستوى على ظهورها، و نستوحى من كلمه الإستواء أولاً: أن الله سخر الفلك و الأنعام للإنسان حتى يستقر في ظهورها دون و جل من تمردها عليه، ثانياً: أن علينا أن نجلس عليها باستقرار، و نتمكن منها، و لا ندعها تجمح أو تضطرب.

كما نستوحى من الآيه ضروره تسخير الطبيعه و عدم إهمالها،

و قد ورد فى الحديث: «كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: من وجد ماء و تراباً ثم افتقر بأبعده الله» (١)

ص: ٤٣٨

١-١) بحار الأنوار/ج (١٠٣) ص (٦٥).

و الإستواء على ظهور الفلك و الأنعام هو الهدف المرحلى منها أما الهدف الأسمى لهذه النعمه و سائر نعم الله هو الاهتداء و التقرب اليه.

ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ فَالهدف من نعم الله الماديه هو السموّ الروحى. إنّها معراج الإنسان الى الله، فإذا شبعت فقل: الحمد لله، و إذا ارتويت فقل: الحمد لله، و إذا استغنيت فقل:

الحمد لله، و إذا ركبت السياره فقل: سبحان الله..

و يذكّرنا القرآن الحكيم بالأهداف الماديه و المعنويه لنعم الله علينا، بالذّات فى هذه السوره التى تحوّرت حول علاقتنا بالطبيعه من حولنا، للأسباب التاليه:

أولاً: لكى لا- نزيغ عن الغايات النبيله للنعم، فالزواج جعل ليبنى به البيت و السكينه و المحبه و الخلق الرفيع فلا ينبغى أن نجعل هدفنا منه مجرد قضاء وطر الشهوه، و جعلت الأنعام للاستواء على ظهورها و بلوغ الأهداف المشروعه، و ليس للهو بها أو للتجبر و البطش على الناس.

ثانياً: لكى لا تبطرننا النعم و نتخذها للتفاخر و التكبر و الفساد فى الأرض.

ثالثاً: لتعطينا السكينه النفسيه و التى تساهم فى إصلاح نفوسنا من عقده الضعه، و تدعونا لشكر الله بعمل الصالحات.

لذلك أمرنا الله بهذا الدعاء عند ركوب الأنعام لكى ينقلنا امتطاؤها الى آفاق روحيه أبعد من تلك الآفاق الأرضيه التى نطويها عبرها. أ رأيت أى أفق بعيد يبلغه من يقطع المسافه بين الشهود و الغيب فى لحظه فينتقل من رؤيه النقص فى الطبيعه الى الكمال فى خالقها!

وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَنَسَاءلُ: لماذا أمرنا الله هنا بالتسبيح و ليس بالحمد؟ ذلك لأن حاجتنا-نحن البشر-الى الدواب أو الفلك، و ضعفنا عن توفيرها لو لا- تسخير الله، شاهد على تنزه الله و غناه، فهو غنى عن عباده، غنى عن التوسيل بالآلات، غنى عن تسخير شيء لنفسه، تعالى الله و تقدس ربنا عن كل ذلك.

ثم تسخير الأنعام و الفلك دليل عجز الحيوانات و الطبيعه و حاجتهما الشديده لمدبر حكيم هو الله.

و يهدينا ذلك الى تسامى ربنا عن الحاجه. أو ليس حاجه كل شيء دليل مخلوقيته، فكيف يحتاج الخالق؟ و أساسا كل نقص و عجز و حاجه و ضعف فى الخلق شاهد على ما يقابلها عند الخالق لدلاله العقل أن صفه الخالق غير صفه المخلوق،

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«مستشهد بحدوث الأشياء على أزليته، و بما وسمها به من العجز على قدرته، و بما اضطرها إليه من الفناء على دوامه» (١) وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ أَى لسنا بقرناء له، و لا مطيقين تسخيره، و لا بمستوى ضبطه، و أصل الكلمه من المقارنه بمعنى المشابهه فى القدره.

[١٤] وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ

ص: ٤٤٠

١-١) نهج البلاغه/خ(١٨٥)/ص(٢٦٩)-صبحى الصالح.

فالنعمة التي أعطيناها ليست دائمة، ونحن مسئولون عنها يوم القيامة، لأنَّ الله إنَّما أعطاكها لهدف مقدَّس سام، وهو أن تعمل بمنهج و بمقتضى أوامره.

و في الآيه ومضه أدبيّه فكما المسافر ينقلب ألى أهله كذلك الإنسان ينقلب ألى ربّه.

و حول هذا الموضوع جاءت طائفه من الأحاديث،

فعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكرًا؟ قال: «نعم»، قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمه [أنعمها] عليه في أهل و مال، و إن كان فيما أنعم عليه من ماله حق أداءه، و منه قوله عزّ و جل **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**، و منه قوله تعالى: **رَبِّ أَنْزَلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**، و قوله: **رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا** (١)

و عن أبي الحسن عليه السلام: «...و إن خرجت برّا فقل الذي قال الله عزّ و جل **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**، ف إنّه ليس من عبد يقولها عند ركوبه فيقع من بعير أو دابّه فيصيبه شيء ياذن الله» (٢)

و روى عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا استويت على راحلتك، و استوى بك محملك، فقل: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، و منّ علينا بمحمد صلى الله عليه و آله، **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** وَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ و الحمد لله ربّ العالمين. اللهم أنت الحامل على الظهر، و المستعان على الأمر، اللهم بلّغنا بلاغا يبلغ الى خير، بلاغا الى مغفرتك و رضوانك، اللهم لا طير

ص: ٤٤١

١- (١) البرهان/ ج ٤/ ص ١٣٦

٢- (٢) المصدر/ ص ٥٩٣

إلا- طيرك- الطير هو التشاؤم و الفأل الردىء- و لا خير إلا خيرك، و لا حافظ غيرك « (١) و هكذا أمرنا الدين الحنيف بأن نذكر الله عند ركوب ما سخره الله لنا مباشرة من الأنعام، و ما سخره بأيدينا من الفلك (و السيّاره و الطياره و ما أشبهه) لكي نتذكّر ما لهذه النعمه من أهداف معنويّه و ماديّه، كما أمرنا بأذكار و أدعيه عند كلّ نعمه عند الطعام و الشراب و الزواج و زياره البيوت و النوم و اليقظه و الوضوء و الغسل، و حتى عند النظر في المرآه.. كلّ ذلك لكي نتذكّر هدف كلّ نعمه فلا نزيغ عنه، و نشكر الله عليها فلا نصاب بالبطر و الكبر.

ص: ٤٤٢

١- ١) نور الثقلين / ج (٤) ص (٥٩٣).

اشاره

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مِنْ يَنْشَأُوا فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَمِ امٍ غَيْرٌ مُبِينٌ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبَّ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (٢٥)

اللغه

١٨] أو من ينشأوا في الحليه]: الهمزه للاستفهام و الواو للعطف، أى هل هؤلاء الكفار يجعلون لله تلك البنت التي تكبر و تتربى في الزينه؟! ٢٠] يخرصون]: يكذبون.

٢٣]مترفوها]:أى المتنعمون فيها،من أترف بمعنى تنعم -و المراد به الرؤساء و الكبراء-لأنهم دائما يقابلون المصلحين بالإنكار و التخاصم.

ص:٤٤٤

إشارة

عَلَيْهِ أَجَاءَ كُمْ

هدى من الآيات:

لكى تنفذ بصيره الإنسان الى واقع الخلق و تصلح بذلك علاقته به فلا يرفعه الى مقام الخالق، و لكى تخلص عباده الإنسان لخالقه من شوائب الشرك، و يعلم أنّ النعم من عنده فلا يكفر به بإشراك عباده فيها، و بالتالى لكى تكون علاقته بالنعم سليمة منبعثه من نور التوحيد، تسوق آيات المدرس حقائق التوحيد خالصه من زيغ المعتقدات الجاهليه، و التى منها نظريه الحلول التى يزعم أهلها أنّ لله فى عباده جزء يتنزل الله به عن مقام ربوبيته درجه، و يرتفع العبد به الى مقام الربوبيه بقدرها.

إنّ الكفر المبين بالنعم و بمن أنعم سبحانه، و هكذا الإنسان من طبعه الهبوط الى هذا الدرك من الكفر.

و يستنكر القرآن زعمهم بأنّ الله اختار البنات بينما اصطفى لهم البنين فى الوقت الذى تراهم يستاءون من الإناث حتى إذا بشر أحدهم بها ظلّ وجهه مسودّا و هو كظيم.

و يتساءل السياق: كيف يختار البنات و هنّ ناشئات الحلّى و الزينه، و لا يصلحن للجدال و المخاصمه؟! و هكذا جعلوا الملائكه
إنثا بينما هم عباد الرحمن و العباد أمام معبودهم شرع سواء(و هكذا ينسف القرآن أساس التفاضل الذاتى بين الخلق و هو فى
ذات الوقت الانحراف الكبير الذى يزيغ اليه ذووا الثروه و الجاه) و ينكر عليهم أن يقولوا ما ليس لهم به من علم و ينذرهم بأن
كلامهم يعتبر شهاده، و أنه مسجل عليهم، و أنهم يسألون عنه.

(و جعل الملائكه أو غيرهم أنصاف آلهه يساهم فى الإيمان بالقدر(الجبر) و أنهم لا يملكون من أنفسهم شيئا) و أنه لو شاء الله
لما عبدوا الملائكه.

(و لكن انسياقهم وراء النظرية القدرية تمّ بدفع شهواتهم و نزوع الإنسان الى التملّص من المسؤوليه) و إنه ما لهم بذلك من علم
إن هم إلا يخرصون.

(و تراهم يعظّمون آباءهم الى درجه اتباعهم بغير هدى) و لا يجوز تقديس الآباء إلا بقدر ما كان عندهم من كتاب أو هدى، أما
إنهم يقولون إننا مهتدون لأننا نتبع آباءنا فيما وجدناهم ماضين عليه من شرعه و منهاج.

و هذه عباده جرت فى كل الأمم، فما أرسل الله فى قريه من نذير يحذّرهم من الاسترسال مع المنكرات إلاّ قال المسترفون
فيها(الذين عبدوا الثروه و خشوا من الإصلاح) إنا وجدنا آباءنا على أُمَّه، و إننا ماضون عليها.. و حين دعاهم النذير بما هو أهدى
من آثار آبائهم كفروا برسالته فانتقم الله منهم بسبب تكذيبهم، و أثبت الانتقام أنهم مسئولون عن مواقفهم، اعترفوا بها أو لم
يعترفوا(و هكذا بان كفران الإنسان و أصله الجهل بمقام الله و أنه لا يتشبهه بخلقه أبدا).

[١٥] لقد بين القرآن حقيقه الفصل الأبدى بين الخالق و المخلوق حتى لا يضيفى على الخالق من صفات المخلوقين شىء، و لا ينعت المخلوق بصفه من صفات الخالق، لأن الخالق لا يشبهه شىء.

و ذكرنا بسفاهه كل المعتقدات الجاهليه التى تخلط بين صفات الخالق و المخلوق، و التى تنبعث-فيما يبدو-من النظره الشركيه الى المخلوق و إعطائه الذاتيه و القيمه من دون الله.

و كان من معتقداتهم السفيهه أن جعلوا لله البنات، و زعموا أن فيها جزء من الله.

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا فَمَسَّبُوا اللَّهَ جَزئين، أحدهما من ذاته، و الآخر من عباده. أو ليس الولد امتدادا لوالده، حيث ينتقل جزء من الوالد فيه حتى يصبح بضعه منه، هكذا زعم القائلون بالحلول أن جزء من الله ينتقل الى بعض عباده فيصبح نصف إله، و يكتسب قداسه بين سائر عباده، و ينتمى الى ذى العرش انتماء نسبيا (كما زعم النصارى أنه ثالث ثلاثة سبحانه و تعالى عما يصفون، و كما يزعم المتفرون أنهم يختلفون ذاتيا عن سائر خلق الله) أو لم يفقهوا أن كل من خلقه الله هو عبد لله و نسبته الى الله نسبه المخلوق الى خالقه، و هم جميعا أمامه سواء (من حيث الذات)، و من السفه أن يجعل له جزء من عباده دون جزء بل هم جميعا له، و لكن فى مستوى العبوديه و على صعيد المخلوقيه.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ

إنه جحد متجاهر بجحده..

أولاً: لأنه يجحد بآيات ربه، ويتنكر نعمه عليه، انطلاقاً من كبر في نفسه و بوعى منه و إصرار، لأنه لا يريد أن يسلم لأمره و يطيع أولياءه.

ثانياً: لأنه يساوى بين من أنعم عليه كل هذه النعم السابغة و بين عباده العاجزين، فيقول إنَّ بعض العباد شركاء لله، و ينسب إليهم من دون الله النعم.

و يتصل موضوع نكران النعم بهذه الشده بمحور السوره- و هو علاقه الإنسان بنعم الله- اتصالاً- متيناً إذ أن أهم ركائز العلاقه السليمه شكر الله، و تجاوز حاله الكفران الطبيعى عند الإنسان الى حاله الشكر المنبعثه من الإيمان.

[١٦] و هكذا زعموا بأنَّ الله اصطفى لنفسه البنات و لهم البنين.

أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصِيَةًكُمْ بِالْبَنِينَ وَ لَكِن كَيْفَ يَجْتَمِعُ الْخَلْقُ وَ التَّبَيُّ، ثم لماذا يصطفى لنفسه الإناث و البنات فى نظر الجاهليين ليست المثلى، فكيف يضربوه لله مثلاً؟! [١٧] وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ مكفهرًا من الغضب و وجهه، كاظما غيظه يكاد يتميز من الغيظ.

[١٨] أَوْ مَنْ يَنْشُؤُا فِي الْحَلِيهِ وَ هُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ فالبنات التى تكون نشأتها و نموها فى الحليه-الزينه- و تعيش النعومه و الرقه، هل هى قادره على القيام بما تقوم به الملائكه؟ كلاً.. و لو اتخذ الله بنات لجعلهم فى

رياض الجنان يمرحن، و لم يجعلهنّ يمارسن أمور الحياه، ثم إنّ النساء لذلك لا- يكوننّ قدرات على الخصام و الجدل كما الرجال لأنهنّ عادة يفصحن عن كل ما تجيش به صدورهنّ لفرط عاطفتهن.

[١٩] ولأنهم جعلوا لله جزء من عباده، و زعموا أنه اتخذ البنات مما خلق و هم يكرهون البنات، تراهم يعتقدون بأنّ الملائكة إناث.

وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا لِمَاذَا؟ لَعَلَّهُ لِلْأَسْبَابِ التَّالِيَةِ:

أولاً: إنهم زعموا في الملائكة ما زعمته النصرارى في المسيح حيث جعلوا لله فيهم جزء، لعله لعقيده الحلول.. أو حسب نظريه الفيض و تنزل وجود الله (تبارك و تعالى عما يقولون) الى مرتبه الملائكة، و هى عندهم أدنى من مقام الربوبيه و أعلى من مقام سائر الخلائق.

ثانياً: لأنهم لم يحبوا الملائكة نسبوا إليهم التأنيث أو ليست الإناث أقلّ قدرا من الذكور عندهم؟! ثالثاً: لأنهم كانوا يتصوّرون الملائكة يمثّلون جانب الشهوات، بينما مقام ربّ العرش مقام العقل.

رابعاً: قالوا إنّما أنثت العرب الملائكة فى لغتهم لأنهم كانوا يؤنثون كلّ مغيب عنهم، محجوب عن أعينهم، و الله العالم.

أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ هَلْ كَانُوا حَاضِرِينَ عِنْدَ مَا خَلَقَهُمُ اللَّهُ حَتَّى يَحْكُوا بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٌ؟!

سَتَكْتُبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ أَى سَنَسْجَلُ لَهُمْ قَوْلَهُمْ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِناثٌ، و يسألون عنه يوم القيامة، و كفى بذلك رادعا عن أقوالهم اللامسئولة.

[٢٠] و يمضى السياق فى دحض تخرّصات الجاهليين الواحد بعد الآخر حتى يبلغ محورها الرئيسى المتمثل فى النظرية القدرية، ذلك أنّ أساس زيغ البشر- كما يبدو و كما سبق القول آنفا- النظره الشيئيه التى تعطى للأشياء قيمه ذاتيه بعيده عن صلتها بالله العظيم.. فتضفى عليها هاله من القداسه، و الثبات و الحتميه.

إنّ الاعتقاد بوجود جزء من الله فى عباد الله هدفه تجريد الإنسان عن مسئوليته أعماله. ألا- ترى كيف يتنصّل الطاغوت- أى طاغوت- عن الالتزام بالقانون باسم أنّه ظلّ الله فى الأرض، و أنّه لا يخطئ؟ و يزعم بعض أدياء التصوّف أنّه مظهر لتجلّى الحقيقه المحمّديه فهو لا- يزيع، و زعم بعض أدياء الفقه بالتصويب، و أنّ ما يحكمون به عين ما حكم الله به من فوق عرشه، و هكذا الإنسان العادى يذهب الى تبرير أعماله بأنّ وراءها إرادته الله.

كما أنّ الشرك بالملائكه ينبعث من نزوع الإنسان الى تبرير أعماله، و التهرّب عن المسئوليه، حيث زعم بأنّ الملائكه يشفعون له. و هكذا نجد السياق يواصل الحديث عن هذه الأفكار الشركيه حتى يبلغ جذورها المتمثله فى القدرية فيقول:

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ فَاَللّٰهُ سُبْحٰنَهُ حَسْبَ هٰذَا الزَّعْمِ مَسْئُولٌ عَن ضَلٰلَتِهِمْ، لَآنَّهٗ كَانَ قَادِرًا عَلٰى

إنقاذهم منها فلم يشأ، كلاً.. إنَّ الله آتاهم فرصه الهدايه، ووفّر لهم عواملها، و شاءت حكمته أن يلقى بمسؤوليه الإختيار عليهم، فإن اهدوا بلغ بهم الكمال ذروته، وإن ضلّوا سقطوا في قعر الهاويه، لأنّ تلك و هذه إنّما تتم بإرادتهم.

و قد قلنا في بدايه هذا الدرس أنّ هذه فكره قدرّيّه جبريّه هدفها تبرير واقع الإنسان المتخلف، و تلقى بمسؤوليه الهدايه على الله.

و قد أشار السياق الى سفاهه مجمل تصوّراتهم، فهم جهلوا مقام الخالق فجعلوا له من عباده جزء، و لو عرفوا شيئاً من معنى الخلق و الإنشاء و إحاطه الرب قدره بكلّ شيء، و أنّ أمره بين الكاف و النون من كلمه (كن) و في لحظه إرادته يبتدع ملايين المجزّات..

أقول: لو عرفوا شيئاً من ذلك لسفّها أنفسهم، و لم يزعموا أنّ له مراتب وجوديّة يتنزّل عبرها ليكون جزء منه في مخلوقاته، سبحانه الله و تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

و لو عرفوا أنّ مهام الملائكه مهام صعبه لا تليق بالنساء الناعمات، فمن مهامهم اقتلاع قرى لوط عن أعماقها ثم قلبها و تدميرها، و من مهامهم بيان أعظم الحقائق و أدقّها، و مخاصمه المبطلين، فكيف تليق بمن ينشأ في الحليه، و لا يفصح في الجدل؟! لو عرفوا ذلك لما زعموا أنّ الله اصطفى البنات على البنين.

و لو عرفوا قرب الملائكه من الله، و مدى كرامتهم عنده، لأنّهم لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون، لما عادوهم و ضربوا لهم المثل السيء الذي رفضوه لأنفسهم حين قالوا أنّهم إناث.

كلّا.. إنّهم عباد الرحمن الذي وسعت رحمته كلّ شيء، و ما داموا عباداً فهم

فوق ما ينسب إليهم من الأنوثة (و هي مرتبه أدنى في زعمهم) و دون ما يتصوّر من أنّ فيهم جزء من اللوهيه.

ولأنّهم عباد الرحمن فلا يجوز أن يتخذ منهم الرحمن بنات، و قد شملت رحمته كلّ خلقه، و كيف تتفاوت الخليقه تفاوتاً ذاتياً، و هي كلّها مخلوقه لربّ واحد، بلى. إنّما يتفاضل الخلق بينهم بما يهب الله لهم حسب حكمته البالغه.

و الآيه تنسف أساس النظره الشئيه الى المخلوقات التي هي أساس الشرك و أساس كلّ الزيغ البشري، ببيان جهلهم المطلق بذلك الغيب، فهم لم يشهدوا خلق الملائكه فكيف يحكمون بأنّهم بنات؟! و أساساً هل يجوز أن يتحدّث الإنسان عمّا لم يؤت علمه؟! ما لهم بِمِثْلِكَ مِنْ عِلْمٍ فهم يتكلّفون علم ما لا قبل لهم به، إنّهم أرادوا أن يعرفوا كيف آتاهم الله العقل و الإراده، و كيف يجوز لهذا الإنسان المحدود أن يختار بنفسه، و أن يتجاوز العوامل الضاغطة، فوقعوا في ضلال بعيد.

إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أ رأيت كيف يخمّن الخراس و وزن التمر على النخل؟! إنّهُ يعتمد على معلومات غير كافيه، يضيف إليها من خياله الخصب ما لا يغنيه عن الحق شيئاً.

و يوحى هذا التعبير بأنّهم بنوا على فكره صحيحه نظريه خاطئه، فالصحيح هو وجود دوافع ضاغطة، و الخطأ هو أنّها تسلب إرادته الإنسان.

صحيح أنّ للاقتصاد أثراً كبيراً على قلب الإنسان، و أنّ الناس عبيد الدنيا،

و أنهم يحوطن دينهم ما درت معايشهم، و لكن الخطأ هو الحتمية الاقتصادية التي زعمت أن الإنسان محكوم كلياً بطرق الإنتاج كما قالت الماركسية.

و هكذا للاجتماع جاذبيه هائله، و لكنها لا تحتم على الإنسان شيئاً، و كذلك التاريخ يسوق البشر فى اتجاهه دون أن يكرهه على ذلك إكراها.

و لو لا قدره الإنسان على تحدى العوامل الضاغطة لما بنى حضاره، و لا تقدم شبرا، و لما استطاع الرواد أن يخرقوا جدر التخلف بسهام التجديد، و ما قدر الثوار أن يغيروا الواقع السياسى الفاسد، و لا انتصر الرسل على الجاهليين الذين كانوا يملكون وسائل الإنتاج، و أجهزه الاعلام، و جاذبيه المجتمع.

[٢١] و من الحتميات الموهومه الحتمية التاريخيه، و لا يعترف الدين بالتاريخ و التراث و تقاليد الآباء إلا بقدر ما فيه من هدى الله الموحى به عبر رسالاته، و لذلك نجد الذكر الحكيم يذكرنا بأنهم ما داموا لا يملكون كتابا يستمسكون به فلا قيمه لماضيهم.

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ الَّذِي يَجَادِلُونَ فِيهِ.

فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ [٢٢] كَلَّا.. إِنْ اعْتَمَادَهُمْ لَيْسَ عَلَى الْعِلْمِ (لأنه ما لهم به من علم) و لا على كتاب، إنما على تقاليد باليه.

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ

على طريقه يأتهم بعضهم بالبعض فيها.

وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ نحن سائرون على آثارهم فنحن إذا مهتدون.

كلا.. إن الآباء لم يكونوا أنصاف آلهه، ولا شرعيه لعملهم، ولا هدى فى آثارهم من دون علم أو كتاب.

[٢٣] وهذه عاده باطله درج عليها المترفون حينما بعث الله إليهم الأنبياء.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ فلربما كانت عقيدته الآباء منحرفه، و لربما كانت صحيحه و لكن فى وقتها، إذ أن « تِلْكَ أُمَّه قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أو قد يكونوا صالحين و لكن مع تقادم الزمن حرّفت عقائدهم.

و هذه الآيه تبين لنا أن الناس انقسموا تجاه أنبيائهم الى قسمين: قسم اتبع الأنبياء، و هم المستضعفون، و قسم خالف هدى الأنبياء، و هم المترفون و من اتبعهم من عامه الناس.

[٢٤] بلى. من السفاهه اتباع الآباء بلا تعقل، كما لا ينبغى رميهم بالانحراف رأسا، إنما يجب اتباع أهدي السبل سواء عرفه الآباء أم لا.

قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ وَ هَذَا طَعْنٌ غَيْرٌ مُبَاشِرٌ، وَ غَيْرٌ حَادٍ لِعَقِيدَةِ الْآبَاءِ، فَالرَّسُولُ لَمْ يَطْعَنْ فِي سِيرِهِ

الآباء، بل دعاهم الى اتباع الأهدى، مشيرا الى أن الآباء لم يكونوا مهتدين، أو أن مناهجهم كان صالحا لذلك الوقت، وقد نسخه تقادم الزمن، و تطوّر الظروف، فما ذا كان ردّ أقوام الرسل لهذه الدعوه؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون كفروا بما أرسل الرسل، و تبين زيف ادعائهم بحتميه اتباعهم لآبائهم، كلاً.. ليس آباؤهم مسئولين عن كفرهم، بل هم المسئولون.

[٢٥] و حين تمت عليهم الحجه، و ثبتت لهم مسئوليتهم عن أعمالهم، جاءهم الانتقام.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ و سواء اعترف الإنسان بجريمته أو لم يعترف فإن قضاء الله واقع به إذا تنكب الطريق، و هكذا لا يغنيه إنكار المسئوليه شيئا.

اشاره

وَ إِذْ قَالَ اِبْرَاهِيمُ لَآبِيهِ وَ قَوْمِهِ اِنِّىۤ اَبْرَءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ (٢٦) اِلَّا الَّذِىۤ فَطَرَنِىۤ فَاِنَّهٗ سَيَهۡدِينِ (٢٧) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقۡبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلَاءِ وَ اٰبَاءَهُمْ حَتّٰى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُوْلٌ مُّبِيْنٌ (٢٩) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوْا هٰذَا سِحْرٌ وَ اِنَّا بِهٖۤ كٰفِرُوْنَ (٣٠) وَ قَالُوْا لَوْلَا نَزَّلَ هٰذَا الْقُرْاٰنُ عَلٰى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرۡيٰتِيْنِ عَظِيْمٍ (٣١) اَهُمْ يَقْسِمُوْنَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ نَحۡنُ قَسَمْنَاۤ اَبۡنَآءَهُمْ مَّعِيۡشَتُهُمْ فِى الْحَيٰةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعۡضَهُمْ فَوْقَ بَعۡضٍ دَرَجٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُمْ بَعۡضًا سِيۡخِرِيًّا وَ رَحِمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌۭ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (٣٢) وَ لَوْلَا اَنْ يُّكُوْنَ النَّاسُ اُمَّةً وَّاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَّكۡفُرُ بِالرَّحۡمٰنِ لِيُبۡوِيۡنَهُمْ سَعۡفًا مِّنۡ فِضۡهِ وَ مَعٰرِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُوْنَ (٣٣) وَ لِيُبۡوِيۡنَهُمْ اَبۡوَابًا وَ سُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكُوْنَ (٣٤) وَ زُخُرَفًا وَ اِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيٰةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنۡدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِيْنَ (٣٥)

اللغة

٣٢ [سخرًا]: أى ينتفع أحدهم بعمل الآخر له فينتظم بذلك قوام أمر العالم.

٣٤] معارج]: جمع معراج و هو السلم.

٣٤] زخرفا]: هو الذهب.

ص: ٤٥٧

هدى من الآيات:

يضرب القرآن مثلا على الصراع بين الحق الذي يحمله النذير الى قومه و الواقع الفاسد الذي يدافع عنه المترفون باعتباره تراث الآباء، بقصه إبراهيم -عليه السلام- الذي تحدى أباه و قومه، و أعلن براءته مما يعبدون، و جعل الإمامه فى ذريته الطيبه لتكون منار هدى للأجيال المتعاقبه، كما و متّع طائفه من أبنائه (و هم أهل مكه و آباؤهم) دهرًا طويلا- حتى جاءهم الحق و رسول مبين فكذبوه و قالوا هذا سحر.

(و قد قاوموا رساله الإلهيه بقيمهم الماديه) و قالوا: لو لا نزل هذا القرآن على واحد من العظيمين فى مكه و الطائف (الوليد بن المغيره من قريش مكه أو حبيب بن عمرو من ثقيف الطائف، حسب ابن عباس).

و يبين القرآن ضلاله هذا المقياس، أولا: بأنّ الله هو الذى يقسم رحماته كيف

يشاء لا المخلوقون و ثانيا: بأنّ الله قد قسم بينهم معاشهم حسب حكّمته، و إنّما رفع بعضهم على بعض لكي يتخذ بعضهم بعضا سخريًا (و ليس للغنى فى غناه كرامه، و لا- على الفقير فى فقره هوان) و ثالثا: بأنّ رحمه الله (التمثله فى رسالاته و جزائه) خير مما يجمعون من مال و زخرف.

(و يمضى السياق قداما فى تهوين شأن الدنيا و ليقنلج من النفوس مقياس الغنى فى تقييم الحقائق، و يقول: لولا أن يكون الناس على الضلاله جميعا بإغراء زخرف الدنيا لجمع الدنيا كلّها للكفار، فجعل لبيوتهم سقفا من فضه و سلالم يرجون عليها) الى الطوابق العليا) و جعل أبواب بيوتهم و سررها من فضه، و أحسن تأثيث منازلهم بالزخرف. ثم ماذا بعد كلّ ذلك؟ إنّما ذلك متاع زائل للحياه الدنيا- بينما تصفى الآخره لمن اتقى ربّه.-

بينات من الآيات:

[٢٦] ضمن سياق هذه السوره التى تتحدّث عن تصحيح العلاقه بين الإنسان و ما حوله من بشر و طبيعه، يبين لنا السياق القرآنى العلاقه المثلى بين الإنسان و بين آباءه، فعلاقتة يجب أن تكون مع القيم قبل العلاقه بالماضى بما فيه من خير و شر..

لماذا؟ لأنّ الإنسان لا يكتسب القدسيه بمجرد مرور الزمان عليه، و لأنّنا و هم أمام الله شرع سواء، و إنّما قيمتنا جميعا باتباع ما أمرنا الله به.

و لولا- هذه العلاقه المجزّده عن التقديس لما قدرنا الانتفاع بتجاربهم، و كيف نتقى الأخطار التى أحذقت بهم و أهلكتهم، و ما هى بدايات انحرافهم، و ما هى عاقبتة؟ كما أنّ العلاقه السليمه الى التاريخ تجعلنا نعيش واقعنا بصوره أفضل، فمن الناس من تجده يهرب من حاضره الى ماضيه، و لا يرى إيجابيات عصره، و لا

إنجازات معاصريه، و لا يتنعم بفوائده، و لا يقبل التطوير و التجديد.. كل ذلك لأنه قد ارتدى في أحضان التاريخ، يحتذى بكهفه، و يتغنى بأمجاده، و يجتر حوادثه، و يتفاعل معها كما الأسطوانه الجريحه التي تكرر ذات النغمه أبداً، و هذه حقاً من أعظم علائم التخلف، فمثلاً- لم تكن قريش عند ما بزغ فجر النبوه تصدق بأن الرسول واحد منهم، يعيش بين ظهراينهم، يأكل مما يأكلون، و يشرب مما يشربون، يكون أفضل من إبراهيم و موسى و عيسى و من عظماء التاريخ (عليهم السلام)، بالرغم من أن القرآن الكريم عند عرضه لقصص أنبياء الله الكرام تراه يعرضها بواقعاتها الإيجابية و السلبية، و كيف كذبهم الناس، و لكن مع ذلك يقدسهم من يأتي من بعدهم. لماذا؟ للتعويض عن الحاضر بالماضي، الذي يأتي بدوره من منطلق التهزب من تحييل مسؤوليات الواقع الراهن، ذلك لأن الذي يقدس واحداً من عظماء التاريخ لا يكلفه ذلك شيئاً كثيراً، أما الذي يحترم قائداً حياً يعيش في عصره فإن ذلك يعني طاعته و التسليم لأوامره.

و من هذا المنطلق يتحدث القرآن عن قصه إبراهيم مع قومه، عند ما تبرأ من عباده الأصنام، معتبراً أن عباده الآباء لها ليس دليلاً على شرعيتها، و ورت هذا الفكر التحرري أبناءه، و صارت تلك سنه يتوارثها المؤمنون الصادقون عبر التاريخ، أن يؤمنوا بالله، و لا يخضعوا للفساد المستشري بين الناس، و الذي تعودوا عليه، و لا يخضعوا للشرعيه المزيفه- شرعيه الأمر الواقع- الذي يسميه عالمنا السياسي اليوم، مهما كان هذا الواقع صعباً.

بعد ذلك تتحدث الآيات عن النظرة الماديه البحتة الى القيم، فلو أنزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم، رجل من مكه أو آخر من الطائف. لماذا؟ لأن الدنيا مقبله عليهم، و النظرة الماديه الى القيم نابعه من النظرة الماديه للأشياء، فالقيمه كل القيمه في نظر بعض الناس للماده، أو كأن الماده هي القيمه الأساسيه

التي تعطى الشرعيه لسائر القيم.

وَ إِذْ قَالَ اِبْرَاهِيمُ لَآبِيهِ وَقَوْمِهِ اِنِّىٓ اَبْرَءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۗ كَانَتْ رِسَالَةٌ اِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ -موجهه ضد استمراريه الامر الواقع، ضد عباده الآباء، و تقديس شرعهم و معتقداتهم و تاريخهم، لذلك قال لأبيه: إِنِّىٓ اَبْرَءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ. و يعتبر هذا من أهم ما يتميَّز به إبراهيم الخليل من بين سائر الرسل.

[٢٧] و بتبرء إبراهيم عليه السلام مما عبده آباؤه، قطع صلاته بهم، و اختط لنفسه و لآله من بعده خطًّا جديدًا نظيفًا هو التوحيد.

إِلَّا الَّذِى فَطَرَنىٓ فَآبِئْهُ سَيِّدِىنِ فَوَلَّاهُ -عليه السلام- لرَبِّه الذى فطره و خلقه، و ليس لآبائه، رغم كونه ولد منهم لأنهم لم يكونوا سوى سبب، و إذا كان الأمر كذلك فإن فاطره أولى بهدايته منهم.

[٢٨] وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى جعل كلمه الرفض و البراءه مما يعبد الآباء باقيه فى عقبه لعلهم يرجعون إليها من الانحراف، و لم يجعل إبراهيم عليه السلام نفسه رمزا باقيا يتبع و يطاع، لأن العصور تختلف، و إنما كان إبراهيم نذيرا، و إنه لا بد أن يكون لكل قوم هاد و لكل عصر إمام.

و هكذا نستوحى فكره من هذه الآيه و آيات أخرى أن الأجيال التي تأتي بعد نهضه مباركه ينبغي أن يستفيدوا منها تجربه النهوض دون أن يعطوها كل الشرعيه،

و يحولوها الى عقبه فى طريق التطوير و التجديد، أو يجعلوها كهف الهروب من الواقع و مسؤولياته الثقيله، كالأ... إن لكل جيل نهضته التى تأتى ضد وضع فاسد يختلف عن ذلك الوضع الذى نهض السابقون ضده.

و هكذا فسرت هذه الآيه فى النصوص الدينيه بالإمامه،

فجاء فى حديث مأثور عن هشام عن الإمام الصادق-عليه السلام- أنه قال: «إنما هى جاريه فى عقب الحسين (عليه السلام) كما قال الله عزّ و جل: وَ جَعَلْنَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ تَمَّ هِى جَارِيه فى الأعقاب و أعقاب الأعقاب الى يوم القيامه» (1) [٢٩-٣٠] و فى مقابل إبراهيم عليه السلام و ذريته من بعده الكفار الذين يتقلبون فى نعم الله مما دعاهم الى الكفر و هكذا انقسم أبناء إبراهيم فى فريقين: فريق منهم حمله أمانه الرساله، و جعل فيه كلمه الإمامه، لعل الآخرين يجعلونهم مرجعا لهم فى شؤون دينهم و دنياهم، أما الفريق الآخر (و هم الأغلب) فقد ابتلاهم الله بالنعم فأترفوا فيها.

يَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ * وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ لَمَّا نَامُوا عَلَى حَرِيرِ النِّعَمِ، وَ اطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهَا رَفَضُوا أَى فِكْرِهِ جَدِيدِهِ، وَ قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ، وَ نَحْنُ كَافِرُونَ بِهِ.

كانوا يحسبون أن هذه المتع التى متّعهم ربّهم بها دليل صلاحهم، و لكن قد تكون المتع و النعم استدراجا منه سبحانه، قال تعالى:

ص: ٤٦٢

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١) وقال عزّ وجل: وَ أَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٢).

و ربما تعنى الآيه أنّ الله متّعهم حتى إذا جاءهم الحق و رسول مبين كذبوا به اعتمادا على النعم، حيث يعزو القرآن فى آيات كثيره التّكذيب بالرسل الى الإتراف، كما سبق فى الآيه (٢٣) حيث رأينا كيف قاد المترفون الناس الى التّكذيب بالرسل، و من هذا المنطلق نستطيع أن نعرف الصّله بين هذه الآيه و الآيات التّاليه التى تتحدث عن المترفين.

و لكن هل النعم دليل صلاح أصحابها؟ كلاً.. بل قد يكون بلاء أو استدراجا،

جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام :

١- «يا ابن آدم إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه و أنت تعصيه فاحذره».

٢- «كم من مستدرج بالإحسان إليه، و مغرور بالستر عليه، و مفتون بحسن القول فيه، و ما ابتلى الله أحدا بمثل الإملاء له».

٣- «أيها الناس! ليراكم الله فى النعمه و جليلين كما يراكم فى النقمه فرقين، إنّه من وسع عليه فى ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفاً، و من ضيق عليه فى ذات يده فلم ير ذلك اختباراً فقد ضيع مأمولاً» (٣) و لكن لماذا يتهم الكفار الرسل بالسحر؟ لأنّ الرسالات التى يأتى بها الرسل كانت قريبه من قلوبهم و عقولهم و عواطفهم، و كانوا ينجذبون إليها، و لكنهم لم

ص: ٤٤٣

١- ١) آل عمران ١٧٨.

٢- ٢) الأعراف ١٨٣.

٣- ٣) بحار الأنوار/ج ٧٣-ص ٣٨٣.

يريدوا الإيمان بها، ففسدوا بها بالسحر، لأنه يجذب الفرد من حيث لا يدري، ولكن جهلوا الفرق الكبير بين رساله الحق و السحر الباطل، فأثر السحر وقتى يزول بزوال المؤثر، وهذا ليس فى الرساله، كما أنّ الرساله تطلب منك موقفا و أنت فى كامل وعيك، و انطلاقا من عقلك، بعكس ما هو عليه السحر فأنت مجبور على سلوكك معين بتأثير السحر، و لا يفلح الساحر بينما صاحب الرساله منصور من عند الله، و نتساءل: كيف قالوا بأنّ الرساله سحر، و قد كانوا يتوسّلون بالسحر فى بعض الأحيان؟ يبدو أن السحر كان مبعوضا عندهم، و إنّما يتوسّلون به أحيانا عند الحاجه.

[٣١] لماذا يكفر بالرسالات الإلهية المترفون؟ لأنّهم اتبعوا ما أترفوا فيه، و ضاعت عنهم الموازين الحق، و مسخت شخصياتهم الإنسانية، فلم يعودوا يملكون مقاييس سليمه لمعرفة الحقائق، فقاموا كلّ شىء بميزان الماديات، و هكذا زعموا أنّ رساله الله لا بد أن تنزل على كبار المترفين، أو ليس قد خصّهم الله بنعمه الغنى حبّا لهم و إكراما لمقامهم، إذا فهم أحقّ بنعمه الرساله.

وَ قَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ

جاء فى النصوص الدينيه عن تفسير هذه الآيه عن الإمام العسكرى عليه السلام عن أبيه قال :

إنّ رسول الله صلى الله عليه و آله كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبه، إذ قال له عبد الله بن أميّه المخزومى: لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولا لبعث أجلّ من فيما بيننا مالا، و أحسنه حالا، فهلّا نزل هذا القرآن، الذى تزعم أنّ الله أنزله عليك، و ابتعثك به رسولا على رجل من القريتين عظيم: إمّا الوليد بن المغيره بمكه، و إمّا عروه بن مسعود الثقفى بالطائف، فقال (صلى الله عليه و آله و سلم): أمّا قولك:

لَوْلَا نَزَلَ لِهَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ، الوليد بن المغيرة بمكّه، أو عروه بالطائف، فإنّ الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظم أنت، ولا خطر له عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضه ما سقى كافرا به مخالفا شربه ماء، وليس قسمه رحمه الله إليك، بل الله القاسم للرحمات، و الفاعل لما يشاء في عبيده وإمائه، وليس هو عزّ وجلّ ممّن يخاف أحدا كما تخافه أنت لِماله و حاله، فعرفته بالنبوّه لذلك، ولا ممّن يحبّ أحدا محبّه اللهو كما تحب، فيقدم من لا يستحقّ التقديم، وإنّما معاملته بالعدل، فلا يؤثر لا فضل مراتب الدين و جلاله إلاّ الأفضل في طاعته و الأجدّ في خدمته، و كذا لا يؤخّر في مراتب الدين و جلاله إلاّ أشدهم تباطؤا عن طاعته.

و إذا كان هذا صفته لم ينظر الى مال و لا الى حال، بل هذا المال و الحال من تفضّله، و ليس لأحد من عباده عليه ضريبه لازب- اللازب الشديد اللزوم- فلا يقال له: إذا تفضّلت بالمال على عبد فلا بدّ أن تتفضّل عليه بالنبوّه أيضا، لأنّه ليس لأحد إكراهه على خلاف مراده، و إلزامه تفضّلا، لأنّه تفضّل قبله بنعمه.

ألا ترى يا عبد الله كيف أغنى واحدا و قبح صورته، و كيف حسّن صورته واحد و أفقره، و كيف شرفّ واحدا و أفقره، و كيف أغنى واحدا و وضعه، ثم ليس لهذا الغنى أن يقول: هلاّ- أضيف الى يسارى جمال فلان، و لا للجميل أن يقول: هلاّ أضيف الى جمالى مال فلان، و لا للشريف أن يقول: هلاّ أضيف الى شرفى مال فلان، و لا للوضيع أن يقول: هلاّ أضيف الى ضعفى شرف فلان، و لكن الحكم لله، يقسم كيف يشاء، و هو حكيم فى أفعاله، محمود فى أعماله.

و ذلك قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَأُحْضِرْنَا بَعْضَهُم إِلَى بَعْضٍ وَأُحْضِرْنَا إِلَى مَالٍ ذَلِكَ، و أحوج

ذلك الى سلعه هذا و الى خدمته.

فترى أجلّ الملوك، و أغنى الأغنياء، محتاجا الى أفقر الفقراء فى ضرب من الضروب، إِمّا سلعه معه ليست معه، و إِمّا خدمه يصلح لها لا يتهياً لذلك الملك أن يستغنى إلاّ به، و إِمّا باب من العلوم و الحكم هو فقير الى أن يستفيدا من هذا الفقير، فهذا الفقير يحتاج الى مال ذلك الملك الغنى، و ذلك الملك يحتاج الى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته، ثم ليس للملك أن يقول: هلاًّ اجتمع الى مالى علم هذا الفقير، و لا- الفقير أن يقول: هلاًّ اجتمع على رأى و علمى و ما أتصرف فيه من فنون الحكمه مال هذا الملك الغنى، ثم قال صلى الله عليه و آله: « وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » ثم قال: يا محمد! قل لهم: وَ رَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ أى ما يجمعه هؤلاء (١) و نستخلص من هذا النص: أنّ الجاهليه تعطى القيمه للماده لا للمبادئ، و قد أشار القرآن الى هذه النظرة الشاذّه عند ذكر قصه طالوت حينما اختاره ملكا لبنى إسرائيل فقالوا: أُنّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتِ سَيِّعَهُ مِنَ الْمَالِ (٢) و عند ما حكى قصه صاحب الجنه و صاحبه، قال: فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا - وَ أَعَزُّ نَفْرًا، وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣) إذ زعم هذا أنّ أمواله دليل على حبّ الله له، و لهذا فهو لا يظنّ أنّ الساعه قائمه، لأنّ الدنيا أنسته الاخره، و لكن إن قامت الساعه فسيجد خيرا منها منقلبا.

ص: ٤٦٦

١- ١) الإحتجاج ج / ص ٣٢.

٢- ٢) البقره ٢٤٧.

٣- ٣) الكهف ٣٢-٣٦.

هكذا تمسك بالمقاييس المادية في تقييم الآخرة.

و هكذا زعم كفار قريش أنّ ثروه أحد الرجلين في مكّه أو الطائف ترشّح أحدهما للرساله.

[٣٢] و قد جاءت رسالات الله لتتقد البشر من ويلات الماده و أصحابها، جاءت لتكون بصائرنا للفقراء في كفاحهم ضد استغلال الأغنياء، و للمستضعفين ضد إرهاب المستكبرين، جاءت لتبصير الجاهلين بزيف قيم الماده التي يدعوا إليها أدعياء العلم و الدين من أصحاب الطغاه و المترفين من أجل تكريس طغيانهم و فسادهم، و تضليل المحرومين حتى لا يطالبوا بحقوقهم.

و هكذا ردّ القرآن تلك المقوله الجاهليّه بيان بصيرتين:

الأولى: كما أنّ الله تفضّل على الأغنياء بالمال فلا يسأل عن ذلك، كذلك يتفضّل على البعض بالرساله، و لا يجوز أن يعترض عليه في ذلك.

الثانيه: أنّ المال ليس أساسا سليما للتقييم، بل رحمه الله المتمثله في الرساله هي الأفضل، و هي -و ليس المال- دليل حبّ الله لعبده، و تخصيصه بفضله.

أَهُمْ يَفْسِدُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنَّ النّبوه رحمه الله فهل فوّض إليهم أمر تقسيمها بين عبادته؟ كلاً.. فالله قسم المعيشه بينهم، فقد أعطى لكلّ شخص معيشته، حسب حكّمته، و لا- يحقّ لأحد الاعتراض عليه، و بالذات المترفون تراهم لا يعترضون على الله في تقدير المعيشه لهم، فكيف يعترضون فيما هو أهمّ من المعيشه و هو رحمه الله المتمثله في النّبوه.

نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْطِ الْكَمَالَاتِ لِجَمِيعِ النَّاسِ، بَلْ أَعْطَى الْمَالَ وَالْوَلَدَ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ شَرِيفًا، وَأَعْطَى لِمَنْ يَشَاءُ الْمَلِكَ، وَ مَنَعَ عَنْهُ سَائِرَ النِّعَمِ، فَمَثَلًا سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الْجِنَّ وَالطَّيْرَ وَالرِّيحَ لَمْ يَرْزُقْ وَلَدًا عَلَيَّ شَدَّةَ حَبِّهِ لَهُ.

و نَسْتَوْحِي مِنْ قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: نَحْنُ قَسِدٌ مِمَّا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ أَنْ تَقْسِمَ الْمَوَاهِبَ وَالنِّعَمَ كَانَ بِحَيْثُ تَصْلَحُ حَيَاتُهُمْ (و عِيشَتُهُمْ)، فَأَعْطَى رَبَّنَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ مَوْهَبَةً يَحْتَاجُ الْآخَرُونَ إِلَيْهِ فِيهَا.

إِذَا عِنْدَ مَا أَعْطَى رَبَّنَا الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ وَ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ الْمَالَ وَالْغِنَى، فَلَيْسَ لِأَنْهُمَا أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ أَوْ أَنَّهُ يَحِبُّهُمَا وَ يَكْرَهُ غَيْرَهُمَا، وَ إِنَّمَا لِأَنَّ الْحَيَاةَ قَامَتْ عَلَى أَسَاسِ الْحَاجَةِ الْمَتَبَادِلَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَ لَا يَسْتَعْنِي أَحَدٌ عَنِ الْآخَرِ، وَ لِذَلِكَ

عِنْدَ مَا سَمِعَ الْإِمَامُ زَيْنَ الْعَابِدِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رِجَالًا يَدْعُو قَائِلًا: «اللَّهُمَّ اغْنِنِي عَنِ خَلْقِكَ» نَهَرَهُ وَ قَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَيْسَ هَكَذَا: إِنَّمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ، وَ لَكِنْ قُلْ:

اللَّهُمَّ اغْنِنِي عَنِ شَرَارِ خَلْقِكَ» (١)

وَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ بِي حَاجَةَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ شَرَارِ خَلْقِكَ، وَ مَا جَعَلْتَهُ بِي مِنْ حَاجَةٍ فَاجْعَلْهَا إِلَيَّ أَحْسَنَهُمْ وَجْهًا، وَ أَسْخَاهُمْ بِهَا نَفْسًا، وَ أَطْلِقَهُمْ بِهَا لِسَانًا، وَ أَقْلَهُمْ عَلَيَّ بِهَا مَنَّا» (٢) وَ الْحِكْمَةُ مِنْ هَذِهِ الْحَاجَةِ الْمَتَبَادِلَةِ انْتِفَاعَ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَ هَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى:

وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُلْخِيًّا

ص: ٤٤٨

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٧٨ ص ١٣٥.

٢- ٢) المصدر/ ص ٥٦

و السخره هو الاستخدام، فقد خصّ كل أناس بموهبه لتكامل الحياه، إذ لو جعل الله كل الناس مكتفين في كل شيء لكانوا يطغون و يتكبرون، لأنّ بعض الناس و هم محتاجون بشده إلى الآخرين تراهم يقولون: «أنا ربُّكم الماعلى!» فكيف إذا أحسوا بالاستغناء و تحرّزوا من قيود الاحتياج الى الآخرين؟! بل لو لم يتفاضل الناس بالمواهب لما بنيت حضاره، و لا تنامي مجتمع أو تجمع، و لعاش الناس كما سائر الأحياء في صراع أبدي.

وَ رَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ لَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الرِّسَالَةَ لَا بَدَّ أَنْ تَهْبِطَ عَلَى الْاَغْنِيَاءِ، فَرَدَّهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَقْسِمُ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَ أَنَّهُ خَصَّ كُلَّ فَرْدٍ بِمَوْهَبِهِ، وَ أَضَافَ: إِنَّ قِيَمَةَ الرِّسَالَةِ أَعْظَمُ مِنْ قِيَمَةِ الْمَالِ، فَلَوْ كَانَ يَنْبَغِي اجْتِمَاعُ الْخَيْرِ عِنْدَ آخِرِ فَلَا بَدَّ أَنْ تَجْتَمِعَ عِنْدَ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ، لِأَنَّهَا أَعْظَمُ قِيَمَةً عِنْدَ اللَّهِ.

[٣٣] و لكي يقتلع جذور هذا التقييم الخاطئ من قلوب البشر، مضى السياق في بيان خساسة الدنيا و عدم احترامها عند الله، لأنها زائله، فإذا قيست بالآخره لم تكن سوى متاع يسير.

وَ لَوْ لَا أَنَّ يَكُونُ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً أَى عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ هُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ.

لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ أَى لَوْ لَا الْخَوْفُ مِنْ تَحَوُّلِ الْمُؤْمِنِينَ كَافِرِينَ لِأَعْطَى اللَّهُ الْكُفْرَانَ كُلَّ مَا يَرِيدُونَ، وَ لَجَعَلَ سَقُوفَ بِيُوتِهِمْ مِنْ فِضَّةٍ، وَ لَجَعَلَ بِيُوتِهِمْ طَبَقَاتٍ عَدِيدَةً يَرْتَقُونَ إِلَيْهَا عَبْرَ سُلَّالِمٍ وَ دَرَجَاتٍ.

وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ [٣٤] وَإِيبُوتِهِمْ أَبْوَاباً ربما سبب ذكر الأبواب لبيوت من يكفر بالرحمن هو أن تكون بيوتهم مركزا اجتماعياً، أو يكون تعدد الأبواب دليل سعه البيوت، أو المراد أن تكون تلك الأبواب كما السرر من فضه.

وَسِرُّرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ [٣٥] وَزُخْرُفًا قال العلامة الطبرسى: الزخرف كمال حسن الشىء، و منه قيل للذهب زخرف، و يقال: زخرفه زخرفه إذا حسنه و زينته، و منه قيل للنقوش و التصاوير زخرف. (١)

و على هذا يكون المعنى أعطاهم ما يكمل حسنهم و حسن بيوتهم من الذهب و الفضة و الفرش و الأثاث، و ما إلى ذلك.

و لكن الله منع بحكمته هذه النعم عنهم لكى لا- يبتلى المؤمنون بلاء عظيمًا، فلو فعل ذلك لم يتحمّل أحد منهم إغراء النعم المتوافره عند الكفار فكانوا يكفرون بالله جميعًا.

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) :

«لو فعل الله ذلك لما آمن أحد، و لكنّه جعل فى المؤمنين أغنياء، و فى

ص: ٤٧٠

الكافرين فقراء، وجعل في الكافرين أغنياء، و في المؤمنين فقراء، ثم امتحنهم بالأمر و النهى، و الصبر و الرضا « (١) هب أن الله أعطى كل ذلك للكفار، فهل يعنى ذلك أن لهم عند ربهم كرامه بذلك، و للمؤمنين عليه هو انا؟ كلاً.. إن كل ذلك ليس -بعد كل ذلك- سوى متاع، لا يستفيد منه صاحبه إلا قليلاً، و هى فى الحياه الدنيا التى تأطر كل شىء فيها بالدوتيه و الضعه، بينما هتياً ربنا الآخره حيث القرار الأبدى للمتقين فدعاهم الى دار ضيافته، و مقام كرامته، و منازل قربه و رضوانه.

وَ إِنْ كُلُّ ذِكْرٍ لِّمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا الْمَتَاعُ: ما يتمتع به الإنسان مؤقتاً.

وَ الْمَآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ فالقيمه الحقيقه ليست للماده الزائله، بل القيمه الأساسيه للعمل الصالح الذى يدخره المؤمنون للآخره.

و بكلمه: الدنيا زائله، و ما فيها من نعم ليست سوى متاع لا قيمه له عند الله، و لو لا أن إغراء هذه النعم كان يسبب فى ميل الناس جميعاً الى الكفر لكان ربنا قد أكملها للكفار، لدناءتها و زوالها، و لكن الله اللطيف بعباده أبى أن يجمع الخيرات عند الكفار ليعطى فرصه الإيمان للآخرين.

ص: ٤٧١

اشاره

وَ مِنْ يَعْشُر عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهِيَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيَصِدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٧)
حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعِيدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ
مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَأِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ
نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ
وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَ سَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

اللغه

٣٨ [المشرقين]: أى المشرق و المغرب، و غلب المشرق لقاعده الأشرف أو الأقرب إلى القصد.

إشاره

نُقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا

هدى من الآيات:

ذكر الله نور ساطع يعيشو عنه البعض (لأنهم لا يريدون تحمّل مسؤولياته) فيقيض لهم الله شيطانا يقودهم الى النار، و ذلك بأن يصدّهم عن سبيل الحق، و يزيّن لهم الباطل فيحسبون أنّهم على هدى.

بهذا يكمل السياق ما بدأه بالآيات المتقدّمه من تهوين شأن الدنيا، و تسفيهه من يتخذ متاعها مقياسا للحق، ذلك أنّ علاج الميل الى الدنيا معرفه حقيقتها، و لكن كيف يتم ذلك؟ إنّما بذكر الله فهو نور، و حين يعرض عنه البعض يبتلون بالشياطين من الجن، و بقرناء السوء من أبالسّه الإنس الذين يزيّنون للمحرومين أعمال السلاطين و المترفين من أدعياء العلم و الدين.

و عند لقاء الله في ذلك اليوم الرهيب يكتشف المرء مدى خسارته، فيقول لقرين

السوء الذى أضلّه: يا ليت كُنّا متباعدين فى الدنيا كما تباعد المشرق عن المغرب، و لكن هيهات لا ينفع يومئذ التبرى من قرينه الذى يلازمه الى الأبد.

و حين يضلّ الله أحدا لا تنفعه دعوه الرسول أو عظه الناصحين. أو يسمع الأصمّ، أو يهتدى الأعمى، و من هو فى ضلال بعيد؟! (بهذا يشير الذكر الى مسئولية الإنسان عن هداة أو ضلّالته).

أمّا الرسول فما عليه إلاّ البلاغ فإذا عدّب الله أولئك الضالّال بعد أن يذهب به أو فى حياته فإنّ الأمر بيد الله يعدّبهم آجلا أو عاجلا.

إنّما عليه (و علينا نحن التابعين له) أن يستمسك بالوحي (و لا تزلزله دعايات المترفين) فهو على صراط مستقيم.

إنّ القرآن هو ذلك الذكر الذى يعالج أمراض القلب، و التى يجمعها حبّ الدنيا، و هو للرسول أوّلا، و لقومه الأقرب فالأقرب، و سوف يسألون جميعا عنه.

(و هو الشرف الذى يسمو على شرف المال و الجاه عند قريش، لأنّه يدخل المؤمن حصن التوحيد، و يفكّ عنه أغلال الشرك).

و التوحيد هو رساله الأنبياء (و هو يتنافى و الخضوع لأصحاب القوّه و الثروه).

بينات من الآيات:

اشاره

[٣٦] كيف نواجه إغراء المادّه، و نتجاوز الافتتان بما لدى الكفّار من مظاهر القوّه، و زخرف الحياه؟ إنّ الإنسان من تراب و كلّ شىء يحنّ الى أصله، فحبّ الدنيا عميق فى كيان الإنسان و هو رأس كلّ خطيئه، فكيف الخلاص منه؟

ص: ٤٧٤

علما بأنه من دون التطهر من حب الدنيا لا يخلص توحيد الإنسان، بل يظل يخلط عملا صالحا و آخر سيئا، بل يشوب نيتته نزغات شيطانية حتى في الصالحات من أعماله، لا يخلص -مثلا- لقياده الحق إلا عند ما توفر له متاع الحياه الدنيا، فإذا مَحَص بالبلاء أنهار في وادي الشرك.

الإجابة تتلخص في كلمه ذكر الله، فيه تفيض النفس سكينه، و القلب اطمئنانا. إنه النور الذي يهزم ظلام الجهل و الوسوسه و الغفله عن الفؤاد..

فَعِنْدَ مَا تَعْصِفُ وَسَاوَسَ الشَّيْطَانُ بِالنَّفْسِ، وَ تَتَلَاخَقُ عَلَيْهِ نَزْغَاتُهُ وَ هَمْزَاتُهُ، لَا يَجِدُ الْإِنْسَانَ مَفْرَاً إِلَّا إِلَى اللَّهِ. أَوْ لَمْ يَقُلْ رَبَّنَا: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) وَ قَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢).

و لكن البعض يعيش عن ذكر الله، يتغافل عنه و يتجاهله، لا يستعيذ بالله، يستسلم لنزغات الشيطان، و لا يتذكر أنه عدو مبين، و هنالك يتمكن منه الشيطان، و يعين له الله قرين سوء من الشياطين يقوم بأمرين:

الأول: يمنع من عمل الخير، و لا يدعه يسلك سبيل الرشاد، فيسلب بذلك توفيق الهدايه عنه.

الثاني: يزين له سوء عمله فيراه حسنا فلا يفلح أبدا.

وَ مَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ قَالُوا أَصْلَ الْعَشْوِ النَّظْرُ بِبَصَرٍ ضَعِيفٍ، يُقَالُ عَشَى إِذَا ضَعِفَ بَصَرُهُ، وَ أَظْلَمَتْ

ص: ٤٧٥

١-١) الأعراف/ (٢٠٠).

٢-٢) الأعراف/ (٢٠١).

عينه.

نُقِيضُ نَعِينٍ أَوْ نَتِيحُ.

لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ يَلْزَمُهُ وَلَا يَدَعُهُ لَوْحَدَهُ لَيْلَةً وَنَهَارَهُ.

و لعل استخدام اسم «الرحمن» هنا لبيان مدى عمى الرجل الذى يعيش عن النظر الى آثار من وسعت رحمته كل شىء. أ فلا التجأ إليه من عاديه إبليس، و فرّ الى كهف رحمته من عدوّه المبين؟! [٣٧] وَإِنَّهُمْ لَيَصِيدُونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ بِالضَّبِطِ نَقِيضُ مَا تَفْعَلُهُ الْمَلَائِكَةُ بِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ تَثَبَّتْهُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَ تَزِيلُ عَنْ طَرِيقِهِ الْعَقَبَاتِ حَتَّى يَتَوَفَّقَ لِعَمَلِ الْخَيْرِ، بَيْنَمَا قَرِينُ السُّوءِ يَسُوفُ صَاحِبَهُ التَّوْبَةَ، وَ يَعْرِقُ مَسِيرَتَهُ إِلَى اللَّهِ، وَ يَلْقَى عَلَيْهِ الْكَسَلَ كُلَّمَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ أَوْ دَعَى إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ. إِنَّهُ يَمَلَأُ قَلْبَهُ وَ عَوْدًا كَاذِبَةً وَ أَمَانِي وَ وَسَاوِسَ.

بل قد يفتح الشيطان أمام صاحبه بابا مستقبلياً من الخير حتى يمنع عن الخير العاجل، ثم يمنع عن ذلك الخير أيضاً.

وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ هَكَذَا يَزِينُ الشَّيْطَانُ لِقَرِينِهِ الضَّلَالَ حَتَّى يَحْسِبَهُ هَدَى. وَ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ يَشْكُ فِي طَرِيقَتِهِ يَرْجَى لَهُ النِّجَاةَ، وَ لَكِنْ حِينَما يَزِينُ الشَّيْطَانُ لَهُ عَمَلَهُ فَلَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ

ص: ٤٧٤

داعيا الى التفكر فى صحه نهجه و سلامه خطه،لا ينجو أبدا.

و نستوحى من الآيه بصيرتين:

الأولى: إن الخطوه الأولى فى سبيل الضلال كما فى طريق الهدى يخطوها الإنسان بكامل حرّيته،فإذا عشى عن ذكر الرحمن أضلّه الله بقرين السوء،و إذا تذكّر بصّره و أعاده من شر الشيطان.

إذا فمستوليه الإنسان الكبرى هى اختيار الهدايه بالاستعاذه بالله،بالإقلاع عن حاله التكبر الدوتيه الى سماء العبوديه لله.

الثانيه:لا يلغى مسئوليه الإنسان عن عقائده و أفعاله أنه يحسب أنّها صحيحه ما دام هذا الحسبان آت من تزيين الشيطان.إنّه كمن يلقي بنفسه من شاهق يتحمّل مسئوليه عمله حتى و لو فقد الإختيار أثناء دحرجته بين الصخور.لماذا؟ لأنّه هو الذى سلب نفسه القدره حين رمى بنفسه من عل..كذلك الذى يرفض الالتجاء الى الله فيقتض الله له شيطانا يضلّه.إنّه لا يزال مسئولا عن ضلالته لأنّ بدايتها منه.

و هكذا مجرد الاعتقاد بشيء لا يبيّر المضيّ فيه ما لم يعتمد على منهج سليم، و إلاّ فكثير من المجرمين يعتبرون أفعالهم صالحه.

[٣٨]إذا أردت أن تعرف حقيقه شيء فى الدنيا فانظر كيف يتجسّد فى الآخره،إذ أنّ تلك الدار هى المقياس.إنّها الحصاد الأكبر بينما الدنيا مزرعه و هل يعرف الزرع إلا بالحصاد.

و إنّما يصوّر لنا كتاب ربّنا مشاهد الآخره،و يبيّن فى كلّ موضوعه صورا

مناسبه لها من واقع الآخرة، بهدف جعلها مقياساً، ولعلنا نقرب أكثر فأكثر الى حقائق الخلق، ولا ننظر الى ظاهر من الحياه الدنيا.

و هنا فى سورة الزخرف حيث تبين آياتها المحور السليم للحياه و هو التوحيد، لا المال و لا الصداقه القائمه على أساسه، يبين لنا القرآن مشهداً من مشاهد الصراع القائم هنالك بين أصدقاء السوء هنا، فيقول:

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا و حضر عند ربّه هذا الذى عشى عن ذكر الله.

قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ يتمنى يومئذ أن يكون بينهما ما بين المشرق و المغرب لما يجد من سيئات الاقتران به.

[٣٩] كلاً.. لا ينفع التبرى من البعض، و لا ينفع التبرير، لأنّ الظلم قد وقع فعلاً بكامل اختيارهم، و النار تسع الجميع.

وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ أَى لا يجديكم نفعاً أنكم تمنون التباعد عن بعضكم، إذ أنّه جاء متأخراً بعد أن ظلمتم أنفسكم.

إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ قالوا: لا ينفعكم اشتراككم فى العذاب شيئاً إذ لا تتقاسمون العذاب بل لكلّ الحظ الأوفر.

و قالوا: لا يتسلى أحد بعداب غيره فليست هنالك البليه إذا عمّت طابت، لأنّ العذاب هنالك لا يطيب لأحد أبدا، لأنه شديد و دائم.

و لأنّ قرناء السوء فى خصام دائم مع بعضهم فلا يسلى أحد أبدا.

[٤٠] و حين يضلّ قرين السوء صاحبه يكون مثله مثل الأصم و الأعمى.

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ كَلًّا.. لأنّ جهاز الاستقبال معطل عنده فكيف يستمع، و قد قال الشاعر:

لقد أسمعت إن ناديت حيا و لكن لا حياه لمن تنادى

أَوْ تَهْدِي الْعُمَى وَ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ كَلًّا.. لأنّ من انحرف عن الطريق قليلا ترجى أوبته إليه، و لكنّ الذى شطّ بعيدا حتى أحاطت به الضلاله كيف يمكن هدايته.

هكذا ينبغى اليأس عن استبدّ بقلبه حبّ الدنيا فأخذ يقيس كلّ شىء بالمال و الجاه، و القوّه الظاهريه. إنّه فى ضلال مبين، و لا يعجبك ما عنده فتفكر فى كسبه بأينه و سيله فتقدّم له التنازلات من دينك و موافقك، كلاً.. ما عند الله خير و أبقى.

[٤١] إنّ عاقبه هؤلاء العذاب فى الدنيا و قبل العذاب الأ-كبر عند ربّهم، و سواء تمّ ذلك بعد وفاتك أو فى حياتك فإنّهم معذبون، فلا تغررك أموالهم و أولادهم، و لا يحزنك مكرهم و دعاياتهم، و لا تستعجل عليهم فإنّ العذاب الذى ينتظرهم شديد.

فَأِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ

ص: ٤٧٩

إِنَّ وَجُودَ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ الْكُفَّارِ قَدْ يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أَجَلٍ مُّحَدَّدٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١).

[٤٢] وَقَدْ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْكُفَّارَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ وَبِمَشْهَدٍ مِنْهُ أَوْ مِنْ الدَّعَاةِ مِنْ أَتْبَاعِهِ، لَكِي يَرِيَهُمْ قُوَّتَهُ وَيَقْرَأَ أَعْيُنُهُمْ بِنَصْرِهِ.

أَوْ نُزَيْتِكَ الَّذِي وَعَدْنَا لَهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ فَلَا تَنْفَعُهُمْ ثَرْوَتُهُمْ أَوْ قُوَّتُهُمْ شَيْئًا.

[٤٣] وَأَلَّا نَّ عَاقِبَةَ الْكُفَّارِ الدَّمَارَ فَلَا بَدَّ مِنْ مُوَاجِهَةِ إِغْرَائِهِمْ وَإِرْهَابِهِمْ، وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّمَسُّكِ الشَّدِيدِ بِالرَّسَالَةِ.

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِيُنْظَرَ الْمُؤْمِنَ إِلَى الظُّوَاهِرِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ مِنْ خِلَالِ بَصَائِرِ الْوَحْيِ، لَكِي لَا يَتَأَثَّرَ بِهَا سَلْبِيًّا، وَيُطَبِّقُ مَنَاجِجَ الرَّسَالَةِ بِدَقَّةٍ حَتَّى يُمْكِنَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّ كُلَّ بِنْدٍ مِنْ بِنُودِ الشَّرِيعَةِ قُوَّةٌ وَاقْتِدَارٌ، وَليَكُنْ وَاثِقًا مِنْ سَلَامَةِ خَطِّهِ فَإِنَّ الثَّقَةَ بِالنَّصْرِ طَرِيقٌ إِلَيْهِ.

إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٤٤] وَليْسَ الشَّرْفُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَمَنَاصِبِهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْوَحْيِ الَّذِي يَعْبِقُ ذِكْرَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهِ فِي كُلِّ أَفْقٍ.

ص: ٤٨٠

وَإِنَّهُ لَمَذْكُرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ لَقَدْ ذَهَبَ أَصْحَابُ الْأَمْوَالِ، وَأَصْبَحُوا أَحَادِيثَ يُعْتَبَرُ بِهِمُ الْمُعْتَبِرُونَ، بَيْنَمَا بَقِيَ ذِكْرُ أَصْحَابِ الرِّسَالَةِ عَلَى كُلِّ شَفْهِهِ وَعَلَى امْتِدَادِ الْعَصُورِ.

بلى. إِنَّ أَصْحَابَ الرِّسَالَةِ مَسْئُولُونَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ عَنْهَا، لِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي بِيوتِهِمْ فَهَمُّ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا.

وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ

وَجَاءَ فِي حَدِيثٍ مَأْثُورٍ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَنَّهُ قَالَ: «الذِّكْرُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ أَهْلُ الذِّكْرِ، وَهُمْ الْمَسْئُولُونَ» (١).

[٤٥] ولا يجوز الاستسلام لأهواء المترفين أو الطغاه، لأن في ذلك شركاً برب العزه.. وقد جاءت الرِّسَالَةُ لِتَطْهِيرِ النُّفُوسِ مِنَ الشَّرْكِ، وَتَطْهِيرِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْقِيَادَاتِ الشَّرْكِيةِ، فَكَيْفَ تَقْبَلُ بِهِمُ الْيَوْمَ شُرَكَاءَ فِي السَّلْطَةِ.

وَسَيَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ كَلَّا.. إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ يَخْضَعُ بِأَحَدِهِمَا لِرَبِّهِ وَبِالْآخَرِ لِأَصْحَابِ الثَّرْوَةِ أَوْ السَّلْطَةِ.

التوحيد محور العلاقة الاجتماعية:

سبق الحديث في محور سورة الزخرف المتمثل في تهوين شأن الدنيا، لكي

ص: ٤٨١

١- (١) نور الثقلين / ج (٤) ص (١٠٥).

لا يجعلها المسلم قيمه يقيس بها الأمور، وآيات هذا الدرس تنسف العلاقة القائم على أساس هذه القيمه الزائله، ذلك أنّ القيمه السليمه عند الله هي التي تمتد من الحياه الدنيا إلى الآخره.

و إذا استطعنا إصلاح قيمه التجمّع أو الرابطه التي توصلنا ببعضنا فجعلناها الإيمان دون المصالح العاجله، و لا الإقليم، و العنصر، و الشهوات، و الأهواء، و العصبّيات، فقد أقمنا فعلا المجتمع الربّاني المنشود.

و لقد جاءت رسالات السماء جميعا و في طليعتها القرآن الكريم لتحقيق هذه الغايه الساميه، و لكن كيف؟ بتهوين الدنيا، و حط شأنها، لكي لا تصبح بما فيها من زخرف مقياسا، ثم بالنهي عن اتخاذ المترفين فيها قاده، و أخيرا ببيان الرابطه الشيطانيه التي تنتهي بأصحابها الى النار.

و إذا كان حبّ الدنيا أرضيّه فإنّ قياده المترفين الشجره. أمّا ثمرتها فهي الصله بين قرناء السوء.

و يبدو أنّ السياق ذكرنا أولا بهوان الدنيا على الله (حتى أعطاها للكفار) ثم أخذ يبصّرنا بحقيقه قرناء السوء في هذا الدرس، حيث نستوحى منه بصائر حكيمة في الروابط الاجتماعيه، ذلك أنّ للعلاقه الاجتماعيه -و بالذات تلك التي تركز عليها البني التحتيه للمجتمع -قاعده، فقد تكون الأرض قاعده التجمّع فتنشأ الصله الوطنيّه و الإقليميه، و قد تكون اللغه هي القاعده فتتمو الحاله القوميّه، و قد تكون المصالح العامه التي تنمو و تتسع الى الحاله الإمبرياليه، و قد تتجلّى في صوره الأمميّه البروليتاريّه.

و الصله التي تربط في هذه الحالات جميعا بين الإنسان و الإنسان هي صله ماديه

ناشئه من التراب، بينما رسالات الله تريد صله أخرى هي صله الروح، صله الحب الإلهي، صله القيم الربانية، وهذه الصله قائمه على أساس ذكر الله.

و هي تستنزل رحمه الله، و تنمى قيم الفضيله و الخير و الإحسان، كما تحافظ على الحق و العدل و الحريره، بينما الصلات الأخرى تستدرج البشر الى نقمه الله، و تطمس معالم الحق، و لا تنمى الخير، بل و تساهم -عاده- فى إشاعه الفحشاء، و بث روح الاعتداء و الظلم.

فإذا بحثنا عميقا فى أسباب الشقاء و العداء و عوامل الصراع و الحرب و الاعتداء بين الناس، سواء داخل التجمع الواحد أو بين الأمم، فلن نجد لها سوى هذه الصلات الجاهليه النابعه من حب الدنيا و زخرفها.

و القرآن هنا يحذّرنا من الوقوع فى هذه المهالك، و يأمرنا بالتمسك بالوحي، فمن عشى عنه فقد قرن به شيطان، يبعده عن السبيل، و يزين له السيئات.

و يبدو أنّ باطن هذه الآيات التبصير بدور القرين فى حياه الإنسان، و القرين قد يكون زوجه أو زوجا أو صاحب السبيل أو زميل الدراسه أو شريك التجاره أو الجليس و الأئيس، و الإسلام يأمرنا بذكر الله حتى يكون معيار اتخاذ القرين ربانيا، لأنه حسب ما يكون الإنسان يختار أقرانه، و كما

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «كل امرء يميل إلى مثله».

«لا يصحب الأبرار إلا نظراؤهم».

«لا يوادّ الأشرار إلا أشباههم» (١).

ص: ٤٨٣

١- ١) ميزان الحكمه/ج(٥)ص(٢٩٨).

و حين يتخذ القرين بمعيار إلهى تكون علاقته به متينه،بينما إذا كانت المصلحه أو الهوى أساسا للصدقه انهارت بتبدل الأحوال..

و حين يكون المعيار الإلهى حاكما يصنع المؤمنون من تجمّعهم جنه أرضيه حيث يوادون بعضهم فى الله لا تجد فى قلوبهم غلا للذين آمنوا و يأنس الواحد منهم الى صاحبه كما الظمان الى شراب سائغ..و هنالك تتجلى السعاده الدنيويه،كما لا تتجلى فى أى نعمه أخرى..

و تمتد هذه الخله حتى يوم القيامه حيث يقول ربنا: [□]الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ و حتى تبلغ بهم الجنه حيث تراهم إخواناً على [□]سررٍ متقابلين .

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَ أَخَذْنَا هُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (٥٠) وَ نَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَآ يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسِيءَ تَخَفَ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آتَيْنَا نُونًا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَا هُم سَلَفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)

٥٠]ينكثون[أى يغدرون و ينقضون العهد.

٥٣]أسوره[:جمع سوار و هو الحليه التى تلبس فى اليدين المرفق و الزند.

٥٤]فاستخفّ قومه[:بأنّ حسبهم خفيى العقول يتمكّن من إنهاضهم لنصره بمجرد خطاب و مغالطه، كما هى عاده الطغاه دائما أمام الجماهير.

٥٥]آسفونا[:أغضبونا و الله تعالى لا- يغضب كما الإنسان، و إنّما له رسل و ملائكه يغضبون له، كما أنّ غضبه عزّ و جل على العصاه هو إرادته عقوبتهم.

ص: ٤٨٦

هدى من الآيات:

فى سياق هذه السوره التى تدور حول تصحيح علاقه الإنسان بما حوله، يضرب لنا القرآن مثلاً من فرعون الذى اغترّ بزينة الحياه الدنيا، واستعبد الناس بها، فكانت نهايته الأليمه أن أغرقه الله و جنده، و ما هذه العاقبه و أمثالها من الظالمين ببعيد.

لقد جاء موسى عليه السلام الى فرعون لكى يحدّد له العلاقه السليمه بالطبيعه، فله أن يسخرها و يستفيد منها، لا أن يركن إليها و يطمئنّ بها، لأنها متغيره، و كلّ متغير زائل، بيد أن فرعون آثر الكفر على الإيمان، و رفض الانقياد لرساله الله، و قياده موسى عليه السلام .

و يركّز الله فى هذه القصه على علاقه الإنسان بالطبيعه، فقد اعتقد فرعون أنه ما دام يملك مصر، و أنّ الأنهار تجرى من تحته، فلا بدّ أن يكون هو ملك الناس و موجههم دون موسى عليه السلام الذى جاءه بمدرعه الصوف، و بيده عصاه التى يتوكأ

عليها، و يهشّ بها على غنمه، غافلا عن أنّ قياده الحياه ليست للأغنى أو الأعتى بل للأصلح.

و تناسب هذه الآيات و الآيه التي تقول: **وَقَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ لَّأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا فَرَعُونَ** اعتقدوا بأنّ الأصلح للحكم هو الأغنى و ليس الأصلح الأقرب إلى الله عزّ و جلّ.

كما هي مثل للقرين الذي يقبضه الله لمن يعشو عن ذكره، حيث أنّ فرعون حين وجد قوما فاسقين استخفّهم، و أثار فيهم النزعات الشريره و الشهوات العقيمه، فقال لهم: ألا ترون-يا قومي-أنتى أملك مصر، كما بيدي تنظيم أنهارها. هل أنا خير أم هذا الذي لا يترين بأسوره من ذهب، و لا تصفّ وراءه جنوده(من الملائكه)؟! و هكذا يصدّ الطغاه(و هم قرناء السوء) الغافلين عن ذكر ربّهم، و يزيّنون لهم سوء أعمالهم ليحسبوا أنّهم مهتدون! و أخيرا: يضرب القرآن بهذه الآيات مثلا لعاقبه المستهزئين بالرسالات، الذين ازينت الدنيا فى أعينهم، فعبدوها و قاسوا كلّ شىء بزخرفها، كيف يحيط بهم ما عبده، و يكون هلاكهم بما افتخروا به. ألا ترى كيف تبجح فرعون بالأنهار التي تجرى من تحته فأطاعه قومه بذلك فأغرقهم الله فيها؟! هكذا يضرب الله للناس الأمثال.

و للسياق هنا محوران: الأول: ما يتعلّق بموسى عليه السلام و فرعون، الثانى: ما يرتبط بفرعون و ملئه، الذين لم يتدخّلوا لحسم الحوار للحق، فاستحقّوا العذاب بسبب سكوتهم عن فرعون و اتباعهم له.

[٤٦] وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْمَلَأُ فِي الْقُرْآنِ هِيَ الطَّبَقَةُ الْمَتْرَفَةُ الْمَتَسَلِّطَةُ عَلَى النَّاسِ. وَ نَسْتَوْحِي مِنْ إِشْرَاكِ اللَّهِ لِلْمَلَأِ مَعَ فِرْعَوْنَ فِي الدَّعْوَةِ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا فِرَاعِنَهُ صَغَارًا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَ يَسْتَفِيدُ مِنْهُمْ، وَ كَانُوا يَلْتَفُونَ حَوْلَهُ، وَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ، وَ إِذَا رَاجَعْنَا قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ نَجِدُ أَنَّ الْمَلَأَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَحْرِضُونَ النَّاسَ عَلَى الْكُفْرِ، وَ يَقْفُونَ أَمَامَ الرِّسَالَاتِ.

[٤٧] فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ كَانُوا يَضْحَكُونَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَلُ أَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهَا وَ يُؤْمِنُوا بِهَا، وَ مِثْلَهُمْ مِثْلُ الصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءِ لَا يَسْتَقِرُّ عَلَيْهَا قَطْرُ السَّمَاءِ، وَ لَا تَنْبِتُ الزَّرْعَ، كَذَلِكَ الْقُلُوبُ الْمُتَحَجِّرَةُ تَنْزَاحُ عَنْهَا الْمَوَاعِظُ، وَ يَسْتَهْزَأُ أَصْحَابُهَا بِالرِّسَالَاتِ وَ الرِّسْلِ، وَ هَذَا مِثْلُ لَمَّا أَجْمَلَهُ السِّيَاقُ فِي فَاتِحَةِ السُّورَةِ.

[٤٨] وَ مَا نُزِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا تَدْرَجُ اللَّهُ لَهُم بِالْآيَاتِ، فَمِنَ الْعَصَا وَ الْيَدِ، إِلَى السِّنِينَ وَ نَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَ الثَّمَرَاتِ، إِلَى الطُّوفَانِ وَ الْجَرَادِ وَ الْقَمَلِ وَ الضَّفَادِعِ وَ الدَّمِ، إِلَى الرَّجْزِ، وَ كُلِّ آيَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَكْبَرُ وَ أَعْظَمُ مِنْ أُخْتِهَا، وَ كُلُّهَا كَانَتْ مِنْ نَوْعِ الْعَذَابِ الْأَدْنَى الَّذِي يَقْضِيهِ اللَّهُ بِلُطْفِهِ عَلَى بَعْضِ الْأُمَّمِ بِهَدَفِ إِنْذَارِهِمْ.

وَ أَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [٤٩] تَرَاهُمْ هَلْ رَجَعُوا؟ كَلَّا.. فَحِينَ يَصِيبُهُمُ الْعَذَابُ يَتَوَسَّلُونَ بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ

-و يسمونه ساحرا- أن يدعو ربّه بما عهد عنده من الآيات و الرساله إن أزال عنهم العذاب إنهم لمهتدون.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ وَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثَ مَلاحِظَاتٍ: الأولى: أنّهم سمّوا موسى ساحرا، و الثانيه:

أنّهم قالوا: ادع لنا ربّك، و لم يقولوا: ربّنا، و الثالثه: أنّهم حين العذاب بالآيات لم يهتدوا، و لكنّهم قالوا: إنّنا لمهتدون إن كشف عنا ربّك العذاب، فهم لن يهتدوا إلا بعد أن يكشف الله عنهم العذاب.

و تساءل المفسرون: كيف سمّوا موسى ساحرا ثم سأله أن يدعو ربّه بالنجاه؟ و الجواب:

أولا: يكشف القرآن الحكيم دائما تناقضات الكفّار، و كيف أنّهم ضلّوا فلا يهتدون سبيلا، و بالذات فيما يرتبط بظاهرة النبوه، فقال ربّنا سبحانه: بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتِرَاءٌ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (١).

و قال سبحانه: أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٢).

و قوم فرعون بدورهم ضلّوا في أمر موسى، فمن جهه قالوا: يا ساحر، و من جهه ثانيه اعترفوا بأنّ قدرته ليست منه، و لا من بعض ما يعرفه من الحيل، بل من الله، فسألوه أن يدعو ربّه.

ص: ٤٩٠

١- ١) الأنبياء/ (٥).

٢- ٢) الإسراء/ (٤٨).

ثانيا: إنَّ تهمه السحر التي كان الكفار يفترونها على الأنبياء كانت أقوى حجّة لصدق نبوتهم، إذ أنهم اعترفوا من خلالها بأنّ الرسل يأتون بما هو خارق العاده، ولكنهم كانوا يفسّرونها بالسحر.. ونحن نعرف براءة الرسل من السحر، إذ لا يفلح الساحر حيث أتى، و نعرف الفرق الذى جهلوه بين السحر و النبوه، فيكون اعتراف الأعمم الكافره دليلا- على صدق الرسل، و أنّ تلك كانت آيات تشابهت عليهم بامتلاك الرسل الخوارق، كما نعرف أنّ كفر أولئك الجاهلين كان بدافع الكبر و حبّ الدنيا و الهروب من المسؤليه.

ثالثا: بالرغم من اتهام النبى موسى عليه السلام بالسحر، و نكثهم المكرّر لوعدهم إيّاه بالتصديق، لم يزل هذا النبى العظيم يدعو ربّه لأجلهم. و حقّا: ما أوسع هذا الصدر، و ما أرحم هذا القلب، و ما أدوم هذه الاستقامه فى طريق الدعوه التى ينبغى أن نجعلها لأنفسنا أسوه و مثلا حسنا.

[٥٠] و برحمه الله سبحانه الواسعه و عطفه على العباد يرفع عنهم العذاب، مع علمه أنّهم لن يهتدوا إذا أبدا، و لكن ليعطيهم الفرصه تلو الفرصه.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعِذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ و يتبين لنا من هذه الآيات أنّ العذاب نوعان: عذاب الإنذار، و عذاب الانتقام، فمن رأى النوع الأوّل من العذاب فلا يفوت الفرصه على نفسه، لأنّه إذا جاءه العذاب الثانى فلا مردّ له من الله.

و إنّنا نجد فرعون و ملأه قد تعهدوا بالهدايه، إذ قالوا: إِنَّا لَمُهْتَدُونَ، و لكنهم أخلفوا بعد أن كشف الله عنهم العذاب.

[٥١] و خشى فرعون من انتشار الدعوه بين قومه فاستدرك الأمر بإثاره الشهوات

فى أنفسم.

وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ كَيْفَ نَادَى كُلَّ أَهْلِ مِصْرَ الَّذِينَ كَانُوا قَوْمَهُ؟ هَلْ جَمَعَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ فَنَادَى فِيهِمْ؟ أَمْ أَنَّهُ بَثَّ الشَّائِعَاتِ عِبْرَ أَجْزِهِ إِعْلَامَهُ، وَ وَسَائِلَ دَعَايَتِهِ، كَالسِّحْرِ وَ الْكُهْنَةِ وَ مَنْ أَشْبَهَ؟ لَعَلَّ هَذَا أَقْرَبُ إِلَى مَعْنَى النِّدَاءِ فِى قَوْمِهِ، حَيْثُ يَظْهَرُ أَنَّهُ أَبْلَغُ كُلِّ قَوْمِهِ بِكَلَامِهِ هَذَا.

قَالَ يَا قَوْمِ فَأَثَارَ فِيهِمْ النُّخُوهُ وَ الْعَصِييَةُ حَيْثُ نَادَاهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمَهُ.

أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَكَذَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ مَلِكُهُمُ الشَّرْعِيُّ فَلَا بَدَّ مِنْ طَاعَتِهِ. أَوْ لَيْسَ يَمْلِكُ الْقُوَّةُ وَ الْمَنْعَةُ؟ ثُمَّ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ يَمْلِكُ نَاصِيَهُ الْقُدْرَةَ الْاِقْتِصَادِيَّةَ أَيْضًا، قَائِلًا:

وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي فَهُوَ الْمَنْظَمُ لِلرِّىِّ الَّذِي بِأَمْرِهِ تَجْرِي الْأَنْهَارُ الْمَتَفَرِّعَةُ مِنَ النَّيْلِ، وَ الَّتِي قِيلَ بِأَنَّهَا كَانَتْ تَبْلُغُ (٣٦٠) كَمْ، وَ كَانَتْ تَرْوِي مِنْهَا زُرَاعَتَهُمْ.

وَ قَدْ قَالُوا: إِنَّ الْحَضَارَةَ النَّهْرِيَّةَ تَدْعُو إِلَى النِّظْمِ وَ الْاِسْتِقْرَارِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا، لِأَنَّ حَيَاةَ أَهْلِهَا قَائِمَةٌ عَلَى حَسَنِ تَوْزِيْعِ الْمِيَاهِ. وَ لَعَلَّ السِّيَاقَ يَشِيرُ إِلَى ذَلِكَ حَيْثُ لَمَّحَ فِرْعَوْنُ بِأَنَّ الرِّسَالَةَ تَهْدِدُ النَّازِمَ الَّذِي يَهَيِّئُ تَوْزِيْعَ الْمِيَاهِ، وَ لِذَلِكَ قَالَ الْمَفْسِّرُونَ إِنَّ مَعْنَى «مَنْ تَحْتِي» هُوَ بِأَمْرِي وَ سُلْطَتِي، وَ هُوَ تَعْبِيرٌ بِالرُّعُوعِ.

وَ لَا رَيْبَ أَنَّ الْاِصْلَاحَ فِى الْمَجْتَمَعَاتِ الْمُسْتَقْرَمَةِ كَذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ أَشَدَّ صَعُوبَةً.

ص: ٤٩٢

أَفَلَا تُبْصِرُونَ لماذا لم يقل: أ فلا تعقلون، أو تتفكرون؟ لأنه يدعوهم الى رؤيه الظاهر، أما إذا دعاهم للتفكير فسوف يكتشفون بأنه ليس سوى بشر عادى مثلهم، وإنما سيطر عليهم بجهلهم. و لو عقلوا لعرفوا أن ملك مصر لله ثم لمن عمّرها، و أن فرعون يستحقّ منهم أشدّ العذاب على استغلالهم مائتيا، و التسلّط عليهم سياسيًا، بلا تخويل منهم، و لا تفويض من عند الله، فكيف يطالبهم بأجر، و يمنّ عليهم، لأنّه طغى عليهم، و انتهب ثرواتهم؟! [٥٢] ثم استهزأ برسول الله إليهم، و أخذ يقيم حقائق رسالات ربّ العالمين بالمعيار المادى، و كيف أن موسى عليه السلام مستضعف، و أنّه لا يفصح قولاً، و لا يملك شرفاً.

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ مستضعف، و راعى غنم. لا ذكر له. و هذه عادة الطغاه أن يستصغروا الرسل و الدعاه الى الله، فلقد سمعنا قصه إبراهيم و قومه لما جعل الأصنام جذاذا حين قالوا تصغيروا: «سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ» (١).

[٥٣] ثم أخذ يقيس موسى عليه السلام بما يملكه من ثروه أو سلطه، و هكذا يقيس الجاهليّون الناس بالغنى و القوّه، لا بالصلاح و الخير.

فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ الْأَسْوِرَةُ جَمْعُ السَّوَارِ.

أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ

و إذا لم يكن ذا مال، فلتأت معه الملائكة متقارنين يعاضد بعضهم بعضاً، كالجنود المجنّده التي يملكها هو.

و جاء حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام: و لقد دخل موسى بن عمران و معه أخوه هارون-عليهما السلام-على فرعون، و عليهما مدارع الصوف، و بأيديهما العصى، فشرطاً له-إن أسلم-بقاء ملكه، و دوام عزّه، فقال: ألا-تعجبون من هذين يشرطان لى دوام العز، و بقاء الملك، و هما بما ترون من حال الفقر و الذلّ، فهلاً ألقى عليهما أساوره من ذهب؟! اعظاماً للذهب و جمعه، و احتقاراً للصوف و لبسه! لو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، و معادن العقيان، و مغارس الجنان، و أن يحشر معهم طيور السماء و وحوش الأرضين لفعل، و لو فعل لسقط البلاء، و بطل الجزاء، و اضمحلت الأنبياء، و لما وجب للقابلين أجور المبتلين، و لا استحقّ المؤمنون ثواب المحسنين، و لا لزمّت الأسماء معانيها، و لكنّ الله سبحانه جعل رسله أولى قوّه فى عزائمهم، و ضعفه فيما ترى الأعين من حالاً-تهم، مع قناعه تملأ-القلوب و العيون غنى، و خصاصه تملأ الأبصار و الأسماع أذى.

و لو كانت الأنبياء أهل قوه لا ترام، و عزه لا تضام، و ملكك تمد نحوه أعناق الرجال، و تشد اليه عقد الرجال، لكان ذلك أهون على الخلق فى الإعتبار، و أبعد لهم فى الاستكبار، و لآمنوا عن رهبة قاهره لهم، أو رغبه مائله بهم، فكانت النيات مشتركة، و الحسنات مقتسمه. و لكن الله سبحانه أراد أن يكون الإتياع لرسله، و التصديق بكتبه، و الخشوع لوجهه، و الاستكانه لأمره، و الاستسلام لطاعته، أمورا له خاصه، لا تشوبها من غيرها شائبه، و كلما كانت البلوى و الاختبار أعظم كانت المثوبه و الجزاء أجزل (١).

ص: ٤٩٤

[٥٤] فَاشْتَحَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ لَقَدْ جَرَّدَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ مِنْ ثِقَلِ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ، بِمَا أَثَارَ فِيهِمْ مِنْ حُبِّ الشَّهَوَاتِ الرَّخِيصَةِ، فَأَطَاعُوهُ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَئِذٍ يَمْلِكُ الْعَقْلُ وَالْإِيمَانُ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ رَصِينًا وَمُوزُونًا، لَا- تَحْرَكُهُ الْعَوَاصِفُ، وَلَا- تَزِيلُهُ الْقَوَاصِفُ، بَيْنَمَا إِذَا فَقَدَهُ كَانَ كَرِيشِهِ تَتَقَاذَفُهُ الرِّيَّاحُ.

و لقد كان فرعون-شأن كل الطغاه-يعرف أن منطق العقل و العلم و الفطره يؤيد موسى عليه السلام، و لكنّه انحرف عنه الى إثارة العصبية، و التلويح بالإرهاب و الإغراء، و بالتالى إزاعه الناس عن عقولهم الرصينه الى شهواتهم الخفيفه.

و هذا شأن الاعلام الجاهلى اليوم الذى يستخدم آخر إنجازات العلم فى إثارة الشهوات، و بثّ العصبية، و تخويف الناس من الرسالين، انطلاقا من النزغات الشيطانية.

هل سمعت كيف دعا وزير الحرب الأمريكى رؤوساء العرب بدعم إسرائيل ماديا، لأنها تحافظ على عروشهم ضد ما أسماه بالتطرف الدينى؟ أسمع كيف يتهمون أولياء الله بالإرهاب، ثم يعدّونهم، و يذبّونهم، و لا من معترض؟ و ما نغموا منهم إلا أنّهم يدعونهم الى التوحيد، و نبذ الأنداد، الذين يمثّلهم اليوم مستكبروا الشرق و الغرب و عملاؤهم.

لقد قال فرعون و أجهزه إعلامه: لماذا لا يلبس موسى أسوره من ذهب، و يدعم منطقهم بجنود من الملائكة؟ و اليوم تقول أجهزه الفراعنه الجدد: ما قيمه شرذمه من

المطرّفين، إنهم لا- يملكون قوه و لا مالا؟ (١) بلى. و لكنهم يدعون الى الله، و الله هو القوي الغني. و لكن من الذي يتبع دعايات الظالمين، و يخضع لإعلامهم؟ إنما هم الفاسقون.

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ سَلِمُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْبَاطِلِ فَفَسَقُوا عَنِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْبُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْذُ الْبَدْءِ عَلَى التَّسْلِيمِ لِلْحَقِّ، فَكَانَ لَا بَدَّ أَنْ يَسَلِمُوا لِلْبَاطِلِ فِرْعَوْنَ.

و يبدو من هذه الآية أنّ فرعون ليس هو المسؤول الوحيد، إنّما الذين اتبعوه كانوا أيضا مسئولين، و إلا- لما قال عنهم ربنا: «فأطاعوه» و لما قال عنهم: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» فقد أطاعوا فرعون في باطله، لأنهم كانوا فاسقين في واقعهم، فاستحقوا العذاب باختيارهم السيء.

[٥٥] لقد أغضبوا الربّ الرحمن بعنادهم على الجحود، و بلغ بهم فعلهم المشين درجة الأسف.

فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَأَسَّفُ، وَ لَكِنَّ الْوَاقِعَ وَاقِعٌ يَبْعَثُ عَلَى الْآسَفِ، وَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَهُ مِنْ يَأْسَفُ، كَمَا أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الَّذِينَ رَضَاهُمْ رَضِيَ اللَّهُ وَ سَخَطَهُمْ سَخَطَ اللَّهُ يَأْسَفُونَ.

[٥٦] فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ سَلَفًا: مَثَلًا يَحْتَدَى بِهِمْ، وَ مَثَلًا: عِبْرَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ.

ص: ٤٩٦

هدى من الآيات:

تتوالى آيات الدرس تبصرنا بشرف الرساله، وهوان الدنيا، لكي نبني تجمّعنا على أساس الوحي لا المتاع الزائل، وابن مريم آيه فى شرف الزهد فى الدنيا، و مثل أعلى لبني إسرائيل فى الرغبه عن زخرف الحياه، و قد أمعن عبيد الدنيا من اليهود و من تأثر بهم من الجاهليين العرب فى الصدّ عنه، و عن سبيله المستقيم، و نهض الرسول لردّ الشبهات التى بثّوها حوله، لكى تتكرّس فى الأمه قياده الحق، و قيم الرساله المتمثله فى موسى و عيسى و محمّد-صلى الله عليهم- و من مضى على سبيلهم كالإمام على و أهل بيت الرسول-عليهم السّلام- و المنتجين من أصحابهم.

كذلك نجد سوره الزخرف تضرب لنا المثل العالیه من حياه أولى العزم من الرسل باستثناء نوح عليه السلام، لأنّ السوره تبصّرنا أساسا بقياده أصحاب الرسالات، و تحرّضا ضد قياده أولى القوّه و الثروه.

و الجاهليون الذين منعهم تعصّبهم الأعمى عن الإيمان بعيسى كانوا يتساءلون:

ءآلهتنا خير أم هو؟ و هم يعلمون مقام عيسى، و لكنهم إنما جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

ثم يتابع السياق حديثه عن عيسى -عليه السلام- الذى جعله الله مثلا لبنى إسرائيل، فيقول: (إنَّ أعظم فضائله كانت فى عبوديته لله!) فهو عبد أنعم الله عليه، و كانت دعوته الى الله الواحد (كما دعوه كل الرسل) و إنما جاء ليعلّم بنى إسرائيل الحكمة، و يفصل بين خلافاتهم، و لكنهم عادوا و اختلفوا فيه، فويل للظالمين من عذاب أليم.

و يختم الدرس بالإنذار من الساعة التى تأتيهم بغتة و هم لا يشعرون.

بينات من الآيات:

[٥٧] يتبع القرآن الحكيم منهجا رائعا حين يفصّل القول فى موضوعه هامه عبر سوره واحده أو سور شتى، ثم يجمله مشيرا إلى ذلك التفصيل، و هكذا ينبغى أن يتبع المتدبّر منهج النظره الشموليه الذى أشارت إليه النصوص، بأن يفسّر بعض القرآن ببعضه، و يعيد متشابهاته الى محكماته، و لا يجعل القرآن عظيم يأخذ ببعضه و يترك بعضا.

و هنا يجمال القرآن حديثه عن النبي عيسى -عليه السلام- كما جعله مثلا يحتذى لبنى إسرائيل، كما ضرب مثلا للعرب لعلهم به يهتدون إلى نوع القيادة الذى أمروا باتباعه.

لقد رفع الله شأن ابن مريم حين خلقه من غير أب، و جعله يكلم الناس فى المهد صبيا، و آتاه الكتاب و الحكمة، و جعله مباركا.

و لقد أكرمه الله بالزهد فى الدنيا، و الخلق الرفيع، و تلك هى قيم الوحي الحق،

و ليس المال و الجاه و ما أشبه.

و كان يكفى العرب هدى مثال عيسى، فرساله النبي محمد صلى الله عليه و آله و رساله أخيه عيسى عليه السلام واحده، و زهده فى الدنيا، و خلقه العظيم، و معالم شخصيته، كلها متشابهه و معالم شخصيه ابن مريم، و لكن قريشا صدّت عن هذا المثل السامى.

لماذا؟ أو لا لأنهم لم يؤمنوا بتلك القيم العليا التى مثلها عيسى - عليه السلام - بشخصيته و دعوته، فهم عبدوا آلهه تمثّل الشهوات و الأمانى الزائلة، و زينها قرناؤهم من شياطين الجنّ و الإنس فى أعينهم، حتى قالوا: آلهتنا خير أم هو؟! ثانيا: لأنّ إيمانهم بعيسى بن مريم عليه السلام مثال الفضائل (و الذى قد فرض نفسه على وجدانهم و فطرتهم بالرغم منهم) كان يدعوهم الى الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه و آله لأنهما على نهج واحد، فصدّوا عن ذاك ليصدّوا عن هذا.

ثالثا: و لعلّ قريشا تأثرت بالدعايه السلبيه التى بثّها اليهود حول النبي عيسى - عليه السلام -، و يبدو أنّ من أبعاد رساله النبي صلى الله عليه و آله فى قومه إحياء ذكر إخوته الأنبياء الكرام - عليهم السلام - لا سيّما أنبياء بنى إسرائيل الذين ربما منعت عصبية العرب من قبولهم، و بالذات عيسى - عليه السلام - الذى تعرّض للإعلام المضادّ من قبل اليهود بالإضافة الى كونه من بنى إسرائيل.

□
و لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا - أَى بَيْنَ الْقُرْآنِ كَمَا الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ وَ اتَّبَاعِهَا مِثَالِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي زَهْدِهِ وَ خَلْقِهِ وَ آيَاتِهِ لِيَهْتَدَى بِهِ الْعَرَبُ إِلَى رَسُولِهِمُ الْكَرِيمِ، وَ إِلَى أَوْصِيَائِهِ الَّذِينَ يَجْسُدُونَ نَهْجَهُ.

□
إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ

ص: ٥٠٠

فلا- يؤمنون به مع أنّ شخصيته أسمى من كلّ ريب، و لعل كلمه «يصدّون» أشربت معنى الصدّ عن سبيل الله، و قال بعضهم: إنّ معناها يضجّون، من الصديد و هو الجلبه، فيكون تفسيرها: يثيرون الضجيج و اللغط حول هذه الشخصيه من الأفكار السلبيه لكى لا يؤمنوا بعيسى عليه السلام، و قد سمى القرآن أفكار الضالّين باللغو فى آيات أخرى، كقوله سبحانه: **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (١)**.

و قد طبقت نصوص أهل البيت-عليهم السلام- هذه الآيه على أمير المؤمنين -عليه السلام- لأنه كما جاء فى أحاديث عديده عن النبي صلى الله عليه و آله أنّه شبيه عيسى بن مريم عليه السلام .

و لا- ريب أنّ عليًا-عليه السلام- كان مثالا للقياده الربّانيه التى تمثّل قيم الوحي، كما كان النبي عيسى بن مريم عليه السلام، كما أنّ عليًا-عليه السلام- غالى فيه قوم حتى قالوا فيه مثلما قالت النصارى فى عيسى بن مريم، و قلاه آخرون حتى ساووه بمعاويه، و اقتصد فيه الصالحون.

فى الحديث عن أهل البيت-عليهم السلام- عن الإمام على عليه السلام قال :

«جئت الى النبي (صلى الله عليه و آله) يوما فوجدته فى ملأ- من قريش، فنظر إلىّ ثم قال: يا على إنّما مثلك فى هذه الأمه كمثل عيسى بن مريم أحبّه قوم و أفرطوا فى حبه فهلكوا، و أبغضه قوم فأفرطوا فى بغضه فهلكوا، و اقتصد فيه قوم فنجوا.

فعظم ذلك عليهم، و ضحكوا، فنزلت الآيه « (٢).

و للآيه تفسير آخر مستوحى من نصّ ورد فى نزول الآيه، نذكره فيما يلى، علما

ص: ٥٠١

١- ١) فصّلت/ (٢٦).

٢- ٢) جوامع الجامع- الطبرسى/ ج (٢) ص (٥١٧).

بأن تطبيق القرآن على موارد نزول آياته لا يعنى تحديده بها، فللقرآن أبعاد مختلفه و بطون شتى تجرى عليها جميعا الآيات كما تجرى الشمس على السهول و الجبال.

روى أنه لما نزلت هذه الآيه: **إِنَّكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** (١) قال أحد مشركى قريش و هو (عبد الله ابن الزعبرى): هذا خاصه لنا و لآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال الرسول صلى الله عليه و آله: «بل لجميع الأمم» فقال: خصمتك و رب الكعبه، أ لست تزعم أن عيسى بن مريم نبى، و تثنى عليه خيرا و على أميه، و قد علمت أن النصارى يعبدونهما، و اليهود يعبدون عزيزا، و الملائكه يعبدون، فإذا كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن و آلهتنا معهم، فسكت النبى -صلى الله عليه و آله و سلم- و فرح القوم، و ضحكوا، و ضجوا، فأنزل الله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** (٢).

[٥٨] **وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ هَلْ آلهتنا خير أم عيسى؟** إنهم زعموا أن آلهتهم خير من عيسى لأنها تمثل الثروه و القوه و التقاليد المتوارثه، بينما عيسى -عليه السلام- مثال الزهد و الطهر و الفضيله.

و هم يعرفون أن عيسى خير من آلهتهم، و لكنهم لا يريدون الإذعان بهذه الحقيقه التى تنسف أساس بنيانهم الجاهلى.

مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا لَّأَنْ فطرتهم تهديهم إلى سمو عيسى بعلمه و رسالته و بأخلاقه و فضائله عن آله

ص: ٥٠٢

١-١ (١) الأنبياء/ (٩٧).

٢-٢ (٢) الأنبياء/ (١٠١).

تمثل شهواتهم و عصبياتهم التافهه.

بَيْلٌ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ كُلِّمًا ابْتَعَدَتْ أُمَّهُ عَنِ قِيمِ الْوَحْيِ كُلَّمَا ازْدَادَتْ حَاجَتَهَا النَّفْسِيَّةَ إِلَى الْخِصَامِ وَالْجِدَالِ، أَوْ لَيْسَ الْإِنْسَانُ يَمَارِسُ الْجِدَالَ مِنْ أَجْلِ دَحْضِ الْحَقِّ، كَمَا قَالَ رَبَّنَا:

وَاجْتَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ؟ أَوْ لَيْسُوا قَدْ هَبَطُوا إِلَى حَضِيضِ الْبَاطِلِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَبْلُغُوا ذُرْوَةَ الْخِصَامِ حَتَّى يَبْتَدِعُوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا يَجَادِلُونَ بِهِ لِدَحْضِ الْحَقِّ.

هكذا

قال الرسول (صلى الله عليه وآله):

«ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا هذه الآية» (١).

و حسب بعض التفاسير أنّ معنى الآية: إنّ القوم قالوا ما دام عيسى ابن مريم فى النار-لأنه يعبد من دون الله-فلا بأس أن تكون آلهتهم أيضا فى النار و هم معها، و لكنهم كانوا يعلمون أنّ عيسى ليس فى النار،لأنه لم يكن راضيا عن عبادتهم له،و لم يكن يدعو أحدا إلى عباده أحد غير الله،فما كان مثلهم بعيسى إلا جدلا.

[٥٩]و إبطالا لجدالهم بين الله أنّ عيسى لم يكن إلها كما اتخذها النصارى، و لم يدع الرسول الناس الى نفسه أن يعبد من دون الله،إنما كان عيسى عند القرآن عبدا مخلوقا،و إنّما كان يميّزه عن الآخرين نعمه الوحي الذى أنزل عليه.

إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ حَيْثُ انْتَخَبَهُ اللَّهُ لِرِسَالَاتِهِ.

ص:٥٠٣

وَجَعَلْنَا مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَقْتَدُوا بِهِ، حَيْثُ أَنَّ الرَّسُولَ-أَيَّ رَسُولٍ-يَجْسِدُ الْمَكْرَمَاتِ، فَيَأْمُرُ اللَّهَ بِاتِّخَاذِ سُنَّتِهِ مِنْهَا. وَ لَقَدْ فَشَتْ
الْمَادِيَّةُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَ فَرَّغَتْ الرَّسَالَةَ مِنْ رُوحِهَا وَ قِيمِهَا وَ أَهْدَفَهَا الْمُبَارَكَةَ، فَكَانَ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ-عَلَيْهِ السَّلَامُ-مِثْلًا لِبَنِي
إِسْرَائِيلَ فِي الزَّهْدِ وَ الْخَلْقِ الرَّفِيعِ. هَكَذَا

يُصِفُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ-عَلَيْهِ السَّلَامُ-أَخَاهُ عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ حِينَ يَقُولُ :

«وَ إِنْ شِئْتَ قَلْتِ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَ يَلْبَسُ الْخَشْنَ، وَ يَأْكُلُ الْجَشْبَ وَ كَانَ إِدَامَهُ الْجُوعَ، وَ
سِرَاجَهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَ ظِلَالَهُ فِي الشِّتَاءِ مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا، وَ فَكْهَتَهُ وَ رِيحَانَهُ مَا تَنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ، وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ
تَفْتَنُهُ، وَ لَا وَلَدٌ يَحْزَنُهُ، وَ لَا مَالٌ يَلْفَتُهُ، وَ لَا طَمَعٌ يَذَلُّهُ، دَابَّتْهُ رَجُلَاهُ، وَ خَادِمُهُ يَدَاهُ» (١).

[٦٠] وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ طَاعَتِهِمْ، وَ لَوْ شَاءَ لَأَهْلَكَهُمْ، وَ أَسْكَنَ مَكَانَهُمْ مَلَائِكَتَهُ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَ هُمْ إِذْ يَعْصُونَهُ
بِالشَّرْكِ لَا يَخْرُجُونَ عَنِ إِطَارِ قُدْرَتِهِ.

وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً أَيْ بَدَلًا مِنْهُمْ.

فِي الْمَأْرُضِ يَخْلُقُونَ [٦١] وَ مَضَى الْقُرْآنُ يَكْرَمُ عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ، وَ يَجْعَلُهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، حَيْثُ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَ أَدَّخَرَهُ لِآخِرِ
الزَّمَانِ حَيْثُ يَهْبِطُ مِنَ السَّمَاءِ، وَ يَصَلِّيْ خَلْفَ الْمَهْدِيِّ

ص: ٥٠٤

المنتظر-عليه السلام-بعد ظهوره.

وَ إِنَّهُ لَعَلِّمٌ لِّلسَّاعَةِ

جاء في النصوص المتظافره عن الرسول-صلى الله عليه وآله-: «ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم: تعال صل بنا، فيقول: لا. إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه من الله لهذه الأُمَّه» (١) فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا أَي فَلَـ تَشْكُوا، و إنما يشك الإنسان حين يجعل علمه جهلا بالتكاسل عن العمل، كما

قال الإمام أمير المؤمنين-عليه السلام-: «لا تجعلوا علمكم جهلا، و يقينكم شكاً، إذا علمتم فاعملوا، و إذا تيقنتم فأقدموا» (٢) و لعل الحكمة في التأكيد على النهي من الشك هي أن الحقائق العظمى تحمّل الإنسان مسئوليته كبيره، و لكى تهرب النفس منها تستجير بالشك و الارتياب: من يقول أن الساعه قائمه، و من يقول أن الناس يبعثون..

و عيسى-عليه السلام- كان كل شيء فيه دليلا على الساعه، فقد ولد من غير أب، ثم رفع الى السماء دليلا على قدره الله التى لا تحد، ثم أنه كان دائم التذكرة بالآخره، و قد اتخذ من الزهد فى الدنيا منهجا لحياته، و محورا لدعوته.

وَ اتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

ص: ٥٠٥

١- ١) نور الثقلين/ج(٤)-ص(٦١١) نقلا عن مجمع البيان ثم قال: أورده مسلم فى الصحيح و فى حديث آخر: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم.

٢- ٢) نهج البلاغه/حكمه(٢٧٤)ص(٥٢٤).

و اتباع الرسول دليل الإيمان بالساعه، فمن أيقن بها و فكّر كيف ينقذ نفسه من ويلاتها، فسوف لا يجد صراطا مستقيما الى الجنه و الرضوان غير رساله الرسول و حسن اتباعه فيها.

و«هذا» إشاره الى رساله الله المتمثله فى القرآن.

[٦٢] وَ لَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ فَيَجْعَلُ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ حَوَاجِزَ التَّكْبِيرِ، وَ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ، أَوْ حَوَاجِزَ الدَّمِ وَ اللَّغْهِ.. وَ هَكَذَا، وَ قَدْ تَكُونُ نَفْسُكَ أَوْ صَدِيقُكَ أَوْ حَتَّى زَوْجَتُكَ هُمْ شَيْطَانُكَ الَّذِي لَا يَفْتَأُ يَصُدُّكَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

إنّ الشيطان و ما فتأ حتى الآن يجعل بينك و بين الرسل أو من يخلفه حواجز من التهم و الشائعات و الشبهات، و هكذا تجد أجهزه الطاغوت يلّمعون الوجوه الخبيثه، و يشوّهون صور الرسل و الشخصيات الرساليه.

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ فَقَدْ يَأْتِي إِلَيْكُمْ بِصَفِهِ النَّاصِحِ، وَ هُوَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَ هُوَ يَمَكُرُ وَ يَكِيدُ وَ يَزِينُ وَ يَغْرُ، وَ يَأْتِي الْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ، وَ بِالتَّالِيِ إِنَّهُ قَدْ عَقَدَ الْعِزْمَ عَلَى إِغْوَاءِ أَبْنَاءِ آدَمَ،

جاء فى الحديث: «إنّ الشيطان يسئى لكم طرقه، و يريد أن يحلّ دينكم عقده عقده، و يعطيكم بالجماعه الفرقة، و بالفرقه الفتنه، فاصدقوا عن نزعاته و نفثاته» (١).

[٦٣] وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ

ص: ٥٠٦

و هو جوهر الرساله،الذى يصدّقه عقل الإنسان و فطرته..و رأس الحكمة توحيد الله،و مخافته،و التوكّل عليه،و التحابب فيه،و الإحسان الى الناس ابتغاء رضوانه،و هذه هى وصايا الأنبياء(عليهم السلام)و بالذات النبى عيسى بن مريم -عليه السلام-

فلقد جاء فى بعض مواعظه :

«بحقّ أقول لكم:إنّ أرواح الشياطين ما عمّرت فى شىء ما عمّرت فى قلوبكم،و إنّما أعطاكم الله الدنيا لتعملوا فيها للآخره،و لم يعطكموها لتشغلكم عن الآخره،و إنّما بسطها لكم لتعلموا أنّه أغانكم بها على العباده،و لم يعنكم بها على الخطايا.

بحقّ أقول لكم:إنّ الأجر محروص عليه،و لا يدركه إلاّ من عمل له.

بحقّ أقول لكم:إنّ الشجره لا تكمل إلاّ بثمره طيبه،كذلك لا يكمل الدّين إلاّ بالتحرّج عن المحارم.

بحقّ أقول لكم:إنّ الزرع لا يصلح إلاّ بالماء و التراب،كذلك الإيمان لا يصلح إلاّ بالعلم و العمل.

بحقّ أقول لكم:إنّه لا يجتمع الماء و النار فى إناء واحد،كذلك لا يجتمع الفقه و الغنى(و فى نسخه:و العمى)فى قلب واحد.

بحقّ أقول لكم:إنّ النفس(الشمس)نور كلّ شىء،و إنّ الحكمة نور كلّ قلب،و التقوى رأس كلّ حكمه،و الحقّ باب كلّ خير،و رحمه الله باب كلّ حق،و مفاتيح ذلك الدعاء و التضرّع و العمل،و كيف يفتح باب من غير مفتاح « (١).

ص:٥٠٧

و يبدو أنّ عيسى-عليه السلام-بعث لتصحيح مسيره المؤمنين بالتوراه،

و لقد أجمل الإمام الصادق-عليه السلام-شريعته عيسى حين قال :

«كان بين داود و عيسى بن مريم أربع مائة سنه، و كان شريعته عيسى أنّه بعث بالتوحيد و الإخلاص و بما أوحى به نوح و إبراهيم و موسى، و أنزل عليه الإنجيل، و أخذ عليه الميثاق الذى أخذ على النبيين، و شرع له فى الكتاب: إقامة الصلاه مع الدين، و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، و تحريم الحرام، و تحليل الحلال، و أنزل عليه فى الإنجيل مواعظ و أمثال، و ليس فيها قصاص، و لا احكام حدود، و لا فرض مواريث، و أنزل عليه تخفيف ما كان نزل على موسى فى التوراه، و هو قول الله فى الذى قال عيسى بن مريم لبنى إسرائيل: وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ و أمر عيسى من معه ممن اتبعه من المؤمنين أن يؤمنوا بشريعته التوراه و الإنجيل» (١).

وَ لِأَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَقَدْ جَاءَ عِيسَى-عليه السلام-ليرفع الاختلاف الكبير الذى كان قد دبّ فى بنى إسرائيل حتى بلغ دينهم فتنفروا مذاهب شتى، و أبرزها أربع:

الأولى: طائفه الصدوقيين من أولاد هارون، الذين توارثوا الولاية على الهيكل منذ عهد داود و سليمان، و اهتموا بالقشور و شكليات الطقوس، و أضاعوا القيم فتراهم يرتكبون الموبقات ثم يأخذون على غيرهم استخفافهم ببعض الطقوس.

الثانية: طائفه الفريسيين، حيث عزفوا عن الدنيا، و مالوا الى التصوف، و ترفعوا على الناس، و اغتروا بما لديهم من زهد و معرفه.

ص: ٥٠٨

الثالثة: السامريين نفوا الكتب التي أضيفت الى الكتب الموسويّه فى العهود المتأخره.

الرابعه: طائفه الآسين و قد تأثروا ببعض المذاهب الفلسفيه (١).

و قد جاء عيسى بن مريم ینفى كلّ هذا التكلّف فى الدين، و يعيد الناس الى عباده ربّهم الواحد، و يأمرهم بالاهتمام بروح الدين و ليس حدوده فقط، فقال فيما قال:

«أيتها القاده العميان الذين يحاسبون على البعوضه، و يتلعون الجمل!! إنكم تنقون ظاهر الكأس و الصفحه، و هما فى الباطن مترعان بالرجس و الدعاره، و يل لكم أيها الكتبه و الفريسيون المراءون. إنكم كالقبور المبيّضه، خارجها طلاء جميل، و داخلها عظام نخره» (٢).

و خاطب الجماهير، و تحدّث عن العلماء الفجار، قائلا:

بحقّ أقول لكم: إنّ شر الناس لرجل عالم آثر دنياه على علمه، فأحبها و طلبها، و جهد عليها حتى لو استطاع أن يجعل الناس فى حيره لفعل، و ماذا يغنى عن الأعمى سعه نور الشمس و هو لا يبصرها، كذلك لا يغنى عن العالم علمه إذا هو لم يعمل به. ما أكثر ثمار الشجره، و ليس كلها ينفع و يؤكل، و ما أكثر العلماء، و ليس كلّهم ينتفع بما علم، و ما أوسع الأرض، و ليس كلّها تسكن، و ما أكثر المتكلمين، و ليس كلّ كلامهم يصدق، فاحتفظوا من العلماء الكذبه الذين عليهم ثياب الصوف، منكسوا رؤوسهم الى الأرض، يزوّرون به الخطايا،

ص: ٥٠٩

١- ١) فى ظلال القرآن، بتصرّف و إيجاز/ ص (٣٤٨-٣٤٩) نقلا عن «عبريه المسيح» للعقاد/ الطبعه السابعه- دار احياء التراث العربى.

٢- ٢) المصدر.

يطرفون من تحت حواجبهم كما ترمق الذئاب، و قولهم يخالف فعلهم، و هل يجتنى من العوسج العنب، و من الحنظل التين؟! (١).

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ إِذْ أُنذِرَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَإِن يَكَفُوكُمْ فَكُفُّوا لَهُمْ مَا سَلَوْا مِنْهُم مِّنْ شَيْءٍ لَّا يَجْرِمُهُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

[٦٤] إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ أَسْتَوَىٰ أَنَا وَ أَنْتُمْ عِنْدَهُ، فَهُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ، وَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ، أَوْ ابْنِ رَبِّكُمْ.

فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ الصراط المستقيم أن تسقط في ذاتك عباده الأولياء أو عباده الأصنام، أئني كانت حجريه أم بشريه، و تعبد الله وحده.

[٦٥] فَاسْخَلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ اخْتَلَفُوا فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ، وَ مِنْهُمْ مَنْ عَادَاهُ وَ أَرَادَ قَتْلَهُ، وَ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ صَدَّقَهُ، قَالَ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ عَدُوَّهُمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (٢).

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ

ص: ٥١٠

١-١ (١) بحار الأنوار/ج(١٤)ص(٣٠٧).

٢-٢ (٢) الصف/(١٤).

و هذا الاختلاف على عيسى عليه السلام كان سببا للعذاب الأليم، لأنه ظلم، وهكذا كل اختلاف في الدين نابع من الأهواء.

[٦٦] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ □ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً □ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ □ لو مات الإنسان و هو قائم يصلى أو فى حالة عباده أخرى، فطوبى له و حسن مأب، أمّا لو كان يعمل الخبائث، أو يظلم الآخرين، فىا للخساره العظمى! إن ساعه الموت مصيريه لا بدّ من أن نكون مستعدّين لها دائما، لأنها تنزل بنا فى أيه لحظه، و لذا نجد فى سوره مريم عليه السلام قوله: □ وَ سَيَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ □ وَ يَوْمَ يَمُوتُ □ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ □ حَيًّا □ وَ قَوْلُهُ: □ وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ □ وَ يَوْمَ أَمُوتُ □ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ □ حَيًّا □، و قد قال يعقوب لبنيه: □ فَلَآ تَمُوتُنَّ □ إِلَّا □ وَ أَنْتُمْ □ مُسْلِمُونَ □ (١)،

و فى الدعاء: «اللّهم اجعل خير أعمالى خواتيمها، و خير أيامى يوم ألقاك».

ص: ٥١١

(١ - ١) البقره/ (١٣٢).

إشارة

الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَاتِ وَ
كَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَائِحٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ
الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا
تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُنْسَوْنَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ
الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (٧٧)

اللغة

٧٠ [تحبرون]: تسرون فيها سرورا يظهر أثره على وجوهكم.

٧١ [بصحاف]: جمع صحفه، وهو الجام الذي يؤكل فيه الطعام.

٧٥ [لا يفتّر]: لا يخفف، من الفتور بمعنى التخفيف.

هدى من الآيات:

تتركز سورة الزخرف في إبعاد الإنسان عن محوريه الماده، وبالذات في العلاقات الاجتماعيه، وقد تلونا في الآيه (٣٦) كيف أن الذي يعيش عن ذكر الله يقبض الله له شيطانا فهو له قرين، و هنا يبين القرآن أهميه الخله الربانيه التي تمتد الى يوم القيامه حيث يخاطب عباد الله بالأخوف عليهم و لا هم يحزنون، و هم الذين آمنوا و أسلموا لربهم، فيسرعون الى دخول الجنه هم و أزواجهم يحبرون.

و بعد أن يفصيل القول في نعم الجنه يذكّرنا الربّ بأنهم ورثوها بأعمالهم (مما يزيدهم نعمه الى نعمتهم) بينما المجرمون في عذاب جهنم خالدين، لا يخفف عنهم، و لا ترجى لهم النجاه، و هذه هي العاقبه التي اختاروها لأنفسهم بظلمهم، و عند ما طلبوا من مالك (الملك الموكل بجهنم) أن يقضى الله عليهم (فيموتوا) يقول لهم مالك: إنكم باقون هنا.

[٦٧-٦٨] يذكرنا الربُّ هنا بأمرين:

أولاً: بمحوريه التقوى في الصداقه، لأنها هي الباقيه حقًا، و في يوم القيامه حيث يبحث كل واحد عن خليل يشفع له ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَ لَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ (١)﴾ لا ينفع غير الأصدقاء في الله فليس المطلوب صداقه كيفما اتفق، بل تلك الصداقه التي تمتد من الدنيا الى الآخره، الى أن يدخلها في الجنه بسلام.

و في مقابل هذه الصداقه هناك صداقه لا تتعدى حدود الزمالة أو المصلحه المشتركه، تنتهى بانتهاء الزمالة أو المصلحه. إن هذه الصداقه ليست بالضروره سيئه إلا أنها محدوده، و تقوم في الغالب على أسس ماديه، و هي معرضه للاهتزاز و الزوال.

و هذا جانب من النظره الشامله الى الحياه في الإسلام، التي تنظم حياه الإنسان و علاقاته على أساس التقوى، لا- على رمال متحرّكه، فالعلاقه الماديه عقيمه سواء كانت في السياسه أو الإقتصاد أو الاجتماع.

ثانياً: بمنهجيه الآخره. إذا أردنا أن نعرف صحه فكره لا بد أن ننظر الى عاقبتها، و عاقبه الأمور تتجلى في الآخره بأظهر صورها، و علينا أن نجعل ذلك مقياساً لعملنا في الدنيا، فما عاقبه التقوى إلا الجنه، و ما نهايه الخله الصالحه إلا الشفاعة و التقابل على سرر في الجنه، قد نزع الله ما في قلوبهم من غلّ، و هكذا فإنّ أيّ علاقته لا تنفع في الآخره فهي ليست نافعه في الدنيا أيضاً، و إنّما أنت الذي تبني لنفسك قصرًا في الجنه بعملك، أو تحجز لنفسك دركًا في النار (لا سمح الله)،

ص: ٥١٥

و الدنيا صورته مصغره عن الآخريه، فالظلم ظلمات يوم القيامة، والغل والغش حيات و عقارب في النار، والنظره الحرام نار في العين يوم القيامة، والكذب عقرب تلدغ اللسان.

و ربنا سبحانه يوزع مشاهد القيامة على سور القرآن توزيعا ينسجم و موضوعاتها، فإذا كانت سوره الزخرف تتحدث عن علاقات الإنسان الماديه تجد فيها ما يتناسب و هذا الموضوع، مثل نهايه العلاقات في الآخريه، و إنما يتحدث القرآن الكريم عن الآخريه قبل و بعد كل بصيره بيئتها، لأنّ النفس لو تركت من دون التذكريه بالآخريه لطغت و لتجبرت، و لم تنتفع بالبصائر، و لا كيف كانت عاقبتها. تقول الروايه التاريخيه: كان عقبه بن أبي معيط يجالس النبي صلى الله عليه و آله فقال قريش قد صبأ عقبه بن أبي معيط، فقال خليل له يسمي أميه بن خلف: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا و لم تتفل في وجهه، ففعل عقبه ذلك، فنذر النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قتله، فقتله يوم بدر جهدا، و قتل أميه في المعركه.. قالوا فيهما نزلت هذه الآيه» (1).

ترى هل كانت عاقبه عقبه هذه السوءى لو لم تربطه بأميّه تلك الخله القائمه على غير أساس إيماني؟! الأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ بلى. لا بدّ للإنسان من صداقه، إذا فليبحث عمّن يهديه الى الحق، و يعينه على دينه و دنياه، هكذا

أمرنا الإمام الصادق عليه السلام:

«و اطلب مواخاه الأتقياء، و لو في ظلمات الأرض، و إن أفنيت عمرك في

ص: ٥١٦

(١-١) راجع تفسير القرطبي/ج ١٦ ص ١٠٩.

طلبهم، فإنَّ الله عزَّ و جلَّ لم يخلق أفضل منهم على وجه الأرض -بعد النبيين صلوات الله عليهم- و ما أنعم الله على عبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم « (١).

و نجد فى النصوص الدينيه الكثير من الأحاديث حول الصداقه. كيف تكون فى الله؟ و ما هى علامات الأخلاء المتقين؟ و ما هى حدود التعاون بينهم؟ و ما هى الحقوق المتبادله بينهم؟ كل ذلك لتنظّم حلقات المجتمع الإسلامى رصينه مباركه، و تنامى روح التعاون بينهم فى كافه الحقول، فى السلم كما فى أيام المقاومه ضد الغزاه و الطغاه، حين تقوم طلائع حزب الله قياما واحدا لله، لمحاربه أعداء الله، و من أجل تطبيق حكم الله فى الأرض، عندئذ يحتاجون الى قيم تنظيميه و برامج للتعاون، فلا يجدون أفضل من هذه النصوص التى تغنينا عن الكثير من الأساليب التنظيميه التى يستوردها البعض من هنا و هناك.

بلى. الحكمه ضالّه المؤمن يأخذها أنى وجدها، و إنّ تجارب الآخريين فى تنظيم المقاومه ضد الغزاه و الطغاه هى ثروه إنسانيه مشتركه لا بأس بالانتفاع بها، و لكن بشرطين: أولا: أن نبني تنظيما على أسس إسلاميه طاهره، اعتمادا على الزخم الهائل من بصائر الآيات و الأحاديث التى وردت فى ذلك، ثانيا: أن نهذب ما نستفيدة من تجارب الآخريين بما لدينا من قيم و تعاليم.

و إنّ البحث عن الخليل الإيماني صعب، و هام فى ذات الوقت، و لذلك نجد التحريض عليه شديدا، و يكفينا هنا الحديث التالى ناصحا فى هذا الحقل:

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى الخليلين المؤمنين، و الخليلين الكافرين:

ص: ٥١٧

«فَأَمَّا الْخِلِيَانُ الْمُؤْمِنَانِ فَتَخَالَا- فِي حَيَاتِهِمَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى، وَ تَبَادَلَا- عَلَيْهَا، وَ تَوَادَّا عَلَيْهَا، فَمَاتَ أَحَدُهُمَا قَبْلَ صَاحِبِهِ، فَأَرَاهُ اللَّهُ مَنْزِلَتَهُ فِي الْجَنَّةِ، يَشْفَعُ لَصَاحِبِهِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ خَلِيلِي فَلَانِ كَانَ يَأْمُرُنِي بِطَاعَتِكَ، وَ يَعِينُنِي عَلَيْهَا، وَ يَنْهَانِي عَنِ مَعْصِيَتِكَ، فَثَبَّتَهُ عَلَيَّ مَا ثَبَّتَنِي عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى حَتَّى تَرَاهُ مَا أَرَيْتَنِي فَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَهُ حَتَّى يَلْتَقِيَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ، فَيَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَصَاحِبِهِ:

جَزَاكَ اللَّهُ مِنْ خَلِيلٍ خَيْرًا، كُنْتَ تَأْمُرُنِي بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَ تَنْهَانِي عَنِ مَعْصِيَتِهِ.

وَ أَمَّا الْكَافِرَانِ فَتَخَالَا- بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَ تَبَادَلَا- عَلَيْهَا، وَ تَوَادَّا عَلَيْهَا، فَمَاتَ أَحَدُهُمَا قَبْلَ صَاحِبِهِ، فَأَرَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى مَنْزِلَتَهُ فِي النَّارِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ خَلِيلِي فَلَانِ كَانَ يَأْمُرُنِي بِمَعْصِيَتِكَ، وَ يَنْهَانِي عَنِ طَاعَتِكَ، فَثَبَّتَهُ عَلَيَّ مَا ثَبَّتَنِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي حَتَّى تَرَاهُ مَا أَرَيْتَنِي مِنَ الْعَذَابِ، فَيَلْتَقِيَانِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَصَاحِبِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ مِنْ خَلِيلٍ شَرًّا، كُنْتَ تَأْمُرُنِي بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَ تَنْهَانِي عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ « (١) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَوْقِفِ يَدُومِ خَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ، وَ لَا حُزْنَ عِنْدَهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الدُّنْيَا، كَلَّا.. إِنَّهُمْ لَمْ يَخْسِرُوا فِرْصَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَحْزَنُوا كَمَا يَحْزَنُ غَيْرُهُمْ.

[٦٩] الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ وَ لَعَلَّ الْإِسْلَامَ هُنَا يَعْنِي التَّسْلِيمَ لِلْقِيَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

[٧٠] أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ

ص: ٥١٨

لقد كانوا يؤثرون على أزواجهم و من يحيط بهم من عشيرتهم الأقربين عبر التربيه،و اليوم يجدون فائده هذا التأثير،فلا يفرق بينهم و بين أزواجهم،كما أنهم يشفعون لأزواجهم و من اتصل بهم فى الدنيا بعمل صالح أو علم نافع،إذ يدعون لهم فيستجاب لهم،و هذه حقيقه الشفاعه،أمّا سببها فهو تواصل الخيرات بين المؤمنين،فمن أخذ من أحد علما نافعا فى الدنيا استفاد فى الآخره،و من اتبع إمام هدى انتفع بشفاعته،و من خدم أهل الصلاح لصلاحهم شفعا له عند ربهم، و هكذا.

و

قد ورد فى الروايات أنّ المؤمن إذا ادخل الجنة يسمح له بأن يدخل معه من يريد، و

فى بعض الروايات أنّ المؤمن يشفع فى مثل ربيعه و مضر،و أنّ المؤمن ليشفع فى صديقه إذا مات قبله و أدخل الجنة.

و الجبور هو السرور و البهجه لانتهاء العناء،و قال البعض:إنّه لذه السماع، و إذا جعلنا معنى الحبر الكرامه فإنها تعنى سموًا فى المقام،و فرحا فى القلب، و سرورا فى العين،و لذّه فى السماع،و زينه و طيبا.

[٧١] يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَائِحٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلْمِذُ الْأَعْيُنِ دُخُولَ الْجَنَّةِ هُوَ يَوْمَ عِيدِ الْمُؤْمِنِينَ،ففى الجنة يطاف على المؤمنين بصحاف الذهب و أكواب كانت قواريرا،و فى الجنة ما تشتهيه الأنفس من أنواع المملدات، فمن الحور الى الغلمان الى صنوف الأكل و الرحيق و السندس،و ما تلذّ الأعين، فكلّ شىء جميل و جذّاب،و قد أجمل القول لأنّ التفصيل فوق مستوى عقولنا نحن البشر.

و قد جاءت فى تفسير الآيه أحاديث بحرمه اتخاذ أوانى الذهب و الفضة،لأنهما

ص:٥١٩

كرامه للمؤمن فى الآخره.قالوا:الصفحه ما تتسع لإطعام خمسه،أما الكوب فقالوا:إنَّه الكوز بلا عروه.

وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لَا خَوْفَ مِنَ الْمَوْتِ، وَ لَا مِنَ التَّحَوُّلِ إِلَى النَّارِ.

[٧٢] وَ تَلَمَّكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَدْخُلُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ بِمَا عَمَلُوا، فَالْجَنَّةُ لَيْسَتْ بِالرَّغْبَى وَ لَكِنْ بِالرَّغْبَى وَ الْجَدِّ وَ الْعَمَلِ، وَ لَيْسَ أَىِّ عَمَلٍ، كَلَّا..إِنَّمَا الْعَمَلُ الْخَالِصُ لِلَّهِ، وَ لَعَلَّ كَلِمَةَ الْوَرَاثَةِ هُنَا تُشَبِّهُ كَلِمَةَ الشُّكْرِ الَّتِي تُقَالُ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا، وَ هُوَ يُورِثُ بِهِجَهُ رُوحِيَهُ .. وَ قَلَّمَا يَحْدِثُنَا الْقُرْآنُ عَنِ النِّعَمِ الْمَادِيَةِ فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَ يَشْفَعُهَا بَيَانُ النِّعَمِ الْمَعْنَوِيَةِ الَّتِي هِيَ أَعْمَقُ لَذَّةً وَ أَدْوَمُ سُرُورًا.

[٧٣] لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ الْفَاكِهَةَ هِيَ مَا يَأْكُلُ الْإِنْسَانُ تَفَكُّهَا وَ لَيْسَتْ هِيَ الْغِذَاءُ الْأَسَاسِي. إِنَّهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ يَأْكُلُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهَا، لِلتَّنَعُّمِ وَ اللَّذَّةِ، وَ لَيْسَ لِلْحَاجَةِ وَ الضَّرُورَةِ.

[٧٤] وَ فِي مَقَابِلِ الْمُؤْمِنِينَ هُنَاكَ الْمَجْرُمُونَ.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ فَالْإِجْرَامُ سَبَبٌ لِلخُلُودِ، إِذْ لَيْسَتْ كُلُّ الذُّنُوبِ تُؤَدِّي إِلَى الْخُلُودِ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ.

[٧٥] لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ

فلا أمل للمجرمين من الفكاك من العذاب حيث لا يخفف عنهم، وهم مبلسون فيه لا يرجون الخلاص.

[٧٦] فهل ظلمهم الله حين أدخلهم هذا المصير؟ كلا..

وَمَا ظَلَمْنَا لَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ لَهُمُ أَنْبِيَاءَ، وَتَعَاهَدَهُمُ بِالنَّعْمِ، وَأَمَّهُلَهُمُ بِأَنْ أُعْطَاهُمُ الْفُرْصَةَ بَعْدَ الْفُرْصَةِ، وَحِينَ يَأْخُذُهُمُ الْجَلِيلُ بِالْعَذَابِ، وَيَكْتَبُهُمْ فِي النَّارِ، فَهَلْ هُوَ ظَالِمٌ لَهُمْ؟! كلا..

و لا بد أن نتلوا هذه الآيات و كأننا المعتيون بها حتى ننتفع بها.

[٧٧] وَ نَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ

جاء في الحديث: «إنَّ أهل النار إذا دخلوها، و رأوا نكالها و أهوالها، و علموا عذابها و عقابها، و رأوها كما قال زين العابدين عليه السلام: «ما ظنك بنار لا تبقى على من تضرع إليها، و لا يقدر على الخفيف عمّن خشع لها، و استسلم إليها، تلقى سكانها بأحرّ ما لديها من أليم النكال و شديد الوبال» يعرفون أنّ أهل الجنة في ثواب عظيم، و نعيم مقيم، فيؤملون أن يطعموهم أو يسقوهم ليخفف عنهم بعض العذاب الأليم، كما قال الله عزّ و جلّ جلاله في كتابه العزيز: وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ: فَيَجِيسُ عَنْهُمْ الْجِوَابُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَجِيبُونَهُمْ بِلِسَانِ الْاِحْتِقَارِ وَ التَّهْوِينِ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ قَالَ: فيرون الخزنه عندهم و هم يشاهدون ما نزل بهم من المصاب فيؤملون أن يجدوا عندهم فرحا بسبب من الأسباب، كما قال الله جلّ جلاله: وَ قَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ

العذاب قال: فيحبس عنهم الجواب أربعين سنة، ثم يجيئونهم بعد خيبة الآمال: قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ قال: فإذا يسوا من خزنه جهنم، رجعوا الى مالك مقدّم الخزان، وأملوا أن يخلصهم من ذلك الهوان، كما قال جلّ جلاله: وَ نَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبِّكَ قال: فيحبس عنهم الجواب أربعين سنة و هم في العذاب، ثم يجيئهم كما قال الله في كتابه المكنون: قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَثُونَ قال: فإذا يسوا (يأملون) من مولاهم رب العالمين الذي كان أهون شيء عندهم في دنياهم، و كان قد آثر كل واحد منهم عليه هواه مدّه الحياه، و كان قد قدر عندهم بالعقل و النقل أنه أوضح لهم على يد الهداه سبل النجاه، و عرفهم بلسان الحال أنهم الملقون بأنفسهم الى دار النكال و الأهوال، و أنّ باب القبول يغلق عن الكفار بالممات أبد الأبدين، و كان يقول لهم في أوقات كانوا في الحياه الدنيا من المكلفين بلسان الحال الواضح المبين:

هب أنكم ما صدقتموني في هذا المقال، تجوزون أن أكون من الصادقين؟ فكيف أعرضتم عنى، و شهدتم بتكذبي و تكذيب من صدقنى من المرسلين؟! و هلا تحزرتم من هذه الضرر المحذر الهائل؟ أما سمعتم بكثرة المرسلين، و تكرار الرسائل؟ ثم كثر جلّ جلاله مرافقتهم فى النار بلسان المقال فقال: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ فقالوا: رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ فيقفون أربعين سنة ذلّ الهوان لا يجابون، و فى عذاب النار لا يكلمون، ثم يجيئهم الله جلّ جلاله:

إِحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ قال: فعند ذلك يأسون من كل فرج و راحه، و يغلق أبواب جهنم عليهم، و يدوم لديهم ماتم الهلاك و الشهيق و الزفير و الصراخ و النياحه « (١) ».

و

فى روايات أخرى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ مَا يَقُولُ لَهُمْ: إِنَّكُمْ هَا هُنَا مَا كَثُونَ، يقولون

ص: ٥٢٢

لمالك: ادع لنا ربك أن يسمح لنا بالبكاء على أنفسنا، فبعد أربعين سنة يأتيهم الجواب من الله أن ابكوا، فيكون. وهل البكاء آنثذ
ينفعهم؟! كلا.. نستجير بالله من النار.

ص: ٥٢٣

إشاره

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أُبْرِمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

اللغه

[٧٩]أبرموا]:أحكموا،و حاكوا المؤامرات ضدّ الحق.

۸۸] و قیلہ: [أی قول الرسول.

ص: ۵۲۵

إشاره

وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ

هدى من الآيات:

ينذر القرآن الذين يعاندون رساله، فلا يتبعون الحق، بأنّ عنادهم سوف يسلب عليهم عذابا لن يحيد عنهم.

و إذا عاند الإنسان الحق فإنه سوف ينكر كل شيء حق بلا تورّع (وقد رأينا كيف أنّ بعض الفلاسفه فى التاريخ أنكر الوجود الذى هو أظهر و أجلى شيء عرفه البشر، فقالوا: إنّ ما نراه لا يعدو كونه خيالات).

ثم بيّن ربنا سفه ما يقوله المشركون من أنّ لله ابنا، و ذلك بأن يردّ عليهم الرسول صلى الله عليه و آله أنّه أوّل العابدين لله، و أنّ كلّ شيء مخلوق لله، و ليس من شيء قائم بذاته، إنّما الله القائم على كلّ شيء، فلو لا أنّه يمسك السموات و الأرض لزلتا، و لئن زالتا إنّ أمسكهما من أحد من بعده! و كما فى التكوين كذلك فى التشريع، فلو أراد الله أن يفقر أحدا هل يغنيه أحد؟! أو أراد أن يضله هل يهديه أحد؟!!

و آخر الآيات تتحدّث عن الله الذى هو فى السماء إله و فى الأرض إله و هو الحكيم العليم، الذى له ملك السموات و الأرض و ما بينهما، و لا يحتاج الى ابن، و أننا إليه راجعون، و أنّ الذين يعبدون من دون الله لا يملكون شفاعه، فلن تشفع لهم الجنّه و لا الأصنام، و لكنّ الشفاعه عند من يكذبون بهم من الرسل و الأنبياء.

و هؤلاء الذين يكذبون بالرسل إنّما يكذبون بالله، و لئن سألتهم من خلق الخلق و خلقهم ليقولنّ الله. إنّهم يعترفون بالله تكويتياً، فهو الذى خلقهم و خلق كلّ الخلق، و لكن لا- يؤمنون بالله تشريعياً، إذ أرسل إليهم الرسل، و أيدهم بآياته، فما فائده إيمانهم بأنّ الله خالقهم، إذ لم يؤمنوا بأنّ الله هو الوحيد الذى يجب أن يشرّع، لأنّ شرعه سبحانه يتناسب مع أهداف الخلقه، و لا أقدر على التشريع إلا من خلقنا.

و أخيراً يحدّد السياق العلاقه المثلى مع هؤلاء القوم المتمثله فى العفو عنهم، و الدعوه الى السلام، و ترك أمرهم الى يوم القيامه.

بينات من الآيات:

[٧٨] إتماماً للحديث عن النار، و عقب أن يردّ عليهم مالك بأنّهم ما كتون أبداً فى النار، يبيّن لهم سبب ذلك، قائلاً:

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ قَالَ ابن عباس: إنّ المراد من الأكثر هنا هو الكل. و لعلّه فهم من الآيه أنّ عاده البشر هى كراهيه الحقّ إلا من عصمه الله، و نستلهم من ذلك أنّ على الإنسان أن يتجاوز فى ذاته هذه الكراهيه بعزم الإراده حتى يبلغ الحق، أمّا إذا استرسل مع هواه فسوف يقوده الى الباطل.

حاضرون و في الروايات: ان الملائكة الكتبه تجلس في حنك الإنسان، فما يلفظ من قول الا كان عليه رقيب عتيد.

و لكي نقتلع جذور النفاق من أنفسنا فليس أفضل من استشعار علم الله بالسر و النجوى.

جاء في الدعاء: «إلهي و سيدي فأسألك بالقدره التي قدّرتها، و بالقضيه التي حتمتها و حكمتها، و غلبت من عليه أجريتها، أن تهب لي في هذه الليله، و في هذه الساعه، كلّ جرم أجرمته، و كلّ ذنب أذنبته، و كلّ قبيح أسررته، و كلّ جهل عملته، كتمته أو أعلنته، أخفيته أو أظهرته، و كلّ سيئه أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين، الذين و كلتهم بحفظ ما يكون مني، و جعلتهم شهودا عليّ مع جوارحي، و كنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم، و الشاهد لما خفي عنهم، و برحمتك أخفيته، و بفضلك سترته» (١) [٨١] و عاد القرآن ينفي الشرك، و أن يكون للرحمن ولد، لكي لا - يظنّ الإنسان أنّ بمقدوره الفرار من حكمومه الله الى ظلّ الشركاء، كالا... ليس أمام البشر إلاّ طريق واحد، هو طاعه الله، و تحمل مسؤولياته.

ثم انّ سورة الزخرف تطهر قلب الإنسان من عباده الثروه و السلطه، بينما الشرك تجسيد لهذه العباده، فالمشركون أنّما عبدوا الأنداد لأنهم زعموا أنّها رمز المال و البنين، و هكذا نجد السياق فيها يدحض الأفكار الشركيه، و يستجلى بصائر التوحيد.

و من تلك الأفكار ما زعمته النصارى في نبيهم أنّه ابن الله، و قد بين القرآن إنّما هو عبد أنعم الله عليه، و لكي يحصن القرآن المسلمين من الغلوّ في دينهم، كما

ص: ٥٢٩

(١ - ١) دعاء كميل

فعلت الأمم السابقة، فإن هذه الآية تبيّن أنّ نبينا محمدا (صلى الله عليه وآله) ليس إلابدا لله، بل هو أول العابدين له، وكيف يكون العبد ربيا أو ولدا لله؟! قل إن كان للرحمن ولما فأننا أول العابدين ولا ريب أنّ محمدا أعظم الأنبياء، فإذا كان هو أذلّ العابدين، فكيف يكون غيره ابنا لله؟! تعالى الله عما يصفون.

وهكذا نفت الآية الكريمه الشريك عن الله ببلاغه نافذه، من هنا قال كثير من المفسرين: إنّ كلمه «إن» هنا نافيه، ومعناها: ليس للرحمن ولد. ويبدو أنّ معنى النفي مفهوم من مجمل تركيب الجملة، وليس من كلمه «إن».

وروى السيوطى عن ابن عباس أنّه قال (فى الآية): لم يكن للرحمن ولد، فأننا أول العابدين، وروى عن الحسن و قتاده أنّهما قالا: ما كان للرحمن ولد فأننا أول العابدين، قال: يقول محمد: فأننا أول من عبد الله من هذه الأُمّه، وروى عن مجاهد: قل إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأننا أول العابدين، فأننا أول من عبد الله وحده و كذبكم بما تقولون. (١)

و مثل هذا

روى عن الإمام أمير المؤمنين -عليه السلام- أنّه قال: «إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ، أَى الْجَاهِدِينَ» (٢) و التاويل فى هذا القول باطنه مضاد لظاهره.

و يبدو أنّ الآية تنفى أيضا الأسس الفاسده لنسبه الولد الى الله سبحانه، ذلك أنّهم زعموا أنّ الأعظم مالا يكون الأقرب الى الله، و تسقط عنه المسؤوليات،

ص: ٥٣٠

١-١) الدر المنثور/ ج ٦ ص ٢٤

٢-٢) نور الثقلين/ ج ٤ ص ٦١٦.

كلا.. إذا كانت الولاده صحيحه-و هي غير صحيحه-فإنّ الأقرب الى الله هو الرسول،و ليس أصحاب المال،و نحن حين نرى أقرب الناس الى الله أشدّهم خوفا منه،و أكثرهم عباده له،و أعظمهم تمسّكا بالدين، فإننا نهتدى ألا شريك له،و لا يجوز لغير الرسول-بطريقه أولى-أن يتهزّب من المسؤوليه بدعوى أنّه ابن الله أو منتم الى ابن الله.

إنّ من أهمّ الدواعى الى الغلوّ فى الدين،و ادّعاء الصله النسبيه بين ربّ العرش سبحانه و الأنبياء عليهم السلام(كعزير عند اليهود،و المسيح عند النصارى) التهزّب من المسؤوليه،بدعوى أنّ ابن الله ينجيهم من عذاب الله،و يفديهم بنفسه للخلاص من نقماته،و بدعوى أنّهم أولاد الله،بانتمائهم نسبيا أو سببيا الى الله.

ألم يزعم اليهود أنّهم أبناء الله و أحبّاءه؟أو لم يتخذوا من تلك العقيدته الفاسده تبريرا لعدوانهم على سائر الناس،و القول بأنّه ليس عليهم فى الأميين سبيل؟!كذلك زعم الجاهليون العرب أنّ انتسابهم الى إبراهيم الخليل عليه السلام يكفيهم فخرا،و من الله قريبا! أو لم يزعم بعض المسلمين أنّ مجرّد حبّهم للرسول و أهل بيته(صلّى الله عليه و آله)و أصحابه يغنيهم عن العمل؟! كلا..ليس للرحمن ولد،و الدليل على ذلك أنّ الرسول هو أوّل العابدين لله،و إذا كان له ولد لم يكن أوّل من يعبد الله،ذلك الرسول الأقرب الى الله.

و الملائكه ليسوا أولاد الله،لأنّهم عباده المكرمون،لا يسبقونه بالقول،و هم بأمره يعملون.

و عيسى عليه السلام ليس ولد الله،لأنّه ليس إلا عبدا أنعم الله عليه.

و هذا التفسير يبدو لى واضحا و متفقا مع سائر الآيات، كما هو متفق مع تفسير الرعيل الأول من المفسرين..بينما ذهب السدى و تبعه آخرون أنّ معنى الآية: لو كان للرحمن ولد فأنا أحقّ الناس بعباده ذلك الولد لأننى أول العابدين، «فإنّ السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده» (1) و لا أستحسن هذا التفسير، بالرغم من ميل كثير من المتأخرين اليه، لأنه لا ينسجم مع النهج الذى نعهده فى بصائر القرآن، و الله العالم.

و يبقى سؤال: كيف ذكر الرسول أنّه أول العابدين و قد جاء متأخرا زمّيا عن سائر الأنبياء المخلصين فى طاعه الله؟ تجيب النصوص الدينيه عن ذلك بما يلى:

إنّ نبيّ الله محمّد (صلّى الله عليه و آله و سلّم) أول من عبد الله و سبّحه، و قد جاءت الروايات مؤكّده على ذلك، فقد روى:

عن أبى ذر الغفارى عن النبى صلّى الله عليه و آله (فى خبر طويل فى المعراج ساقه الى أن قال): «قلت-يا ملائكة ربى هل تعرفونا حقّ معرفتنا، فقالوا:

يا نبيّ الله و كيف لا نعرفكم و أنتم أول ما خلق الله؟ خلقكم أشباح نور من نوره، فى نور من سناء عزّه، و من سناء ملكه، و من نور وجهه الكريم، و جعل لكم مقاعد فى ملكوت سلطانه، و عرشه على الماء قبل أن تكون السماء مبيّته، و الأرض مدحيّه، ثم خلق السماوات و الأرض فى ستة أيّام، ثم رفع العرش الى السماء السابعه فاستوى على عرشه و أنتم أمام عرشه تسبحون و تقدّسون و تكبرون،

ص: ٥٣٢

ثم خلق الملائكة من بدء ما أراد من أنوار شتى، وكنّا نمرّ بكم و أنتم تسبّحون و تحمدون و تهلّلون و تكبرون و تمجّدون و تقدّسون، فستبّح و نقدّس و نمجّد و نكبر و نهلّل بتسيحكم و تحميدكم و تهليلكم و تكبيركم و تقديسكم و تمجيدكم، فما أنزل من الله فإليكم، و ما صعد الى الله فمن عندكم، فلم لا نعرفكم؟ « (1)

و جاء فى الروايه عن المفضّل عن أبى عبد الله عليه السلام قال: «يا مفضّل! أما علمت أنّ الله تبارك و تعالى بعث رسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم) و هو روح إلى الأنبياء عليه السلام و هم أرواح قبل خلق الخلق بألفى عام؟ قلت: بلى. قال: أما علمت أنّه دعاهم الى توحيد الله، و طاعته، و اتباع أمره، و وعدهم الجنه على ذلك، و أوعد من خالف ما أجابوا إليه و أنكره النار؟ قلت: بلى « (2)

و عن أبى عبد الله عليه السلام قال: إنّ بعض قريش قال لرسول الله (صلّى الله عليه و آله و سلّم): بأى شىء سبقت الأنبياء و فضّلت عليهم، و أنت بعثت آخرهم و خاتمهم؟ قال: إننى كنت أوّل من أقرّ برّبى جلّ جلاله، و أوّل من أجاب، حيث أخذ الله ميثاق النبيّين، و أشهدهم على أنفسهم: «أ لستُ برّبكم قالوا:

بلى» فكانت أوّل نبى قال: بلى، فسبقتهم الى الإقرار بالله عزّ و جل (3)

و فى الدعاء عن الامام الهادى عليه السلام يصف الرسول صلى الله عليه و آله و آله: «خلقكم الله أنوارا فجعلكم بعرشه محدقين» (4) [82] سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لو أنّهم عرفوا شيئا من عظمه ربّهم لما خرّقوا له بنين و بنات، و لما شبّهوه

ص: 533

١-١) بح/ج ١٥ ص ٨

٢-٢) المصدر/ص ١٤

٣-٣) المصدر/ص ١٥

٤-٤) الزياره الجامعه.

بأنفسهم فى الأمثال و الصفات.إنه هو الله رب السموات و الأرض،و رب القدره العظيمه.

و فى الحديث:«رب المثل الأعلى عمّا به مثّله،و لله المثل الأعلى الذى لا يشبهه شىء،و لا يوصف،و لا يتوهم» (١)[٨٣]ربما
ضر المزيد من الاهتمام بجدال المشركين،و يكفى أن ندعوهم الى الهدى،و نبين لهم الحجج،فإذا عموا عنها تركناهم يخوضون
فى غيهم،و يلهون أنفسهم بأفكارهم الضالّه،و يلعبون فى الحياه بلا هدف حكيم،حتى يلاقوا يوم الجزاء العادل الذى يعدهم الله.

فَدَرُّهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا وَ لَعَلَّ الْخُوضُ هنا يساق اللهو و هو ما يصرف الإنسان عن الواقع،بينما اللعب هو السعى المنظم
لأهداف غير رشيده(حسبما يبدو لى).

و حين يتعد الإنسان عن هدى ربه فهو بين فكره باطله يلهو بها عن الحق و سعى دؤوب لغير الأهداف المشروعه،و قد قال ربنا
سبحانه: وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ .

أما المهتدون الى ربهم فعقولهم تستنير بضياء المعرفه،و تزداد ولها الى الحقائق، أما سعيهم فهو دائب فى سبيل تحقيق الفلاح و
الرضوان.

و بتفكر أعمق سنصل الى الحقيقه التاليه:إنه الإيمان بالله وحده الذى يجعل الفكر يعمر بهدف سام،هو معرفه الله أكثر فأكثر،كما
يجعل عمل الإنسان ذا معنى و ذا هدف مقدس هو ابتغاء مرضاه الله.

ص:٥٣٤

[٨٤]إنَّه اللهُ الَّذِي وَسَعَتْ رَحْمَتُهُ وَقُدْرَتُهُ وَهَيْمَنَتُهُ وَتَدْبِيرُهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَدْبِرُهُمَا بِذَاتِ النِّظَامِ الْحَسَنِ الْحَكِيمِ، فَلَا فَطُورَ وَلَا خَلَلَ لَا فِي أَصْغَرِ مَوْجُودٍ وَلَا أَكْبَرَ.

إنَّ وَحْدَهُ التَّدْبِيرُ دَلِيلٌ عَلَى وَحْدِهِ الْخَالِقِ، وَوَحْدَهُ الْحَاكِمِ وَالْمَهْيَمِنِ، وَهِيَ حُجَّةٌ بِالْغَيْهِ ضِدُّ أَوْلِيَاءِكَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لِلْأَرْضِ آلِهَةً وَاللَّسَّمَاءِ إِلَهًا، فَمَا لِلَّهِ اللَّهُ وَمَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرٍ، كَلَّا.. كُلُّ شَيْءٍ لِلَّهِ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَ آيَاتُ اللَّهِ تَهْدِينَا إِلَى بَالِغِ حِكْمَتِهِ وَ عِلْمِهِ.

وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وَ هَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَخْرُقَ لِلَّهِ وَلَدٌ أَوْ يَشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ؟ كَلَّا.. وَ الْعَجِيبُ أَنَّ حَالَهُ الْجِدَلَ قَدْ بَلَغَتْ بِالْبَعْضِ إِلَى اتِّخَاذِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَادَةً لِلْجِدْلِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ التَّالِي:

فِي الْكَافِي عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: قَالَ أَبُو شَاكِرٍ الدِّيْصَانِيُّ: إِنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَةً هِيَ قَوْلُنَا، قُلْتُ: وَ مَا هِيَ؟ فَقَالَ: وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ، فَلَمْ أُدْرِ بِمَا أُجِيبُهُ، فَحَجَجْتُ فَخَبَرْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَقَالَ:

«هَذَا كَلَامُ زَنْدِيقِ خَبِيثٍ، إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِ فَقُلْ: مَا اسْمُكَ بِالْكَوْفَةِ؟ فَإِنَّهُ يَقُولُ: فَلَانٌ، فَقُلْ لَهُ: مَا اسْمُكَ بِالْبَصْرَةِ؟ فَإِنَّهُ يَقُولُ: فَلَانٌ، فَقُلْ: كَذَلِكَ اللَّهُ رَبَّنَا، فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ، وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ، وَ فِي الْبَحَارِ إِلَهٌ، وَ فِي الْقَفَارِ إِلَهٌ، وَ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَهٌ».

قال: فقدمت فأتيت أبا شاعر فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز! [١٨٥] (١) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَهَذِهِ آيَاتُهُ تَجِيبُ عَلَىٰ إِشْكَالِ سَابِقَتِهَا، فَهُوَ إِلَهُ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَهُ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَلِكُهُ، وَتَحْتَ قَبْضَتِهِ.. وَتَبَارَكَ مَصْدَرُ الْبِرْكَهِ.

وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٨٦] و حين تقوم الساعة، و نرجع الى الله، فهل يملك الشركاء المزعومين الشفاعة؟ كلا..

وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ كما أنه في عالم التكوين ليس هناك الله و ابنه، فكذا في عالم التشريع، فإنه لا شفيع عند الله إلا من شهد بالحق، فالفضل آتئذ لله، و قدره له وحده، و هو يمنع من قدرته ما يشاء دون أن تنقص قدرته مقدار ذره، و من دون أن يصير ذلك صاحب قدره ذاته، و ليس باستطاعه أحد أن يقف أمام الله، فالكل مهمما أو توا عبيد له سبحانه، و إنه لا يشفع أحد لأحد إلا من شهد بالحق.

و في الروايه عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال في هذه الآيه: «هم الذين قد عبدوا في الدنيا، لا يملكون الشفاعة لمن عبدهم» [١٨٧] (٢) و هؤلاء الذين عبدوا غيره، و لم يشفع لهم أحد، لأن الله لا يقبل الشفاعة

ص: ٥٣٦

١-١ المصدر

٢-٢ تفسير البرهان/ ج ٤- ص ١٥٦

لأحد إلا من شهد بالحق له سبحانه، هؤلاء..

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ فَاللَّهُ يَحَاكِمُهُمْ، وَأَفْضَلُ حَكْمِ فَطَرْتَهُمْ، فَيَقُولُ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَكُمْ؟ وَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَقُولُوا غَيْرَهُ سُبْحَانَهُ.

لقد كانوا يعترفون بأنَّ الله خالق السموات والأرض، ولكنهم كانوا يزعمون -مع ذلك- وجود قدره ذاتيه لسواه، شأنهم شأن أغلب البشر اليوم حيث أنهم يغترون بمظاهر القوه عند الطغاه و المتجبرين، فيخضعون لهم، و يذرون حكم الله الحق الى أحكامهم الجائره.

[٨٨] لقد بلغ الاهتمام بشأن الدعوه عند الرسول صلى الله عليه و آله حدًا جأر الى الله، و أخذ يشكو اليه عدم إيمان قومه.

وَ قِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ وَ لَعَلَّ التَّعْبِيرَ بـ «قوم» للدلالة على أنهم اجتمعوا على ترك الإيمان.

[٨٩] فكيف ينبغي التعامل مع قوم لا يؤمنون؟ تحدّد الآيه الأخيره من هذه السوره العلاقه السليمه معهم، قائله:

فَاصْبِرْ فَنَحْنُ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَيَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِنَّهَا عَلاَقَهُ الْعَفْوِ عَنْ جَرَائِمِهِمْ بِحَقِّهِ، وَ السَّلَامُ مَعَهُمْ، وَ الْمُؤْمِنُ يَحْمِلُ فِي دَاخِلِهِ قَلْبًا يَسِعُ الدُّنْيَا وَ يَزِيدُ، لِأَنَّ نَظْرَهُ إِلَى الْآخِرَةِ، وَ لَا يَأْبَهُ بِمَا يَجْرِي حَوْلَهُ هُنَا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

